جون بيركنز

ترجمة
الهادر المعموري

الطبعة
الثالثة
الموسعة

اعترافات قاتل اقتصادي

12 فصلاً خاصاً جديداً:

- وسائل وقف الهيمنة العالمية
- استراتيجية القتل الاقتصادي الصينية

مكتبة
Telegram Network

جون بيركنز

اعترافات
قاتل اقتصادي

ترجمة

الهادر المعموري

www.daralrafidain.com

اعترافات قاتل اقتصادي

جون بيركنز

ترجمة:الهادر المعموري

Confessions of an Economic Hit Man

By John Perkins

Translated by Alhodar Al-Maamouri

الطبعة الثالثة (مزيّدة ومضافة): أغسطس ـ آب، 2023 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب اعترافات قاتل اقتصادي بالاتفاق مع بيرّيت كوهلر ناشرون، أوكلاند ـ الولايات المتحدة الأميركية.

This translation of *Confessions of an Economic Hit Man*, was published under agreement with Berrett-Koehler Publishers, Inc. Oakland- USA.

First published by Berrett-Koehler publishers, Inc. San Francisco, CA, USA.

All rights reserved.

Arabic translation copyrights@Dar Al-Rafidain2023

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 39 - 8

الإهداء

إلى كيمان لوكاس التي كانت مصدر إلهامي إلى جانب نقدها ومقترحاتها البناءة للتغيير على مخطوطة هذا العمل منذ البدء، فضلا عن الكثير من الناس عبر أرجاء العالم ممن يعملون على تغيير اقتصاد الموت الذي يأكلهم إلى اقتصاد حياة متجدد.

تقديم

يمثل قتلة الاقتصاد مجموعة محترفة من الخبراء الذين يتقاضون أجورا مرتفعة في مقابل خداع وغش الدول عبر أرجاء العالم بهدف ابتزاز تريليونات من الدولارات. يوجِّه أولئك الـ«قتلة» الأموال من البنك الدولي، الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، إلى جانب مؤسسات إغاثة أجنبية أخرى ـ يوجِّهونها إلى خزائن وأرصدة حلقة ضيقة من كبريات الشركات والعائلات الثرية التي تتحكم بمصير ثروات العالم الطبيعية. تشتمل أدوات أولئك القتلة على تقاريرَ مالية مزيفة، وانتخابات مزورة، ودفع الأموال، والابتزاز، والجنس، عدا عن القتل. إنهم يمارسون اللعبة القديمة كما اعتادتها الامبراطوريات الغابرة، لكن مع أبعاد جديدة ومرعبة ضمن عصر العولمة الحالي.

كان حَرِيّاً بي اكتشاف حقيقة أنِّي لم أكن سوى قاتل اقتصادي وحسب.

كانت هذه الكلمات التي افتتحت بها كتاب «اعترافات قاتل اقتصادي» الذي صدر عام 2004. يفضح هذا الكتاب ممارسات وأعمال لا تغتفر قمت بها كأحد كبار الخبراء الاقتصاديين ضمن وأحدة من كبريات شركات الاستشارات الأميركية، فضلا عن كشفه عن جرائمَ ارتكبها أفراد تابعون لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية اعتادوا القيام بها، أفراد يعرفون بتسمية «أبناء آوى» ممن كانوا ورائي. وقد وصل هذا الكتاب بسرعة إلى قائمة جريدة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعا ليبقى فيها لفترة 73 أسبوعا، فضلا عن تحقيقه مكانة بين بعض أفضل الكتب مبيعا على مستوى العالم كذلك.

بعد قراءته للكتاب، دعاني هوارد زين، وهو أستاذي الجامعي السابق ومؤلف العمل الكلاسيكي الشهير والأكثر مبيعا «التاريخ الشعبي للولايات المتحدة»، لتناول الغداء.

إبان هذا اللقاء، اعترفت لزين بأني مسكون بشعور الذنب لما اقترفت.

رد زين: «كلنا مذنبون»، وأضاف قائلا: «لقد سمحنا لأنفسنا بأن نُخدع. وعلى الرغم من معرفتنا بملكية كبريات الشركات للمَكِنة الدعائية، فإننا سمحنا لأنفسنا بأن نُخدع. إن دافع التقاعس

وعدم الاكتراث شديد القوة. ولسوف نقوم بكل شيء لإدامة بقاء هذه النظام الذي خذلنا».

يتعزز هذا النظام عبر ستراتيجية للقتل الاقتصادي، ستراتيجية اتخذت لنفسها أبعادا جديدة وخصائص مشؤومة بعد دخول الصين معترك المنافسة الشرسة بداية القرن الحادي والعشرين. حينما اتخذت القرار بتحديث كتابي بهدف تغطية متغيرات العلاقات بين الصين والولايات المتحدة، فضلا عن باقي أنحاء العالم، افترضت وجوب التصدي لثلاث موضوعات ذات أهمية بالغة. بدايةً، تحولت المنافسة من أجل ضمان وترسيخ الهيمنة العالمية من الميدان العسكري إلى الميدان الاقتصادي. ثانيا، كان هناك ذلك التوجه نحو توحيد العالم وراء مبادرات مثل طريق الحرير الصيني الجديد (المعروف رسميا بمبادرة الحزام والطريق) إلى جانب البُنى المالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة. ثالثا، يعتمد مستقبل الحياة التي نعرفها على إنهاء ستراتيجيات القتل الاقتصادي في كل مكان إلى جانب تحويل نظام الاقتصاد الفاشل الذي يأكل الحياة، والمعروف باقتصاد الموت، إلى نظام متجدد يعرف باقتصاد الحياة. مع ذلك، وحينما كنت أعمل على الطبعة الجديدة، وقع حدثان كبيران كان لهما بالغ الأثر في تغيير العالم وإضافة منظورات جديدة لموضوعات الكتاب، حدثان تمثلا في: جائحة كورونا من جهة، والغزو الروسي لأوكرانيا من جهة ثانية.

zبحلول بداية القرن الحادي والعشرين، انتشرت سلالة جديدة من قتلة الاقتصاد عبر أرجاء العالم. يصف كتاب اعترافات قاتل اقتصادي بنسخته الثانية الصادرة عام 2016 (وهي نسخة محدثة ومزيدة عن طبعته الأصلية الأولى) الوسائل والأساليب الجديدة التي خرجت بها هذه السلالة الجديدة من الولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى ذات الدخل المرتفع، مع استمرار استهداف الدول ذات الدخل المنخفض بالمقابل. تضررت معظم دول العالم جراء السياسات الاجتماعية ـ الحكومية ـ الاقتصادية التي تشجع الاستهلاك المادي وتعظيم الأرباح قصيرة الأجل، وبصرف النظر عن التكاليف البيئية المترتبة عن ذلك. وإلى جانب القيم الثقافية، والقوانين، والتكنولوجيا، والمؤسسات والممارسات الناتجة عما سبق، قادت هذه السياسات إلى اقتصاد الموت الذي يلتهم الموارد، الأمر الذي لا يمكن استمراره أو استدامته على المدى الطويل. من جانبه، قدم الكتاب بطبعته الثانية خطة لتحويل اقتصاد الموت إلى اقتصاد حياة مستدام ومتجدد، اقتصاد مدفوع بهدف تعظيم وزيادة المنافع طويلة الأجل للناس والطبيعة على حد سواء. فعوضا عن دفع الناس لانتهاج سلوكيات تعود بالدمار والتلوث على الكوكب، يدفع لهم اقتصاد الحياة بهدف تنظيف التلوث، واستعادة البيئات المدمرة،

وإعادة التدوير، وتطوير التكنولوجيات والأنظمة التي من شأنها تحسين وتعزيز مستقبل جميع الكائنات.

بوسعي القول إن طبعتَيِ الكتاب السابقتين أثرتا في العديد من الناس عبر الكثير من الدول. فعبر مبيعات قاربت مليوني نسخة صدرت بثمانٍ وثلاثين لغة، نوقش الكتابان ضمن مؤتمرات القمم الاقتصادية الدولية، والمؤتمرات البيئية والجامعات عبر جميع قارات المعمورة. ولطالما دُعيت للتحدث في تلك التجمعات. لقد قال لي مشاركون كثُرٌ إن هذين الكتابين كشفا حوادثَ شكوا بها غير أنهم لم يسمحوا لأنفسهم بتصديق حدوثها حتى قرؤوا ما أوردت من تفاصيل وروايات كتبها شخص خَبَر تلك الحوادث على نحو مباشر، وأخذ العديد من الطلبة والناشطين ضمن منظمات تشتمل على مشاركين فيما يعرف بـ«اقتصاد فرانشيسكو»، وهو برنامج دعا إليه البابا فرانسيس، أخذوا يشيرون إلى أنفسهم بتسمية «اقتصاديو الحياة».

قابلت رؤساء دول عدة مع كبار مستشاريهم. وكان هناك مكانان مهمان لاثنين من المؤتمرات البارزة صيف العام 2017 في كل من روسيا وكازاخستان، حيث دُعيت لمشاركة طيف من المتكلمين كان من بينهم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، والأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش، فضلا عن رئيس الوزراء الهندي ناراندرا مودي. طُلب إلي الحديث آنذاك عن الحاجة إلى إنهاء الأنظمة غير المستدامة واستبدالها بأخرى متجددة أخذت بالتطور. شعرت بالتشجيع حينما غادرت تلك الرحلة.

لكن أمراً آخر وقع. فعبر حديثي مع بعض من الحكومات، ورجال الأعمال، وقادة الفكر الأكثر نفوذاً، إلى جانب رؤساء وزارات سابقين من فرنسا، وكازاخستان، وقرغيزستان، وبولندا، ممن كانوا منخرطين في موضوع طريق الحرير الصيني الجديد ـ اكتشفت أن هناك ستراتيجية مبتكرة وفعالة وخطيرة يجري تنفيذها على يد قتلة الاقتصاد الصينيين، ستراتيجية سيرد شرح تفاصيلها بإسهاب عبر صفحات هذا الكتاب. لقد بات من المستحيل إيقاف بلد انتشل نفسه خلال عقود قليلة من رماد الثورة الثقافية الماوية، ليخوض في طريق التحول إلى قوة عالمية مهيمنة، وأصبح مساهما كبيرا في اقتصاد الموت. عندها تذكرت هوارد زين.

سبق أن قال زين: «إن دافع التقاعس وعدم الاكتراث شديد القوة. ولسوف نقوم بكل شيء لإدامة بقاء هذه النظام الذي خذلنا». قدم زين نصيحة لتخفيف شعوري بالذنب قائلا: «أظهِرِ المَخرَج للناس. قل لهم إن وسيلة الخلاص تتأتّى من خلال تغيير النظام».

تحدثنا أنا وهوارد لمرات كثيرة بعد ذلك الغداء، وقد شجعني على كشف مواطن الإخفاق في ستراتيجية القتل الاقتصادي، كما ساعدني في فهم حقيقية أننا، لعقود طويلة من الزمن، لم نكن نرغب إلا في الاعتقاد بالجوانب الجيدة وحسب، جوانب تتمثل في ستراتيجية أميركية أغنتنا بالعلم الحديث، والطب، والتكنولوجيا. أما الآن فقد وصلنا إلى إدراكٍ مفاده تَسَبُّب هذه الستراتيجية بالكثير من الأزمات التي تهدد وجودنا ذاته كذلك.

ليست هذه سوى قصة حقيقية وحسب، قصة عشت كل دقيقة من حوادثها التي أصفها كجزء من حياتي، بمشاهدها، وأصواتها، وروائحها، وشخوصها، وبأفعالها، وحواراتها، ومشاعرها كذلك.

على الرغم من أنها كانت تجاربي، فإنها حدثت ضمن سياق حوادث عالمية شكلت وجه تاريخنا وأوصلتنا لما نعانيه من أزمات اليوم. ولأن حوادث وأزمات اليوم تشكل الأساس لمستقبل أطفالنا غداً، بات لزاما علينا فهم الأسباب الكامنة من ورائها إلى جانب الشروع بالتغييرات المناسبة. لقد بذلتُ كل ما بوسعي بغية تقديم وعرض هذه التجارب والناس والحوارات بكل دقة. حينما أناقش الحوادث الأخيرة والتاريخية أو أحاول إعادة تشكيل وسرد الحوارات التي خضتها مع أناس آخرين، فإني أقوم بذلك بمساعدة بعض الأدوات متمثلة في: وثائق منشورة، وسجلات وملاحظات شخصية، وذكريات (تعود لي ولأشخاص آخرين)، ومخطوطات بدأت بكتابتها مسبقا، وروايات تاريخية، لا سيما تلك التي نشرت مؤخرا وتكشف معلومات كانت سرية أو غير متوفرة سابقا. ولا بد من الإشارة إلى أني عمدت في بعض الأحيان إلى إدماج عدة حوارات خضتها مع الشخص ذاته بهدف تسهيل سردها وضمان سلاسة أفكارها، وتفتح المراجع الواردة في الهوامش الباب أمام القراء المهتمين لمتابعة بحث الموضوعات بعمق أكبر.

من الضروري بمكان استيعاب حقيقة كوننا جميعا ضحايا لستراتيجية القتل الاقتصادي. إننا مهددون جميعا، سواء كنا أميركيين، أو صينيين، أو روساً، أو أفارقة، أو آسيويين، أو أوربيين، أو أميركيين لاتينيين، فضلا عن شعوب الأمم التي تعيش في جزر معزولة، سواء كنا الأغنياء أو

الفقراء ومعنا جميع الكائنات الحية على هذا الكوكب. بوسعنا الاختلاف حول القضايا السياسية، والحكومية، والدينية وغيرها، لكن واجبنا يحتم الاتفاق على أن كل ما سبق لا قيمة له على كوكب ميّت، كوكب حيث تستمر ستراتيجية القتل الاقتصادي كما هي الآن. لذلك، إذا ما أردنا بقاء أطفالنا على قيد الحياة، يتحتم علينا إذن الاجتماع سويا لإنهاء ستراتيجية القتل الاقتصادي في كل مكان. من الضروري بمكان لزعماء الصين الحاليين (والمستقبليين) تطبيق نموذجهم «الكونفيشيوسي» عن خدمة العائلة على المجتمع الدولي، ويتوجب على زعماء الولايات المتحدة الحاليين (والمستقبليين) العمل بغية توحيد كل الولايات الأميركية والعالم ضمن مسعى قوي وصلب لتجنب الأزمة التي تواجهنا، مع ضرورة استيعاب الروس لفكرة اعتماد سلامتهم على تسهيل التعاون بين الشرق والغرب عوضا عن توسيع حدودهم، مع تكاتف عدد كبير من أبناء البشر في كل مكان لإنهاء ستراتيجية القتل الاقتصادي وتحويل اقتصاد الموت إلى اقتصاد حياة.

لذلك، يسعني القول إن هدف هذا الكتاب يتمثل في إلهام الناس والمساعدة في تحقيق هذا الغرض.

المقدمة

موجة القتل الاقتصادي الثالثة وستراتيجية الصين الجديدة

من الضروري التركيز على كون الناس في كل مكان ليسوا سوى ضحايا لستراتيجية القتل الاقتصادي. لقد عُرضنا للخداع، وصدق الكثيرون منا أن بلادنا تقوم بالشيء الصحيح. يصح هذا الكلام على الروس، والصينيين، والبرازيليين، والنيجيريين، والأميركيين والبشر في العديد من المناطق الأخرى. وعلى الرغم من حقيقة كوننا ضحايا، فإننا متواطئون كذلك. لقد بُنِي نجاح هذه الستراتيجية على دعمنا لها.

منذ العصور القديمة للامبراطوريات الغابرة للصينيين والفرس والرومان، نفعت هذه الستراتيجية من يريدون الهيمنة على الآخرين، سواء داخل أو خارج حدودهم. وبصرف النظر عن كل المتغيرات الثقافية والتكنولوجية التي عرفها الإنسان عبر القرون، ركزت هذه الستراتيجية على تحقيق الهدف ذاته متمثلا في: استغلال الموارد بهدف خدمة أغراض الاستهلاك المادي قصير الأمد مع زيادة ثراء وقوة بعض النخب وحسب.

يستتر هدف الهيمنة بعامل حاسم يتعلق في اعتقاد من يتعرضون للهيمنة بأنهم يجنون المكاسب. ضمن عصرنا الحديث، تجد تكتيكات القتل الاقتصادي مبرراتها بين ثنايا الإدراك القائل بأنهم ينتجون حياة أفضل لنا جميعا، يرفعون الدول من حالة الدخل المنخفض إلى دخل أعلى مع رفع الناس الأكثر فقرا إلى الطبقة المتوسطة. تشيع عبارات وقصص مثل «نحن الناس الأخيار» ضمن ما يدرس في كليات الأعمال والاقتصاد، فضلا عن تقارير البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. لسنوات طويلة، وإيمانا مني بهذا الكلام، حرصت بشدة على نشر هذا الوعي ما استطعت إلى ذلك سبيلا. وكما هو الحال مع الكثير ممن ينخرطون في ميدان التنمية الاقتصادية، اقتنعت بأني أقوم بالشيء الصحيح حتما. لطالما جمعت أنا وموظَّفيَّ معلومات وبيانات إحصائية مثيرة وأوجدنا نماذج اقتصادية قياسية متطورة بهدف إثبات نجاح ستراتيجيتنا التي تنتج ازدهارا ومساواة وديمقراطية أكثر. لكن في نهاية المطاف، أدركت أننا روجنا لكذبة وحسب.

على الرغم من تطوير الاقتصاديين لنماذج أكثر تعقيدا، تكشف عملية حسابية بسيطة عن كيفية استخدام الأرقام للخداع. في الولايات المتحدة، يملك ثلاث أفراد ثروة تعادل بمجموعها ثروة نصف السكان في هذا البلد. ولو حقق أولئك الأفراد الثلاث ربحا بمقدار 10% من ثروتهم في العام الواحد، فيما خسر نصف السكان 3% مع بقاء النصف الآخر كما هم، فإن المجموع سيشير إلى تحقق نمو يزيد قليلا عن 3%. لقد كسب الأفراد الثلاثة المال كله.

تبدو الإحصاءات المتعلقة بعديد الناس الذين حصلوا على خدمات الكهرباء، والماء، والصرف الصحي، والتلفاز، والهواتف المحمولة، إلى جانب النماذج الاقتصادية القياسية المعقدة الأخرى ـ تبدو كما لو أنها تبرهن عن حجم الاستثمارات الضخمة في البنية التحتية بطريقة تخلق نموا يترجم إلى ازدهار ورخاء الجميع في البلاد. مع ذلك، وكما يرد في العديد من الأمثلة ضمن هذا الكتاب، تستند هذه الاستنتاجات إلى قياسات الناتج القومي الإجمالي والمحلي، فضلا عن باقي المقاييس الأخرى التي وضعتها مؤسسات تروج لستراتيجيات القتل الاقتصادي. لا تشير الزيادات في مقاييس من هذا النوع إلى حقيقة الازدهار الإجمالي. وعوضا عن ذلك، يركز النمو من هذا النوع سلطة وثروة أكبر بين أيادٍ قليلة، فضلا زيادة التفاوت إلى جانب ما ينتج عنه من دمار بيئي وتغيير مناخي. في واقع الحال، يمتلك الكثير من الناس هواتف نقالة، لكنهم غالبا ما يرزحون تحت ظروف مزرية في ظلال ناطحات السحاب التي تشرف عليهم. ولربما تصل خدمات الكهرباء منازلهم، لكنها ليست سوى منازل مبنية بمواد سامة وحسب. وربما كان هؤلاء الناس موصولين بشبكات المياه والصرف الصحي، إلا أنهم يعانون من تلوث يخنق الهواء المحيط بهم والأرض التي يقيمون عليها، فيما يفتقر طعامهم ـ الذي قد يكون مسَرْطِنا ـ إلى الكثير من العناصر الغذائية، عدا عن أن العديد منهم مدفوعون باتجاه الجريمة والمخدرات. لم يكن ما يرُوَّج له ـ ونُظِرَ إليه ـ كشيء جيد إلا شيئا سيئا للمليارات من البشر والطبيعة وحسب.

يمكن إيجاز النسخة الحديثة من ستراتيجية القتل الاقتصادي كما يلي:

تحدد الأمم أمما أقل دخلا تحوز نفطا وموارد أخرى، لكنها تفتقر إلى الوسائل أو الإرادة السياسية لتطويرها. ترسل الأمم الأعلى دخلا قَتَلَتها الاقتصاديين لإقناع نظيراتها الأقل دخلا بقبول قروض كبيرة، مع اعتماد مواردها غير المستثمرة كضمان لتلك القروض. يوضع شرط مهم حول وجوب استخدام تلك الأموال لتوظيف شركات من الأمم الأعلى دخلا بغية إقامة مشاريع البنية

التحتية وتحقيق النمو الاقتصادي، لا سيما في القطاعات الحيوية (ومنها الكهرباء في يومنا هذا). تجني تلك الشركات أرباحا ضخمة إلى جانب منفعة بضعة محدودة من نخبة رجال الأعمال المحليين من تلك البنية التحتية المطورة، فيما يعاني الجميع عدا أولئك بسبب تحويل الأموال من قطاع خدمات الصحة والتعليم وباقي القطاعات العامة الأخرى، تحويلها بهدف تمويل الفوائد المترتبة عن القروض التي باتت أكبر من مقدرة المَدِينين على سدادها. في خضم هذه الدورة، تتعثر الأمم الأقل دخلا عن سداد القروض، الأمر الذي يشار إليه أحيانا بمصطلح «دبلوماسية فخ الديون».

كخطوة أولى نحو حل مشكلة سداد الديون المتعثرة، يطالب قتلة الاقتصاد الأمم الأقل دخلا ببيع نفطها، أو مواردها المعدنية، أو أي موارد أخرى بأبخس الأثمان لصالح شركات تعود للأمم الأعلى دخلا، وبشروط اجتماعية وبيئية ضعيفة (أو معدومة في بعض الأحيان). وفي حال ظهر عدم كفاية موارد الأمة المضمونة لدفع الديون، تبدأ الخطوة الثانية بتطبيق السياسة الليبرالية الجديدة. تتضمن هذه السياسات برامج التقشف التي تقطع الضرائب عن الأثرياء وتقلص المرتبات والخدمات الاجتماعية عن جميع الناس الآخرين، وتقليص الضوابط الحكومية، وخصخصة أعمال القطاع العام وبيعها إلى مستثمرين من الأمم الأعلى دخلا، مع إجراءات بالضد من التفاوض النقابي، الأمر الذي يصب كليا في صالح دعم «الأسواق الحرة» التي تفضل الشركات الكبرى متعددة الجنسيات. يدافع الليبراليون الجدد عن الترويج لمفهوم تدفق المال «نزولا» من الشركات والنخب إلى بقية أفراد الشعب، لكن هذه السياسات غالبا ما تتسبب في تفاوت وعدم مساواة أكثر حدة.

يرتكز هذا النظام الذي دربتني عليه تلك المرأة (التي سيرد المزيد عنها لاحقا) على ما أشارت إليها بوصفها «الدعائم الأربع لستراتيجية القتل الاقتصادي»، ممثلة في: الخوف، والدَّيْن، والقلق من عدم الكفاية (من الطعام، والإسكان، إلخ)، وفضلا عن سياسة فَرِّق تَسُد. تاريخيا، اعتمدت ستراتيجية القتل الاقتصادي بكثافة على الخوف الناجم عن الترويع العسكري، الأمر الذي يقود عادة إلى تحقيق الدعائم الثلاث الأخرى. على سبيل المثال، يلحق الحاكم (س) هزيمة بالحاكم (ص) في حرب دمرت أراضي دولة (ص)، ليقوم بعدها الحاكم (س) بفرض الديون على المهزوم (ص) عبر تزويج الأخير من ابنة الأول، والاستثمار في استعادة أراضي (ص)، وتقديم وعود بازدهار ورخاء شعب (ص)، مع تنفيذ الأخير لشرط خاص مقابل «سخاء» الأول يتمثل في مساعدته بتطبيق سياسة فرق تسد ضد الدول المجاورة.

قد يتغير التركيز على الدعائم من وقت لآخر واعتمادا على ظروف محددة، لكن الستراتيجية نفسها باقية لمعظم التاريخ الموثق بهذا الخصوص، وذلك حتى دخلت الصين على الخط بتعديلاتها اللافتة إبان فترة نشاطي كـ«قاتل اقتصادي» في سبعينيات القرن الماضي.

قاد فشل القوة العسكرية العالمية الأكبر والأفضل تجهيزا بهزيمة فيتنام الشمالية، مترافقا مع شبح الهولوكوست النووي إبان الحرب الباردة، إلى استبدال دعامة غرس الخوف في الآخرين بدعامة الدَّين كتكتيك رئيسي. في هذه الأثناء، تراجع العمل العسكري وكل الأعمال المرتبطة به إلى دور احتياطي داعم. وعلى الرغم من بقاء احتمالات أعمال كالانقلابات، والاغتيالات، والغزو كامنة في الظل، فإن الديون باتت الدعامة الأهم ضمن ستراتيجية القتل الاقتصادي منذ وقت ارتقائي صفوف هذا العالم. جاء هذا التعديل الناجح جدا مع الموجة الأولى المعاصرة لقتلة الاقتصاد في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهو ما سيرد ذكره في الأقسام من الثاني إلى الخامس من هذا الكتاب، والتي سأشير إليها ببساطة بعبارة «موجة القتل الاقتصادي الأولى»، والتي استمرت حتى حوادث الحادي عشر من أيلول العام 2001.

بعد الهجمات التي طالت مركز التجارة العالمي ووزارة الدفاع الأميركية، عادت القوة العسكرية الأميركية إلى ميدان العمل من جديد. تصاعدت وتيرة الأنشطة والأعمال التي تنتج أو تبيع المعدات والمواد الحربية مع تلك التي تمولها وتقدم لها التأمين وباقي الخدمات الأخرى. وإلى جانب الحروب المرئية بوضوح في العراق وأفغانستان، تصاعدت أعمال القوة العسكرية الأميركية في كل الدول المشتبه بإيوائها منظمات إرهابية. سرّعت وكالات الاستخبارات المركزية والأمن القومي وباقي الوكالات الأميركية المتخصصة الأخرى من وتيرة أعمالها كذلك. استمرت برامج الديون الناجحة التي طُبقت على الدول منخفضة الدخل ضمن موجة القتل الاقتصادي الأولى إبان حقبة العقود الأربع الماضية. في هذه الأثناء، أخذت موجة القتل الاقتصادي الثاني الستراتيجية إلى مستويات جديدة وطبقتها في الولايات المتحدة ودول أخرى مرتفعة الدخل، كما سيرد شرحه في القسم السادس من هذا الكتاب.

اقتنصت بكين الفرصة. استوعب زعماء الصين النفوذ الذي يستطيعون كسبه عبر تعديل قتلتهم الاقتصاديين لدعم الستراتيجية بطريقة تتجاوز ما قام به نظراؤهم الأميركيون. ورأى الزعماء الصينيون الفائدة والفرصة سانحة في تطبيق هذه الستراتيجية في كل الأماكن التي أهملتها الولايات

المتحدة، والتي ركزت على الشرق الأوسط. لذلك، بدأت «موجة القتل الاقتصادي الثالثة» كما سيرد تفصيلها في الجزء السابع من هذا الكتاب.

العامل الحاسم: الإدراك

يعرِّف مديرو التسويق والمعالجون النفسانيون والسياسيون أن الإدراك يصوغ شكل الحقيقة. لا تخرج الدول والثقافات والأديان والشركات الكبيرة لحيز الوجود حتى يعتقد بها عدد كافٍ من الناس، عدد يسمح بقبول إدراك يحركهم لتقبل إجراءات تغير الواقع. وتفهم الأمم التي تنوي انتهاج الهيمنة أن الإدراك يمثل المفتاح لستراتيجيتها.

لا بد من ترسيخ مفاهيم ـ إدراكات ـ من عينة «بهدف تحقيق الخلاص الأبدي، يتوجب تحضُّر المتوحشين»، و«لا بد من وقف موجة الشيوعية الحمراء قبل اكتساحها العالم»، و«يقاس النجاح بالأرباح قصيرة الأجل، أسعار الأسهم والموازين التجارية» ـ لا بد من ترسيخها في نفوس الشعوب والأوطان. لذلك، تمثل هذه الإدراكات جزءا لا يتجزأ مما أشار إليه هوارد زين بتوصيف «المكنة الدعائية». تُدرّس هذه المفاهيم في المدارس، ويشار إليها عندما يراد إلهام الخطاب السياسي المنمق، فضلا عن التأثير في وسائل الإعلام، وتحفيز الجنود بغية الذهاب إلى الحرب، إلى جانب اعتمادها كأساس لتحيزات الأمم حول القضايا العرقية والثقافية. يبرر كل ما سبق ستراتيجيات القتل الاقتصادي.

روج قتلة اقتصاد الموجة الأولى والثانية الأميركيون لمفهوم يمكن إيجازه كما يلي: إذا ما أردت الازدهار لبلدك، تقبل القروض بحسب ما تعرف بتوصيات مسودة «إجماع واشنطن»، وتعاقد مع شركاتنا بهدف بناء مشاريع البنية التحتية، فضلا عن وجوب اعتمادك لسياسات الليبرالية الجديدة. يشير «إجماع واشنطن» إلى جملة من المؤسسات تتضمن البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ووزارة الخزانة الأميركية، إلى جانب مؤسسات ومنظمات أخرى تقدم القروض وتضغط باتجاه فرض سياسات الليبرالية الجديدة.

في الوقت الذي انشغلت فيه واشنطن بالشرق الأوسط وتصاعد الحنق جراء سياساتها في العديد من الدول، أطلقت الصين مفهوما جديدا لموجة القتل الاقتصادي على نحو مختلف تماما عن الولايات المتحدة.

الصين تعدّل ستراتيجية القتل الاقتصادي

وصل تشي جين بينغ إلى سدة الرئاسة في الصين عام 2013 وشرع فورا بحملته في الصين وأميركا اللاتينية. ركز جين بينغ وفريق قتلة الاقتصاد بمعيته على رفض سياسات الليبرالية الجديدة وتطوير نموذجه الجديد الخاص به، وبهذا حققت الصين ما بدا ضربا من ضروب المستحيل.

تاريخيا، حققت الصين معدل نمو اقتصادي سنوي بلغ ما يقرب من 10% لما يقرب من ثلاث عقود، وتمكنت من انتشال أكثر من 700 مليون إنسان من حالة الفقر المدقع. وفق هذه الأرقام، انتشلت الصين نفسها من كارثة الثورة الثقافية الماوية لتتحول إلى ثاني أكبر اقتصاد في العالم في غضون عقود قليلة، ولا شك أن بلدا آخر لم يصل إلى هذه المستويات أو يقترب منها في التاريخ البشري قط.

قدمت الصين نفسها كنموذج للنجاح الاقتصادي السريع في الداخل وقادت عملية تعديل كبرى على ستراتيجية القتل الاقتصادي في الخارج.

غيرت إدارة الرئيس جين بينغ العامل الحاسم المتمثل في الإدراك. حافظت بكين على سياسة لا تقتضي النفوذ أو التأثير في سياسات الدول الحكومية. لقد استبدلت الصين مفهوم: إذا ما أردت الازدهار لبلدك، تقبل القروض بحسب ما تعرف بتوصيات مسودة «إجماع واشنطن»، وتعاقد مع شركاتنا بهدف بناء مشاريع البنية التحتية، فضلا عن وجوب اعتمادك لسياسات الليبرالية الجديدة ــ استبدلته بـ«إذا ما أردت الازدهار لبلدك، اقبل الصين كشريك في التجارة الدولية، شريك لا يتدخل في سياسات حكومتك، واستخدم القروض الصينية لتوظيف الشركات الصينية بغية إنشاء البنية التحتية التي تجعل من هذا ممكنا». في واقع الحال، يروق استبدال الاشتراطات المسبقة حول سياسات الليبرالية الجديدة بتعهدات عن عدم التدخل لزعماء الدول المعتادين مطالبَ الدائنين، وذلك بصرف النظر عن النمط الصيني المعروف بعدم الإيفاء بهذه التعهدات.

إلى جانب التغيير الذي دخل على مفهوم الإدراك، عدلت الموجة الثالثة من القتل الاقتصادي باقي دعائم الستراتيجية الأخرى كذلك.

الخوف

فيما يتعلق بقضية الخوف، وحتى وقت قريب، لم تعمد الصين إلى تحريك أو نشر قوات أو تهديد معظم الدول الأخرى على الرغم من بعض الاستثناءات الكبرى المتعلقة بجنوب بحر الصين، كما في تايوان، وهونغ كونغ، والتبيت، فضلا عن حدودها الطويلة مع الهند، وبوتان، ميانمار، وروسيا. عوضا عن ذلك، يركز قتلة الاقتصاد الصينيون على المخاوف من الفقر وضعف التنمية، فضلا عن تاريخ الولايات المتحدة في تدبير الانقلابات والاغتيالات. تبدو هذه المخاوف أكثر من حقيقية بالنسبة إلى الناس الذين عانوا قرونا من الاستعمار الأوربي المفروض بالقوة العسكرية، إلى جانب عمليات الاحتلال التي نفذتها القوات الأميركية ما بعد الحرب العالمية الثانية. لكن من الضروري ملاحظة عدم اختلاف الحكومة الصينية المستبدة عن تلك الامبراطوريات الاستعمارية في شيء. فبين ليلة وضحاها، طورت بكين أساطيل بحرية تنافس في قوتها أساطيل بحرية الأميركيين. وبنت الصين مؤخرا قاعدة في جيبوتي وأجرت مباحثات لزيادة وجودها العسكري في عدد من الدول، بما في ذلك كولومبيا، وميانمار، وباكستان، طاجيكستان، فضلا عن جزر سليمان. تمثل كل هذه الأعمال، إلى جانب حملة القمع الصينية ضد هونغ كونغ، تحذيرات لكل الدول التي تعتمد بقوة على الصين.

الديون

تختلف دعامة الديون الصينية عن نظيرتها الأميركية من جملة نواحٍ مهمة، إيجابية وسلبية في آن وأحد. من الناحية الإيجابية، وعلى النقيض من الولايات المتحدة، تَعِد الصين بعدم التدخل في سياسات حكومات الدول المدينة. تشجع الصين المسؤولين المحليين على تحديد المشاريع الممولة بالقروض الصينية، وعلى النقيض من إصرار الولايات المتحدة على توظيف «خبراء» عادة ما ينحازون إلى طرق تفكيرهم «الأجنبية».أما على الجانب السلبي، فعلى الرغم من مزاعمها بعدم التدخل، تمارس الصين بالعادة ضغوطا على الدول المدينة بهدف دعم سياساتها، لا سيما تلك السياسات المتعلقة بتايوان، وهونغ كونغ، والتبيت، والإيغور وباقي الأقليات الأخرى. وعلى الرغم من أن تشجيعها المسؤولين المحليين لتحديد استخدامهم للقروض يبدو منهجا إيجابيا من الناحية النظرية، فإنه ينطوي على إمكانات سلبية تتمثل في تسهيله فساد المسؤولين الحكوميين المحليين الذين قد يملؤون جيوبهم عبر هذه العملية. تصر الصين على استخدام عمالتها الصينية مع استخدام أجزاء صينية في المشاريع، الأمر الذي يؤسس لحالة اعتماد مستديمة على الصين. تعاني الكثير من

المشاريع ضعفا في التصميم وسوءا في الصنع، الأمر الذي يقود إلى مشكلات بيئة وسلامة خطيرة، كما سيرد ذكره في الأقسام 1 – 3 و5. ولأن الصين تخضع لإدارة حكومة استبدادية تفتقر إلى حرية التعبير والإعلام الحر، لن تجد الدولة المدينة فرصة لمعالجة شكاواها بخصوص المشكلات الهندسية، والإنشائية، عدا عن الدمار الاجتماعي والبيئي، وممارسات العاملين والفساد.

القلق من عدم الكفاية

تروّج الصين والولايات المتحدة على حد سواء لمفهوم القلق من عدم الكفاية. يرسل كلا البلدان رسالة «صناعة الازدهار عبر قبول قروضنا وتوظيف شركاتنا». لكن قتلة الاقتصاد الصينيين يتوفرون على مزية خاصة بهم تتعلق بقصة نجاحهم في الارتقاء من قاع الفقر إلى قمة الغنى. فضلا عن ذلك، يحمل طريق الحرير الصيني الجديد جاذبية خاصة تتمثل في الربط التجاري الذي يحققه مع شبكة كبيرة من الشركاء العالميين، الأمر الذي لم تقترحه الولايات المتحدة قط. لكن حتى مع جاذبية هذه الرسالة الكبيرة، يظل الخطر كامناً هناك. يتوافق هذا الكلام والقول المأثور «إذا ما كان أروع من أن يصدَّق، فربما كان لا يصدق». في واقع الحال، يمكن القول إن جاذبية طريق الحرير الطاغية قد تعمي عيون الدول عن حقيقة استخدام روابطه ضدهم. تفتح طرق النقل المطورة الباب أمام استغلال أكبر، بما في ذلك التوغلات العسكرية الأجنبية. لذلك فإن جاذبية إنهاء حالة القلق من عدم الكفاية عبر إنشاء البنية التحتية الممولة بالديون يمكنها إخفاء حقائق فشل المشاريع الصينية، فضلا عن بشاعة الاستغلال السياسي والفساد من وراء الكواليس.

فرق تسد

وأخيرا، يأتي التغيير في فلسفة فرق تسد ليشكل التعديل الأبرز ضمن موجة القتل الاقتصادي الثالثة على يد الصين. حافظ طريق الحرير الصيني على فكرة «فرق تسد» عبر وعود بعالم توحده التجارة التي تنهي حالة الفقر العالمي المدقع. حينما سمعت بهذا الوصف للمرة الأولى، كانت ردة فعلي متسائلة: «لِماذا لَم نفكر نحن في ذلك من قبل؟»، لكن هذه الفكرة باتت تهيمن على معظم العالم في السنوات الأخيرة. تروق فكرة طريق الحرير لشعوب العالم الذين يتداخلون على نحو متزايد إلى جانب تلك الصورة الرومانسية لطرق القوافل التجارية التي تغير تاريخ العالم منذ الأزمنة الغابرة (وهو السبب الذي يجعلني أفضّل العنوان غير الرسمي «طريق الحرير الجديد» على التسمية الرسمية المتمثلة بمبادرة الحزام والطريق). لكنّ هنالك جانبا سلبيا كذلك. يخضع

طريق الحرير لسيطرة بلد واحد هو الصين، فيما تتغير الحكومات على نحو مستمر. يقدم الغزو الروسي لأوكرانيا مثالا واضحا على التغيير المفاجئ الذي قد تحدثه إدارة استبدادية على مجرى التاريخ. حينما تتركز السلطة في يد شخص واحد أو مجموعة منعزلة من المطلعين كما في روسيا والصين، قد يتغير مسار الحوادث بسرعة ودون سابق إنذار. تُوحِّد بكين الدول التي كانت متفرقة في السابق، إلا أنها تقوم بذلك في ظل حكومة مستبدة تعترض على التقييم الذاتي وترفض النقد.

من الضروري الانتباه إلى ما يخفيه الخطاب حول تعديلات الصين على ستراتيجية القتل الاقتصادي بين طياته من حقيقة استخدام الأخيرة للتكتيكات الأساسية القديمة ذاتها، والمستخدمة منذ قرون كما هو الحال مع الولايات المتحدة. وبصرف النظر عمن يطبق هذه الستراتيجية، فإنها تتمحور حول استغلال الموارد، وتوسع فجوة التفاوت الاجتماعي، ودفن الدول في قبر الديون، وإيذاء الجميع فيما عدا النخب، وخلق التغير المناخي، فضلاً عن كونها تزيد من الأزمات الأخرى التي تتهدد كوكب الأرض.

ما السبب من وراء كتاب حول ثالث موجات القتل الاقتصادي؟

توسعت عمليات الاستحواذ التي ينفذها قتلة الصين الاقتصاديون عبر أرجاء العام ونجحت إلى حد كبير يستدعي انتباه الجميع لدينامياتها ومخاطرها. باتت الصين الآن الشريك التجاري الأكبر مع الدول في جميع القارات. وبناءً على ما تقدم من دعائم ستراتيجية القتل الاقتصادي الأربع، تفوقت الصين على الولايات المتحدة في قطاعات الطاقة، والنقل، والاتصالات، فضلا عن تطوير البنية التحتية عبر باقي أرجاء العالم، وكما سيرد تفصيله في القسم السابع.

مهما يكن من أمر تَصَوُّر المرء عن الصين، وحقيقة نياتها، وبصرف النظر عن انتكاساتها الأخيرة، يبدو مستحيلا عدم الاعتراف بالنجاحات الصينية الداخلية وما قامت به من تعديلات على ستراتيجية القتل الاقتصادي على نحو يبهر معظم العالم. شخصيا، لم أقدّر ذلك حق قدره حتى تلقيت دعوة للحديث ضمن اثنتين من القمم الاقتصادية الدولية التي عقدت في روسيا وكازاخستان، والتي حضرها أكثر من 12000 من أكثر صناع القرار السياسي نفوذا في العالم. إبان تلك المؤتمرات، قارن المتحدث تلو الآخر نجاحات الصين مع إخفاقات الولايات المتحدة بالمقابل. من جملة الأمثلة المقتبسة التي تُساق عن هذا الموضوع بالعادة ما يقال عن أن متوسط أجر ساعة العمل الأميركي لم

يتغير نسبة إلى التضخم منذ العام 1973، مع تراجع الطبقة الوسطى الأميركية من 60% إلى 50% من مجموع السكان، في مقابل توسع انفجاري صيني ضخم انتشل مئات الملايين من الصينيين من الفقر المدقع إلى الطبقة الوسطى.

في الوقت الذي نقترب فيه من حافة الدمار البيئي، والاقتصادي، والاجتماعي أكثر من أي وقت مضى، بات من الضروري لنا إدراك حقيقة عيشنا في ظل تصور كاذب وخطير. كما يقود تعظيم الأرباح قصيرة الأجل وتنمية نمط الاستهلاك المادي وستراتيجية القتل الاقتصادي إلى قتلنا. لقد كتبت هذا الكتاب الثالث عن قتلة الاقتصاد لأني شعرت بأهمية تحليل هذه الستراتيجية وعلاقتها بالعديد من الأزمات المتصاعدة التي نواجهها جميعا، فضلا عن تقديم أفكار من شأنها المساعدة في انتقالنا من حالة الضحية إلى حالة العامل الفاعل في تحقيق التغيير.

طلب للمساعدة

نبّهَت الأخبار عن الظروف المزرية في معسكرات الاعتقال الصينية والجرائم ضد الإيغور وباقي الأقليات الأخرى العالمَ للجوانب المظلمة للصين اليوم، فضلا عن سلوكياتها الإمبريالية في بعض أجزاء آسيا. في الوقت ذاته، كشفت الحوادث في الولايات المتحدة التي تتراوح ما بين عنف يقوم به بيض يشعرون بالتفوق إلى جانب الظلم الاجتماعي والعرقي، عدا عن مساعٍ عميقة لتقويض الديمقراطية الانتخابية والظروف المريعة في السجون ومعسكرات إيواء المهاجرين ـ كشفت عن واقع الجانب الأكثر عتمة للولايات المتحدة. وبصرف النظر عن هذا الكشف، فإن التحيزات الناجمة عن التركيز على الجوانب السيئة للآخرين عادة ما تقطع الطريق أمام التعاون الذي تمس الحاجة إليه في عالمنا المملوء بالأزمات الطاحنة.

لقد أدركت أني نشأت كذكر أميركي أبيض يحق لي من الفرص ما لا يتوفر للناس الآخرين من ذوي اللون أو العرق أو الجنسيات الأخرى. فضلا عن ذلك، نشأت أنا والكثير من نظرائي الذين نشؤوا في حقبة الفورة الاقتصادية متأثرين منذ وقت مبكر بالأفلام السينمائية، والمسلسلات التلفزيونية، والأفلام الكارتونية المتحيزة ضد أبناء أصول أخرى من إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط. ثم إنني سافرت كثيرا وبما يكفي لأعرف حقيقة تحيز كل البشر في كل مكان بعضهم ضد بعض.

إني أسمع كلاما كهذا حينما يتهمني البعض بالتحيز للصينيين حينما أقول إن نموذجهم أكثر جاذبية للدول الأخرى، في مقابل اتهام آخرين غيرهم لي بأني معادٍ لآسيا جراء انتقادي ستراتيجية الصين، وكمناهض لأميركا حينما أكشف عن أخطاء قتلة الاقتصاد الأميركيين.

لذلك، أطلب المساعدة.

لقد عملت بكل جد كي أكتب بموضوعية من منظور محايد قدر الإمكان، إلا أنني واثق بأنني غير مدرك لبعض تحيزاتي التي قد تصادف القرّاء ضمن بعض العبارات التي تشير إليها بين طيات هذا الكتاب. لذلك أسأل القرّاء السماح والتفهم لو واجهتهم مثل هذه المواقف. وأرجو إعلام الجميع أني لا أنوي إهانة أحد، ثم إنني لست في محضر الدفاع عن النموذج الصيني أو الأميركي. إنني أطمح إلى دفع ستراتيجية القتل الاقتصادي حتى تنتهي إلى مزبلة التاريخ. وبهذا الكلام، فإني أعني كل ستراتيجيات القتل الاقتصادي، مرة واحدة وإلى الأبد.

وإني آمل مخلصا إيجاد القراء عند إنهاء هذا الكتاب ما يلهمهم للمشاركة بدور في حقبة جديدة من التعاون العالمي الذي يعيد تعريف معنى كون الإنسان ناجحا على كوكب حي.

القسم الأول

نُذُر المستقبل

«مكتبة ♔ النخبة»

1

رئيس جريء

وقف الرئيس رافايل كوريا في شرفة قصره الحكومي مبتسما لجموع الناس التي أخذت تتجمع أسفل ميدان استقلال كويتو. لوحت الجموع بالأيادي وكاميرات الهواتف النقالة للرئيس. في غضون أقل من عام، كان كوريا على وشك إكمال ولايته الرئاسية الثانية ليتقاعد في العام 2017 بحسب ما ينص عليه القانون الإكوادوري. كان الرئيس على وشك المغادرة وهو يدرك أنه حقق نصرا كبيرا. لقد التقى الرئيس الصيني تشي جين بينغ ووقع اتفاقية القرن، وبذلك هزم قتلة الاقتصاد الأميركيين بلعبتهم التي يحترفونها.

أثرت السياسات الأميركية في كوريا طيلة حياته. بدأ ذلك التأثير حينما كان الرئيس الإكوادوري في الخامسة من العمر حيث اختفى والده خلف جدران أحد السجون الأميركية إثر إدانته بتهريب المخدرات التي عمل بها بغية إطعام عائلته مقابل إشباع رغبة الأميركيين بالنشوة. لم يمضِ وقت قصير حتى بلغ رافايل الحادية عشرة حينما تمكن انقلاب مدعوم من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من قتل أحد الأبطال الملهمين في عينيه، وكان الرئيس التشيلي المنتخب ديمقراطيا سلفادور إليندي. وفيما كان في سنِّ المراهقة، تأثر كثيرا باثنين من الأهداف اللذين استهدفهما قتلة الاقتصاد، وهما الرئيس الإكوادوري جايمي رولديوس ونظيره البنمي عمر توريخوس. أُعجب رافايل بالطريقة التي وقف بها الزعيمان في وجه أخوية الشركات والحكومة ومديري البنوك الأميركيين الذين أرادوا استغلال موارد دولتيهما. على وجه الخصوص، تأثر رافايل بالتزام رولديوس إنهاء إساءات الشركات النفطية الكبرى، وبتصميم توريخوس على كسب ملكية بنما للقناة التي تشطر بلاده إلى نصفين. قاوم كلا الرجلين محاولاتي الشخصية رشوتهما ورفضا الانصياع لتهديدات «أبناء آوى» الذين تدخلوا إثر فشلي أنا وقتلة اقتصاد آخرين في محاولات إفسادهم. كان الرجلان موضع كره الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان ومعه بعض من رؤساء مجالس كبريات الشركات الأميركية القوية. مع دخول رافايل عامه الثامن عشر الذي

تصادف ودخول ريغان البيت الأبيض، لقي رولديوس وتوريخوس حتفهما في حادثي تحطم طائرة يحملان بصمات الاغتيالات، كما سيرد ذكره في الفصول القادمة.

دفعت محاكمة والد كوريا وإدانته، مع ظلال أشباح وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في اغتيال الزعماء الأبطال الثلاث، وحرب فيتنام، وحالة التصدع العرقي والاجتماعي في الولايات المتحدة، دفعت الشاب للتعرف أكثر إلى هذا النظام المنحاز الذي يحابي أغنياء الأميركيين البيض وكبريات شركاتهم. درس رافايل بجد وحصل على منحة دراسية من إحدى الجامعات الإكوادورية، قبل حصوله على شهادة الماجستير من إحدى الجامعات البلجيكية، ومن ثم الدكتوراه في علوم الاقتصاد من جامعة إلينوي. عاش رافايل الإذلال والإهانة والاستغلال في المقام الأول، الأمر الذي حفزه ليصبح خبيرا في نظام دولي يروج له قتلة الاقتصاد ويدعى «الرأسمالية».

لاحقا، قدر للرئيس كوريا أن يقول لي: «لقد تعلمت الدرس». وأضاف: «لقد عرفت أن لعبتكم الاقتصادية الناجحة تتمحور حول استعباد الدول عبر الديون، ومن ثم تَتَمَلَّكوننا». لقد فهم الرجل ستراتيجية القتل الاقتصادي التي تنفذها الولايات المتحدة. وأراد إيجاد وسيلة لجعل بلده جزءا من حركة اقتصادية عالمية أكثر عدالة ومساواة. بعد قراءته كتاب «اعترافات قاتل اقتصادي»، كتب الرئيس رافايل إلي يقول: «أود توجيه الشكر لك على إسهامك الكبير ضمن موجة البحث العالمية عن مناهج مبتكرة وأفضل من ذي قبل لتحقيق التعايش». كتبت الإكوادور في عهده دستورا جديدا، وهو التشريع الأول من نوعه في العالم الذي يقنن التصرف بالطبيعة، وأسس وزارة أطلق عليها اسم «وزارة العيش الكريم» بهدف تحقيق التوازن الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ البيئي ضمن جميع مناحي الحياة في الإكوادور.

من جانبه، لخص لي وزير العيش الكريم الإكوادوري فريدي إيهلرز الأمر في أحد الأيام حينما كنا نتمشى في متنزه إلجيدو الجميل في العاصمة الإكوادورية كويتو. قال الوزير: «يستوعب الرئيس ما يحصل في العالم»، وأضاف كذلك: «ثم إنه يعلم أننا جميعا نعاني المتاعب، وحاجة النظام الحالي ماسة إلى الإصلاح. يريد رافايل منفعة بلاده وبيئتها، مع تحويل الإكوادور ـ في سياق هذه المنفعة ـ إلى نموذج يحتذي به الآخرون».

رفع كوريا يده بسرعة لتحية الجماهير التي احتشدت أسفل الشرفة. بدت شعبيته متصاعدة أكثر كل يوم مع إدراك الناس أن نجم الهيمنة الأميركية كان على طريق الأفول. وبغية الانفصال عن تلك الهيمنة، شعر بأن خياره الوحيد لم يكن سوى التوجه إلى الصين.

من بين أولى الأشياء التي قام بها بعد فوزه رئيسا بانتخابات ديمقراطية عام 2006، عمد كوريا للتحقيق في ستراتيجية القتل الاقتصادي التي ساعدتُ أنا شخصيا في تطبيقها، حيث أصدر الأمر بتشكيل هيئة خاصة للتحقيق في موضوع قروض البنك الدولي التي حصل عليها الزعماء الدكتاتوريون العسكريون غير المنتخبين الذين سبقوه. أدرك كوريا عبر تخصصه الأكاديمي قيام ستراتيجية القتل الاقتصادي التي تعتمدها الولايات المتحدة بهدف تحقيق الهيمنة على الديون. تساءلت الهيئة: هل كان الشعب الإكوادوري ملزما بدفع الفوائد وأصل الدين عما اقتُرض دون موافقته، ولمّا أفاد منه الدكتاتوريون وليس الشعب يا ترى؟ بعد خروج الهيئة بتوصياتها، أعلن كوريا عدم شرعية معظم ديون الإكوادور البالغة 10 مليارات دولار.[1] في سياق متصل، شرح لي وزير الطاقة والمناجم، ألبيرتو أكوستا، هذا الموضوع فيما كنا نجلس بمكتبه بعد وقت قصير من قرار الرئيس كوريا. قال أكوستا: «لا بد من تحمل المصارف التي تمنح القروض للدكتاتوريين غير المنتخبين وهي تعلم أنها ستذهب لتمويل مشاريع تنفع الأقلية الغنية وتؤذي الأغلبية الفقيرة، تحملها اللوم عن معظم الأخطاء هنا في الإكوادور، عدا عن أماكن أخرى كثيرة في العالم. بعد إجراء انتخابات ديمقراطية حرة، يتوجب على المسؤولين المنتخبين الوقوف مع الأغلبية».[2] يملك أكوستا شهادة في الاقتصاد من جامعة كولونيا بألمانيا. وكما هو الحال مع كوريا، فهم أكوستا أهمية الخروج من فخ ستراتيجية القتل الاقتصادي.

ردا على قرارات كوريا، خفضت مؤسسة ستاندارد آند بورز ووكالة فيتش تصنيف الإكوادور الائتماني. صممت المؤسستان على إرسال رسالة تحذير بالعقاب لأي بلد يرفض احترام البنك الدولي وباقي المؤسسات الأميركية الدائنة ولا يتقبل التعامل مع ستراتيجية القتل الاقتصادي. لا بد من إخضاع الإكوادور.

لم يكن كوريا بصدد الاستسلام. لقد أدرك تمحور الرأسمالية الحديثة حول استخدام ستراتيجية القتل الاقتصادي بغية تحطيم المنافسة وتحقيق قوة الاحتكار. ورأى الرئيس الإكوادوري ـ قبل غيره ـ أن مكانة الولايات المتحدة كأقوى المنافسين تواجه تحديا كبيرا. باتت الامبراطورية

الأميركية، بما فيها من هيمنة احتكارية، تظهر علامات الانهيار. لقد استيقظ «التنين الأصفر» من سباته الطويل وعاد لا يكترث لتصنيفات المؤسسات الرأسمالية الأميركية.

هبّت الصين لنجدة الإكوادور مع قرض بقيمة مليار دولار تبعه واحد آخر سريع بقيمة مليار أخرى.[3] ارتفع تصنيف الإكوادور بسرعة. من جانبه، رفض كوريا الليبرالية الجديدة و«إجماع واشنطن»، ونجح بالتحول نحو المصرفيين الصينيين ووعودهم بتوسيع التجارة عبر أرجاء أميركا اللاتينية وباقي أنحاء العالم. بغية الإفادة من طريق الحرير الجديد، يتوجب على البلاد بناء شبكات للكهرباء، وطرق سريعة، ومطارات، وموانئ. وإلى جانب ما ذكر، ستُختتم حقبة كوريا الرئاسية بإضافة مدارس ومستشفيات جديدة عبر استخدام أموال بحر النفط المدفون تحت غابات الإكوادور المطيرة كضمانة لانتشال البلاد من حالة الفقر المدقع، مع تقديم مثال على أمل تحتذي به الدول الأخرى.

انحنى كوريا من أعلى الشرفة ينظر إلى حشود الجماهير التي استمرت بالتوافد والتلويح والتقاط الصور، حيث كان الجميع يبتسم للرئيس والفرح بادٍ على مُحَيَّاه. لقد قام بعمل جيد. فجنبا إلى جنب مع دستور جيد ووزارة للعيش الكريم، حقق كوريا استقرارا سياسيا غير مسبوق في بلد شهد اعتلاء سبعة رؤساء سدة الحكم قبله في غضون عقد من الزمن، بلد عانى تاريخا طويلا من الانقلابات والدكتاتوريين العسكر. لقد سار الرئيس الإكوادوري على نهج ملهمه الراحل، الرئيس رولديوس، إبان فترة ولايته الأولى من خلال كبح جماح شركات النفط الأجنبية. أما ولايته الثانية، فقد شهدت بناء البنية التحتية وتطوير الخدمات الاجتماعية التي اعتقد بأهميتها وضرورتها لرفاه أبناء شعبه. في سياق متصل، شهدت الإكوادور نموا اقتصاديا مستمرا، وحتى أثناء الأزمة المالية العالمية خلال فترة العامين 2008 و2009. وتضاعف معدل أجور العاملين لأكثر من الضعف وصولا إلى المستوى الأعلى بين دول أميركا اللاتينية، الأمر الذي انتشل أكثر من مليون إنسان من مستوى خط الفقر. لقد حصل كل ذلك أثناء فترة ولاية رافايل كوريا.[4] رفع الرئيس الإكوادوري يده ولوح بإبهامه المرفوع إشارة على النجاح للشعب المتجمهر في الميدان. آتت الشراكة الإكوادورية ـ الصينية ثمارها.

لكن الأسئلة بقيت تطارد كوريا. استمر الصحفيون يثيرون الأسئلة قائلين: «هل تعتقد أن الصينيين سيكونون أقل استغلالا من الأميركيين؟»، وتطرق المراسلون إلى قضايا العنف ضد أقلية

الإيغور، وهونغ كونغ، والتيبت، فضلا عن توسع النشاطات الإمبريالية لبكين في منطقة بحر الصين الجنوبي ضد هونغ كونغ وتايوان، جنبا إلى جنب مع سِجِلِّها الحافل بخروقات وقيود حرية التعبير والجندر وحقوق الإنسان. ولم تكن الأسئلة من جانب الصحفيين وحسب، فقد أثارها زعماء المعارضة كذلك، إلى جانب مستشاري كوريا، وكوريا شخصيا. إلا أن الرئيس أراد الاعتقاد مجددا بهدف الصين المتمثل في التزامها نشر التجارة العالمية. تتناقض فكرة طريق الحرير الجديد كليا وتركيز واشنطن على المشاريع الأميركية ـ الإكوادورية الثنائية والتجارة بين البلدين. فضلا عن ذلك، أكد له الرئيس الصيني بينغ أنه لن يستخدم قروض بلادة للتأثير في إرادة الإكوادور. عدا عن كل ذلك، لم يكن هنالك من مجال للتراجع حيث ألزم كوريا نفسه بعكس مسار سياسات أسلافه الموالية بشدة للأميركيين.

بحلول نهاية العام 2015، قبل كوريا ما يناهز ستة مليارات دولار من الصينيين، والتي تشكل بحدود % 30 من ديون بلاده الخارجية، واستمر الرقم بالتصاعد.5 في هذا السياق، أوردت جريدة نيو يورك تايمز تقول:

تجري البنوك الصينية مفاوضات بهدف منح قرض بقيمة سبعة مليارات دولار لغرض إنشاء مصفاة نفط سيكون من شأنها رفع الإكوادور إلى مصاف لاعب دولي رئيسي في إنتاج البنزين والديزل وباقي المنتجات النفطية الأخرى.

في القرى والبلدات المنتشرة عبر أرجاء البلاد، ستتدفق الأموال الصينية لبناء الشوارع، والطرق السريعة، والجسور، والمستشفيات، وحتى شبكات كاميرات المراقبة الممتدة حتى جزر غالاباغوس. يذكر أن البنوك الصينية المملوكة للحكومة ضخت أصلا ما يقدر بأحد عشر مليار دولار إلى الإكوادور التي تبدو رغبة حكومتها واضحة في طلب المزيد.

لا تملك الإكوادور، ذلك البلد الذي يضم 16 مليون نسمة، حضورا واضحا على المشهد العالمي. لكن بصمة الصين الآخذة بالاتساع بسرعة هناك، تقول الكثير حول تغيير النظام العالمي مع صعود موجة بكين في مقابل خسارة واشنطن التدريجية لمساحات النفوذ.[6]

استخدم أحد قروض الصين لتمويل أعمال شركة سينوهايدرو الصينية التي كُلِّفت ببناء سد كهرومائي ضخم وعد بتوفير أكثر من ثلث احتياجات الإكوادور من الطاقة الكهربائية، فضلا عن

تحفيز الأعمال والصناعة، خلق المئات من الوظائف، إلى جانب توسيع التجارة الدولية. من جانبه، أدرك كوريا أن الطاقة الكهربائية تمثل مفتاح التنمية لمستقبل الإكوادور، وقد بدت هذه الصفقة بمثابة درة التاج بين منجزات الرئيس.

لكن التكاليف ارتفعت واستمرت بالصعود، لذلك هبت الصين لتنجد الإكوادور بأموال أكثر.

مرة بعد أخرى، تراكمت الديون أكثر حتى ساءت الأمور على نحو مريع، وحدث كل ذلك مرة واحدة.

2

كابوس المنقذ

قبيل يوم عيد الميلاد من العام 2018، أوردت جريدة نيويورك تايمز عن مشروع سينوهايدرو تقول:

كان من المزمع للسد العملاق الذي تموله وتبنيه الصين أن يعمِّد طموحات الإكوادور الكبيرة عبر حل مشكلة حاجتها إلى الطاقة والمساعدة في انتشال البلد الأميركي الجنوبي الصغير من مستنقع الفقر. لكن عوضا عن ذلك، تحول هذا المشروع إلى جزء من فضيحة وطنية كبيرة تجتاح البلاد الغارقة بالفساد، والديون الكبيرة المحفوفة بالمخاطر، عدا عن مستقبل مقيد بالصين.[7]

إثر قراءة ذلك التقرير، لم يسعني إلا تخيل حالة الهياج العاطفي والسياسي التي اعترت كوريا. لقد سقط الرجل من أعلى قمة جبل مرتفع ليقع في هوة وادٍ سحيق.

بدت لحظة زيارة الرئيس الصيني بينغ للإكوادور قبل عامين كما لو أنها لحظة تعادل كوريا مع الولايات المتحدة، حيث رد بها على إساءات الأخيرة لوالده، وعائلته، وبلاده، وكل القارة اللاتينية جمعاء. وبدا قرار التخلف عن سداد قروض البنك الدولي خطوة كبيرة وجريئة بحق، فيما كان تلقي القروض من الصين بمثابة استعادة لمكانة الإكوادور على الصعيد المالي دوليا، وإعداد البلاد للتحول الصناعي كمنتِج للمشتقات النفطية عوضا عن كونها مجرد مصدر للنفط الخام ــ كان خطوة أكبر. أشيد بالصفقة النهائية التي عقدها كوريا مع بينغ كوثبة عظيمة نحو قرن جديد وألفية جديدة.

حينما وطئت أقدام بينغ وزوجته تراب الأرض الإكوادورية شهر تشرين الثاني من العام 2016، احتفل الرئيس المضيف ومعه الكثير من أبناء شعبه بتلك الزيارة كلحظة استثنائية ذات أهمية تاريخية بالغة. كانت الإكوادور بصدد إنهاء حقبة علاقة خضوع مع الولايات المتحدة تعود إلى العام 1823، وذلك حينما أصدر الرئيس الأميركي الأسبق جيمس مونرو ما يعرف بمبدأ

مونرو، وهو إعلان استخدم لتبرير التدخلات الأميركية في محيطها الإقليمي. لكن الصين تمكنت من إخراج الإكوادور خارج معضلة التصنيف الائتماني التي فرضتها عليها الولايات المتحدة. الآن، وأثناء زيارة بينغ، وقع الزعيمان اتفاقية للتعاون في مجالات كبرى تشمل الطاقة، والنقل، والزراعة، فضلا عن المشاريع الصناعية. لقد اصطدم مبدأ مونرو العتيد بحائط جيوسياسي حطمه إلى أشلاء متناثرة.[8]

بدت فكرة لقاء بينغ مع كوريا قبل وقت طويل من لقائه مع الرئيس الأميركي لطيفة على وجه الخصوص. في واقع الحال، وبحلول تلك اللحظة التي تصافح بها مع الرئيس الأميركي دونالد ترامب عام 2017، لم يكن بينغ أتَمَّ زيارة الإكوادور وحسب، وإنما الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وكوستاريكا، وكوبا، والمكسيك، وبنما، وبيرو، وترينيداد، وتوباغو، وفنزويلا. وناقش الرئيس الصيني مجموعة من الاتفاقيات المشابهة للاتفاقية الصينية ـ الإكوادورية. وعلى النقيض من ذلك، لم يزر ترامب سوى دولة لاتينية وكاريبية واحدة كانت الأرجنتين، وذلك بغية حضور اجتماعات قمة الدول العشرين، ولم يكرر ذلك طوال سنوات ولايته الأربع في البيت الأبيض. بدت الرسالة واضحة تمام الوضوح لكوريا وجميع الرؤساء الآخرين في أميركا اللاتينية والبحر الكاريبي: تُولي الصين اهتماما بهم، ولن يؤثر بها تهديد مبدأ مونرو أو الولايات المتحدة، وتنوي تقديم نفسها بصورة المخلّص الجديد للمنطقة. ولسوف تقوم الصين بهذا الدور عبر التجارة عوضا عن سياسات الليبرالية الجديدة.

لكن حقيقة انخفاض أسعار النفط عام 2014، والتي استمرت كذلك، ربما أثنت الصين وأحبطت صفقات على وشك التوقيع. وعلى أي حال، استندت تلك الصفقات إلى قيمة النفط في باطن الأرض كضامن للديون. لكن الإكوادور، وكما هو الحال مع معظم جيرانها الآخرين، تتوفر على موارد طبيعية. بالنسبة إلى بكين، مثلت تلك الموارد فرصا أكثر لزيادة منح القروض، وبناء المشاريع، واستغلال الإكوادور الغنية بالموارد الطبيعية فضلا عن توسيع التجارة. في هذا السياق، كتبت جريدة ساوث تشاينا مورنينج بوست تقول:

يجري تشغيل مشروع ميرادور، وهو مشروع منجم ضخم بقيمة 1.4 مليار دولار لاستخراج النحاس بالدرجة الأساس إلى جانب الفضة والذهب، من قِبَل شركة إكواكورينتة أس. أي.، وهي شركة تابعة لمجموعة سي آر سي سي ـ تونغوان للاستثمار التابعة للحكومة الصينية.

ومن الجدير بالذكر أن الإكوادور لم تكن دولة تعدين، لكن هذا النشاط حظي باهتمام بارز من لدن إدارة الرئيس الإكوادوري كوريا.

وعلى الرغم من اعتبار الميرادور أحد أهم مشاريع التعدين في البلاد، عرضت الإكوادور منح العديد من الامتيازات لمشاريع كبرى، امتيازات حصلت الشركات الصينية على الكثير منها في واقع الحال.[9]

كنت على دراية جيدة بمنطقة التعدين التي تقع في غابات الأمازون المطيرة حيث خدمت كمتطوع ضمن فيالق السلام نهاية ستينيات القرن الماضي، تلك المنطقة التي تتميز بتنوع بيولوجي فريد وتعد من أكثر الأراضي هشاشة على سطح الكوكب. تعرف تلك المنطقة بتسمية «الشرق» بحكم وقوعها إلى شرق جبال الأنديز، وهي الموطن التقليدي لشعب شوار وبعض شعوب المنطقة الأصلية الأخرى. تنبع أنهار المنطقة من المرتفعات الجليدية والبحيرات الواقعة في منطقة الأنديز، والتي تشق طريقها عبر أدغال الأمازون وصولا إلى بيرو، وأسفل نهر الأمازون لتصب في المحيط الأطلسي.

بنت الصين سدها الهائل هناك وهي تطور الآن مناجم المعادن المهمة في هذه المنطقة التي يصفها خبراء البيئة بأنها منابع الأمازون المقدسة. لكن الصين استمرت باقتراف الأخطاء الفادحة.

جاءت كارثة السد أولا.

بنت شركة سينوهايدرو الصينية السد إلى جانب بركان معروف باسم «ريفينتادور»، وهو بركان ناشط بقوة ضمن منطقة غابات مطيرة معرضة للزلازل. توجه ما يقرب من 1000 من العمال الصينيين للإكوادور بغية بناء منشآت السد الذي يشتمل على نفق أرضي بطول 25 كيلومترا مع ثماني وحدات توليد توربينية كان يمكن للعمالة الإكوادورية ـ المتألمة من البطالة ـ إنجاز الكثير من أعمالها بأنفسهم. في غضون عامين، تصدعت الإنشاءات الكونكريتية الخاصة بالمولدات، فيما عُرض مخزون المياه للانسداد بفعل الطمي وجذوع الأشجار وباقي المخلفات الطبيعية من الأدغال المحيطة. تآكلت الأراضي في مجرى منبع ومصب النهر إلى حد مخيف، ودُمّرت شلالات رائعة كان متوقعا لها استقطاب زوار وتحقيق عوائد سياحية. ثم تضررت خطوط الأنابيب التي انفجرت ليسيل الوقود بين الأحراش. وحينما شغّل العاملون المولدات، انطفأت شبكة الطاقة الكهربائية في كل أرجاء الإكوادور.

سافرت مرات كثيرة إلى الإكوادور خلال فترة ما قبل جائحة كورونا، وزرت أجزاءً من البلاد تأثرت على نحو مباشر بالمشاريع الصينية، وتحدثتُ إلى بعض الزعماء المحليين، والطلبة، والمسؤولين الحكوميين والناس في شوارع المدن والأسواق الزراعية الريفية. شعرت بحزن عميق لما رأيته وسمعته من الناس. فبصرف النظر عن نيات كوريا، وقعت الإكوادور ضحية لستراتيجية القتل الاقتصادي ذاتها التي طبقتها ضدها الولايات المتحدة. ولم يختلف الأمر في شيء سوى التطبيق الذي جاء على يد الصينيين هذه المرة.

مع انتهاء فترة ولاية كوريا وانتقاله إلى بلجيكا (موطن زوجته)، انتهى مشروع السد إلى كارثة وطنية. في هذا السياق، كتبت جريدة نيويورك تايمز عام 2018 تقول:

تشير المعلومات إلى أن ما يقرب من جميع كبار المسؤولين الإكوادوريين المنخرطين بمشروع بناء السد إما مسجونون أو محكومون بتهم تتعلق بتقاضي الرُّشى. ثم تأتي كلفة المشاريع الباهظة، حيث قدمت الصين قروضا بحدود 19 مليار دولار لا لبناء السد المعروف باسم كوكا كودو سنكلير وحده، وإنما لتمويل مشاريع الجسور، والطرق السريعة، والري، والمدارس، والمراكز الصحية، إلى جانب نصف دزينة من السدود الأخرى ـ قروضًا تتخبط الحكومة الإكوادورية الآن في سبيل سدادها.

ولا يهم إذا ما كان بوسع الإكوادور تحمل كلفة هذه المشاريع أم لا، لكن الصين تأخذ مستحقاتها على أي حال.

لذلك، وبغية تسوية الفاتورة، يتعين على الصين ضمان الحصول على ما نسبته 80% من أثمن صادرات الإكوادور ممثلة في النفط.

في هذا السياق، يقول وزير الطاقة الإكوادوري، كارلوس بيريز، معلقا: «لقد استغلت الصين الإكوادور»، وأضاف كذلك: «تبدو ستراتيجية الصين واضحة تمام الوضوح. إنهم يُحْكِمون قبضتهم الاقتصادية على البلدان».[10]

وحوكِم كوريا نفسه غيابيا وأدين بتهم فساد، وحكم عليه بالسجن لثماني سنوات.

بعد كشف كارثة السد، جاء الكشف المدمر الآخر عن المناجم الصينية التي سيرد تفصيلها في الفصل التالي.

لقد تحول حلم المنقذ إلى كابوس جاثم على صدر الإكوادور.

3

الكناري في القفص

كتبت جريدة ساوث تشاينا مورنينغ بوست عن مشروع تعدين ميرادور تقول:

تُعرض المنطقة للتجريف وإزالة الغطاء النباتي على نحو مستمر، فيما يتغير لون مياه الأنهار جراء ما يُصَبّ فيها من مخلفات المناجم.

وُقِّعَ العقد بين الحكومة الإكوادورية وشركة اكواكورينتة الصينية عام 2012. يتذكر الكثيرون جوّ التفاؤل الذي ساد بعد ذلك التوقيع، فقد كان هناك وعود ببناء طرق ومدارس ومستشفيات جديدة.

أحصت مجموعة رصد الأمازون البيئية تدمير عمليات التجريف والإزالة في المنطقة جراء أنشطة التعدين ما بين العامين 2010 و2017 بحدود 1307 هكتارات من المساحات الخضراء.

يجادل ديفيد دين وخوليو بريتو، وكلاهما خبير ضمن شبكة الأمم المتحدة المعروفة باسم «التجانس مع البيئة»، بأن التصاميم الحالية لسدود حجز المخلفات لا تناسب الظروف الطبيعية للمنطقة، وأن هناك احتمالا كبيرا لفشلها.[11]

وحذَّر خبراء بيئة آخرون قائلين:

منذ العام 2007، يقول الخبراء إن السدود الحالية وتلك المزمع إنشاؤها بهدف خزن المخلفات ستنهار حتما في نهاية المطاف، كما حصل في البرازيل حينما لقي مئة فرد مصرعهم كحصيلة أولية لذلك.

إن انهيار سد لخزن المخلفات قد يرقى إلى مستوى تسونامي من المواد السامة يتضمن مئات الملايين من الأطنان المكعبة من الزئبق، والزرنيخ، والسيانيد، والأحماض والمعادن الثقيلة التي تنحدر بشدة نحو شبكة الأنهار المتجهة إلى الأمازون مباشرة.[12]

لم تكن تلك سوى قضية إهمال تقليدية وحسب، قضية شعور بعدم المسؤولية وسلوك هدّام باسم التقدم بغية هيمنة بلد على موارد آخر. على الرغم من أن جائحة كورونا منعتني من استمرار السفر إلى الإكوادور، استمرت اتصالاتي مع الزعماء المحليين في مناطق الغابات المطيرة للأمازون من خلال تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية الساحرة. وتحدَّثتُ مع العديد من الخبراء والمراقبين كذلك. كان ديفيد دين من بين أفضل المطلعين حسبما أشار تقرير جريدة ساوث تشاينا مورنينغ بوست. عبر أحد الاتصالات الهاتفية الكثيرة التي جرت بيننا من منزله في إسبانيا بين عامي 2020 و2021، قال لي دين: «لن يكون بوسعك تمييز المنطقة التي عملت فيها متطوعا في صفوف فيالق السلام». وأضاف: «سوف ترى اليوم طرقا عريضة ومنشآت ضخمة ومعدات حفر وتعدين، ومراكز إقامة عمال صينيين، فضلا عن مناظر طبيعية ممزقة. وعاد لا يكون هناك أفراد من شعب شوار الأصلي أو أي من السكان الأصليين. ليس هناك من حيوانات أو غابات. يتصدر هذا المنجم قائمة أخطر وأكبر التهديدات التي تتربص بالنظام البيئي لحوض الأمازون. ويرقى التصميم غير المناسب والتنفيذ السيئ لمناطق احتواء البحيرات الضخمة التي تضم مواد سامة شبه سائلة تعرف بـ«المخلفات»، إلى مستوى ملحمة كارثية في طور التكوين. يوجد سدَّان قيد الإنشاء في المنطقة، يرتفع الأول إلى علو ثلاثة وستين مترا، فيما يترفع الثاني إلى علو مئتين وستين مترا. من اللافت بناء الصينيين كلا السدّين دون أي التزام بتوجيهات الأثر البيئي، وبزاوية انحدار لا تترك هامشا للسلامة. وبحسب المصطلحات الهندسية، يقف السدان على حافَةِ الانهيار مع إمكانية الفشل لجملة من الأسباب منها الزلازل، والتآكل الداخلي، والانهيارات الأرضية، عدا عن فشل الأسس العائد إلى البناء على مواد ضعيفة جيولوجيًّا».

تحدثْتُ لديفيد عن حوار أجريته مع الرئيس الأسبق كوريا عبر الهاتف من منزل إقامته في بلجيكا. قلت له: «أبلغني كوريا عن حاجة الإكوادور إلى الدول الأجنبية كي تمول بناء مشاريع من شأنها تحريك التنمية الاقتصادية للبلاد». رد ديفيد قائلا: «هذا ما يواظب السياسيون على ترديده دوما»، وأضاف كذلك: «يطلق على الميرادور وصف [درة التاج] ضمن خطة التعدين العشرية للإكوادور. تأمل الإكوادور جَنْيَ 4.5 مليار دولار عن منح الامتيازات. في مقابل ذلك، تأمل الشركات الصينية تحقيق أرباح صافية بقيمة تسعة وستين مليار دولار بالمقابل. يمثل هذا [الصافي] ولا شك رقما بارزا من صادرات الثروة الوطنية. لكن الكلفة على الإكوادور، فضلا عن ذلك، ستكون عبارة عن ملايين الأطنان من المخلفات السامة، وأنهار ملوثة، عدا عن كل أضرار التفاوت

الاجتماعي وتدهور نوعية الحياة التي تشكل عبئا كبيرا ومعاناة للناس. وبالنظر إلى كل هذه التكاليف التي لا يمكن حسابها، مضافًا إليها الدمار الذي سيلحق بالبرازيل وبيرو والدول المجاورة الأخرى إلى جانب المحيط الأطلسي». توقف ديفيد عن الكلام لبرهة قصيرة، ثم قال: «إنه الخداع. إنه جوهر وظيفة الاستغلال. وأنت تعلم ذلك أكثر من غيرك بلا شك».

بعدما أغلقنا الخط، تأملت في دور الخداع الذي لعبْتُه إبان أيام عملي كقاتل اقتصادي. أرّقني أحد الأمثلة على وجه الخصوص. عبر الترويج لستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية إبان سبعينيات القرن الماضي، زعمنا أن الاتحاد السوڤييتي كان يريد إدخال أميركا اللاتينية إلى مداره الشيوعي. ضمن تلك المزاعم، قلنا إن كوبا لم تكن سوى دمية سوڤييتية ترسل جيوش الإرهابيين بقيادة جيڤارا عبر أرجاء القارة.

لم تكن تلك المزاعم إلا محض تلفيق وحسب. فلو كان لموسكو خطة كبرى كهذه فعلا، فإنها كانت لتنتهي مع أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962. حينما أشرف عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية فيلكس رودريغوز على إعدام تشي جيڤارا في إحدى غابات بوليڤيا عام 1967، لم يكن هناك من «جيش الإرهابيين الكوبي» آنذاك سوى شرذمة سيئة التجهيز من بضعة عشرات من الرَّعاع العقائديين ممن لا يدعمهم أحد. لا بد أنه كان واضحا أن ما يعرف بـ«المد الشيوعي الأحمر» صُنِع لإخافة الدول بهدف دفعها إلى قبول سياسات الليبرالية الأميركية الجديدة. مع ذلك، ولأن هذا التلفيق وجد الدعم من خلال المكنات الدعائية وخدم كبريات الشركات العالمية القوية، والعائلات المحلية وواشنطن، فقد استمر بالازدهار.

أما الآن، فقد بدا لي عمل السياسيين ومعهم جهابذة المحللين والمعلقين في سبيل نشر خيالات أخرى، خيالات ساوت بين توسعية الصين والستراتيجيات السوڤييتية إبان الحرب الباردة. على الرغم من ذلك، لم ينجح هذا الكلام سواء في الإكوادور أو باقي أرجاء أميركا اللاتينية. في واقع الحال، رأى الناس في تلك الدول فروقات كبيرة. من جانبه، لم يقدم النموذج السوڤييتي شيئا جذابا. فعلى النقيض من الصين، لم يقدم الاتحاد السوڤييتي شيئا يذكر في مجالات التكنولوجيا أو المنتجات أو الخدمات، فضلا عن فشله كمثال على التنمية الاقتصادية التي قد يرغب آخرون في تقليدها. في واقع الحال، كانت جهود الاتحاد السوڤييتي في مجالات التجارة والاستثمارات الأجنبية باهتة وفاشلة إلى حد كبير. وربما كان الأهم من ذلك كله أن القيادة الروسية بدت غير مستوعبة قط لأهمية

«الإدراك»، ذلك العامل الحاسم ضمن ستراتيجية القتل الاقتصادي. في واقع الحال، لم تقدم تلك القيادة أي تبرير فلسفي سوى النظرية الماركسية التي شوهها ستالين بشدة. وقادت محاولاتها الداخلية لإصلاح تلك الفلسفة، أو ما يُعرف بالـ«بيروسترويكا»، إلى انهيار الاتحاد السوفييتي في خاتمة المطاف. من جانب آخر، عمدت الصين إلى إعادة تشكيل وصياغة نفسها كليا ما بعد الثورة الثقافية الماوية المدمرة. وبذلك، قدمت الصين سجلا لافتا من المنجزات والتقدم.

مهما يكن من أمر أفكارنا عن الولايات المتحدة والصين، وبصرف النظر عن حالات الفشل الفردية في بعض المشاريع الهندسية، ينظر الآخرون إلى قصة النجاح الصيني كمثال يمنح الأمل. في هذا السياق، أوردت مجلة تايم شهر شباط من العام 2021 تقريرا قالت فيه:

فيما تكافح الدول في المنطقة (أميركا اللاتينية) مع سلسلة من التحديات التي تواجه اقتصاداتها النامية، فإن هذه الدول تتطلع على نحو متزايد إلى الشرق عوضا عن الشمال. باتت الصين اليوم شريك أميركا الجنوبية التجاري الأول. عام 2019، استثمرت الشركات الصينية 12.8 مليار دولار في أميركا اللاتينية، وذلك بزيادة قدرها 16.5% عن العام الذي سبقه، والتي أُنفقت على مشاريع تركز على البنية التحتية الإقليمية كما في الموانئ، والسدود، وسكك الحديد.

وساعدت مشتريات الصين من المعادن والسلع الزراعية من دول أميركا الجنوبية على درء أسوأ احتمالات الحرمان التي كان قد تعانيها تلك الدول إبان فترة الأزمة المالية العالمية عام 2008.[13]

على الرغم من الإخفاقات، تجاوزت نتائج ستراتيجية القتل الاقتصادي الصيني توقعات زعماء بكين. في هذا السياق، وضع الرئيس الصيني بينغ عام 2015 هدفا يتمحور حول وجوب تجاوز الصين للولايات المتحدة في تجارتها مع دول أميركا اللاتينية والبحر الكاريبي وصولا إلى 500 مليار دولار بحلول العام 2025. وقد وصلت بكين إلى عتبة 315 مليار دولار مع تلك الدول عام 2019. حققت بكين الانتصار في حربها الاقتصادية في الفناء الخلفي لواشنطن على ما يبدو.[14]

أدركت وزارة الدفاع الأميركية، كما أدركنا نحن قتلة الاقتصاد الأميركيون من قبل، تمحور مفتاح الهيمنة على اقتصاد بلد ما حول السيطرة على شبكات طاقته الكهربائية. وشعر الجيش الأميركي بقلق عميق إزاء سيطرة الصين السريعة على شبكات الطاقة الكهربائية في دول أميركا

اللاتينية. في هذا السياق، أعدت كلية الحرب التابعة إلى الجيش الأميركي قائمة شاملة بالمشاريع الصينية. وقد أصدرت الكلية تقريرا عام 2021 بهذا الخصوص استهلته بـ:

بتاريخ الحادي والثلاثين من آذار، وافقت السلطات التشيلية المختصة على بيع شركة الكهرباء التشيلية العامة لصالح شركة الشبكات الكهربائية الصينية الحكومية بمبلغ ثلاثة مليارات دولار، ودون قيد أو شرط. وقد جاءت هذه الصفقة في أعقاب صفقة أخرى عام 2018 اشترت بموجبها شركة شبكة الطاقة الكهربائية الصينية الجنوبية ما مجموعه 27.7% من أسهم شركة «ترانس إليك» التشيلية بمبلغ 1.3 مليار دولار، فيما اشترت شركة الماء والكهرباء الصينية شركة «إتيايا للطاقة»، وشبكة الطاقة الوطنية الصينية التي استحوذت على شركة تشليكوينتا للطاقة بمبلغ 2.23 مليار دولار، الأمر الذي منح الشركات الصينية سيطرة على 57% من مجمل شبكات نقل الطاقة الكهربائية في البلاد.

واستمَرّ التقرير في سرد جملة موسعة من التفاصيل عن «مشاريع الطاقة الكهرومائية، والرياح، والطاقة الشمسية والنووية في المنطقة»، التي تمتد من الحدود الشمالية لأميركا اللاتينية وصولا إلى آخر نقطة جنوب الأرجنتين. وخلص التقرير إلى التحذير التالي:

ربما يكمن موضع القلق الأكبر في تحركات جمهورية الصين الشعبية نحو إحكام سيطرتها وموقعها ضمن قطاع توليد ونقل الطاقة الكهربائية، بما في ذلك تكنولوجيا الطاقة النظيفة الجديدة والنقل، وهو موقع يمكّنها من دعم تطورها ونموها التجاري في أماكن أخرى مع الاستحواذ على حصة أكبر من القيمة المضافة عبر طيف من القطاعات الستراتيجية في المنطقة، عدا عن الاستفادة من موقعها المتميز والمهيمن ضمن أسواق قطاعات معينة بغية مساعدة الشركات الصينية على التوسع عالميا. يمكن لدور الصين كمورد كهربائي رئيسي أن يساعد الشركات التي تتخذ من جمهورية الصين الشعبية مقرا لها في المستقبل، ما يسمح للصين بمكافئة المتعاونين وتقويض الخصوم أو المنافسين عبر اتخاذ خيارات ستراتيجية فيما يخص إمدادات الكهرباء وإنشاء البنية التحتية الحيوية.[15]

تمثل حكاية الإكوادور وتشيلي رمزا لما كان يجري في جميع أنحاء أميركا اللاتينية، والذي يمثل بدوره رمزا لما كان يجري في باقي أنحاء العالم. ولا شك أن الأمر كان مدهشا عبر جانبي

المحيط الأطلسي بوجه الخصوص، فقد ارتفعت استثمارات الصين في إفريقيا من 75 مليون دولار عام 2003 إلى 2.7 مليار دولار عام 2019، وهو رقم يتجاوز الاستثمارات التي قامت بها الولايات المتحدة أو أي بلد آخر في القارة السمراء. وخلال الفترة ذاتها، تجاوزت الصين كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي لتصبح الشريك التجاري الأكبر مع إفريقيا.[16]

في هذا السياق، وصفت شبكة سي أن بي سي فعالية النموذج الصيني كالتالي:

نشطت الشركات الصينية بفعالية كبيرة في مجالات بناء الموانئ، والطرق، وسكك الحديد التي ستدعم التكامل والتجارة بين الدول الإفريقية، ذلك الهدف الذي تجسد مؤخرا عبر أنحاء القارة السمراء من خلال توقيع اتفاقية التجارة الحرة في القارة الإفريقية. وقد أطلقت منطقة التجارة الحرة في القارة الإفريقية مرحلتها التشغيلية مؤخرا، وتعتزم جمع كل الدول الخمس والخمسين الأعضاء في الاتحاد الإفريقي تحت مظلتها في نهاية المطاف، لتشكل أكبر منطقة تجارة حرة في العالم، وبعديد نفوس يناهز 1.2 مليار إنسان.

في سياق متصل، تراجعت التجارة الأميركية ـ الإفريقية خلال السنين الأخيرة، مع تحول الصين إلى شريك إفريقيا التجاري الأكبر، حيث بلغ مجموع التبادل التجاري الأميركي مع إفريقيا تسعة وثلاثين مليار دولار عام 2017 في مقابل وصول التبادل التجاري الصيني مع هذه القارة إلى 148 مليار دولار في السنة ذاتها.[17]

في وقت متأخر من بعد ظهر إحدى الأمسيات، جلست في حانة تطل على مدينة كويتو أشاهد غروب الشمس في مقاطعة بشنتشا حيث يبرز ذلك البركان النشط الذي يتهدد العاصمة الإكوادورية في الأفق. لحظتها، تذكرت اجتماعا حضرته في واشنطن العاصمة نهاية سبعينيات القرن الماضي قبل إيفادي إلى هذه المدينة كقاتل اقتصادي. في حينها، تمثلت مهمتي في إقناع الرئيس رولديوس بضرورة إنهاء الحملة الرامية إلى إجبار شركة النفط الأميركية العملاقة تكساسكو على دفع حصة من أرباحها التي تجنيها من حقول النفط الإكوادورية لشعب البلاد. إبان ذلك الاجتماع، أشار أحد مسؤولي وزارة الخارجية الأميركية إلى الإكوادور بوصف «الكناري في القفص». كما هو الحال مع الطيور التي توضع داخل أنفاق المناجم لمراقبة الغازات السامة والتحذير منها، كانت الإكوادور بمثابة تحذير من خطر وشيك. وأضاف مسؤول الخارجية الأميركية قائلا: «إذا ما نجح رولديوس، ستتحول باقي دول القارة الأخرى نحو الشيوعية السوڤييتية» (منكرا حقيقة كُره رولديوس للشيوعية السوڤييتية على الرغم من اشتراكيته، وأن مصدر قلق أميركا الحقيقي كان النفط وليس

الإيديولوجية). مع غياب الشمس خلف أفق بشنتشا وحلول الظلام مغطيا أرجاء المدينة، عادت الإكوادور «كنارياً محبوسا في القفص» من جديد على ما يبدو.

كما هو الحال مع الظلام الذي ابتلع المدينة، ها هي الصين تبتلع الدول بسرعة واحدة تلو الأخرى، في إفريقيا، وآسيا، والشرق الأوسط، وأوروبا، وأميركا اللاتينية. تساءلت وملئي العجب عن السبب الذي دفع تلك الدول إلى تقبل الصين بكل هذه الحماسة، وبصرف النظر عن إخفاقات مشاريع التنمية التي وقعت في الإكوادور وعشرات الدول الأخرى. بدت السدود الكهرومائية ومحطات الطاقة الكهربائية التي بناها الأميركيون في أيامي أفضل تصميما وعملا ولا تزال تنتج الكهرباء حتى الآن. بالمقارنة مع ذلك، يبدو سجل الصين الهندسي سيئا على نحو واضح. إذن ما هو سبب نجاح الصين الباهر يا ترى؟

هل تكمن الإجابة في فشل الولايات المتحدة في توجيه أسئلة بالغة الأهمية لنا نحن؟ أسئلة مثل: كيف استطاع الأفراد الأذكياء والمتعلمون تعليما عاليا في وزارة الخارجية الأميركية ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، والبنك الدولي، وكليات الأعمال، والوكالة الأميركية للتنمية الدولية، ومراكز الأبحاث والفكر ـ كيف استطاعوا جميعا إقناع أنفسهم بإمكانية نجاح ستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية على المدى الطويل يا ترى؟ لِم لَم يدرك أيٌّ منهم أن انتهاج هذه الستراتيجية سيرتد علينا في خاتمة المطاف؟ كيف أمكن لهم ـ ولنا ـ تضليل أنفسنا جميعا باعتقاد أن الناس سيتقبلون فكرة تحقق رخاء الجميع عبر سياسات خفض الضرائب عن الأغنياء في مقابل خفض أجور الجميع وتقليص الخدمات الاجتماعية المقدمة لهم يا ترى؟ كيف فشلنا نحن، في مقابل نجاح الصين، بتعزيز الشراكات في ميادين التجارة الدولية؟ هل تسبب انهيار الاتحاد السوفييتي بهدهدتنا حتى دخلنا غيبوبة أشبه بالسبات العميق؟ هل أصبحنا شديدي التركيز على أنفسنا وسياساتنا الخلافية إلى جانب الصراعات في الشرق الأوسط حتى أهملنا توقع بزوغ قوة ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية يا ترى؟

تتناول الصفحات القادمة الأجوبة عن هذه الأسئلة، لكنّ سؤالا آخر يبقى كذلك: كيف حصل ابن أحد المدرسين من ريف نيوهامبشاير على هذا العمل القذر يا ترى؟

القسم الثاني

1963-1973

4

عمل قذر

حينما تخرجت في كلية الأعمال عام 1968، كنت مصمما على عدم المشاركة في حرب فيتنام. كنت متزوجا من آن للتو، وقد عارضت هي الأخرى ذهابي إلى الحرب، إلا أنها كانت شخصية مغامِرةً بما يكفي لتقبل فكرة تطوعنا ضمن فيالق السلام.

في البدء، وصلنا إلى كويتو في الإكوادور عام 1968. كنت متطوعا في سنّ الثالثة والعشرين، وكُلفت بمهمة تطوير تعاونيات ائتمان وادخار للمجتمعات في مجاهيل غابات الأمازون المطيرة. أما آن، فقد عملت على تعليم أمور النظافة ورعاية الأطفال لنساء السكان الأصليين.

سبق لآن السفر إلى أوروبا، إلا أن تلك كانت سفرتي الأولى خارج أميركا الشمالية. علمت أننا سنطير إلى كويتو التي تعد أعلى عواصم العالم ارتفاعا عن سطح البحر، وأفقرها على حد سواء. توقعت اختلاف كويتو عن كل ما رأيت سابقا، إلا أني لم أكن مستعدا لمواجهة الحقيقة كليا.

مع بدء هبوط طائرتنا التي أقلعت من ميامي، شعرت بصدمة عميقة لمنظر الأكواخ الخشبية المتهدمة على جانبي المدرج. اتكأت على آن التي جلست في المقعد الأوسط بجانبي وأنا أشير إلى النافذة، وسألت رجل الأعمال الإكوادوري الذي جلس بجوارها قائلا: «هل يعيش الناس هنا حقا؟».

أومأ الرجل بمهابة تنم عن الحزن وأجاب: «نحن بلد فقير».

عبر طريقنا في الباص إلى البلدة، طالعتنا مشاهد زادت من صدمتنا كثيرا حيث يرتدي الناس ملابس ممزقة ويتسولون على الأرصفة متكئين على عكازات محلية الصنع وسط أكوام القمامة التي تملأ الشوارع. بدت بطون الأطفال منتفخة على نحو مقلق، فيما انتشرت الكلاب الهزيلة وسط مدن الأكواخ المبنية بصناديق الورق المقوى القديم كمنازل تؤوي الناس.

نقلنا الباص إلى فندق الإنتركونتيننتال ذي الخمس النجوم في كويتو. كان ذلك الفندق بمثابة جزيرة من الفخامة وسط بحر الفقر المتلاطم، وهو المكان الذي سنحضر فيه أنا وما يقرب من ثلاثين متطوعا آخرين من فيالق السلام محاضرات لعدة أيام عن البلاد. لا بد لي من الاعتراف بأني أحسست بشيء من الراحة حينما خطوت أولى خطواتي داخل قاعة استقبال الفندق، ذلك الإحساس الذي قُدّر له التحول إلى شعور بالذنب مع إدراكٍ بأن نشأتي كرجل أميركي أبيض منحتني إحساسا زائفا بالتفوق والاختلاف.

أثناء المحاضرة الأولى ضمن سلسلة من المحاضرات، قيل لنا إن الإكوادور عبارة عن مزيج من الإقطاع الأوربي والغرب الأميركي. وحذرنا المحاضرون من طبيعة المخاطر المحدقة والمتوزعة ما بين الأفاعي السامة، والملاريا، وأفاعي الأناكوندا العملاقة، والطفيليات القاتلة، فضلا عن «مقاتلين عدوانيين يريدون رؤوسنا». ثم جاءت الأخبار الجيدة، حيث قيل لنا عن اكتشاف شركة تكساسكو النفطية العملاقة وجود مخزون نفطي ضخم لا يبعد كثيرا عن موقع تمركزنا في الغابات المطيرة. وتلقينا تأكيدات بأن النفط سيحول الإكوادور من واحدة من أفقر الدول في نصف الكرة الأرضية الجنوبي إلى أغناها.

بعد ظهيرة أحد الأيام، وأثناء انتظار المصعد في الفندق، تجاذبت أطراف الحديث مع رجل طويل أشقر يتشدق بلكنة أهل تكساس. كان الرجل متخصصا بالمسح الزلزالي ويعمل مستشارا لصالح شركة تكساسكو. حينما علم الرجل بأني وآن متطوعان ضمن فيالق السلام للعمل في الغابات المطيرة ولا نملك سوى القليل من مالنا الخاص، دعانا لعشاء في المطعم الأنيق الواقع في الطابق الأخير من الفندق. لم أصدق حسن حظي حينما رأيت قائمة الطعام، أدركت تجاوز ثمن وجبتنا بدل المعيشة الشهري الذي يدفع لنا. تلك الليلة، وفيما كنت أنظر إلى بشنتشا عبر زجاج نوافذ الفندق وأرتشف شراب المارغريتا، شعرت بأني متيم بذلك الرجل ونمط حياته.

قال الرجل إنه يسافر أحيانا على متن طائرة الشركة النفاثة الخاصة مباشرة من هيوستن إلى مطار صغير خاص وسط الأحراش استُولِيَ عليه. تفاخر الرجل قائلا: «نحن غير مضطرين إلى تحمل إجراءات المرور عبر إدارة الهجرة أو الجمارك». وأضاف: «لقد منحتنا الحكومة الإكوادورية تصريحا خاصًّا». تضمنت تجربة الرجل في الغابات المطيرة مقصورات مكيفة،

ومشروب الشمبانيا، عدا عن وجبات الطعام التي تقدم بأوانٍ من الخزف الصيني الفاخر. شعر الرجل بالفرق ما بيننا وضحك قائلا: «ليس هذا ما ستحصلون عليه كما أتصور».

بعد ذلك، تحول مسار الحديث إلى التقرير الذي كتبه وأطلق عليه اسم «بحر من النفط تحت الأدغال»، وقال إن هذا التقرير سيستخدم لتبرير منح البنك الدولي قرضا ضخما للبلاد مع حث شركات وول ستريت على الاستثمار في تكساسكو وباقي الشركات الأخرى التي ستنتفع من «الفورة النفطية» القادمة.

حينما أعربت عن دهشة شديدة إزاء سرعة حصول تقدم كهذا، رمقني الرجل بنظرة غريبة وتساءل قائلا: «ما الذي كانوا يدرّسونه لكم في كلية الأعمال إذن؟».

حِرتُ جوابا ولم أرد.

قال الرجل: «انظر. إنها لعبة قديمة. لقد رأيت هذا في آسيا، والشرق الأوسط، وإفريقيا. والآن يتكرر الأمر هنا كذلك. لا يتطلب الأمر سوى تقارير مسح زلزالي مع بئر نفط جيد التدفق كالذي أوجدناه للتو»، وابتسم قائلا: «عندها تزدهر البلدة!».

من جانبها، أشارت آن بكل إثارة إلى الازدهار الذي سيأتي به النفط على الإكوادوريين.

علق الرجل: «لأولئك الأذكياء بما يكفي للعب اللعبة وحسب!».

تذكرت لحظتها أني نشأت في بلدة نيوهامبشاير التي حملت اسم الرجل الذي بنى قصرا على تل يشرف على كل شيء، والذي بناه من أرباح تجارة بيع المعاول والبطانيات لعمال مناجم الذهب في كاليفورنيا عام 1849. قلت: «التجار ورجال الأعمال والمصرفيون».

قال الرجل: «لقد عرفتها. لكن الفرق اليوم أنها كبريات الشركات». ثم اتكأ بظهره على المقعد وأضاف: «إننا نملك هذا البلد. إننا نحصل على ما هو أكثر من مجرد التصاريح لهبوط الطائرات من دون عبور الإجراءات الرسمية الاعتيادية».

«مثل ماذا؟».

«يا إلهي، لا يزال أمامك الكثير لتتعلمه، أليس كذلك؟»، ثم رفع كأسه المملوءة بشراب المارتيني ناحية الشباك حيث يظهر مشهد المدينة. «بدايةً، نحن نسيطر على الجيش. إننا ندفع مرتباتهم ونشتري لهم معداتهم. إنهم يحمون ظهورنا من الهنود الذين لا يريدون وجود منصات الحفر على أراضيهم. في أميركا اللاتينية، من يسيطر على الجيش يسيطر على الرئيس والقضاء. لا بد لنا من كتابة القوانين، وضبط الغرامات على تسرب النفط، وأجور العمالة، وكل القوانين التي تهمنا».

سألت آن: «وهل تدفع تكساسكو مقابل كل ذلك؟».

انحنى الرجل ناحية الطاولة وربت على يد آن وقال: «حسنا، ليس تماما»، وأضاف: «أنتم تقومون بذلك، أو إنه والدكم لأكن أدقّ، وأقصد دافع الضرائب الأميركي. يتدفق المال عبر الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، والبنك الدولي، والبنتاغون». ثم وجه يده ناحية زجاج النافذة حيث المدينة في الأسفل وقال: «يعرف الجميع هنا أن الأمر كله يدور حول تكساسكو. تذكروا أن دولا كهذه لديها تاريخ حافل بالانقلابات. ولو أمعنتم النظر جيدا، فسوف تلاحظون حصول معظم تلك الانقلابات حينما يرفض زعماء البلاد اللعب وفق قوانين لعبتنا».[18]

تساءلت قائلا: «هل تقصد أن تكساسكو تقلب الحكومات؟».

ضحك الرجل وأجاب: «فلنقل إن الحكومات التي لا تتعاون معنا ينظر إليها كدمية سوڤييتية، وتهدد المصالح والديمقراطية الأميركية. ولا شك أن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لا تحب ذلك».

شهدت تلك الليلة بداية استكشافي لما تصورت أنه نظام ستراتيجية القتل الاقتصادي.

قضيت أنا وآن الشهور الثمانية عشر التالية في غابات الأمازون المطيرة. بعد ذلك نُقِلْنَا إلى منطقة مرتفعات الأنديز حيث كُلّفت بمساعدة مجموعة من صانعي الطابوق الريفيين. وساعدت آن في تدريب الناس المعاقين على كيفية الحصول على أعمال محلية.

قيل لي عن حاجة صانعي الطابوق إلى تحسين كفاية أفران الشواء حيث يتم التجفيف. لكن مرة بعد أخرى، جاءني الصنّاع يشكون من مالكي الشاحنات والمستودعات أسفل المدينة.

عُرفت الإكوادور بكونها دولة ذات حراك اجتماعي محدود. وفي بلد كهذا، تدير بعض العائلات الغنية كل شيء تقريبا، بما في ذلك الأعمال المحلية والنشاط السياسي. يشتري وكلاء تلك العوائل الغنية الطابوق من صانعيه بأبخس الأثمان ليعيدوا بيعه بما يقرب من عشر أضعاف قيمة شرائها. وحينما تجرأ أحد صانعي الطابوق لرفع شكواه إلى العمدة بهذا الخصوص، صدمته شاحنة تسببت بمقتله بعد بضعة أيام.

اكتسح الإرهاب المجتمع. أكد لي أحد الناس أنه سيقتل. وقد تأكدت شكوكي التي تعززت جراء إعلان رئيس الشرطة أن الرجل القتيل كان جزءا من مؤامرة كوبية لإدخال الإكوادور في فلك الشيوعية (على الرغم من إعدام تشي جيڤارا على يد عميل من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في بوليڤيا قبل أقل من ثلاث سنوات). وقد ألمح رئيس الشرطة إلى أن أي صانع طابوق يثير المشاكل سيواجه الاعتقال وتهمة التمرد.

توسل بي صانعو الطابوق كي أذهب إلى العائلات الغنية بهدف تصحيح الأمور. لقد كانوا راغبين في فعل أي شيء بهدف استرضاء تلك العائلات التي يخشونها، وبما في ذلك اقتناعهم الذاتي بأن تنازلهم عن مطالبهم سيدفع تلك العائلات الغنية إلى حمايتهم بالمقابل. لم أعرف ماذا أفعل، ولم يكن لدي أي نفوذ على العمدة. وفكرت أن ذهابي ـ كأجنبي في سنّ الخامسة والعشرين وحسب ـ للتدخل لن يزيد الأمر إلا سوءًا. استمعت إلى كلام الناس المساكين وتعاطفت معهم وحسب.

في خاتمة المطاف، لم تكن تلك العائلات الغنية إلا جزءًا من ستراتيجية ومحورا من محاور نظام أخضع الشعب الهندي عبر الخوف منذ الفتح الإسباني للقارة. وأدركت أني بمواساتي لن أمكن المجتمع من فعل أي شيء. في واقع الحال، لم يكن أولئك الناس بحاجة إليّ كي أدافع عنهم، وإنما كانوا بحاجة إلى الوقوف بوجه تلك العائلات الغنية بأنفسهم. كانوا بحاجة إلى إخراج الغضب المكبوت بداخلهم، وجرأة الرد على المظالم التي قاسوها.

أخبرتهم بوجوب التصرف. كان عليهم فعل كل ما يلزم ـ بما في ذلك مخاطرة التعرض للقتل ـ كي يكون هنالك فرصة لعيش مستقبل زاهر وسلام لأبنائهم.

كان إدراكي لتمكين هذا المجتمع بمثابة درس عظيم لي. لقد فهمت أن الضحايا أنفسهم ربما يتعاونون مع جلاديهم عن غير قصد، وأن التحرك والمواجهة ربما تكون الحل الوحيد. نجح ذلك

فعلا.

شكل صانعو الطابوق تعاونية تجمعهم. ثم تبرعت كل عائلة بكمية من الطابوق، واستخدمت التعاونية طابوق العائلات المجموع لبيعه في سبيل استئجار شاحنة نقل ومستودع في المدينة. من جانبها، قطعت العائلات الغنية التعامل مع تعاونية الطابوق حتى طلبت إرسالية مسيحية لوثرية من النرويج شراء الطابوق الذي تحتاج إليه من التعاونية لبناء مدرسة، وبسعر يبلغ ستة أضعاف ما تدفعه العائلات الغنية والذي يعادل نصف سعر الشراء الذي تدفعه الإرسالية لها في الوقت ذاته. مثلت الصفقة مكسبا للجميع فيما خلا العائلات الغنية. ازدهرت تعاونية الطابوق بعد ذلك.

في غضون أقل من عام على ذلك الحدث، أكملنا، أنا وآن، مهامنا التطوعية ضمن فيالق السلام. في ذلك الوقت، بلغت السادسة والعشرين من العمر وعدتُ غير خاضع لقانون التجنيد. لقد أصبحت قاتلا اقتصاديا.

حينما دخلت هذا المضمار، أقنعت نفسي بأني أقوم بالشيء الصحيح. سقطت فيتنام الجنوبية بيد الشمال الشيوعي، والآن بات العالم الحر عرضة للتهديد السوفييتي والصيني. درّسني أستاذي في كلية الأعمال أن من شأن تمويل مشاريع البنية التحتية عبر أكوام القروض التي يمنحها البنك الدولي انتشال الدول ذات الدخل المنخفض وإنقاذها من براثن الشيوعية. وقد عزز الخبراء من البنك الدولي والوكالة الأميركية للتنمية الدولية هذه الذهنية.

بمرور الوقت، اكتشفت زيف ادعاءات تلك القصة، إلا أني شعرت بالوقوع في فخ النظام. لقد نشأت مع الشعور بأني شخص فقير (على الرغم من إقراري بنسبية هذا التوصيف)، كابنٍ لمدرس في مدرسة نيوهامبشاير لأولاد الأثرياء، وفجأة تغيرت الأحوال وتدفقت بين يدي الأموال الكثيرة، وبت أسافر على مقاعد الدرجة الأولى نحو دول لطالما حلمت بزيارتها، نزلت في أفخم الفنادق، أكلت في أغلى المطاعم، ومع اجتماعات ضمَّتني وبعض من رؤساء الدول. فكيف لي إذن التفكير بترك هذا العالم يا ترى؟ في واقع الحال، لم أدرك حجم الامتياز الذي حظيت به إلا بعد مرور وقت طويل. فعلى النقيض من معظم أرجاء العالم الأخرى، لم أفكر يوما فيما ستكون عليه وجبة طعامي التالية أو إذا ما كان هنالك سقف فوق رأسي، فضلا عما تلقيته من تعليم لم يكن متاحا إلا للقلة وحسب.

ربما أدركت في أعماق ضميري بعض ذلك، لأن هذا هو الوقت الذي تبدأ فيه الكوابيس.

لطالما استيقظت في غرف الفنادق مبللا بالعرق، تطاردني صور المشاهد التي رأيتها فعلا. كانوا بشرا مصابين بالجذام، بعضهم مقطوع الأرجل ومربوطين إلى صناديق خشبية مدولبة يتحركون بها عبر الشوارع في جاكارتا، وأناس يستحمون في مياه آسنة خضراء اللون لزجة الملمس حيث يتغوط فيها بقربهم آخرون، جثث بشرية متفسخة تملَؤُها الديدان والحشرات تُركت قرب مكبات القمامة في الأماكن العامة، أطفال ينامون داخل صناديق من الورق المقوى ويتزاحمون مع مجموعات الكلاب السائبة على مخلفات النفايات. لقد أدركت أني فصلت نفسي عاطفيا عن الأشياء من هذا النوع. وكما هو الحال مع أميركيين آخرين، رأيت في أولئك المسحوقين ما هو أقل من البشر، مجرد متسولين وكائنات على الهامش.

في أحد الأيام، توقفت سيارة الليموزين التابعة للحكومة الإندونيسية التي تقلني في أحد التقاطعات. اقترب رجل مصاب بالجذام من النافذة ودفع بقايا يديه المملوءتين بالمرض يستجدي منا. صرخ به السائق فابتسم الرجل المريض ابتسامة كشفت عن فمه الخالي من الأسنان وتراجع إلى الخلف. تحركت السيارات وتلاشى منظر الرجل المريض، لكن روحه بقيت معي. أنبأني إحساسي كما لو أنه بحث عني، ولسان حال جسده العليل يطلق التحذيرات، وابتسامته تقول رسالة قصيرة مفادها «الإصلاح». تملكني الندم لحظتها.

بدأت انظر بإمعان أكثر إلى العالم من حولي، وإلى نفسي على حد سواء. وقد توصلت إلى نتيجة مفادها أني على الرغم من توفري على مظاهر النجاح، فإنني كنت بائسا بحق. اعتدت تناول الحبوب المنومة كل ليلة قبل معاقرة الكثير من الشراب. وكنت استيقظ صباحا لأبحث عن كوب قهوة ثقيل وحبوب منشطة أملأ بها جسدي، ومن ثم أخرج مترنحا لإكمال مسيرة مفاوضاتي على عقود بمئات الملايين من الدولارات.

بدت تلك الحياة طبيعية وعادية لي. اقتنعت بالقصص التي سردتها. كنت أتحدث عن القروض بهدف دعم استمرار نمط حياتي. كنت أعمل بدافع الخوف من: الشيوعية، وفقدان وظيفتي، والفشل، عدا عن عدم امتلاك الأشياء المادية التي قال لي الجميع إني بحاجة إليها.

تذكرت أني استيقظت ذات ليلة، لكن على حلم من نوع آخر.

حلمت أني دخلت مكتب أحد الزعماء في بلده الذي اكتُشِف فيه وجود النفط للتو. قلقت له: «ستستأجر شركاتنا المتخصصة بالإنشاءات معدات العمل التي تحتاج إليها من شركة شقيقك جون ديري. ولسوف ندفع له ضعف الأسعار المعتادة، في حين يمكنه مشاركة الأرباح معك». مضيت أثناء ذلك الحلم في شرح كيف ـ أننا نعقد صفقات مشابهة مع أصدقائه الذين يملكون معامل تعبئة مشروبات كوكا كولا، وباقي شركات تجهيز الأغذية والمشروبات، فضلا عن متعاقدي العمالة. وقلت له إن الأمر لا يتطلب سوى توقيعه على طلب قرض البنك الدولي الذي سيوظف شركات أميركية بهدف بناء مشاريع البنية التحتية في بلاده. وتطرقت عَرَضًا إلى أن الرفض سيجلب «أبناء آوى»، وقلت له: «تذكر ما حدث..».، وأوردت قائمة لأسماء مثل مصدق في إيران، وآربينز في غواتيمالا، وإليندي في تشيلي، ولومومبا في الكونغو، وديم في فيتنام. قلت له: «لقد أُطيح بهم جميعا». ثم حركت إصبعي على أسفل حنجرتي بحركة أفقية ذات دلالة وقلت: «لأنهم رفضوا الانخراط في لعبتنا».

استلقيت في فراشي مجددا والعرق البارد يغطيني، وأدركت تفسير ذلك الحلم لحقيقتي. لقد قمت بكل ذلك حقا.

كان سهلا عليّ تقديم مبررات وتفاصيل مثيرة لمسؤولِي الحكومة ـ من عينة الزعيم الذي رأيته في حلمي ـ يمكنهم استخدامها لتبرير القروض أمام أبناء شعوبهم. كان الكادر بمعيّتي من الاقتصاديين، والخبراء الماليين، والإحصائيين، وعلماء الرياضيات، كان كادرا ماهرا ومحترفا جدا في موضوع تطوير نماذج اقتصادية قياسية متطورة تبرهن على جودة استثماراتنا المقترحة، كما في أنظمة الطاقة الكهربائية، والطرق السريعة، والموانئ، والمطارات، والمدن الصناعية، والتي ستقود إلى تحقيق النمو الاقتصادي. لسنوات طويلة، اعتمدت على تلك النماذج كي أقنع نفسي بأني أقوم بأفعال مفيدة حقا. لقد بررت عملي بحقائق ارتفاع مقدار الناتج القومي الإجمالي بعد اكتمال بناء مشاريع البنية التحتية. أما الآن، فقد توصلت إلى مواجهة الحقائق من وراء تلك الأرقام الرياضية. في واقع الحال، كانت الأرقام منحازة إلى حد كبير، في حين ذهبت الثروات إلى جيوب عائلات تملك الشركات الصناعية، والمصارف، ومراكز التسوق، والمحال التجارية، والفنادق، فضلا عن جملة متنوعة من رجال الأعمال الذين ازدهرت أحوالهم جراء مشاريع البنية التحتية التي نفذناها.

أصاب أولئك الثراء.

وعانى الجميع فيما عداهم.

أما الأموال المخصصة في الموازنات لتمويل قطاعات الرعاية الصحية، والتعليم وباقي الخدمات الاجتماعية، فقد حُوِّلَت لدفع فوائد القروض. في خاتمة المطاف، لم يُسدد القرض قط، وغرقت البلاد بالديون. عندها وصل قتلة الاقتصاد التابعون لصندوق النقد الدولي وطالبوا الحكومة بعرض النفط أو أي موارد طبيعية أخرى على شركاتنا مقابل أسعار مخفضة، إلى جانب خصخصة قطاعاتها العاملة في مجالات الكهرباء، والماء، والصرف الصحي، وباقي المؤسسات الأخرى المرتبطة بالخدمات العامة وبيعها إلى مجمع شركاتنا الكبيرة. كانت الشركات الكبيرة الرابح الأكبر.

لطالما كان الشرط الأساسي لتقديم مثل هذه القروض متمثلا في وجوب بناء المشاريع على يد مهندسينا وشركاتنا الإنشائية. في واقع الحال، لم تغادر معظم أموال القروض خارج الولايات المتحدة مطلقا، وإنما تحركت من مكاتب مصرفية في واشنطن إلى مكاتب هندسية في نيويورك أو هيوستن أو سان فرانسيسكو. وعملنا نحن قتلة الاقتصاد على ضمان شراء الدولة للطائرات، والأدوية، والجرارات الزراعية، وتكنولوجيا الحواسيب، وباقي السلع والخدمات الأخرى من شركاتنا. بصرف النظر عن حقيقة تحويل الأموال شبه الفوري إلى الشركات التي تنتمي إلى مجمع شركاتنا الكبيرة، فإن البلد المتلقي للقروض (المدين) مطالب بسدادها كليا، كرأس مال مع فوائده. في حال حقق قاتل اقتصادي نجاحا كليا، فهذا يعني قرضا كبيرا جدا إلى الحد الذي يجبر الدولة المدينة على التخلف عن السداد في غضون بضع سنوات. وحينما يتحقق هذا النجاح الباهر، نطالب بنصيبنا من الغنيمة. يتضمن هذا بالعادة واحدة أو أكثر مما يلي: التحكم في التصويت داخل الأمم المتحدة، أو إنشاء القواعد العسكرية، أو الحصول على الموارد الطبيعية الثمينة كالنفط. من المؤكد بقاء الدولة المَدِينة مَدِينةً لنا بالمال، ما يعني دولة تابعة أخرى تضاف إلى امبراطوريتنا العالمية.

ساعدتني تلك الكوابيس كي أرى حياتي غير تلك الحياة التي أردتها. لقد بدأت أدرك، كما أدرك صانعو الطابوق الهنود من قبل، أني أتحمل مسؤولية حياتي، ومسؤولية ما قمت به لنفسي وأولئك الناس في دولهم. لكن، قبل تمكني من استيعاب المعنى الأعمق لهذه الحقيقة التي أخذت بالغليان في داخلي، يتوجب علي أولا معرفة ما الذي تملكني كي أقبل هذه الوظيفة

5

ولادة قاتل اقتصادي

بدأ الأمر ببراءة ولا شك.

كنت طفلا وحيدا وُلد عام 1945 لأبوين من الطبقة المتوسطة. ينحدر كلا والدَيَّ من أصول «اليانكي» التي تعود إلى منطقة نيوإنغلاند منذ ثلاثة قرون، حيث عكست مواقفهم الأخلاقية والصارمة توجه أسلافهم الجمهوريين المتزمتين. كان والداي أول من التحق بالجامعة من عائلتيهما، وهو ما حصل عبر منحة دراسية. عملت أمي كمدرسة للغة اللاتينية في المدرسة الثانوية، في حين التحق والدي بالجيش أثناء الحرب العالمية الثانية حيث كان ملازما في سلاح البحرية ومسؤولا عن طاقم مدفعية الحماية المرافقة لناقلات النفط التجارية الناقلة للوقود في المحيط الأطلسي. حينما وُلدت في مدينة هانوفر التابعة لمقاطعة نيوهامبشاير، كان والدي يتعافى في مستشفى تكساس من كسر أصيب به في منطقة الحوض. لم أرَ والدي حتى أكملت عامي الأول.

لاحقا، التحق والدي بالعمل كمدرس لغات في مدرسة تيلتون، وهي مدرسة داخلية في ريف نيوهامبشاير. ارتفع بناء المدرسة بعظمة فوق التل، وهو وصف قد لا يروق لمن يراه شاخصا بتعالٍ هناك، باتجاه بلدة حملت الاسم ذاته.

اقتصر الالتحاق بهذه المؤسسة الحصرية على ما يقرب من خمسين تلميذا لكل مرحلة من مراحلها الممتدة من عمر التاسعة إلى الثانية عشرة. في غالب الأحوال، كان الطلبة من أبناء العائلات الثرية من بوينيس آيريس، وكاراكاس، وبوسطن، ونيويورك.

لم تكن عائلتي ميسورة الحال، لكن من المؤكد أننا ما اعتبرنا أنفسنا من الفقراء. فعلى الرغم من تلقي المدرسين مرتبات قليلة جدا، وصلتنا جميع احتياجاتنا من غذاء، وماء، وسكن، وتدفئة، فضلا عن العمال الذين يجزون حشائش حديقتنا ويجرفون الثلج من أمام المنزل بالمجان. ابتداءً من

عيد ميلادي الرابع، تناولت الطعام في قاعة طعام المدرسة الثانوية، وجهزت الكرات لفريق الكرة الذي دربه أبي، وناولت المناشف للاعبين في غرفة تغيير الملابس.

ربما كان هناك شيء من الاستهانة في سلوك المدرسين وزوجاتهم الذين شعروا بالتعالي على السكان المحليين. ولطالما سمعت والدَيَّ يتندران بأنهما أسياد القصر، ويحكمان الفلاحين من سكان البلدة الأقل منزلة اجتماعية منهما. عرفت أن الأمر كان أكثر من مجرد مزحة وحسب.

انحدر أصدقائي من المدرسة الابتدائية والثانوية من تلك الطبقة الفلاحية الفقيرة بشدة. كان آباؤهم فلاحين، وحطابين، وعمال مطاحن. كره أصدقائي «طلبة المدرسة الخاصة أعلى التل». في مقابل ذلك، منعني والداي من التواصل مع أصدقائي الفقراء، لا سيما «فتيات البلدة».

اعتدنا قضاء أشهر عطلة الصيف الثلاثة من كل عام في كوخ على بحيرة بناه جدي في العام 1921. كان الكوخ مَحُوطا بالغابات، فيما كنا نسمع أصوات طيور البوم وأسود الجبال في الليل. كنا دون جيران، وكنت الطفل الوحيد في منزل على مسافة غير قليلة تفصلنا عن أقرب جار. إبان سنوات طفولتي، قضيت أيامي أتخيل الأشجار بعضا من فرسان الطاولة المستديرة وبعضا من الفتيات الحائرات يصرخن طلبا للنجدة.

بعمر الرابعة عشرة، حصلت على دروس مجانية بمدرسة تيلتون الخاصة. وبدفع من والدي، قطعت كل صلة تربطني بالبلدة ولم أرَ أصدقائي القدامى بعدها قط. حينما يعود زملائي إلى قصورهم وشققهم العالية أثناء العطل، كنت أظل وحيدا على التل. كانت صديقاتهم من بنات العائلات الثرية كذلك، لكنني لم أحظ بصديقة. بقيت وحيدا ومحبطا إلى حد كبير.

من جانبهما، أكد لي والداي أني محظوظ لهذه الفرصة، وأني سأكون ممتنا لها ذات يوم. سأجد يوما الزوجة المثالية، تلك الزوجة التي تتناسب ومعاييرنا الأخلاقية العالية. إلا أني كنت أكتم غضبا مكبوتا من الداخل. أما فكرة الجنس ــ وهو أمر لم أجربه مسبقا ــ فقد بدت مغرية جدا.

عوضا عن ذلك، وبدلا من التمرد، كَبَتّ غضبي وعبرت عن الإحباط بالتفوق الدراسي. كنت طالب شرف، قائدا لفريقين رياضيين جامعيين، فضلا عن كوني محررا في جريدة الكلية. صممت على سبق زملائي الأثرياء وقررت مغادرة تيلتون دون رجعة. إبان عامي الدراسي الأول، حصلت على منحة دراسية كاملة من جامعة براون على الرغم من عدم منح كليات ما تعرف

بـ«رابطة اللبلاب»[19] مِنَحاً للرياضيين، ما يعني أنهم أرادوا التزامي بلعب كرة القدم وحسب. في الوقت ذاته، حصلت على منحة أكاديمية بحتة في جامعة ميدلبيري. ابتداءً، فضلت جامعة براون لأني أحب الاستمرار بالنشاط الرياضي، ولأن الجامعة تقع في مدينة مهمة. تخرجت والدتي في ميدلبيري، ونال والدي درجة الماجستير منها كذلك. لكن على الرغم من عضوية جامعة براون ضمن رابطة اللبلاب، فضل والداي التحاقي بميدلبيري.

علق والدي قائلا: «ماذا لو كسرت ساقك؟»، وأضاف: «من الأفضل لك قبول منحة أكاديمية بحتة. التحق بميدلبيري». استسلمت لكلام أبي.

في نظري، لم تكن ميدلبيري سوى نسخة مضخمة من تيلتون، وإن كانت في ريف فيرمونت عوضا عن ريف نيوهامبشاير. على الرغم من أنها كانت جامعة مختلطة، فإنني كنت فقيرا بالمقارنة مع جميع الطلبة، ثم إنني لم ألتحق بأي موقع دراسي يضم فتيات منذ أربع سنين. كنت بائسا، وأفتقر إلى الثقة، ودون المستوى.

توصلت إلى قناعة مفادها أن الحياة عبارة عن سلسلة من المصادفات. فكيفية استجابتنا لتلك المصادفات تحدد كل شيء، كيف نختبر ما يصفه البعض بالإرادة الحرة، والخيارات التي نتخذها ضمن حدود تقلبات القدر التي تحدد من نكون. وقعت اثنتان من كبريات المصادفات التي رسمت مسار حياتي حينما كنت في ميدلبيري. جاءت إحدى المصادفتين على شكل شخص إيراني كان ابنا لجنرال خدم كمستشار للشاه، في حين تمثلت المصادفة الأخرى في فتاة شابة اسمها آن.

لعب الشخص ـ المصادفة ـ الذي سأطلق عليه اسم فرهاد كرة قدم احترافية في روما. تميز فرهاد بقوام رياضي وشعر أسودَ مجعدٍ، وعينين بنيتين ناعمتين، فضلا عن خلفية وجاذبية لا تقاومها النساء على ما يبدو. كان فرهاد نقيضي في كثير من التفاصيل. بذلت جهدا كبيرا للفوز بصداقته، وقد علمني الكثير من الأشياء التي قُدّر لها أن تنفعني في قابل السنوات. والتقيت هناك بمصادفتي الثاني، وكانت آن. على الرغم من أنها كانت على علاقة جدية برجل في كلية أخرى، فإنها احتضنتني تحت جناحها. كانت علاقتنا الأفلاطونية أول قصة حب حقيقي عشتها مع إنسانة من سنّي.

شجعني فرهاد على اعتياد الشراب، وارتياد الحفلات، فضلا عن إهمال والدي. قررت التوقف عن الدراسة بكامل إرادتي، كما قررت كسر ساقي الأكاديمية لأتعادل مع والدي. تراجعت درجاتي وفقدت منحتي. قدمت لي الجامعة قَرْضا مَثَّل تجربتي الأولى في موضوع الديون. شعرت بقذارة فكرة الاضطرار إلى سداد الدين مع فوائده بعد التخرج.

في منتصف عامي الدراسي الثاني، قررت ترك الجامعة. هددني والدي جراء هذا القرار، لكن فرهاد شجعني على المضي قدما فيه. اقتحمت مكتب العميد وتركت الدراسة. كانت تلك لحظة محورية في حياتي.

احتفلنا أنا وفرهاد بليلتنا الأخيرة معًا في حانة محلية. أثناء تلك الليلة، اتهمني مزارع مخمور ضخم الجثة بمغازلة زوجته قبل رفعه لي من ملابسي والإلقاء بي على الحائط. قفز فرهاد ليحول بيننا وسحب سكينا وجرح المزارع المخمور في خده. بعد ذلك، عمد فرهاد إلى سحبي عبر القاعة ورمى بي خارج النافذة لأقع على حافة نهر أوتر كريك العالية. قفزنا معًا لنشق طريقنا عائدين إلى القسم الداخلي.

حينما حقق معي أمن الحرم الجامعي صبيحة اليوم التالي، أنكرت ورفضت الإقرار بمعرفتي بالحادثة. لكن برغم ذلك، مُنح فرهاد خيار مغادرة ميدلبيري أو مواجهة اتهام جنائي. اتخذ فرهاد الخيار الأول. انتقلنا نحن الاثنين إلى بوسطن واستأجرنا شقة معًا. ثم وجدت لنفسي عملا في جريدتي هارتس ريكورد أميركان وصنداي أدفرتايزر بصفة مساعد شخصي لرئيس تحرير صنداي أدفرتايزر.

نهاية عام 1965، جُنِّد العديد من زملائي في الجريدة في الحرب. بغية تجنب المصير ذاته، دخلت كلية إدارة الاعمال في جامعة بوسطن. في هذه الأثناء، انفصلت آن عن حبيبها السابق وغالبا ما سافرت من ميدلبيري لزيارتي. رحبت كثيرا باهتمامها. كانت آن مرحة ومضحكة للغاية، وساعدتني على تجاوز الغضب جراء حرب فيتنام. تخصصت آن في دراسة اللغة الإنكليزية وألهمتني كتابة القصص القصيرة. تخرجت آن عام 1967، في حين كان لا يزال أمامي عام آخر لأكمل دراستي في جامعة بوسطن. ورَفَضَت بشدة موضوع الانتقال للعيش معي حتى نتزوج. على الرغم من أنني ضحكت كثيرا من فكرة تعرضي للابتزاز، وانزعجت كذلك من حقيقة ما رأيته فيها

استمرارًا لمنظومة المعايير الأخلاقية العتيقة والمحافظة التي يعتقد بها والداي، فإنني استمتعت بالأوقات التي قضيناها معًا وأردت الأكثر. تزوجت آن في نهاية المطاف.

كان والد آن مهندسا لامعا صمم نظام الملاحة لتوجيه فئة من الصواريخ المهمة وكوفئ بمنصب عالٍ في سلاح البحرية. أما صديق والدها، وكان رجلا تسميه آن العم فرانك (وهو ليس اسمه الحقيقي)، فقد عمل كمسؤول تنفيذي في أحد المناصب المهمة في وكالة الأمن القومي، تلك الوكالة التجسسية الأقل شهرة في البلاد والأكبر دورا بحسب أغلب ما يقال.

بعد وقت قصير من زواجنا، استدعاني الجيش لفحص اللياقة الجسدية الذي اجتزته، وبموجبه سيكون لزاما علي التوجه إلى حرب فيتنام بعد التخرج. لطالما سحرتني فكرة الحرب، لكن القتال في جنوب شرق آسيا مزقني عاطفيا. لقد نشأت وأنا أستمع إلى القصص عن أسلافي المستعمرين ـ بمن فيهم توماس باين وإيثان ألن[20] ـ وزرت جميع مواقع المعارك العسكرية التي وقعت في نيوإنغلاد ونيويورك شمالا حيث اندلعت الحروب الفرنسية والهندية والثورية. وقرأت جميع الروايات التاريخية التي وقعت بين يدي. وحينما دَخَلَت وحدات قوات الجيش الخاصة ميدان العمليات للمرة الأولى جنوبي شرق آسيا، كنت متلهفا للتطوع. لكن مع كشف وسائل الإعلام لفظائع وتناقضات السياسة الأميركية، تغيرت مشاعري تجاه ما يحدث. في خضم كل هذا، سألت نفسي أي جانب سيتخذه «باين» يا ترى؟ لا شك أنه كان ليأخذ جانب أعدائنا الفيتكونغ.

هب العم فرانك لنجدتي. أبلغني الرجل عن وجود وظيفة في وكالة الأمن القومي من شأنها منحي تأجيلا من التجنيد، ورتب لسلسلة من الاجتماعات في وكالته، بما في ذلك يوم من المقابلات الشاقة التي تتضمن الخضوع لجهاز كشف الكذب. قيل لي إن تلك الاختبارات ستحدد مدى أهليتي للتطوع في صفوف وكالة الأمن القومي، وفي حال تحقق ذلك، يتوجب علي تقديم ملف بنقاط قوتي وضعفي يستخدم في رسم خارطة حياتي المهنية. لكن بحسب موقفي من حرب فيتنام، كنت مقتنعا بفشلي في تلك الاختبارات.

تحت الاختبار، اعترفت بأني أرفض الحرب كمواطن مخلص لأميركا، وتفاجأت بموقف اللجنة التي لم تتوقف عند هذه النقطة.

عوضا عن ذلك، ركزت اللجنة على نشأتي، ومواقفي تجاه والدي، والمشاعر الناتجة عن كوني ولدا وحيدا، وحقيقة المشاعر التي ظهرت عبر نشأتي كفقير متزمت بين العديد من الأثرياء، الباحثين عن الملذات. وبحثوا في إحباطي إزاء افتقادي وجود النساء والجنس والمال إبان فترة العَوَز التي عشتها في الجامعة، والعالم الخيالي الذي تشكل لدي تبعا لذلك. لكنني تفاجأت لشدة الاهتمام الذي أولوه لعلاقتي مع فرهاد إلى جانب اهتمامهم باستعدادي للكذب على أمن الجامعة في سبيل حمايته.

بدايةً، توقعت أن كل ما ذكرت كان سلبيا ويقود إلى رفض وكالة الأمن القومي توظيفي، لكن المقابلات استمرت، الأمر الذي افترض نتيجة مغايرة. تطلبني الأمر بضعة سنوات أخرى كي أدرك أن تلك السلبيات كانت إيجابياتٍ من وجهة نظر وكالة الأمن القومي. في واقع الحال، كان تركيزهم على مشاعر الإحباط في حياتي أكبر من اهتمامهم بولائي للبلاد. جراء الغضب من والدي، وهوسي بالنساء، وطموحي للحصول على حياة أفضل، أدركت اللجنة طبيعة المدخل إلي وإمكانية إغوائي. بدا تصميمي على التفوق في الدراسة والرياضة، وتمردي النهائي على والدي، ومقدرتي على الانسجام مع الأجانب، ورغبتي بالكذب على الشرطة ـ بدت كلها من عينة سمات الشخصية التي يبحثون عنها. واكتشفت لاحقا عمل والد فرهاد لصالح مجتمع الاستخبارات الأميركي في إيران، لذلك كانت صداقتي مع فرهاد مزية إضافية.

في غضون أسابيع من اختبارات وكالة الأمن القومي، عُرضت علي وظيفة لبدء التدريب على فن التجسس، وشريطة بدئي ذلك بعد حصولي على شهادة جامعة بوسطن التي سأنالها في غضون أشهر قليلة. إلا أني قبل قبولي العرض رسميا، حضرت باندفاع ندوة داخل جامعة بوسطن نظمها أحد مسؤولي التطوع في فيالق السلام. لا شك أن كلا الحدثين مثل نقطةً مهمةً في مسار حياتي، لا سيما أن التطوع للخدمة في فيالق السلام يؤهلني ـ كما هو الحال مع وكالة الأمن القومي ـ لتأجيل خدمتي العسكرية.

كان جلوسي في تلك الندوة واحدة من تلك المصادفات التي لم تبد مهمة في حينها، لكن مضامينها قادت إلى تغيير حياتي لاحقا. وصف مسؤول التجنيد في فيالق السلام بعض الأماكن في العالم، لا سيما تلك التي تمس الحاجة إلى المتطوعين فيها. كانت غابات الأمازون المطيرة من بين

تلك الأماكن، حيث أشار إلى معيشة سكان تلك المناطق الأصليين حياة مشابهة كثيرا لسكان أميركا الشمالية الأصليين قبل مجيء الأوربيين.

لطالما حلمت بحياة كتلك التي عاشها «الأبيناكيون» الذين سكنوا أرض نيوهامبشاير حينما وصلها أوائل أسلافي المستعمرين. أردت تعرف تقاليد الناس التي فهموها جيدا في تلك الغابات. بعدما أنهى مسؤول المتطوعين حديثه، تقدمت لسؤاله عن إمكانية التحاقي بالخدمة في منطقة الأمازون. أكد الرجل لي وجود حاجة ماسة إلى المتطوعين في تلك المنطقة، وأن فرصتي ممتازة للوصول إلى هناك. قررت الاتصال بالعم فرانك.

تفاجأت كثيرا بموقف العم فرانك الذي شجعني بشدة على قبول فكرة التطوع في فيالق السلام. وأسرّني القول بأنه بعد سقوط هانوي ـ والتي كانت حقبة حبلى بالغموض للرجال في المناصب مثله ـ بات الأمازون مكانا مهما جدا.

قال الرجل: «إنها منطقة تعوم على النفط»، وأضاف: «لا بد لنا من وجود عملاء جيدين هناك، أناس يفهمون السكان أبناء البلد الأصليين». وقال لي: «ستمنحك تجربة العمل مع فيالق السلام خلفية تدريبية ممتازة»، وحثني على إتقان اللغة الإسبانية، فضلا عن معرفة اللكنات المحلية للسكان الأصليين. ثم ضحك العم فرانك قائلا: «ربما ينتهي الحال بك لتعمل مع شركة خاصة عوضا عن الحكومة».

ساعتها، لم أفهم مغزى كلام الرجل. لقد ارتقيت من درجة جاسوس إلى درجة قاتل اقتصادي، على الرغم من أني لم أسمع بهذا العنوان في السابق قط، ولن أسمع عنه لبضع سنوات قادمة كذلك. لم يكن لدي أدنى فكرة عن وجود المئات من الأفراد المنتشرين حول أرجاء العالم، أفراد يعملون لصالح مؤسسات استشارية وشركات خاصة ولا يتلقون أي سنت من أي وكالة حكومية، إلا أنهم يخدمون مصالح الإمبراطورية. ولم يخطر في بالي ظهور نوع جديد من العملاء بالآلاف مع عناوين وظيفية أكثر لطفا بحلول نهاية الألفية، وأني سألعب دورا حيويا في تشكيل هذا الجيش المتنامي.

تقدمت مع آن بطلب للالتحاق في صفوف فيالق السلام، ووثقت رغبتي بالذهاب إلى منطقة غابات الأمازون المطيرة. كانت ردة فعلي الأولية مفعمة بالإحباط حينما وصلنا إشعار القبول. قال

الإشعار إننا سنذهب إلى الإكوادور.

يا إلهي، لقد طلبت الذهاب إلى الأمازون، وليس إفريقيا.

أخذت أطلساً وبحثت عن الإكوادور. شعرت بالحزن لأني لم أستطع تحديد مكانها في إفريقيا. لكن بعد بحث في الفهرس، تبين وجودها في أميركا اللاتينية، وهو الأمر الذي برهن على افتقاري إلى المعرفة بجغرافيا العالم على الرغم من تعليمي الأكاديمي. بدت شبكة الأنهار على الخريطة ممتدة لتصل إلى مصبها في نهر الأمازون الكبير، حيث تنبع من الأنهار الجليدية في أعالي جبال الأنديز. وأكّدت لي قراءات إضافية أن أدغال وغابات الإكوادور تعد من أكثر المناطق الطبيعية تنوعا وحجما في العالم، في حين لا يزال السكان الأصليون يعيشون هناك بالطريقة ذاتها التي عاشوها منذ آلاف السنين. قبلنا الذهاب هناك.

أكملنا تدريبات فيالق السلام في جنوب كاليفورنيا وتوجهنا إلى الإكوادور شهر أيلول من العام 1968. عشنا في مناطق الأمازون مع شعب شوار الذي كان نمط حياته مشابها لنمط حياة سكان أميركا الشمالية قبل الاستعمار، ثم انتقلنا إلى منطقة الأنديز حيث عملت مع السكان المحليين ممن يعتاشون على صناعة الطابوق المحلي، والذين يعودون في أصولهم إلى قبائل شعب الإنكا. كان ذلك الجانب من العالم مكانا لم أحلم بوجوده يوما. حتى ذلك اليوم، لم يسبق لي لقاء أي أميركيين لاتينيين سوى الذين عرفتهم من طلبة المدرسة الأثرياء الذين درسهم أبي. وجدت نفسي أتعاطف مع السكان الأصليين ممن اعتاشوا على الصيد، والزراعة، وعمل الطابوق الطيني بطرق وأفران بدائية. لقد شعرت بنوع غريب من رابط الدم يجمعني بهم. وعلى نحو ما، ذكّرني هؤلاء الناس البسطاء بأولئك البسطاء الذين تركتهم ورائي في البلدة.

ذات يوم من الأيام، هبط رجل يرتدي بدلة رجال أعمال في مهبط الطائرات القريب من منطقتنا. كان الرجل يدعى إينار غريف، وكان يشغل منصب نائب رئيس شركة تشاس تي. ماين[21]، وهي شركة مختصة في مجالات الاستشارات الدولية وتعمل دون لفت الأنظار وتقدم دراسات بهدف تحديد ما إذا كان البنك الدولي سيقدم قروضا بقيمة مليارات الدولارات للإكوادور ودول جوارها بغية بناء سدود كهرومائية ومشاريع بنية تحتية أخرى. كان إينار ضابط احتياط برتبة عقيد في الجيش الأميركي كذلك.

بدأ إينار حديثه معي عن منافع العمل مع مؤسسة مثل شركة ماين. وحينما أشرت إلى قبولي للعمل في وكالة الأمن القومي قبل التطوع لفيالق السلام، وأني أفكر بالعمل هناك بعد إنجاز مهامي في الفيلق، قال الرجل إنه يعمل كضابط ارتباط مع وكالة الأمن القومي، ورمقني بنظرة تركتني في شك مما إذا كانت مهمته الحقيقية تقويم قدراتي. بِتُّ الآن مقتنعا بمجيء الرجل لتحديث ملفي، لا سيما تقييم مقدرتي على البقاء في بيئة يراها أغلب الأميركيين الشماليين معادية وغير ودية.

أمضينا عدة أيام في الإكوادور معًا، ومن ثم تواصلنا عبر الرسائل البريدية. طلب الرجل مني تقريرا لتقويم الآفاق الاقتصادية المستقبلية للإكوادور. كنت أحمل معي آلة كاتبة أحب استخدامها، وكنت سعيدا جدا بتلبية طلبه. خلال فترة عام تقريبا، أرسلت لإينار ما لا يقل عن خمسة عشر تقريرا مطولا. ضمن تلك الرسائل، قدمت تصورات لمستقبل الإكوادور السياسي والاقتصادي، وقوَّمتُ حالة الإحباط المتنامية ما بين المجتمعات المحلية وهي تكافح ضد الشركات النفطية، ووكالات التنمية الدولية، عدا عن المساعي الأخرى لإدخالهم حياة العالم المعاصر.

مع نهاية فترة عملنا في فيالق السلام، دعاني إينار لمقابلة عمل في مقر إدارة شركة ماين، في بوسطن. أثناء لقائنا الخاص، شدد الرجل على عمل شركة ماين في المجال الهندسي أساسا، وأن زبونه الأكبر، البنك الدولي، بدأ يركز مؤخرا على ضرورة وجود كادر من الاقتصاديين ضمن الشركة بهدف تقديم تقديرات اقتصادية حيوية تستخدم لتحديد جدوى وضخامة المشاريع الهندسية. وأسرني أنه تعاقد مسبقا مع ثلاثة اقتصاديين بمؤهلات عالية، يحمل اثنان منهما شهادة الماجستير، في حين يحمل الثالث الدكتوراه. لكنه أكد أنهم فشلوا فشلا ذريعا.

قال إينار «لا يملك أي منهم أدنى فكرة عن كيفية إنتاج توقعات اقتصادية ضمن دول لا تتوفر فيها إحصاءات موثوقة ومعتمدة». مضى الرجل في حديثه قائلا إنه، عدا عن ذلك، واجه الرجال الثلاثة استحالة في تطبيق بنود عقودهم، والتي تطلبت منهم السفر إلى مناطق بعيدة مثل الإكوادور، وإندونيسيا، وإيران، ومصر، بغية مقابلة الزعماء المحليين، فضلا عن عجزهم عن تقديم تقاويم شخصية حول آفاق التنمية الاقتصادية في تلك المناطق. وقال لي كيف أصيب أحدهم بانهيار عصبي أثناء وجوده في إحدى القرى البنمية المعزولة، وقد أخذته الشرطة البنمية إلى المطار لتضعه في طائرة عائدة إلى الولايات المتحدة. وأضاف قائلا: «تشير الرسائل التي أرسلتها الي إلى أنّك لا تمانع في المجازفة حتى في حال شحة البيانات المتوفرة. وبالنظر إلى ظروفك

المعيشية في الإكوادور، أنا واثق بمقدرتك على البقاء في أي مكان». وقال إنه طرد أحد الرجال الثلاثة أصلا، وأنه مستعد لفعل الأمر ذاته مع الاثنين الآخرين في حال قبلت أنا بالوظيفة.

لذلك، تلقيت في كانون الثاني من العام 1971 عرضا بالعمل كمستشار اقتصادي في شركة ماين. في ذلك الوقت، بلغت السادسة والعشرين، تلك السنّ السحرية التي تعني تجاوزي عمر الاستدعاء للخدمة العسكرية. تشاورت مع عائلة آن الذين شجعوني على قبول العمل، وأفترض تأثير رأي العم فرانك في موقفهم على حد سواء. ثم إنني تذكرت حديث ذلك الرجل حينما ذكر إمكانية عملي ضمن شركة خاصة عبر مروري من خلال فيالق السلام في نهاية المطاف. لم يُذكر أي شيء صراحة، إلا أنني لا أشك في أن توظيفي ضمن شركة ماين كان نتيجة لترتيبات العم فرانك التي شرع بها قبل ثلاثة أعوام، فضلا عن تجربتي في الإكوادور ورغبتي في الكتابة حول وضع البلاد الاقتصادي والسياسي.

تقاذفت الأفكار رأسي لعدة أسابيع وشعرت بشيء كبير من الغرور. في واقع الحال، لم يكن لدي سوى شهادة بكالوريوس من جامعة بوسطن، وهي شهادة لا تبدو كافية لضمان الفوز بوظيفة مستشار اقتصادي في شركة استشارية بارزة كهذه. وعلمت أن العديد من زملاء الدراسة في جامعة بوسطن من الذين لم يذهبوا إلى الحرب وأكملوا دراستهم للحصول على الماجستير وشهادات أخرى ستتملكهم الغيرة. تخيلت نفسي عميلا سريا أنيقا يتجه نحو مناطق مثيرة، يسترخي تحت الشمس على الأسِرَّة قرب حمامات السباحة، مَحُوطا بالنساء الجميلات العاريات وكأس مشروب المارتيني بيده.

على الرغم من تلك الخيالات كما بدت، قدّر لي استكشاف بعض عناصر الحقيقة فيها. لقد وظفني إينار كمستشار اقتصادي، إلا أنني علمت بعد وقت قصير أن العمل الحقيقي الذي قبلت به كان أقرب إلى عمل جيمس بوند، وأقرب مما أمكنني تصوره.

6

معا إلى الأبد

بلغة القانون، تعرف شركة ماين بكونها شركة خاصة ذات ملكية مغلقة، حيث يملك ما يقرب من 5% من موظفيها البالغ عددهم حدود الألفي الموظف أسهم الشركة. يشار إلى المالكين بوصف «الشركاء»، أو «المساعدين»، وإن منصب هؤلاء مرغوب فيه بشدة. ولا يملك أولئك الشركاء سلطة القرار والتحكم بالجميع وحسب، وإنما يجنون الأرباح الكبيرة كذلك. تميز كادر الشركة ببصمة التحفظ والكتمان، فهم يتعاملون مع رؤساء الدول، وباقي كبار المسؤولين التنفيذيين ممن يتوقعون منهم، كما هو الحال مع المحامين والخبراء النفسيين، ضمان الحد الأقصى من السرية والكتمان. وكان الحديث إلى الصحافة من المحرمات المطلقة، وأمرا لا يمكن التسامح فيه كليا. لذلك، بالكاد سمع أحد خارج شركة ماين بها، على الرغم من شهرة الشركات المنافسة لنا كما هو الحال مع أسماء مثل آرثر دي. ليتل، وستون آند ويبستر، وبراون آند روت، وهاليبورتن، وباكتل.

في سياق متصل، استخدم مصطلح «الشركات المنافسة» على نحو فضفاض لأن شركة ماين كانت عالما قائما بحد ذاتها. على الرغم من أن غالبية الكادر المتخصص لدينا كان من المهندسين، فإننا لم نكن نملك أي معدات ولم نشيد أي هيكل من أي نوع. كان العديد من موظفي شركة ماين من العسكريين السابقين، إلا أنها لم تتعاقد مع وزارة الدفاع أو أجهزة عسكرية أخرى قط. أما رصيدنا من الخبرات والموجودات فقد كان مختلفا ولا يشبه الآخرين إلى الحد الذي تركني بالشهر الأول في حيرة من أمري عن حقيقة وطبيعة ما نقوم به. في واقع الحال، لم أعلم سوى أن أول واجباتي سيكون في إندونيسيا، وأني سأكون ضمن فريق من أحد عشر شخصا يوفَد إلى هناك بهدف وضع خطة شاملة لشؤون الطاقة في جزيرة جاوة.

وعلمت برغبة إينار وآخرين ممن ناقشوا العمل معي في إقناعي بشدة أن اقتصاد جاوة سيزدهر بقوة، وأني إذا أردت البروز كمتنبئ اقتصادي جيد (ولكي أستحق الترقيات المعروضة)،

يتوجب علي تقديم توقعات تظهر الكثير، وهذا الكثير «يتجاوز المخططات البيانية»، كما راق لإينار الوصف.

حرك الرجل أصابعه بالهواء فوق رأسه وأضاف: «الكثير الذي يجعل اقتصادا يرتفع كالطائر إلى عنان السماء!».

يسافر إينار برحلات مستمرة تدوم ليومين أو ثلاث. لا يتحدث أحد عن تلك الرحلات ولا يعرف أحد شيئا عن وجهتها كما يبدو. أما حينما يوجد في المكتب، فقد كان يدعوني لمجالسته لبضع دقائق على قدحي قهوة. سألني إينار عن آن، وشقتنا الجديدة، فضلا عن القطة التي جئنا بها من الإكوادور. بمرور الوقت، ومع معرفتي به أكثر، زادت جرأتي ومحاولاتي لمعرفة عمله وما الذي يتوقع مني القيام به ضمن وظيفتي. إلا أنني لم أتلقَّ أي جواب شاف قط، فقد كان الرجل فنانا في المراوغة وتغيير المواضيع وتشتيت مسار الأحاديث نحو وجهة أخرى. وفي إحدى تلك المرات، رمقني إينار بنظرة غريبة.

قال إينار «ليس عليك القلق إزاء شيء»، وأضاف: «نحن نتوقع الكثير منك. كنت في واشنطن مؤخرا»، قالها بصوت متراجع وابتسامة غامضة. وأضاف: «على أي حال، وكما تعلم، لدينا مشروع كبير في الكويت. سيمر بعض الوقت قبل سفرك إلى إندونيسيا. يجدر بك استغلال وقتك في المطالعة عن الكويت. تمثل مكتبة بوسطن العامة مصدرا عظيما، ونستطيع تدبير تصريح لدخولك إلى مكتبات معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا مع جامعة هارفرد».

قضيت بعد ذلك ساعات طوال في تلك المكتبات، لا سيما مكتبة بوسطن العامة التي لا تبعد عن المكتب وشقتي في باك باي في بوسطن سوى بضعة شوارع وحسب. قرأت الكثير عن الكويت فضلا عن بعض كتب الإحصاءات الاقتصادية، سواء المنشورة من جانب الأمم المتحدة، أو صندوق النقد الدولي، أو البنك الدولي. عرفت أنه يُتوقع مني عمل بعض النماذج الاقتصادية القياسية عن إندونيسيا وجاوة، وقررت أنني ربما سأعمل قريبا على الكويت كذلك.

لكن شهادة البكالوريوس التي حصلت عليها في تخصص إدارة الأعمال لا تؤهلني كخبير في مجال الاقتصاد القياسي، الأمر الذي اضطرني إلى قضاء الكثير من الوقت في محاولة استكشاف كيفية القيام بذلك. وذهبت إلى حد الاشتراك في بعض الدورات التخصصية في هذا المجال. في

سياق هذا الكلام، اكتشفت إمكانية التلاعب بالأرقام الإحصائية وتزييفها بغية الخروج بطيف واسع من الاستنتاجات، بما في ذلك تلك الاستنتاجات التي تدعم رأي وتَوَجُّه المحلل الذي أنتجها.

كانت ماين شركة ذكورية بامتياز. عام 1971، لم يكن يوجد سوى أربع نساء يشغلن مناصب وظيفية في الشركة وحسب. في مقابل ذلك، كان يوجد ما يزيد على مئتي امرأة يعملن في الشركة ويتوزعن ما بين كادر السكرتارية والطباعة لخدمتنا، حيث يتوفر كل نائب من نواب الرئيس إلى جانب كل مدير قسم على سكرتيرة. من جانبي، اعتدت هذا النوع من التمييز الجندري، وبالتالي اندهشت كثيرا لما حصل ذَا يومٍ في قسم المراجع التابع لمكتبة بوسطن العامة.

في ذلك الوقت، وأثناء جلوسي للمطالعة في المكتبة، سحبت امرأة جذابة كرسيا لتجلس على المنضدة ذاتها قبالتي. ببزتها الرسمية الخضراء، بدت المرأة أنيقة على نحو لافت. توقعت أنها تكبرني ببضع سنوات، إلا أنني حاولت التركيز والتظاهر بعدم الاكتراث. بعد دقائق قليلة، ودون أي مقدمات، دفعت المرأة كتابا مفتوحا تجاهي. احتوى الكتاب في صفحته المفتوحة جدولا يضم معلومات عن الكويت كنت أبحث عنها، مع بطاقة تعريفية تحمل اسم كلودين مارتن بعنوان مستشار خاص في شركة ماين. رفعتُ رأسي لأنظر في عينيها الخضراوين الناعمتين فيما مدت المرأة يدها لتصافحني.

قالت المرأة: «طُلب إلي المساعدة في تدريبك». بقيت مندهشا من حصول هذا لي.

بِبَدْئِنَا من اليوم التالي، التقيت أنا وكلودين في شقتها الواقعة في شارع بيكون الذي لا يبعد سوى بضعة شوارع عن مقر إدارة شركة ماين. خلال ساعتنا الأولى معا، شرحت لي حساسية موقعي غير العادية وحاجتي إلى التحفظ وإبقاء الأمور سرية إلى أقصى الحدود. ضحكت كلودين بوعي وأبلغتني بأن مهمتها تدور حول إعدادي لأكون قاتلا اقتصاديا.

أيقظ الاسم بداخلي خيالات صراعات عصر النهضة وخناجر الرجال المخفية تحت عباءاتهم دلالة على الخداع، والتجسس، والسرية، والغموض. ضَحِكتُ حد الحرج من عصبيتها. ابتسمت كلودين وطمأنتني بأن حس الفكاهة يمثل أحد أسباب استخدام هذا المصطلح. وتساءلت قائلة: «وهل يوجد من سيأخذه على محمل الجد يا ترى؟».

اعترفت بجهلي عن دور القاتل الاقتصادي وماهيته.

قالت «لست وحدك»، ولمحت شيئا من التصدع بثقتها في نفسها. وأضافت: «نحن أفراد من سلالة نادرة في هذا العمل القذر. ولا يجب معرفة أي شخص عن تورطك، ولا حتى زوجتك». تحولت نبرة المرأة إلى الجدية وأضافت: «سأكون صريحة تماما معك، وأعلمك كل ما بوسعي خلال الأسابيع القادمة. بعدها، سيكون القرار الأخير لك لتدخل هذا المضمار من عدمه، قرارا نهائيا لا رجعة فيه مدى الحياة». بعد كلماتها تلك، لم تستخدم كلودين المصطلح الكامل إلا ما ندر، فقد اعتمدت مختصره الإنكليزي الـEHM، في حين كنا مجرد قتلة اقتصاد ينفذون ستراتيجية قتل اقتصادي وحسب.

أدركت لحظتها ما لم أفهمه في السابق، وهو انتفاع كلودين بنقاط الضعف التي اكتشفتها وكالة الأمن القومي في شخصيتي، على الرغم من أنني لم أتبين حقيقة من زودها بهذه المعلومات، إنْ كان إينار، أو وكالة الأمن القومي، أو قسم شؤون الموظفين في شركة ماين، أو ربما شخصا آخر. لكنني واثق باستخدام المرأة كل ما تعرف عني بإجادة لافتة. بدا أسلوبها مزيجا من الإغواء الجسدي والتلاعب اللفظي، أسلوبا صُمِّمَ للتعامل معي تحديدا وإن كان متسقا تماما مع معايير التوظيف التي شهدتها من جانب الكثير من الشركات حينما تكون المخاطر عالية والضغوط بهدف إكمال الصفقات المربحة شديدة. لقد عَلِمَت، هي ورؤساؤها، منذ البداية أني لن أخاطر بزواجي عبر كشف نشاطاتي السرية. وكانت المرأة صريحة حد الصدمة حينما وصلت إلى تفصيل وصف الجانب الخفي والغامض من الأشياء المتوقعة مني.

لم يكن لدي أي فكرة عمن يدفع مرتب المرأة، على الرغم من أنني لم أشتبه في أنها قد لا تكون من شركة ماين كما تشير بطاقتها التعريفية. كنت في ذلك الوقت ساذجا، ومرتعبا، ومنبهرا لأثير أسئلة تبدو إجاباتها بالغة الوضوح اليوم.

أخبرتني كلودين عن وجود هدفين رئيسيين من وراء عملي. يتمثل الهدف الأول لعملي في تبرير تقديم القروض الدولية الضخمة التي ستعود بالأرباح الكبيرة على شركة ماين وباقي الشركات الأميركية الأخرى (كما هو الحال مع باكتل، وهاليبورتن، وستون آند ويبستر، وبراون آند روت) عبر مشاريع هندسية وإنشائية ضخمة. أما الهدف الثاني، فيدور حول إفلاس الدول التي تتقاضى تلك القروض (بعدما تدفع تلك الدول إلى شركة ماين وباقي المقاولين الأميركيين بكل تأكيد)، الأمر الذي يتركهم مدينين وضعفاء وأهدافًا سهلة بإزاء الدائنين إلى الأبد، ومستعدين لفعل كل ما يطلب إليهم في

أي وقت، بما في ذلك منح موافقات إنشاء القواعد العسكرية، أو التصويت داخل الأمم المتحدة، أو حق الاستفادة من النفط وباقي الموارد الطبيعية الأخرى. ولسوف أعتمد على دعائم ستراتيجية القتل الاقتصادي الأربعة في تحقيق ذلك، تلك الدعائم المبنية على الخوف، والدَّين، والقلق من عدم الكفاية، فضلا عن سياسة فرق تسد. وعبر تلخيص تاريخ هذه الدعائم، شددت كلودين على التحول الذي طرأ في زمننا اليوم من التركيز على الخوف إلى الدَّين، في حين بقيت دعامتا القلق من عدم الكفاية وفرق تسد على أهميتهما الأساسية.

أكدت المرأة تمحور عملي حول توقع الآثار المترتبة على استثمار المليارات من الدولارات في بلد ما. وعلى نحو الدقة، سأُعِدُّ دراسات تتنبأ بنمو اقتصادي يمتد إلى 20 ـ 25 عاما للمستقبل، مع تقييم تأثيرات جملة متنوعة من المشاريع. فإذا ما تقرر، على سبيل المثال، منح قرض بقيمة مليار دولار لبلد ما بغية حث زعمائه على عدم الانحياز إلى الاتحاد السوڤييتي، سأعمد إلى مقارنة منافع استثمار ذلك المال في محطات الطاقة الكهربائية مع منافع الاستثمار في شبكة خطوط السكك الحديدية الوطنية وأنظمة الاتصالات الجديدة، أو قد أُبلِّغ بمنح بلد ما فرصة الحصول على منظومة حديثة للطاقة الكهربائية، وحينها سيكون على عاتقي برهنة مقدرة هذه المنظومة على تحقيق ما يكفي من النمو بغية تبرير منح القرض. يعد الناتج القومي الإجمالي عاملا حاسما في كل الحالات. لذلك، يفوز المشروع الذي يحقق معدل ناتج قومي إجمالي أعلى. أما إذا لم يكن يوجد سوى مشروع واحد قيد النظر، عندها يتمحور العمل على إثبات فائدة تطوير المشروع الذي سيعود بمنافع كبرى على معدل الناتج القومي الإجمالي للبلاد.

مما لا شك فيه تماثل الوجه المشترك وغير المرئي لجميع هذه المشاريع في كونها تهدف إلى تحقيق أرباح كبيرة لصالح المقاولين الأميركيين، فضلا عن سعادة وثراء نخبة صغيرة من العائلات المتنفذة في الدول التي تحصل على القروض، مع ضمان تبعية مالية طويلة الأمد لهذه الدول المدينة إلى جانب الولاء السياسي للحكومات عبر أرجاء العالم. وكلما كان القرض أكبر، كانت فرصة الهيمنة أفضل. ولا حاجة إلى ذكر حقيقة وقوع عبء قرض الدولة المدينة على كاهل مواطنيها الفقراء الذين سيحرمون من خدمات الصحة، والتعليم، وباقي الخدمات الاجتماعية الأخرى لعقود قادمة، حيث لا يضع أحد ذلك في نظر الاعتبار.

ضمن نقطة ما، قالت لي كلودين إني حينما ألتقي المسؤولين عن قبول القرض وبهدف دفع العجلة على السكة، يتوجب عليّ إخبارهم: «اقبلوا قرض البنك الدولي والتزموا بشروط صندوق النقد الدولي إذا ما أردتم ازدهار بلدكم». بدفع منها، كتبت هذه العبارات في دفتر ملاحظاتي، حفظتها على ظهر القلب، واستخدمتها مرارا وتكرارا لسنوات لاحقة. وأخيرا، ستصنف مؤسسات البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ووزارة الخزانة الأميركية وأخواتها الأخريات التي تعرف جميعا بمسمى «إجماع واشنطن»، وسياساتها ـ ستصنف بالمجموع تحت بند «الليبرالية الجديدة». لاحقا، عُدّلت عبارة كلودين لتكون كالتالي: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا القروض من إجماع واشنطن، ووظِّفوا شركاتنا، وطبقوا سياسات الليبرالية الجديدة».

على نحو صريح، تناقشت مع كلودين حول الطبيعة المخادعة لقياسات معدل الناتج القومي الإجمالي. فعلى سبيل المثال، قد يرتفع الناتج القومي الإجمالي نتيجة لأرباح شخص واحد، شخص قد يملك شركة ما، وحتى في حال نأت أغلبية الشعب بعبء القروض على البلاد. ربما يزداد الأثرياء ثراءً والفقراء فقرًا، لكن الأرقام ـ من وجهة نظر إحصائية ـ ستشير إلى تسجيل تقدم اقتصادي. يصح الأمر ذاته عن الناتج القومي الإجمالي.

كما هو الحال مع المواطنين الأميركيين، اعتقد معظم العاملين في شركة ماين أننا نعمل لصالح البلدان عندما نبني محطات الطاقة، والطرق السريعة، والمطارات. لقد علمتنا مدارسنا وصحافتنا رؤية كل أعمالنا إيثارًا للآخرين. لسنوات طويلة سمعت تعليقات من عينة: «إذا ما كانوا سيحرقون علمنا ويتظاهرون ضد سفارتنا، لِمَ لا نخرج من بلدهم اللعين ونتركهم يغرقون في دوامة فقرهم وحسب؟».

إني أعلم الآن بحيازة الناس الذين يقولون أشياء كهذه عادة شهادات تثبت أنهم متعلمون تعليما عاليا. لكن هؤلاء الناس لا يملكون أدنى فكرة عن تمحور السبب الرئيس لإقامة سفارات لنا عبر العالم حول خدمة مصالحنا، تلك المصالح التي تتمحور حول إقامة أول امبراطورية حقيقية منذ النصف الثاني من القرن العشرية، امبراطورية مدعومة بقوة ومصالح الشركات وتوجيه الحكومة الأميركية. وعلى الرغم من مؤهلات هؤلاء الناس، فإنهم (وكاتب هذه السطور كان منهم) واهمون ومُضَلَّلون كما كان مستعمرو القرن الثامن عشر يعتقدون أن الهنود الذين دافعوا عن أرضهم كانوا خُدّاما للشيطان.

في غضون أشهر قليلة، كنت بصدد السفر إلى جزيرة جاوة في إندونيسيا، تلك المنطقة التي وُصفت في وقتها بكونها البقعة الأكثر كثافة بشرية على سطح الكوكب. وتصادف هذا الكلام وكون إندونيسيا بلدًا مسلمًا غنيًّا بالنفط ومرتعًا لنشاط شيوعي قوي. فضلا عن ذلك، بذل السوڤييت والصينيون مساعٍ كبيرة لإيجاد موطئ قدم قوي في إندونيسيا وعبر مناطق جنوب شرق آسيا.

رسمت كلودين امتداد المسار قائلة: «ثم تأتي فيتنام كحجر الدومينو التالي». وأضافت تقول: «لا بد من كسب الإندونيسيين. أما إذا ما التحقت إندونيسيا بالكتلة الشرقية..»، قالتها وهي تشير بإصبعها بإزاء رقبتها كعلامة على التشديد لتبتسم برقة وتضيف: «لنقل إنك بحاجة إلى الخروج بتوقعات اقتصادية متفائلة جدا عن الاقتصاد، وكيف سينتعش ويكبر بعد إنشاء محطات الطاقة الكهربائية وخطوط التوزيع الجديدة. سوف يمنح هذا الكلام الوكالة الأميركية للتنمية الدولية ومعها البنك الدولي المسوغ لتبرير القروض. ولسوف تُكافَأ بسخاء، ومن المؤكد أنك ستنتقل إلى مشاريع أخرى في مناطق مثيرة جدا، في حين سيغدو شراء العالم في متناول يديك». مضت كلودين في حديثها لتحذرني من صعوبة دوري. وأضافت تقول: «سيندفع الخبراء من البنوك للنيل منك، فعملهم الذي يتقاضون الأجر مقابله يتمحور حول إيجاد الثغرات في توقعاتك. لا شك أن إخراجك بالصورة السيئة يعني خروجهم بالصورة الحسنة بالمقابل».

ذكَّرتُ ذَا يومٍ كلودين بأن فريق ماين المتجه إلى جاوة يضم عشرة رجال آخرين غيري، وسألتها عما إذا تلقوا التدريب ذاته الذي حظيت به. أكدت المرأة أنهم لم يتدربوا كما حصل معي.

قالت كلودين: «جميعهم مهندسون، ووظيفتهم تصميم محطات الطاقة، وخطوط النقل والتوزيع، والموانئ، والطرق التي تنقل الوقود. لكنك الوحيد الذي يرسم صورة المستقبل. ستحدد توقعاتك حجم النظام الذي يصممونه، وبالتالي حجم القرض الممنوح. ألا تلاحظ دورك المحوري في الموضوع!».

تساءلت في كل مرة أغادر فيها شقة كلودين عما إذا كنت أفعل الصواب بحق. لا أنكر أني شعرت بذلك في مكان ما من قلبي. لكن إحباطات الماضي بقيت تتملكني. في مقابل ذلك، بدا عرض شركة ماين تعويضا لكل ما ينقص حياتي من مال وسلطة وجنس. في نهاية المطاف، أقنعت نفسي

أني عبر التعلم أكثر، والتجربة الأعمق، يمكنني حينها كشف وفضح الأشياء على نحو أفضل من أسلوب التبرير التقليدي المبني على مبدأ «العمل من الداخل».

حينما صارحت كلودين بالفكرة، رمقتني بنظرة مرتبكة وقالت: «لا تكن سخيفا. بمجرد دخولك هذا العالم لن تخرج منه أبدا. لا بد لك من أخذ القرار بنفسك قبل الخوض في الموضوع أعمق». فهمت كلامها تماما، وقد أخافني ما قالته بحق. بعد مغادرتي، تجولت في جادة الكومنويلث قبل المشي نحو شارع دارتماوث. طمأنت نفسي أني كنت استثناءً. بعد بضعة أشهر من ذلك اليوم، جلسنا ذَا مساء أنا وكلودين قرب النافذة نشاهد منظر تساقط الثلج في شارع بيكون. قالت كلودين: «نحن مجموعة متميزة ونادٍ حصري جدا»، وأضافت: «إنهم يدفعون لنا، ويدفعون بسخاء بالغ، بغية خداع الدول عبر أرجاء العالم بأرقام من مليارات الدولارات. يتمحور جزء كبير من عملك حول تشجيع زعماء العالم ليصبحوا جزءًا من شبكة كبيرة تعزز المصالح التجارية الأميركية. أقنعهم بوجوب الخوف من الشيوعية، أو بالخوف منا نحن إذا تطلب الأمر. قل لهم إن الحل يكمن في قبول القروض من بنوكنا التي ستدفع لشركاتنا كي تنشئ البنية التحتية التي ستُنهي معاناتكم. إنه أمر بسيط. وفي خاتمة المطاف، سيسقط هؤلاء الزعماء في فخ القروض التي تضعهم في دائرة الولاء المضمون لنا. سيكون بوسعنا الاعتماد عليهم متى ما أردنا بهدف تلبية متطلباتنا السياسية، أو الاقتصادية، أو العسكرية. في مقابل ذلك، يعزز أولئك الزعماء مكانتهم الاقتصادية عبر جلب المناطق الصناعية ومحطات الطاقة والمطارات لشعوبهم. وفي هذا الأثناء، يحقق مالكو الشركات الهندسية والإنشائية الأميركيون الثراء الفاحش».

مساء ذلك اليوم، وفي ذلك المكان المثالي لشقة كلودين حيث جلست مسترخيا أشاهد تدفق الثلج القادم من السماء، استكشفت تاريخ العمل الذي كنت على وشك الخوض فيه، ووصف كلودين كيف بُنيت الامبراطوريات عبر استخدام القوة العسكرية أو التلويح بها في معظم أزمنة التاريخ. لكن مع نهاية الحرب العالمية الثانية وبروز الاتحاد السوفييتي إلى جانب شبح الهولوكوست النووي، بات الحل العسكري بالغ الخطورة.

جاءت اللحظة الحاسمة عام 1951، وذلك حينما تمردت إيران ضد شركة النفط البريطانية التي استغلت موارد إيران الطبيعية وشعبها، تلك الشركة التي تحولت لاحقا إلى شركة البترول البريطانية BP. ردا على ذلك الاستغلال، قرر رئيس الوزراء الإيراني المنتخب ديمقراطيا بأغلبية

شعبية كبيرة (والذي اختارته مجلة تايم الأميركية للقب رجل العام 1951)، محمد مصدق ـ قرر تأميم جميع الأنشطة والموجودات النفطية الإيرانية. من جانبها، طلبت بريطانيا الغاضبة عون حليفة الحرب العالمية السابقة، الولايات المتحدة. لكن كلا البلدين خشيا الرد العسكري الانتقامي ضد إيران مخافة استحضاره أفعالا عسكرية سوڤييتية متطرفة من جانب موسكو لصالح طهران.

لذلك، وعوضا عن إرسال مشاة بحريتها، أوفدت واشنطن عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية كيرميت روزفلت (وهو حفيد الرئيس ثيودور روزفلت). أبدع الرجل في مهمته وتمكن من شراء الناس بالأموال السخية، والتهديدات، والدعاية المناهضة للشيوعية. تمكن كيرميت من تجييش الناس وتحريكهم بسلسلة مظاهرات وأعمال عنف خلقت الانطباع بقلة شعبية مصدق وعدم أهليته. في خاتمة المطاف، سقط مصدق وقضى باقي حياته تحت الإقامة الجبرية. في هذه الأثناء، تحول الشاه المؤيد للأميركيين، محمد رضا بهلوي، إلى دكتاتور بلا منازع. مهد كيرميت روزفلت المشهد لانطلاق مهنة من نوع جديد، مهنة من النوع الذي دخلته للتو.[22]

أعادت مناورة كيرميت الناجحة رسم تاريخ الشرق الأوسط عبر استعادة الستراتيجيات القديمة لبناء الامبراطوريات بنمط محدّث. وتصادف هذا الكلام وبداية تجارب «العمل العسكري غير النووي المحدود»، الذي انتهى إلى الإذلال الأميركي لكوريا وفيتنام وأفغانستان. بحلول العام 1968، ذلك العام الذي قابلت فيه لجنة وكالة الأمن القومي، بدت واضحة رغبة الولايات المتحدة في تحقيق حلمها الامبراطوري (كما تخيلها رجال مثل الرئيسين جونسون ونيكسون)، والتي قررت توظيف ستراتيجيات مبنية على مثال تجربة كيرميت روزفلت في إيران. مثلت تلك الطريقة الوحيدة لهزيمة السوڤييت دون المجازفة بحرب نووية.

لكن مشكلة واحدة بقيت، مشكلة تتمثل في كون كيرميت روزفلت موظفا في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. وفي حال قُبِض عليه، ستكون العواقب وخيمة. قاد كيرميت أول عملية للإطاحة بحكومة أجنبية، ومن المحتمل تكرار الأمر في المستقبل ما بعدها. لكن الأمر الهام يتمحور حول ضرورة إيجاد نهج جديد لا يظهر تورط واشنطن المباشر.

لحسن حظ واضعي الستراتيجيات، شهدت ستينيات القرن الماضي ثورة من نوع آخر كذلك، ثورة تمثلت في تضخم الشركات العالمية والمنظمات متعددة الجنسيات كما هو الحال مع البنك

الدولي وصندوق النقد الدولي. ولا بد من الإشارة إلى حقيقة تمويل صندوق النقد الدولي بشكل أساسي من جانب الولايات المتحدة إلى جانب بُناة الامبراطورية الشقيقة في أوربا. تطورت علاقة تكافلية جمعت الحكومات، والشركات، والمنظمات متعددة الجنسيات.

بحلول الوقت الذي التحقت فيه بكلية الأعمال في جامعة بوسطن، وُضِع حلٌّ لمشكلة عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية روزفلت. تقوم وكالات الاستخبارات الأميركية، بما فيها وكالة الأمن القومي، بتحديد قتلة اقتصاد محتملين لتوظفهم الشركات العالمية لاحقا. لن يتقاضى قتلة الاقتصاد مرتبات من الحكومة، وإنما سيحصلون على مرتباتهم من القطاع الخاص. نتيجة لذلك، ينسب عملهم القذر، في حال انكشافه، إلى جشع الشركات عوضا عن سياسات الحكومة. فضلا عن ذلك، فإن الشركات التي توظف هؤلاء القتلة، وعلى الرغم من أنها تمّول من قبل الوكالات الحكومية والمصارف الدولية (بأموال دافعي الضرائب)، ستكون معزولة عن رقابة مجلس الشيوخ والتدقيق العام، ومحمية بمجموعة متنامية من المبادرات القانونية التي تشتمل على: العلامة التجارية، والتجارة الدولية، وحرية المعلومات.[23]

خلصت كلودين: «كما ترى، فنحن لسنا سوى الجيل التالي من تقليد عريق عاد إلى الظهور منذ كنت أنت في المرحلة الأولى من دراستك الجامعية».

7

إندونيسيا: دروس لقاتل اقتصادي

إلى جانب التعلم عن مهنتي الجديدة، قضيت بعض الوقت في قراءة كتب عن إندونيسيا. وقد نصحتني كلودين في هذا السياق قائلة: «كلما عرفت عن البلاد قبل ذهابك إليها أكثر، بات عملك أسهل». أخذت كلماتها على محمل الجد.

حينما أبحر كولمبوس عام 1492، كان يريد الوصول إلى إندونيسيا التي عرفت في حينها بجزر التوابل. لطالما اعتُبرت إندونيسيا كنزا أكثر قيمة من الأميركيتين إبان الحقبة الاستعمارية. فعبر منسوجاتها الرائعة، وتوابلها الأسطورية، وممالكها الفخمة، مثلت جاوة درة التاج ومشهد الصدام العنيف ـ على حد سواء ـ ما بين المغامرين الإسبان، والهولنديين، والبرتغاليين، والبريطانيين. وسط ذلك الصراع، خرج الهولنديون منتصرين عام 1750. لكن حتى مع سيطرتهم على جاوة، لم يتمكن الهولنديون من إخضاع الجزر المحيطة بها حتى مضى مئة وخمسون عاما آخر.

مع غزو اليابانيين إندونيسيا إبان الحرب العالمية الثانية، لم تمثل القوات الهولندية مقاومة تذكر. في هذه الأثناء، عانى الإندونيسيون، لا سيما الجاويّون، على نحو مريع. بعد سقوط اليابان، برز زعيم يتحلى بجاذبية كبيرة يدعى سوكارنو، وأعلن استقلال البلاد. لكن الاستقلال لم يكن الخاتمة، فقد تطلب الأمر في النهاية قتالا امتد لأربع سنوات حتى أنزلت القوات الهولندية علمها في السابع والعشرين من كانون الأول عام 1949، لتعيد السيادة إلى الشعب الذي لم يعرف شيئا غير الصراع والهيمنة الأجنبية لأكثر من ثلاثة قرون. أُعلِن سوكارنو كأول رئيس للجمهورية الجديدة.

لكن حكم إندونيسيا برهن على صعوبات وتحديات جمة تتجاوز صعوبة هزيمة الهولنديين. بعيدا عن التجانس، كان الأرخبيل المكون من 17500 جزيرة عبارة عن وعاء يغلي من القَبَلية، والتنوع الثقافي، فضلا عن عشرات اللغات واللهجات، والجماعات العرقية التي اختبرت قرونا من العداوات القديمة. كانت الصراعات متكررة ووحشية، في حين طبق سوكارنو سياسة القمع والرقابة

الشديدة. عام 1960، علق سوكارنو أعمال البرلمان، وسُمي عام 1963 رئيسا للبلاد مدى الحياة. عقد الرجل تحالفات وثيقة مع الصينيين وباقي الحكومات الشيوعية عبر العالم، وذلك في مقابل معدات عسكرية وتدريب. أرسل سوكارنو قوات إندونيسية مسلحة بسلاح روسي إلى ماليزيا المجاورة ضمن مسعى منه لنشر الشيوعية عبر مناطق جنوب شرق آسيا، وحاز رضا زعماء العالم الاشتراكيين.

أُسِّست المعارضة عام 1965 وجرت محاولة انقلاب. نجى سوكارنو من محاولة اغتيال من خلال ذكاء عشيقته، في حين لم يحالف الحظ بعض كبار ضباطه العسكريين ومساعديه المقربين. ولا شك أننا سنجد بقايا رائحة هذه الحوادث إلى جانب الدعم الأميركي للفصائل المناهضة لسوكارنو في إيران عام 1953. في خاتمة المطاف، أُنحي باللائمة على الحزب الشيوعي، لا سيما تلك الفصائل المتحالفة مع الصين. يذكر أن المذابح التي نفذها الجيش تسببت بمصرع نصف مليون إنسان، في حين أشارت تقديرات أخرى إلى رقم يتجاوز المليونين. عام 1968، تولى الجنرال سوهارتو رياسة البلاد.[24]

بحلول عام 1971، زاد تصميم الولايات المتحدة على إغواء إندونيسيا بهدف إبعادها عن الفلك الشيوعي جراء ما بدا أنه تقهقر أميركي في حرب فيتنام. بدأ الرئيس نيكسون سلسلة من الانسحابات العسكرية صيف العام 1969، في حين أخذت الستراتيجية الأميركية تتخذ منظورا أكثر عالمية. ركزت الستراتيجية على منع تأثير أحجار الدومينو المتمثل في سقوط الدول واحدة تلو الأخرى تحت الحكم الشيوعي، وركزت على مجموعة من الدول التي كانت إندونيسيا أهمها. في هذا السياق، مثلت مشاريع الطاقة الكهربائية التي تنفذها شركة ماين جزءًا من خطة شاملة تهدف إلى ضمان هيمنة الأميركيين في جنوب شرق آسيا.

بُنيت فرضية السياسة الأميركية الخارجية على خدمة سوهارتو مصالح واشنطن على طريقة شاه إيران. وأمّلت الولايات المتحدة أن تحول هذه الأمة إلى نموذج تحتذي به الدول الأخرى في المنطقة. وقد وضعت واشنطن جزءا من ستراتيجيتها على أساس أن المكاسب المتحققة في إندونيسيا قد تستتبعها تداعيات إيجابية في عموم أنحاء العالم الإسلامي، لا سيما منطقة الشرق الأوسط المتفجرة. وفي حال لم يكن ذلك حافزا كافيا، يظل التأثير الآخر المتمثل في نفط إندونيسيا

موجودا. وعلى الرغم من أن أحدا لم يكن واثقا بحجم ونوعية احتياطاتها، فإن خبراء الرصد الزلزالي في الشركات النفطية بَدَوا متحمسين للإمكانات المتوقعة.

بينما كنت أتصفح الكتب في مكتبة بوسطن العامة، شعرت بحماستي تتصاعد. بدأت أتخيل شكل المغامرات التي بانتظاري. عبر العمل في شركة ماين، كنت على وشك استبدال نمط الحياة التعيس في صفوف فيالق السلام بآخر يفوح ترفا وفخامة. حقق وقتي مع كلودين بعض خيالاتي عن الجنس غير المقيد بالزواج، حتى بدا الأمر أروع من أن يصدق. شعرت بشيء من الراحة كولد أجبر على مدرسة داخلية للذكور وتحرر منها أخيرا.

وحدث متغير آخر في حياتي تمثل في تراجع علاقتي مع آن. خضنا شجارات كثيرة معاً، وتذمرت آن من أني تغيرت وعدتُ لا أكون الرجل ذاته الذي تزوجته وشاركته الحياة سنوات في فيالق السلام. بالعودة إلى الماضي، لا بد أنها استشعرت أني أعيش حياتين مختلفتين.

من جانبي، بررت سلوكي بنتيجة منطقية تتعلق بالغضب الذي شعرت به جراء دفعها إياي إلى الزواج بها بالمقام الأول. وبصرف النظر عن رعايتها ودعمها لي في مواجهة التحديات إبان وجودنا في الإكوادور، لا زلت أرى فيها استمرارًا لنمط الخضوع لإرادة والديّ. عاد لا يكون لدي الآن شك بإحساس آن، على نحو ما، بوجود امرأة أخرى في حياتي. وعلى أي حال، قررنا العيش كلٌّ في شقة منفصلة.

في أحد الأيام من عام 1971، وقبل أسبوع من مغادرتي صوب إندونيسيا، ذهبت إلى شقة كلودين لأجد طاولة طعام صغيرة معدة بأصناف متنوعة من الجبنة والخبز إلى جانب زجاجة من نبيذ بوجوليه الفاخر. احتفلت كلودين بنخبي.

ابتسمت كلودين وقالت: «لقد نجحت». لكنها بدت أقل صدقا على نحو ما، وقالت: «أنت الآن واحد منا».

تجاذبنا أطراف الحديث لنصف ساعة تقريبا. وقبل انتهاء زجاجة النبيذ، رمقتني كلودين بنظرة لم أعهدها منها قط. قالت: «لا تتحدث لأيٍّ كان عن لقاءاتنا». وبنبرة صوت صارمة أضافت تقول: «لن أسامحك قط لو فعلت ذلك، وسأنكر أي لقاء جمعني بك مطلقا». كانت نظرتها حادة،

وربما كانت تلك المرة الوحيدة التي شعرت بتهديدها قبل إطلاقها ضحكة باردة. أضافت: «أي حديث عنا سيعرّض حياتنا للخطر».

شعرت بالصدمة والفزع. لكن مع عودتي من شقتها مشيا على الأقدام نحو مقر الشركة، وجدت نفسي أعترف ببراعة المخطط. كان ذكاءً مثيرًا قضاؤنا كل ذلك الوقت في شقتها، ودون أي دليل على أي علاقة تربطنا، فضلا عن غياب أي شيء يشير إلى شركة ماين على أي حال. لكن شيئا في داخلي احترم مصداقيتها، فهي لم تخدعني بالطريقة التي خدعني بها والداي عند التحاقي بمدرستي تيلتون وميدلبيري.

8

إنقاذ بلد من مخالب الشيوعية

كانت لدي خيالات رومانسية عن إندونيسيا، ذلك البلد الذي كنت لأقيم فيه خلال الأشهر الثلاثة القادمة. حَمَلت بعض الكتب التي تصفحتها عن تلك البلاد صورا لنساء يرتدين عباءات زاهية الألوان، وراقصات جزيرة بالي المحليات، وكهنة الشامان الذين يقذفون من أفواههم النار، فضلا عن المحاربين الذين يجوبون المياه الزمردية بقواربهم الطويلة أسفل براكين قلقة تنفث الدخان. ولفتت نظري سلسلة مصورة مثيرة عن سفن قراصنة الـ«بوجي» الذين جابوا الأرخبيل وأرهبوا أوائل البحارة الأوربيين إلى حد تخويف أولئك البحارة أطفالهم بعد عودتهم قائلين: «أحسنوا التصرف وإلا سيأتي رجال البوجي لأخذكم». لَكَمْ سحرتني تلك الصور الخلابة.

تمتد أساطير وتاريخ ذلك البلد على مساحة ثرية من رموز أكبر من الحياة نفسها، رموز تشمل آلهة غامضة، وتنانين الكومودو، وسلاطين القبائل، وحكايات قديمة تعود إلى ما قبل ميلاد المسيح، وأساطير انتقلت عبر جبال آسيا من الصحارى الفارسية وفوق مياه المتوسط، لتحفر مكانها في بعض أعمق نقاط ذاكرتنا الجمعية. لطالما مثلت أسماء تلك الجزر الإندونيسية الأسطورية ـ جاوة، وسومطرة، وبورنيو، وسولاوسي ـ مصدر غواية للعقل. كانت أرضا للتصوف والأساطير، والجمال والغموض، كنزا بعيد المنال حاول كولومبوس الوصول إليه ولم يستطع، أميرة سمعت عنها إسبانيا، وهولندا، والبرتغال، واليابان، لكن دون استحواذ أحد عليها. كانت حلما ملونا وضربا من الخيال البعيد.

كان سقف توقعاتي مرتفعا، وأظنها كانت انعكاسا لتوقعات أولئك المستكشفين الكبار. لكن كما هو الحال مع كولومبوس، توجّب علي كبح جماح توقعاتي. ربما كان بوسعي إدراك حقيقة السراب فيما يظهره القدر من بعيد في القرب وحسب. بدت إندونيسيا جزيرة الكنوز، لكنها لم تقدم الدواء الشافي لآلام نفسي. في واقع الحال، كانت أيامي الأولى في جاكارتا، عاصمة إندونيسيا الرطبة، صيف عام 1971 صادمة بحق.

كان الجمال حاضرا في المشهد بكل تأكيد. يرتدي الناس ملابس «الباتيك» الشعبية زاهية الألوان، فيما تملأ النظر مشاهد الحدائق الغنّاء بزهورها الاستوائية الجميلة المتفتحة. تملأ دراجات الأجرة الشوارع وهي تحمل الناس على كراسيّ داخل صناديق مرتفعة وملونة الجوانب بألوان قوس قزح، والتي يسحبها الدراجون بقوة أرجلهم. وتُطالع الناظر مشاهد القصور الاستعمارية التي بناها الهولنديون إلى جانب المساجد الإسلامية ذات المنائر العالية. لكن المدينة حملت وجها قبيحا كذلك، وجها مأساويا آخر. فيوجد المتسولون المصابون بالجذام الذين يرفعون بقايا أجسادهم الدموية بدلا من أياديهم، والفتيات الشابات الفقيرات اللواتي يُجبرن على ممارسة البغاء بهدف إيجاد لقمة العيش. تحولت قنوات المياه الرائعة التي بناها الهولنديون إلى بالوعات للمياه الآسنة. حوّل الفقراء صناديق الورق المقوى إلى منازل مؤقتة تعيش فيها عوائل كاملة على طول ضفاف أنهار من المياه الآسنة سوداء اللون تفوح برائحة الفضلات. تحاصر الناظر أصوات الأبواق والروائح الخانقة. اجتمع القبح والجمال، والبذاءة والأناقة، والروحي والمدنّس في تلك المدينة. كانت تلك جاكارتا حيث يتصارع العبير الأخّاذ للقرنفل والأوركيد مع روائح بالوعات الصرف الصحي المفتوحة، أيهما يُهَيْمِن على الآخر.

سبق لي رؤية الفقر في الماضي. عاش بعض زملائي الفقراء من نيوهامبشاير في أكواخ من الورق المقوى المضغوط قرب أنابيب الماء البارد، وكانوا يأتون إلى المدرسة مرتدين ملابس رقيقة وأحذية رياضية مهترئة في أيام الشتاء حيث درجات حرارة دون الصفر، وتفوح من أجسادهم غير المغسولة رائحة العرق القديم وروث البقر. وعشت في أكواخ الطين مع الفلاحين في مرتفعات الأنديز ممن اقتصر غذاؤهم على الذرة المجففة والبطاطا وحسب، وحيث كان الأطفال المولودون للتو يواجهون احتمال الموت في أول يوم من حياتهم. سبق لي رؤية الفقر في الماضي، إلا أنني لم أكن مستعدا لما رأيت في جاكارتا.

أقام فريقنا، بطبيعة الحال، في أحد أفخم فنادق البلاد، فندق إنتركونتينينتال إندونيسيا. كان الفندق مملوكا لشركة بان أميركان للطيران كما هي الحال مع باقي فنادق السلسة الأخرى في العالم، حيث تُلبى جميع نزوات الأثرياء الأجانب، لا سيما مديرو شركات النفط التنفيذيون وعائلاتهم. مساء يومنا الأول، أقام مدير مشروعنا، تشارلي إيلينغورث، مأدبة عشاء على شرفنا في مطعم الفندق الأنيق في الطابق العلوي.

كان تشارلي مطلعا عميقا في شؤون الحروب، ويكرس معظم وقت فراغه لقراءة كتب التاريخ والروايات التاريخية حول كبار القادة العسكريين ومعاركهم، وكان مثالا على الجندي المؤيد للحرب في فيتنام دون تحريك ساكن أو المشاركة فيها. وكما هو معتاد، ارتدى تشارلي في تلك الليلة سروالا خاكي اللون مع قميص قصير الأكمام باللون ذاته، وعلامات عسكرية على الأكتاف.

بعد الترحيب بنا، أشعل تشارلي سيجارة وسحب نفسا عميقا وهَمّ يصب كأس مشروب الشامبانيا وقال: «نخب الحياة الجيدة».

شاركناه النخب بكؤوسنا قائلين: «نخب الحياة الجيدة».

وسط دخان السجائر الذي نفثه أثناء الكلام، حدق تشارلي إلى المكان وقال: «سنحظى بدلال جيد هنا». ثم أومأ برأسه علامة على الرضا وقال: «سيهتم بنا الإندونيسيون جيدا، فضلا عن السفارة الأميركية. لكن يجب أن لا ننسى أن أمامنا مهمة لإنجازها». نظر الرجل إلى الأسفل صوب مجموعة من أوراق الملاحظات وقال: «صحيح أننا هنا لتطوير خطة كبرى بهدف تغذية جزيرة جاوة بالطاقة الكهربائية، هذه الجزيرة التي تعد المكان الأكثر اكتظاظا بالسكان في العالم، لكن هذا الكلام ليس سوى قمة جبل الجليد وحسب».

تحولت ملامح تشارلي إلى الجدية، وذكَّرنا بالممثل جورج سي. سكوت الذي لعب دور الجنرال باتون[25]، وهو أحد الأبطال في نظره، ثم قال: «نحن هنا لإنجاز مهمة لا تكتمل دون إنقاذ هذه البلاد من براثن الشيوعية. كما تعلمون، عانت إندونيسيا تاريخا طويلا ومروعا. وها هي تعيش القصة من جديد. تتمثل مسؤوليتنا في ضمان عدم دخول إندونيسيا ضمن دائرة الدول المجاورة: فيتنام وكمبوديا ولاوس. تمثل شبكة الكهرباء المتكاملة عاملا حاسما، عاملا يتجاوز أي عامل منفرد آخر (فيما عدا النفط بطبيعة الحال) في ضمان الحكم الديمقراطي الرأسمالي».

سحب تشارلي نفسا آخر من سيجارته وقلّب ورقتين من أوراق الملاحظات أمامه ثم قال: «وبالحديث عن النفط، نحن نعلم جميعا مدى اعتماد بلادنا على هذا الأكسجين الأسود. ويمكن لإندونيسيا التحول إلى حليف قوي لنا في هذا المجال. لذلك، وفيما تعملون على تطوير الخطة الكبرى، أرجو منكم فعل كل شيء يضمن حصول صناعة النفط وكل ما يخدمها من الموانئ،

وخطوط الأنابيب، وباقي شركات الإنشاءات الأخرى ـ حصولها جميعا على ما كل ما تحتاج إليه من الكهرباء طيلة فترة عمل الخطة التي تمتد لخمسة وعشرين عاما».

رفع الرجل عينيه عن أوراق ملاحظاته وتوجه ببصره نحوي مباشرة، وقال: «الخطأ بالزيادة خير من الخطأ بالنقصان. ولا أظن أنك تريد تلويث يدك بدماء الأطفال الإندونيسيين، أو أطفالنا على حد سواء، ولا أظن أنك ترضى لهم بالعيش تحت مطرقة ومنجل علم الصين الأحمر!».

حينما دخلت فراشي آمنا تلك الليلة، ومن مكاني المرتفع في المدينة حيث شعرت برفاهية الجناح الملكي، أخذتني الأفكار إلى كلودين. تملكتني أحاديثها وحواراتها عن الديون الأجنبية. حاولت تهدئة نفسي باستذكار دروس الاقتصاد التي أخذتها في كلية الأعمال. وعلى أي حال، أقنعت نفسي بأني هنا لمساعدة إندونيسيا كي تخرج من اقتصاد القرون الوسطى إلى اقتصاد صناعي معاصر. لكنني أعلم علم اليقين أني سأنظر خارج نافذتي في الصباح، وعبر فخامة حدائق الفندق وأحواض سباحته، لأرى أكواخ الخشب والورق المقوى حيث تسكن آلاف العائلات على مد البصر. وأعرف أن الأطفال سيموتون من نقص الغذاء وشح الماء الصالح للشرب، وأن الرضع والبالغين يعانون أسوأ الأوبئة وظروف العيش المريعة على حد سواء.

استغرقت بالتفكير وأنا أتقلب في فراشي. كان من الاستحالة بمكان إنكار وجود تشارلي والجميع ضمن فريقنا هنا لأسباب غير أنانية. لقد جئنا لدعم سياسة الولايات المتحدة الخارجية، والشركات والمصالح الشخصية. كنا مدفوعين بالجشع عوضا عن الرغبة في حياة أفضل لغالبية الإندونيسيين. ساعتها، تبادرت إلى ذهني كلمة واحدة: سلطة الشركات. لست أدري أكُنتُ سَمِعت الكلمة من قبل أم أني ابتدعتها للتو، إلا أنها بدت خير وصف للنخبة الجديدة التي قررت المضي في محاولة حكم الكوكب.

كان الأمر أشبه بأخوية متماسكة تضم حفنة محدودة من رجال يتشاركون الهدف ذاته، حيث يتنقل أعضاء الأخوية بسهولة ما بين مجالس إدارة الشركات والمناصب الحكومية الرسمية. ولشدة دهشتي، فقد تذكرت رئيس البنك الدولي، روبرت مكنمارا، الذي كان مثالا صارخا على هذا الكلام. تنقل مكنمارا بالمناصب من رئيس شركة فورد لصناعة السيارات إلى وزير الدفاع في إدارتي

الرئيسين كينيدي وجونسون، حيث يشغل الآن أرفع المناصب في واحدة من أقوى المؤسسات المالية في العالم.[26]

وأدركت عدم فهم أساتذتي في الجامعة للطبيعة الحقيقية للاقتصاد الكلي، تلك الطبيعة المتمثلة في بعض حالات النمو الاقتصادي التي لا تساعد إلا حفنة قليلة من الناس للتربع على قمة الثراء، في مقابل دفع أولئك الموجودين في أسفل القاع لينزلوا إلى حضيض أدنى. في واقع الحال، يُنتج تعزيز الرأسمالية بالعادة نظاما يشابه المجتمعات الإقطاعية. ولو عرف أيٌّ من أولئك الأساتذة هذا الكلام، فإنه ما كان ليقر به لأن الشركات الكبرى والرجال الذين يديرونها يمولون الجامعات كذلك على الأرجح. لذلك، فإن كشف تلك الحقيقة سيكلف أولئك الأساتذة وظائفهم، كما يمكن أن يكلفني وظيفتي أنا كذلك.

استمرت تلك الأفكار تؤرقني كل ليلة قضيتها في فندق الإنتركونتينينتال في إندونيسيا. في خاتمة المطاف، بنيت دفاعي على نحو شخصي بحت، حيث أقنعت نفسي أني شققت طريقي من بلدة نيوهامبشاير، ومن المدرسة الثانوية، ومن التجنيد. وعبر سلسلة من المصادفات والعمل الجاد، أوجدت لنفسي مكانا ضمن حياة جيدة، وهدهدت نفسي بحقيقة أني كنت أقوم بالخير للآخرين بحسب معايير ثقافتي. كنت في طريقي لأُصبح رجل اقتصاد محترمًا وناجحًا. قمت بما علمتني كلية الأعمال القيام به، وطبقت نموذج تنمية وضعه بعض من أفضل مفكري الاقتصاد في العالم.

لكن برغم ذلك، غالبا ما كنت أعزي نفسي منتصف تلك الليالي بوعد أني سأفضح هذه الحقيقة يوما ما. ثم أختم تلك الليالي بقراءة روايات لويس لاموس عن صراعات المسلحين في الغرب القديم.

9

عقد مع الشيطان

قضى فريقنا المكون من أحد عشر فردا أقل من أسبوع في أعمال التسجيل في السفارة الأميركية بجاكارتا، ومقابلة بضعة مسؤولين، وتنظيم أنفسنا، فضلا عن الاسترخاء قرب حوض السباحة. أدهشني عدد الأميركيين الموجودين في فندق الإنتركونتينينتال. في واقع الحال، قضيت وقتا ممتعا جدا في مشاهدة النساء الجميلات ـ وكن زوجات المديرين التنفيذيين في الشركات النفطية والإنشائية ـ حيث اعتدن قضاء أيامهن تحت الشمس قرب حوض السباحة، ومن ثم قضاء الأمسيات ضمن نصف دزينة من المطاعم الفاخرة في محيط الفندق.

نقل تشارلي فريقنا إلى مدينة باندونغ الجبلية. كان الجو ألطف، ومشاهد الفقر أقل وضوحا في مقابل وسائل تسلية وإلهاء أكثر بكثير. مُنحنا دار ضيافة حكومية للسكن تسمى «ويسما»، مع مدير، وطباخ، وبستاني، فضلا عن كادر للخدمة. كانت دار الضيافة التي بُنيت في حقبة الاستعمار الهولندي قطعة من الجنة. تواجه شرفتها العريضة حقول الشاي المزهرة عبر التلال الدائرية ومنحدرات جبال جاوة البركانية. وإلى جانب السكن، خُصصت لنا إحدى عشرة سيارة من نوع تويوتا للطرق الوعرة مع سائق ومترجم لكل سيارة. وفي خاتمة المطاف، مُنحنا عضوية خاصة في نادي الغولف وكرة المنضدة الحصري في باندونغ، فضلا عن جناح مكاتب خاص في المقر المحلي لشركة الكهرباء المملوكة للحكومة.

بالنسبة إليّ، تضمنت أيامي الأولى في باندونغ سلسلة من اللقاءات مع تشارلي وهوارد باركر. كان باركر في سبعينيات عمره ومتقاعدا من منصب خبير تقديرات الأحمال الكهربائية في شركة أنظمة نيوإنغلاند للطاقة الكهربائية. أما الآن، فقد بات المسؤول عن تقدير سعة توليد الطاقة (الحمل) في جزيرة جاوة لفترة ربع القرن القادم، فضلا عن تقديرات توزيع ذلك الحمل إقليميًّا وفي المدينة. وبحكم تناسب الطلب على الطاقة الكهربائية مع النمو الاقتصادي، تعتمد توقعاته على تقديراتي الاقتصادية. لاحقا، يطوِّر باقي أفراد فريقنا خطة كبرى بناءً على تلك التوقعات، وتحديد

مواقع وتصاميم محطات الطاقة، وخطوط النقل والتوزيع، فضلا عن أنظمة نقل الوقود بطريقة تتناسب وتقديراتنا، وإلى أكفأ حد ممكن. خلال لقاءاتنا، استمر تشارلي بالتشديد على أهمية عملي، وألحّ بخصوص الحاجة إلى أن أكون متفائلا جدا في تقديراتي. كانت كلودين محقة فعلا، فقد كنت مفتاح الخطة الكبرى بمجملها. شرح تشارلي قائلا: «تتمحور الأسابيع الأولى هنا حول جمع البيانات». جلسنا أنا وهوارد وتشارلي على كراسيّ وثيرة في مكتب الأخير الخاص، مكتب زُينت جدرانه بصور زاهية من ملحمة الرامايانا الهندية. انتفخت أوداج تشارلي وهو يسحب دخان سيجارة ثخينة.

قال: «سيجمع المهندسون صورة مفصلة لواقع المنظومة الكهربائية الحالي، وسعات الموانئ، والطرق، وخطوط السكك الحديد، وكل هذه الأشياء». ثم أشار تشارلي بسيجارته نحوي وأضاف: «يتوجب عليك التصرف بسرعة. بحلول نهاية الشهر الأول، سيحتاج هوارد إلى الخروج بفكرة ممتازة عن المدى الكامل للمعجزة الاقتصادية التي ستحقق حينما نشغل شبكة الطاقة الكهربائية الجديدة. بحلول نهاية الشهر الثاني، سيكون هوارد بحاجة إلى تفاصيل جديدة، تفاصيل موزعة على كل الأقاليم. أما عمل الشهر الأخير، فسيتمحور حول ردم الفجوات. سيكون ذلك أمرا حاسما. وسنجتمع جميعا حينها. وحينما نغادر، لا بد أن نكون واثقين بتوفرنا على جميع المعلومات المطلوبة. سننطلق لتحقيق الهدف، وشعاري انتهاء العمل إلى غير رجعة».

من جانبه، بدا هوارد أشبه بجَدٍّ عجوز من النوع الودود، إلا أنه كان شخصا حادًّا جَرّعتْهُ السنون شعور مرارة الحياة. لم يصل هوارد إلى منصب عال في شركة أنظمة نيوإنغلاند للطاقة الكهربائية، الأمر الذي ترك لديه شعورا عميقا بالغبن والحسرة. قال لي هوارد مرارا وتكرارا: «لقد تجاوزوني لأني رفضت اتباع أسلوب الشركة بالعمل». أُجبِر الرجل على التقاعد من العمل ولم يتحمل البقاء في المنزل مع زوجته، لذلك قرر قبول وظيفة استشارية لصالح شركة ماين. مثّل موضوع جاوة مهمة هوارد الثانية، وقد نبهني كل من إينار وتشارلي لضرورة مراقبته، ووصفوه بعبارات مثل: «عنيد ولئيم وميال إلى الانتقام».

برهنت الأيام على أن هوارد كان الشخص الأكثر حكمة من بين من تعلمت منهم، وإني لم أكن مستعدا للاعتراف بذلك في حينها. لم يتلق هوارد التدريب الذي حظيت به على يد كلودين، الأمر الذي يحدوني على الاعتقاد أنهم رأوا فيه شخصية شديدة العناد أو ربما عجوزا جِدًّا، أو وربما

تصوروا أنه سيبقى لوقت قصير حتى يتمكنوا من استبداله بشخص أكثر مرونة بدوام كامل مثلي. على أي حال، ومن وجهة نظرهم، بدا هوارد مشكلة في حد ذاته. من الواضح معرفة هوارد دقائق وتفاصيل الموقف والدور الذي أرادوا منه لعبه، في حين كان هو مصمما على رفض دور بيدق الشطرنج. بدت معظم الصفات التي قالها إينار وتشارلي عن هوارد معبرة عن شخصيته فعلا، لكن بعض عناده نشأ من التزامه الشخصي رفض التبعية لهما. من جانبي، أشك بسماعه بمصطلح القتل اقتصادي في الماضي قط، إلا أنه عرف أنهم يريدون استخدامه لدعم صورة من الإمبريالية ترفضها مبادئه.

أخذني هوارد جانبا بعد اجتماع مع تشارلي. كان الرجل يضع سماعة لمساعدة ضعاف السمع، ويعبث بصندوق صغير تحت قميصه للتحكم بشدة الصوت في تلك السماعة.

قال هوارد بصوت هادئ «بيني وبينك»، ووقفنا بإزاء النافذة ننظر نحو القناة الراكدة المملوءة بأكوام القمامة قبالة مبنى شركة الكهرباء المملوكة للحكومة. لفَتَتْ نظرنا امرأة تستحم بتلك المياه الآسنة. أضاف هوارد: «سيحاولون إقناعك بصعود اقتصاد هذه البلاد إلى عنان السماء. ولتعلم أن تشارلي لا يرحم، وسوف يحاول التأثير فيك».

تركت كلماته في نفسي شعورًا أشبه بـ«الغرق»، إلا أنها خلقت في داخلي رغبة لإقناعه بصحة رأي تشارلي، فيما يعتمد مستقبل وظيفتي على إرضاء المديرين في شركة ماين على أي حال.

قلت له وعيوني مسلطة على تلك المرأة التي تستحم في القناة الآسنة: «من المؤكد ازدهار اقتصاد البلاد»، وأضفت كذلك: «فلتنظر إلى ما يحدث حولنا وحسب».

تمتم الرجل قائلا: «إذن أنت في صفهم كما يبدو»، حيث نطقها وهو غير مستوعب للمشهد قبالتنا، وأضاف قائلا: «يبدو أنك اتخذت موقفاً في صفهم، أليس كذلك؟».

لفتت نظري حركة في القناة الآسنة. نزل رجل كبير في السن إلى تلك القناة بعدما خلع بنطاله وتغوط على حافة المياه مجيبا نداء الطبيعة. نظرت إليه المرأة التي كانت تستحم على مقربة في الماء ذاته ولم ترتدع، واستمرت بغسل نفسها. شحْتُ بنظري عن النافذة وتوجهت نحو هوارد. قلت: «لقد كنت في الجوار. وعلى الرغم من شبابي، فإنني أكملت للتو ثلاث سنوات في أميركا

الجنوبية. لقد شهدت بعيني ما يمكن حدوثه عند اكتشاف النفط. تتغير الأشياء بسرعة». رد هوارد بسخرية: «وأنا كنت في الجوار كذلك، لسنوات طويلة. دعني أخبرك شيئا أيها الشاب. لست أحفل بشيء من مكتشفاتك النفطية وكل هذا الهراء. لقد أمضيت حياتي أضع تخمينات أحمال الطاقة الكهربائية، سواء أيام الكساد، أو الحرب العالمية الثانية، أو أيام الوفرة والشح. لقد شهدت بعيني ما فعل إنشاء الطريق الحلقي 128 المعروف بمعجزة ماساتشوستس في بوسطن. وبوسعي القول على وجه اليقين إن الحمل الكهربائي لتلك المنطقة حينها لم يرتفع عن 9% سنويا خلال أعوام تلك الفترة قطّ، وذلك في أفضل الأحوال. لذلك، فإن رقم 6% يبدو أكثر منطقية».[27]

حدقت إلى وجه هوارد، ولا أخفي اشتباه جزءٍ في داخلي في صحة ما قاله، إلا أني شعرت بحس دفاعي. علمت أني كنت بحاجة إلى إقناعه لأن ضميري ألَحَّ علي بوجوب التبرير. لحظتها، تذكرت كلام كلودين الذي حفَرَته في ذاكرتي عن وجوب كتابتي لتقرير يقنع الزعماء الإندونيسيين، كتابة تقرير أقول فيه: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا قروض البنك الدولي والتزموا الشروط التي يفرضها صندوق النقط الدولي».

قلت: «هوارد، هذه ليست بوسطن. هذا بلد لا يستطيع أي شخص فيه الحصول على إمدادات الطاقة الكهربائية. تختلف الأمور هنا بالتأكيد».

أدار الرجل رجله وحرك يده إشارة لرغبته في الابتعاد عني وزمجر قائلا: «امضِ قدما وبِعْهم ما تشاء. لستُ أكترث قيد شعرة لذلك». سحب هوارد كرسيا وجلس عليه. ثم قال: «سأضع تقديراتي الخاصة بالطاقة الكهربائية كما أراها، لا كما تقول بعض الدراسات الاقتصادية السريعة المعدة على عجالة». تناول الرجل قَلَمًا وشرع يخربش على ورقة قُبَالته.

كان الأمر بمثابة تحدٍّ لا يسعني تجاهله. تحركت من مكاني لأقف بإزاء منضدته. قال الرجل: «ستبدو في منتهى الغباء لو توقعت خروجي بما ينتظره الجميع. يريد هؤلاء تقديرات تقارب ما حصل من فورة الذهب التاريخية في كاليفورنيا، وأنت تتوقع نموًّا على طلب الطاقة الكهربائية بمعدل يوازي ما كان عليه في بوسطن في الستينيات».

ثم قذف هوارد القلم من يده وحدق إليّ. قال: «أنتم بلا ضمير. كلكم كذلك»، ولوح بذراعه ناحية المكاتب الأخرى خلف الجدران، وأضاف: «لقد بعتم أرواحكم إلى الشيطان، ولستم هنا إلا

لأجل المال». ثم تظاهر بابتسامة ومد يده إلى جهاز سماعة الأذن تحت قميصه وقال: «سأطفئ سماعتي وأعود إلى العمل».

شعرت بصدمة في الأعماق. خرجت من الغرفة وسرت بهدوء نحو غرفة تشارلي قبل الوقوف بمنتصف الطريق. توقفت وأنا محتار وغير واثق مما أريد القيام به. عوضا عن ذلك، استدرت ونزلت الدرج لأخرج من الباب تحت أشعة شمس الظهيرة. لحظتها، خرجت المرأة التي استحمت بمياه القناة الآسنة ولفَّتْ نفسها بردائها التقليدي المعروف بالسارونج بإحكام، في حين اختفى الرجل المسن الذي قضى حاجته هو الآخر. بقي بضعة أطفال يلعبون ويتقاذفون ماء القناة، ويصرخون بعضهم على بعض. على مسافة قصيرة، وقفت امرأة عجوز في الماء بعمق ركبتيها وهي تغسل أسنانها، في حين وقفت أخرى تغسل الملابس في الماء ذاته.

شعرت بحشرجة كبيرة في حلقي. جلست على مصطبة إسمنتية مكسورة محاولا تجاهل الرائحة القبيحة المنبعثة من ماء القناة. قاومت بشدة نزول دموعي، وحاولت استيعاب سبب شعوري بكل هذا الأسى.

استعدت كلمات هوارد مرارا وتكرارا. «لستم هنا إلا لأجل المال». لقد ضرب الرجل العجوز وتَرًا حساسًا بحق.

استمر الأطفال بالصراخ واللعب وأصوات بهجتهم تملأ المكان. تساءلت بيني وبين نفسي عما يمكنني فعله. ما الذي يتطلبه الأمر لأشعر بالراحة وعدم الاكتراث مثلهم يا ترى؟ مزقني ذلك السؤال وأنا جالس أراقبهم يتقافزون ببراءة، غير مدركين لمخاطر لعبهم بالمياه الآسنة. أدركت لحظتها حجم المفارقة الكبيرة، فعلى الرغم من أنني كنت ذَكَرًا أبيضَ، وتلقيت الكثير من الامتيازات غير المكتسبة وحققت الكثير من نزواتي السابقة، فإنني شعرت بالغيرة من بضعة أطفال يستحمون في مياه الصرف الصحي ويعيشون في ظل استغلال نظام أُرَوِّج له وأعمل في سبيل تكريسه.

وقف رجل مسن يتكئ على عصًا منحنية قرب الأطفال عند ضفة القناة. نظر الرجل المسن إلى الأولاد وابتسم بفم خالٍ من الأسنان.

ربما كان بوسعي الوثوق بهوارد والتوصل إلى حل ما معه. انتابني شعور بالنشوة لحظتها. تناولت حجرا صغيرا وقذفت به صوب القناة. لكن نشوتي التي بدت مؤقتة انتهت مع موجات الماء

التي تلاشت. كنت مدركا لعجزي عن التوصل إلى حل. كان هوارد رجلا عجوزا ومتشددا. لقد ضاعت عليه فرص الارتقاء المهني في عمله، ومن المؤكد أنه لن يتراجع الآن. كنت شابا في مقتبل العمر، أخوض بدايتي للتو ولا أريد نهاية كنهايته بكل تأكيد.

محدقا إلى مسار تلك القناة الآسنة، تراءت لي خيالات المدرسة الثانوية في نيوهامبشاير على التل، حيث قضيت العطلات وحيدا فيما كان الأولاد الآخرون يعيشون أجواء الحفلات مع صديقاتهم الفتيات. شيئا فشيئا، تملكني الشعور بالأسف من جديد. هأنذا وحيد مرة أخرى ولا أجد من أتكلم إليه.

استلقيت على سريري تلك الليلة، وفكرت مطولا في الناس الموجودين بحياتي: هوارد، وتشارلي، وكلودين، وإينار، وآن، والعم فرانك ـ متسائلا عما كانت ستكون عليه حياتي لو لم ألتَقِ بهم يا ترى. أين كان يمكن لي العيش الآن يا ترى؟ ليس في إندونيسيا بكل تأكيد. وتأملت مستقبلي، وأين تسير بي المقادير. فكرت عميقا في الموقف الذي يواجهني. لقد أوضح تشارلي أنه يتوقع من هوارد ومني ما يشير إلى توقع نمو سنوي بمقدار لا يقل عن 17%. فأي نوع من التقديرات سأكتب يا ترى؟

خطرت لي فكرة مفاجئة، وتساءلت لم غابت عن بالي قبلاً. لم يكن القرار لنا حتما. قال هوارد إنه سيقوم بما يؤمن به ويَعُده صحيحا، وبصرف النظر عن حساباتي. بوسعي مؤانسة رؤسائي بتوقعات اقتصادية عالية في حين سيقوم هو بصياغة قراراته بنفسه، ولن يكون لعملي أي تأثير في الخطة الكبرى. استمر الناس بالتركيز على أهمية دوري، إلا أنهم كانوا مخطئين. أُزيح عن كاهلي عبءٌ ثقيل. استغرقت في نوم عميق.

بعد بضعة أيام، عُرِّض هوارد لإسهال دموي حاد اضطرنا إلى الهَرَع به إلى مستشفى الإرسالية الكاثوليكية. وصف الأطباء علاجا لهوارد وشددوا على وجوب عودته إلى الولايات المتحدة فورا. من جانبه، طمأننا هوارد بتوفره على جميع البيانات المطلوبة، وأن بوسعه إكمال متطلبات تقديرات الحمل الكهربائي بكل سهولة من مكانه في بوسطن. بدت كلمات الرحيل أشبه بتكرارٍ لتحذيراته السابقة.

لكنه عاد وقال: «لا حاجة بكم إلى تلفيق الأرقام، فلن أكون جزءًا من هذه الخديعة، ومهما يكن من أمر كلامكم عن معجزات النمو الاقتصادي!».

القسم الثالث

1975-1971

10

دوري كمحقق وباحث

نصت عقودنا المبرمة مع الحكومة الإندونيسية، وبنك التنمية الإندونيسي، والوكالة الأميركية للتنمية الدولية، على قيام فرد منا بزيارة جميع المراكز الحضرية الكبرى في المنطقة المعنية بالخطة الكبرى التي جئنا لتنفيذها. سُمِّيتُ لتنفيذ هذا الشرط. وكما يحلو لتشارلي الوصف، فقد قال: «لقد نجوتَ من الأمازون، وتعرف كيف تتعامل مع البعوض والأفاعي والماء السيئ».

مع سائق ومترجم، زرت الكثير من الأماكن بما فيها العديد من قرى الصيد الخلابة على طول ساحل جاوة، ونزلت في مساكن من شأنها التسبب بفزع أفراد فريق شركة ماين لو دخلوها. والتقيت مع العديد من رجال الأعمال المحليين والزعماء السياسيين، واستمعت إلى وجهات نظرهم حول آفاق النمو الاقتصادي. لكنني وجدت معظمهم مترددا في مشاركتي المعلومات، وحتى إنهم بَدَوا فزعين لوجودي. عادة ما تذَرَّع أولئك الناس بضرورة العودة إلى مسؤوليهم ورؤسائهم، أو الوكالات الحكومية، أو مقر إدارة الشركة في جاكارتا. ثم إنني شعرت بنوع من المؤامرة الموجهة ضدي في بعض الأحيان.

كانت تلك الزيارات قصيرة ولم تَدُم أكثر من يومين أو ثلاثة أيام. وفيما بين تلك الزيارات، كنت أعود إلى دار الاستراحة في باندونغ. كان لدى مدبرة الدار ولد شاب يصغرني ببضع سنين. يدعى ذلك الشاب راسمون، لكن الجميع يطلق عليه اسم راسي فيما عدا والدته. يدرس راسي الاقتصاد في جامعة محلية، وقد أعرب عن اهتمام واضح بعملي. في واقع الحال، اشتبهت للحظة أنه سيطلب مني عملا. وبدأ راسي بتعليمي لغة بهاسا الإندونيسية المحلية.

امتلك راسي دراجة نارية وأخذ على عاتقه مهمة تعريفي بمدينته وشعبه. وعدني راسي في إحدى الأمسيات قائلا: «سأريك جانبا لم تشهده في إندونيسيا من قبل»، وطلب مني الإمساك به جيدا ونحن فوق دراجته معا.

انطلقنا على دراجته ومررنا بأماكن نابضة بالحياة، وعروض لدمى الظل، وموسيقيين يعزفون على الآلات التقليدية، وعروض قذف النار، ومشعوذين وباعة متجولين يتاجرون بكل ما يخطر على البال من أشرطة كاسيت الأغاني الأميركية المهربة وحتى القطع الأثرية المحلية النادرة. في خاتمة المطاف، انتهى طريقنا إلى مقهى صغير مكتظ بالشبان. قدمني راسي إلى مجموعة من الناس المتجمعين حول منضدة حيث جلسنا معهم.

تحدث الجميع الإنكليزية، لكن بمستويات متفاوتة، غير أنهم قدروا رغبتي تعلم لغة بهاسا وشجعوني على ذلك. وجه الجميع لي سؤالا صريحا حول سبب عدم تعلم الأميركيين للغتهم قطّ. حِرت جوابا، وعجزت عن تفسير سبب كوني الأميركي أو الأوربي الوحيد الموجود ضمن هذا القسم من المدينة، وحتى مع حقيقة رؤيتهم للكثير منا في نادي الغولف وكرة المنضدة، والمطاعم الفاخرة، ودور السينما فضلا عن أسواق السلع الفاخرة.

عاملني راسي ورفاقه كواحد منهم. استمتعت بنشوة وجودي هناك، ومشاركة الناس طعامهم وموسيقاهم، واستنشاق راحة سجائر القرنفل الشعبية وباقي أنواع الدخان المعطرة الأخرى التي تعد جزءًا من ثقافتهم، فضلا عن كل الضحك والنكات التي تشاركناها. شعرت كأني عدت إلى فيالق السلام من جديد، وتساءلت مع نفسي لم فكرت بالسفر على متن الدرجة الأولى وعزلت نفسي عن الناس الذين ينتمون إلى ثقافات وخلفيات مختلفة عني. أبدى أولئك الناس اهتماما متزايدا بتعريفي عن أفكار بلادهم حول الحرب الدائرة في فيتنام المجاورة. كان أفراد المجموعة من أصدقاء راسي جميعا يشيرون إلى تلك الحرب المروعة بوصف «الغزو غير المشروع»، إلا أنهم شعروا بالارتياح حينما علموا أني أشاركهم المشاعر ذاتها.

غيرتني تلك الليلة والليالي الأخرى التي قضيتها مع راسي والشباب الإندونيسيين الآخرين، فضلا عن رحلاتي عبر أنحاء البلاد. شعرت أني بدأت أرى رفاقي الأميركيين من منظور مختلف. عادت الزوجات الشابات الأميركيات الفاتنات في الفندق لا يَكُنَّ فاتنات إلى ذلك الحد كما كنَّ قبلها. واختلف شعوري تجاه السياج الأنيق المحيط بحوض السباحة وقضبان الحديد قبالة نوافذ الطابق الأول التي نادرا ما انتبهت لها في السابق. اختلف كل ذلك وبدا منظره مشؤوما في نظري. ثم بات أكل المطعم الأنيق في الفندق بلا طعم مقارنة بالصحون المحلية الغنية والمعطرة بالتوابل.

لاحظت شيئا آخر كذلك. إبان لقاءاتي مع رجال الأعمال والزعماء السياسيين، أدركت الطريقة الدقيقة التي تعامل بها أولئك معي. في واقع الحال، لم أكتشف ذلك قبلا، إلا أني بدأت أرى الآن العديد منهم يمقت وجودي. فعلى سبيل المثال، وحينما كانوا يُعَرِّفونني بعضهم إلى بعض، كان التقديم يتم بلغة بهاسا، ويستخدمون مفردات دققتها في القاموس لأكتشف أنها من عينة «المحقق»، أو «الباحث». تعمدت إخفاء معرفتي باللغة المحلية ـ حتى مع معرفة مترجمي الخاص بمقدرتي على فهم واستخدام بعض الجمل ـ واقتنائي قاموسا جيدا أعود إليه بعد مغادرتهم بالعادة.

هل كانت تسميات «المحقق» أو «الباحث» مجرد مصادفات لغوية وحسب، أو أنها كانت ترجمات سيئة ربما؟ حاولت إقناع نفسي بذلك، إلا أني كلما قضيت وقتا أطول مع أولئك الرجال (لم توجد النساء في تلك المناصب آنذاك)، اقتنعت بأنهم يرون فيّ «متطفلا»، وأن التواصل معي كان أمرًا صدر من الأعلى ولا بد من الالتزام به. لكني لم أدرك حقيقة من أصدر ذلك الأمر، سواء كان مسؤولا حكوميا، أو مصرفيا، أو جنرالا عسكريا، أو السفارة الأميركية. كل ما عرفته أنهم كانوا يدعونني إلى مكاتبهم، ويقدمون لي الشاي، ويجيبون عن أسئلتي بأدب جم، ويرحبون بوجودي على نحو ظاهري، لكنَّ حِسّاً من الاستسلام والحقد توارى تحت الطاولة.

تركني هذا الوضع أتساءل عن إجاباتهم ومصداقية بياناتهم. على سبيل المثال، لم يكن بوسعي قط الدخول إلى مكتب مع مترجمي ومقابلة أيٍّ كان وإنما يتوجب ترتيب موعد مسبق. وبسبب ندرة عمل الهواتف هناك، توجب علينا الذهاب إلى الأماكن وشق الطرق عبر الزِّحَام الذي يمر من خلال شوارع معقدة وملتفة تستهلك ساعة لأجل الوصول إلى مكان لا يبعد سوى مسافة قصيرة. وبمجرد الوصول إلى المكان المطلوب، يتوجب ملء بضعة وثائق. في خاتمة المطاف، يظهر سكرتير ذكر ليسألنا بأدب عن طبيعة المعلومات التي أرغب فيها، ومن ثم يحدد الزمن للموعد.

دون أي استثناءات تذكر، تطلبت جميع مواعيد الاجتماعات مُضيّ أيام قبل انعقادها، وعند حصول الاجتماع في الموعد لاحقا، يُسلّم لي ملف يتضمن كل المواد المطلوبة. قدم لي أصحاب المصانع خططا لخمس وعشر سنوات، في حين زودني المصرفيون بالجداول والأرقام. أما المسؤولون الحكوميون فقد قدموا لي قائمة بالمشاريع التي كانت في طريقها للانتقال من صورة مخططات ورقية إلى صورة محركات حقيقية تدفع عجلة النمو الاقتصادي. أشارت جميع البيانات

والمعلومات المقدمة لي إلى صعود نجم جزيرة جاوة التي ستشهد أفضل فورة اقتصادية على الإطلاق. في واقع الحال، لم يُشَكِّك أحد في شيء، ولم تُقدم أي معلومات سلبية قط.

عدت أدراجي إلى باندونغ من جديد، على الرغم من أن الأمر بدا لي كما لو كان كل ما قمت به في إندونيسيا لعبة أكثر منه حقيقة. تعمدنا إبقاء أوراقنا مخفية. لم يكن بوسعنا الثقة بعضنا ببعض أو الاعتماد على مصداقية المعلومات التي تشاركناها. لكن تلك اللعبة كانت، في الحقيقة، أخطر بكثير مما تبدو، ولسوف تؤثر نتائجها في حياة الملايين من الناس لعقود طويلة مقبلة.

11

الحضارة في الميزان

ابتسم راسي وقال: «سآخذك إلى محرك الدمى الشهير دالانغ»، وأضاف: «كما تعلم، فإنه أحد فناني الدمى المشاهير في إندونيسيا، وسيُحْيِي الرجل عرضا مهما في البلدة هذه الليلة». كان واضحا مدى سعادة راسي بعودتي إلى باندونغ.

أخذني راسي على متن دراجته النارية عبر أماكن من المدينة لم أعرف بوجودها من قبل، أماكن مَلْآى بالمنازل الجاوية التقليدية، منازل بدت كنسخة فقيرة عن المعابد المسقوفة بالقرميد. لقد تلاشت تلك القصور الاستعمارية الهولندية وأبنية المكاتب التي توقعتها. بدا واضحا فقر الناس، إلا أنهم حملوا أنفسهم على محمل الفخر الكبير. كانوا يرتدون عباءات «باتيك» رثة، إلا أنها نظيفة، مع كنزات ملونة بألوان زاهية، فضلا عن قبعات مصنوعة من القش ذات حواف عريضة. أحاطتنا الابتسامات والضحكات أينما حللنا. حينما توقفنا، هُرِع الأطفال نحوي يتلمسونني ويستشعرون ملمس نسيج بنطال الجينز الذي أرتديه. علقت فتاة صغيرة زهرة من الياسمين الهندي المعطر في شعري.

أوقفنا الدراجة النارية قرب الممشى المؤدي إلى المسرح حيث تجمع بضع مئات من الناس ما بين واقف وجالس على الكراسي المحمولة، انتظارا للدخول. بدت سماء الليل صافية وجميلة. وعلى الرغم من أننا كنا في منتصف أقدم مناطق باندونغ، لم تكن توجد إنارة خارجية عامة في الشوارع، لذا تلألأت النجوم فوق رؤوسنا بوضوح، وامتلأ الجو بعبق الخشب المحترق، وصلصة الفول السوداني الساخنة، ورائحة القرنفل.

اختفى راسي بين الناس قبل العودة بسرعة مع العديد من الشبان الذين سبق لي لقاؤهم في المقهى. قدم لي الشبان شاياً ساخنا، وكعكا مع الـ«سايت»، وهو عبارة عن قطع لحم مطبوخة بزيت الفول السوداني. لا بد أني ترددت بعض الشيء قبل قبول قطع اللحم، لكن إحدى النساء أشارت بابتسامة إلى موقد النار الصغير، وقالت: «إنه لحم طازج، وقد انتهينا من طهيه للتو».

ثم انطلق صوت الموسيقى من آلة الـ«غامالونغ» السحرية المخيفة، تلك الآلة التي تستحضر في صوتها صورة أجراس المعابد.

همس راسي بأذني «يعزف محرك الدمى كل موسيقاه بنفسه»، وأضاف: «ثم إنه يحرك جميع الدمى ويخرج جميع أصواتها، وببضعة لغات. لا تقلق فسوف نترجم لك».

كان الأداء مميزا جدا، ويجمع ما بين الأساطير التقليدية والحوادث المعاصرة. كان محرك الدمى ذاك ساحرا يقوم بعمله بنشوة كما عرفت لاحقا. وكان لديه أكثر من مئة دمية، ويتحدث بأصوات مختلفة لها جميعها. بدت تلك الليلة استثنائية ولن أنساها ما حييت، ليلة تركت أثرها في كل ما تبقى من حياتي.

بعدما أكمل وصلته الكلاسيكية من ملحمة الرامايانا الهندية، قدم الدالانغ دمية على شكل الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، دمية بحجم كامل مع أنف طويل بارز وفك متهدل. ارتدت دمية نيكسون زِيَّ العم سام بقبعة عالية تحمل خطوطا ونجوما مع ذيل خلفي. تبعت دمية نيكسون دمية أخرى ترتدي بزة من ثلاث قطع مقلمة، حيث حملت بيدها دلوًا مزركشًا بعلامة الدولار. ولوحت الدمية الثانية باليد الأخرى وهي تحمل علما أميركيًّا فوق رأس نيكسون بطريقة توحي كما لو أنها عبد يُرَوِّح عن سيده.

ظهرت في خلفية المشهد خريطة للشرق الأوسط والأقصى، لكن مع صور البلدان المختلفة معلقة فيها على خطافات، كلٌّ في موقعه بالترتيب. تحرك نيكسون بسرعة واقترب من الخارطة ورفع قطعة فيتنام والتهمها بفمه. ثم صرخ قائلا شيئا تُرجم لي على أنه «طعم مر! إنه قمامة، ولا نريد المزيد من هذا!»، ثم ألقى بقطعة فيتنام في الدلو، وأكمل مع باقي قطع الدول الأخرى تباعا.

لكنني تفاجأت كثيرا لخيار دمية نيكسون الثاني، حيث لم يحصل ذلك تبعا لنظرية أحجار الدومينو في جنوب شرق آسيا. فعوضا عن تلك المنطقة، انتقلت الدمية إلى دول الشرق الأوسط: باكستان، والكويت، والسعودية، والعراق، وسوريا، وإيران. بعد ذلك، تحول نحو باكستان وأفغانستان. صرخت دمية نيكسون في كل مرة وضعت فيها إحدى الدول في الدلو عبارات لاذعة مناهضة للإسلام كما في «المسلمون كلاب»، و«وحوش محمد»، و«شياطين الإسلام». شعرت بالخجل من أولئك الناس وهم يرون في بلدي كل هذه التعصب والعنصرية الشديدة.

اهتاج الحضور كثيرا، وتصاعد التوتر مع كل إضافة جديدة إلى الدلو. بَدَوا ممزقين ما بين نوبات الضحك، والصدمة، والغضب. شعرت أنهم أُهينوا بلغة محرك الدمى. تحولت مشاعر الخجل التي انتابتني إلى خوف، فقد كنت واقفا وسط الحشد وأطول من معظم الحضور، وخشيت أنهم قد يحولون غضبهم نحوي. بعد ذلك، قال نيكسون شيئا أوقف شعر رأسي حينما ترجمه لي راسي.

قالت دمية نيسكون: «خذوا هذه وأعطوها للبنك الدولي، وانظروا ما يمكن أن يفعله لكسب المال منها». ثم رفع قطعة إندونيسيا من الخريطة وتحرك بهدف رميها في الدلو قبل ظهور دمية أخرى من العدم. مثّلت الدمية شخصية إندونيسية ترتدي عباءة الباتيك المزركشة التقليدية مع بنطال خاكي اللون، مع علامة واضحة تحمل اسمه على ملابسه.

فسر لي راسي قائلا: «إنه سياسي شعبي من باندونغ».

طارت الدمية من مكانها حرفيا لتقف بين نيكسون والدلو، وأمسكت يد نيكسون.

صرخت الدمية «توقف، إندونيسيا بلد ذو سيادة».

انفجر الحضور بالتصفيق حماسة وصخبا.

رفع رجل الدلو العلم الذي بيده وصوبه كرمح إلى صدر الرجل الإندونيسي الذي مات ميتة أليمة إثر تلك الطعنة القاتلة.

أطلق الحضور صيحات الاستهجان والنعيق والصراخ، وهزوا قبضات أيديهم. في هذه الأثناء، نظر نيكسون ورجل الدلو إلينا، ثم انحنى الاثنان وغادرا المسرح.

قلت لراسي: «يجدر بي الذهاب».

وضع الشاب يده على كتفي كما لو كان يحميني وقال: «لا تخْشَ شيئا، فليس لديهم شيء شخصي ضدك». لم أكن واثقا بهذا كثيرًا.

لاحقا، عدنا جميعنا إلى المقهى. أكد لي راسي والآخرون أنهم لم يعرفوا مسبقا بمسرحية نيكسون والبنك الدولي. قال أحد الشباب: «لن تتوقع أبدا ما الذي قد يخرج من جعبة محرك الدمى».

تساءلت علنا عما إذا كان هذا العرض أُعد على شرفي شخصيا. ضحك أحد الشبان وقال إني مغرور جدا، ثم رَبَّت على كتفي بلطف وقال: «كما هو الحال مع جميع الأميركيين».

قال رجل يجلس على كرسي إلى جواري: «يتمتع الإندونيسيون بوعي سياسي عالٍ»، وتساءل قائلا: «ألا يذهب الأميركيون إلى عروض مسرحية كهذه؟».

لكن أحد الحضور معنا، وكانت طالبة جامعية جميلة تدرس اللغة الإنكليزية، وتجلس على المنضدة قبالتي، سألت: «لكنك تعمل لصالح البنك الدولي، أليس كذلك؟».

قلت لها بأن مهمتي الحالية بتكليف من بنك التنمية الآسيوي والوكالة الأميركية للتنمية الدولية.

لم تنتظر الفتاة الجواب حتى ردت: «أليسوا جميعا متشابهين حقا؟»، وأضافت «أليس الأمر كما وصفته مسرحية اليوم؟ ألا تنظر حكومتك إلى إندونيسيا وباقي الدول الأخرى كما لو أننا..»، وبحثت عن مفردة مناسبة.

فتدخل أحد أصدقائها قائلا: «عنقود من العنب».

قال «بالضبط. عنقود من العنب. ولك الاختيار والأخذ. احفظ إنجلترا. ابتلع الصين. وتخلص من إندونيسيا».

دخلت امرأة أخرى على الخط، وقالت: «بعد أخذكم كل نفطنا».

حاولت الدفاع عن نفسي، إلا أنني لم أقم بأي شيء. حاولت التعبير عن حقيقة الشعور بالفخر بمجيئي إلى هذا المكان من البلدة والبقاء بهدف مشاهدة هذا العرض المناهض لأميركا، هذا العرض الذي ربما فسرته كهجوم شخصي ضدي. أردت منهم رؤية الشجاعة فيما فعلت، لأقول لهم إنني الفرد الوحيد ضمن فريقي الذي تجشم عناء محاولة تعلم لغتهم الوطنية ورغب في تعرُّف ثقافتهم المحلية، فضلا عن الإشارة إلى أنني كنت الأجنبي الوحيد من بين حضور هذا العمل الفني. لكنني تأملت في كل ذلك ورأيت الحكمة في عدم ذكر أي شيء مما فكرت فيه. عوضا عن ذلك، حاولت إعادة توجيه مسار الحديث نحو نقطة أخرى. سألتهم عن تصورهم بخصوص السبب الذي دفع لاعب الدمى ليخص الدول الإسلامية دون فيتنام.

ضحكت الشابة التي تدرس الإنكليزية وقالت: «لأن تلك هي الخطة». دخل أحد الرجال على الخط وقال: «لأن فيتنام ليست سوى مرحلة عابرة. إنها كمثل هولندا في عيون النازيين. إنها نقطة انطلاق وحسب».

أضافت المرأة: «يمثل العالم الإسلامي الهدف الحقيقي».

عاد لا يكون في وسعي ترك الأمور تجري هكذا دون رد. اعترضت على كلامها وقلت: «أحَقٌّ ما تقولين؟ هل تعتقدين في عداء الولايات المتحدة للإسلام؟».

تساءلت: «أوه، كلا؟»، وأضافت: «يتعين عليك قراءة ما كتبه أحد مؤرخيكم، وهو رجل بريطاني يدعى توينبي. فبالعودة إلى الخمسينيات، توقع الرجل أن الحرب الحقيقية في القرن القادم لن تكون ما بين الشيوعية والرأسمالية، وإنما بين المسيحية والإسلام».[28]

تساءلت إثر الصدمة: «أرنولد توينبي قال ذلك؟».

ردت بالإيجاب وقالت: «نعم، وبوسعك قراءة كتابه الحضارة في الميزان والعالم والغرب».

سألت: «ولم يتوجب وجود هذا العداء ما بين المسلمين والمسيحيين؟».

تبادل الجميع النظرات حول الطاولة. بدا من الصعب عليهم تصديق أني سألت سؤالا أحمقَ كهذا.

ردت بنبرة بطيئة كما لو كانت توجه كلامها إلى شخص بطيء الفهم أو ضعيف السمع، قائلة: «بسبب تصميم الغرب ـ لا سيما زعامته المتمثلة في الولايات المتحدة ـ على إحكام سيطرته على العالم، وذلك بهدف التحول إلى أعظم امبراطورية في التاريخ. لقد كادت الولايات المتحدة تنجح في ذلك لولا وقوف الاتحاد السوفييتي في طريقها. لكن السوفييت لن يتحملوا. أمكن لتوينبي رؤية ذلك. إنهم بلا دين، بلا إيمان ولا جوهر من وراء إيديولوجيتهم. لقد برهن التاريخ على أهمية وضرورة الإيمان والروح والاعتقاد بالقوى العليا. لكننا المسلمون نملك ذلك، ونملكه أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم، وحتى أكثر من المسيحيين. لذلك نحن ننتظر. وسنكبر بقوة».

عندها، قال أحد الرجال: «سنأخذ وقتنا، ومن ثم سنضرب مثل الثعبان».

«يا لها من فكرة مريعة». بالكاد تمالكت نفسي، وقلت: «ما الذي نستطيع فعله لتغيير ذلك؟».

نظرت الفتاة التي تدرس اللغة الإنكليزية في عيني مباشرة وقالت: «توقفوا عن جشعكم وأنانيتكم. افهموا أن في العالم ما هو أكثر من بيوتكم الكبيرة ومتاجركم الفاخرة. يتضور الناس جوعا فيما تفكرون أنتم بوقود سياراتكم. يموت الأطفال الرضع عطشا فيما تبحثون أنتم عن آخر صيحات الموضة في مجلات الأزياء. تغرق الأمم أمثالنا في الفقر، لكن شعبكم لا يتكلف حتى سماع صرخاتنا ونحن نطلب العون. إنكم تغلقون آذانكم عن أولئك الذين يحاولون قول تلك الأشياء. إنكم تصفونهم بالراديكاليين والشيوعيين. لا بد لكم من فتح قلوبكم للفقراء والمضطهدين عوضا عن دفعهم نحو الفقر والعبودية أكثر. لم يبقَ هناك الكثير من الوقت. وسيكون الفشل مصيركم ما لم تتغيروا».

بعد بضعة أيام، لقي سياسي باندونغ الشعبي، ذلك الرجل الذي مثله فنان الدمى بتلك الشخصية التي وقفت بين نيكسون وحامل الدلو الذي طعنه بالرمح، لقي مصرعه في حادث سير تسبب به شخص مجهول فر دون الكشف عن هويته.

بعد وقت قصير من ذلك، عدت إلى الولايات المتحدة.

التقيت مع آن في باريس بهدف المصالحة، لكن الخلافات استمرت. ابتداءً من اليوم التالي وحتى آخر يوم معا، ما انفكت آن تسألني عما إذا كان لدي علاقة بامرأة أخرى. وحينما اعترفت بذلك، قالت بأنها اشتبهت بالأمر طوال الوقت. قضينا ساعات طويلة على مصطبة نتكلم ونشاهد نهر السين. بحلول وقت سفرنا، أدركنا عمق تاريخ غضبنا وخلافنا الطويل الذي بات عقبة كبيرة وأكبر من الاستمرار معها، ولذلك يتوجب علينا البقاء منفصلين.

12

فرصة العمر

مثلت إندونيسيا اختبارا لي من عدة نواحٍ، لكن اختبارات أخرى كانت تنتظرني في بوسطن.

توجهت أول الصباح إلى مقر إدارة الشركة الرئيسي. وبينما وقفت مع عشرات الموظفين الآخرين قرب المصعد، عرفت بقرار رئيس مجلس إدارة شركة ماين، والرئيس التنفيذي الثمانيني الغامض، ماك هول، ترقية إينار لمنصب رئيس مكاتب عمليات بورتلاند، أوريغون. نتيجة لذلك، عرفت أني سأرفع تقاريري رسميا إلى برونو زامبوتي.

حمل الرجل لقب «الثعلب الفضي» جراء لون شعره ومقدرته الاستثنائية على التغلب على كل من يتحداه. تمتع برونو بمظهر جيد يشبه مظهر الممثل الشهير كاري غرانت. وكان متحدثا لبقا ويحمل شهادتين في الهندسة مع ماجستير في إدارة الأعمال. توفر برونو على فهم في ميدان الاقتصاد السياسي وشغل منصب نائب رئيس قسم الطاقة الكهربائية في شركة ماين فضلا عن مسؤوليته عن إدارة معظم مشاريعنا الدولية، وكان خيارا واضحا لتولي منصب رئيس الشركة حينما تقاعد معلمه العجوز جايك داوبر. وكما هو الحال مع معظم العاملين في شركة ماين، شعرت بالخوف والرعب من برونو زامبوتي.

قبل حلول موعد الغداء، دُعيت إلى مكتب برونو. وبعد حديث ودي حول إندونيسيا، قال لي برونو شيئا جعلني أقفز من مكاني.

قال: «قررت طرد هوارد باركر. لسنا بحاجة إلى الخوض في التفاصيل فيما عدا أنه فقد صلته بالواقع». بدت ابتسامته مقلقة إلى حد كبير وهو يمرر أصابعه وسط كومة أوراق على مكتبه. وأضاف قائلا: «بم كان يفكر حينما قدر النسبة بـ8% على أساس سنوي. تلك توقعاته للحمل. هل تصدق ذلك؟ ولبلد بإمكانات إندونيسيا!».

تلاشت ابتسامته ونظر في عيني مباشرة، وقال: «أبلغني تشارلي إيلينغورث أن توقعاتك الاقتصادية صحيحة وتتناسب مع الهدف وسوف تبرر نموًّا بالحمل بمعدل يترواح بين 17 – 20%، أليس كذلك؟».

أكدت له ذلك.

وقف الرجل ومد يده مصافحا. «تهانينا. رُقِّيتَ للتو».

ربما كان على الخروج من مكتبه والذهاب للاحتفال في مطعم فاخر مع موظفين آخرين من شركة ماين، أو ربما وحدي. لكن أفكاري اتجهت نحو كلودين. تلهفت بشدة لأخبرها عن ترقيتي، وتجاربي التي خضتها في إندونيسيا، وعن تفاصيل الوقت الذي قضيته مع آن.

حذرتني كلودين من الاتصال بها من الخارج، ولم أفعل. أما الآن، فقد شعرت بالإحباط حينما اكتشفت فصل رقم هاتفها، ودون وجود رقم بديل يمكن الرجوع إليه. ذهبت للبحث عنها.

انتقل زوجان شابان إلى شقتها. وعلى الرغم من أن الوقت كان ظهرا، فإنني أيقظتهما من النوم كما أتصور، وأزعجتهما بسؤالي. قال الزوجان إنهما لا يعرفان شيئا عن كلودين. قررت مراجعة وكالة استئجار العقارات مدعيا أني ابن عمها. لم تشر ملفات الوكالة إلى أي شخص استأجر شقة بهذا الاسم، في حين سُجّل العقد الأسبق لصالح شخص فضل الإبقاء على اسمه سريا بناءً على طلبه. وبالعودة إلى مقر شركة ماين الرئيسي، أكد قسم التوظيف في الشركة عدم وجود أي ملف أو سجل باسم كلودين. ولم يقر القسم إلا بوجود ملف لـ«مستشارين خاصين» غير متاح لاطلاعي.

بحلول مساء ذلك اليوم، شعرت بالإجهاد الجسدي والاستنزاف العاطفي. وعلاوة على ذلك، عانيت حالة سيئة من إرهاق السفر الناجم عن فرق التوقيت. عدت إلى شقتي وحيدا وشعرت بالفراغ الشديد. بدت ترقيتي بلا معنًى، وربما أسوأ من ذلك إذ بدت رمزا على استعدادي لبيع نفسي. ألقيت بنفسي على السرير مستسلما لليأس. استغلتني كلودين قبل تخلصها مني. عقدت العزم على عدم الاستسلام لغضبي، وأزحت مشاعري جانبا. استلقيت على السرير وبقيت أحدق إلى الجدران لما بدت أنها ساعات طويلة.

استجمعت نفسي في خاتمة المطاف. نهضت من السرير، وارتشفت شيئا من البيرة قبل تحطيم الزجاجة الفارغة على المنضدة. نظرت عبر النافذ نحو الشارع البعيد، وخُيّل إلي أني رأيت كلودين تسير باتجاهي. ركضت نحو الباب ثم عدت إلى النافذة لأنظر من جديد.

اقتربت المرأة باتجاهي أكثر. كان بوسعي رؤية ملابسها الراقية ومشيتها الواثقة التي تذكرني بكلودين، ما عدا أنها لم تكن كلودين. وقع قلبي مني، وتحولت مشاعري من الغضب والاشمئزاز إلى الخوف. تساءلت عما إذا لقيت حتفها، أو انها توفيت ربما. تناولت قُرصَي منوم وعاقرت الخمر حتى تمكن مني النوم.

صبيحة اليوم التالي، أيقظني من ذهولي اتصال من قسم الأفراد التابع لشركة ماين. كان رئيس القسم، باول مورمينو، وأكد لي أنه يفهم حاجتي إلى الراحة، لكن من الضروري بمكان قدومي إلى المكتب عصر ذلك اليوم.

قال الرجل: «أحمل لك أنباءً طيبة»، وأضاف: «أفضل مجيئك للحديث شخصيا، ولسوف يتلاشى تعبك كله». أطعت أمر الاستدعاء وعلمت أن برونو لم يكن صادقا في كلامه وحسب، وإنما فعل ما هو أكثر. فلم تتقرر ترقيتي لأشغل منصب عمل هوارد وحسب، وإنما مُنحت لقب «كبير الاقتصاديين» في شركة ماين مع زيادة في مرتبي كذلك. أبهجني هذا الكلام بعض الشيء.

أخذت باقي اليوم إجازة ونزلت لأتمشى على نهر تشارلز مع زجاجة بيرة في يدي. في حين جلست هناك أشاهد المراكب الشراعية وأعاين مزيجا من إرهاق فرق التوقيت ما بعد السفر إلى جانب آثار الثمالة. لطالما ركزت كلودين على الحاجة الملحة إلى التحفظ والسرية. كنت واثقا بأنها ستتصل بي. كان مورمينو محقا. انتهى إجهاد السفر وتلاشى معه القلق.

خلال الأسابيع اللاحقة، حاولت تركيز أفكاري بعيدا عن كلودين. ركزت جهودي على كتابة التقرير عن الاقتصاد الإندونيسي وتعديلات توقعات الحمل التي خرج بها هوارد. في واقع الحال، خرجت بالدراسة التي يريد المديرون رؤيتها، دراسة تشير إلى نمو بالطلب الكهربائي بمعدل 19% على أساس سنوي لفترة اثني عشر عاما بعد اكتمال النظام الجديد، لتنخفض النسبة إلى 17% للسنوات الثماني اللاحقة، ومن ثم لتثبت على نسبة 15% لما يتبقى من مشروع الأعوام الخمسة والعشرين.

عرضت النتائج التي خرجت بها ضمن اجتماعات رسمية مع عدد من وكالات منح القروض الدولية. في مقابل ذلك، استجوبتني فرق الخبراء المختصة بهذا الميدان على نطاق واسع ودون رحمة. في ذلك الوقت، تحولت مشاعري إلى نوع من الإصرار الكئيب، وعلى النقيض من تلك التي دفعتني إلى التفوق وليس التمرد في أيام المدرسة الثانوية. على الرغم من ذلك، بقي طيف كلودين يحوم حولي. فعندما أراد اقتصاديٌّ شاب وقح إبراز اسمه في صفوف البنك الآسيوي للتنمية عبر استجوابي مساء أحد الأيام بلا هوادة، تذكرت نصيحة كلودين التي قدمتها لي حينما ضمن إحدى جلساتنا في شقتها الواقعة في شارع بيكون قبل أشهر مضت.

قالت: «من يملك رؤية المستقبل لما بعد خمسة وعشرين عاما يا ترى؟»، وأضافت: «إن تخميناتك جيدة بقدر تخميناتهم، لكن الثقة هي كل شيء».

أقنعت نفسي بأني خبير، وذكرت نفسي دوما بأني أتمتع بالخبرة عن التنمية الاقتصادية في الدول النامية أكثر من الآخرين ـ آخرين تبلغ سنّ بعضهم ضعف سنّي ـ الذين يجلسون الآن بهدف الحكم على عملي. لقد عشت في الأمازون وسافرت إلى بقاع في جاوة لم يرغب أحد في الوصول إليها. أخذت دروسا مكثفة مصممة لتدريب المديرين التنفيذيين على النقاط الدقيقة في ميدان الاقتصاد القياسي، وقلت لنفسي إني فرد من السلالة الجديدة من الشبان ذوي التوجه الإحصائي والمتخصصين في الاقتصاد القياسي، ممن التمسوا خطى رئيس البنك الدولي، والرئيس السابق لشركة فورد فضلا عن كونه وزير الدفاع الأسبق للرئيس جون كينيدي، روبرت مكنمارا. هأنذا رجل بنيت سمعتي على الأرقام، ونظرية الاحتمالات، والنماذج الرياضية، وعلى التظاهر ـ كما ظننت ـ بالشجاعة «المُتوهَّمة» المتأتية من ذاتٍ متضخمة جدا.

حاولت محاكاة مكنمارا ورئيسي برونو كليهما. في هذا السياق، تبنيت وطبقت أساليب كلام تشابه نمط الأول، في حين تماشيت مع نمط الثاني المتبجح مع حقيبة أوراق وملفات إلى جانبي. تطلعت إلى الماضي، وتساءلت عن تلك الوقاحة. في واقع الحال، كانت خبراتي محدودة جدا، لكني عوضت نقص التدريب والمعرفة بالجرأة والإقدام.

نجح الأمر في خاتمة المطاف، وختم فريق الخبراء تقاريري بتصديقهم عليها.

إبان الأشهر اللاحقة، حضرت جملة اجتماعات في طهران، وكراكاس، ومدينة غواتيمالا، ولندن، وڤيينا، وواشنطن العاصمة. التقيت شخصيات ذائعة الصيت، بما فيها شاه إيران، ورؤساء سابقين لعدد من الدول، عدا عن روبرت مكنمارا شخصيا. كما هو الحال مع المدرسة الثانوية، كان عالما ذكوريا بحتاً. تفاجأت كثيرا بتأثير عنواني الوظيفي وقصص نجاحاتي مع وكالات القروض الدولية في مواقف الناس مني.

بداية، اتجه كل الاهتمام إلى رأسي. شعرت كما لو أني كنت «ميرلين» عرّاف الملك آرثر، أوجه عصاي نحو بلد فتضيء أنواره فجأة، وتزدهر صناعاته كبراعم الورود. خاب ظني لاحقا. تساءلت عن دوافعي ودوافع كل أولئك الناس الذين عملوا معي. بدا عنوان «الدكتور» غير ذي نفع لصاحبه إذا ما أراد استيعاب محنة مجذوم يعيش قرب بالوعة مكشوفة في جاكارتا، وشككت بأن موهبة التلاعب بالأرقام الإحصائية قد لا تمكن صاحبها من رؤية المستقبل. وكلما عرفت أكثر عن أولئك الذين يصنعون القرارات التي تحدد مصير العالم، تشككت إزاء قدراتهم وأهدافهم.

وشككت فيما إذا كانت الموارد المحدودة كافية لتسمح بعيش العالم أجمع نمط الحياة الفخم الذي تعيشه الولايات المتحدة التي يعيش الملايين من مواطنيها في حالة من الفقر الواضح. ولم يكن واضحا لي ما إذا أراد البشر من الأمم الأخرى العيش بنمط حياتنا. ولا بد من الإشارة إلى أن الإحصاءات عن العنف، والاكتئاب، وإساءة تعاطي المخدرات، والطلاق، والجريمة تشير إلى أننا قد نكون الشعب الأقل سعادة في العالم على الرغم من أننا من أغنى المجتمعات في التاريخ. لكن، لِم نريد من الآخرين تقليدنا؟ بالنظر إلى الوجوه في تلك الاجتماعات التي حضرتها، وجدت شكوكي تتحول إلى غضب صامت جراء هذا النفاق.

تغيّر هذا في نهاية المطاف كذلك. لقد توصلت إلى قناعة مفادها اقتناع كل أولئك الرجال بفعلهم الخير. وكما هو الحال مع تشارلي، فقد كانوا مقتنعين بأن الشيوعية تمثل قوة الشر ــ عوضا عن ردود الأفعال تجاه القرارات التي اتخذها أسلافهم ــ وأن عليهم واجبا تجاه بلدهم وأبنائهم وتجاه الرب، وذلك بهدف تحويل العالم نحو الرأسمالية. ثم إنهم تمسكوا بمبدأ البقاء للأصلح، وإذا ما تصادف أنهم تمتعوا بالحظ السعيد وولدوا ضمن طبقة متميزة اجتماعيا عوضا عمن يولد في منزل من الصفيح أو الورق المقوى، فإنهم يشعرون بأن عليهم التزاما بنقل هذا الإرث إلى ذريتهم.

ترجَّحت أفكاري ما بين رؤية أناس كهؤلاء على شكل مؤامرة فعلية أو أنهم كانوا أخوية حقيقية متماسكة ومصممة على الهيمنة على العالم. وبمرور الوقت، أخذت أشبههم بملّاك المزارع الجنوبيين في فترة ما قبل الحرب الأهلية الأميركية. لقد كانوا رجالا جمعهم رابط فضفاض من المعتقدات العامة والمصالح الذاتية المشتركة، بدلا من تجمع حصري داخل مخابئ سرية يركز أصحابها على النيات الشريرة. في واقع الحال، نشأ مالكوا المزارع المستبدون وسط خدمهم وعبيدهم، وتعلموا على الاعتقاد بأن من حقهم، بل ومن واجبهم، رعاية «الوثنيين» بهدف تحويلهم إلى ديانة مالكيهم ونمط حياتهم. وحتى لو أنهم اصطدموا بمفهوم العبودية فلسفيا، فإنهم قادرون ـ كما هو الحال مع توماس جيفرسون ـ على التبرير بأن العبودية ضرورية، وأن انهيار نظامها سيقود إلى فوضى اجتماعية واقتصادية. لذلك، وعلى ما أعتقد به الان، فإن زعماء «الأوليغارشيات» الحديثة التي أخذت الآن شكل «سلطة الشركات» لا يمثلون إلا صورة جديدة للأصل القديم ذاته.

وأخذت أتساءل عن المستفيد من الحرب وصناعات السلاح الكبيرة، وبناء السدود على الأنهار وتدمير البيئات والثقافات المحلية، وتساءلت عن هوية المستفيد من موت مئات آلاف من الناس جراء نقص الغذاء، أو الماء الملوث، أو الأمراض التي يوجد لها علاج أصلا. شيئا فشيئا، توصلت إلى قناعة مفادها أن أحدا لن ينتفع من كل هذا على المدى البعيد، لكن يوجد على قمة الهرم من سيحقق هذه المنفعة على المدى القصير ـ رؤسائي وأنا ـ ماديا على أقل تقدير.

قادتني هذه التساؤلات نحو تساؤلات أخرى: لماذا يستمر الوضع على ما هو عليه؟ ولمَ دام منذ وقت طويل؟ هل يكمن الجواب ببساطة في مقولة «الحق مع القوة»، وأن أصحاب القوة يديمون استمرار النظام؟

قد لا يبدو كافيا القول بأن القوة وحدها تسمح بديمومة هذا الوضع. ففي الوقت الذي قد يصح فيه تفسير «القوة» إلى حد كبير، شعرت بأن قوة أخرى لا بد من وجودها وتأثيرها كذلك. استذكرت أحد أساتذة الاقتصاد من أيام دراستي الجامعية، وكان رجلا من شمال الهند درسنا عن الموارد المحدودة وحاجة الإنسان إلى النمو المستمر، وعن مبدأ السخرة بالعمل. بحسب ما قال ذلك الأستاذ، فإن جميع النظم الرأسمالية الناجحة تضمنت هرميات ذات سلاسل قيادة صارمة، بما في ذلك حفنة قليلة على رأس الهرم تُحكم توجيه الأوامر للمرؤوسين نزولا، إلى جانب جيش ضخم من العاملين

في القاعدة، عاملين يمكن تصنيفهم نسبيا كعبيد بالمنظور الاقتصادي. أصبحت مقتنعا، في نهاية المطاف آنذاك، أننا نشجع هذا النظام لأن سلطة الشركات أقنعتنا بأن الرب منحنا الحق في وضع عدد محدود منا على رأس الهرم الرأسمالي بغية تصدير نظامنا لكل العالم.

لم يكن الأميركيون أول من قام بذلك بالتأكيد، فالقائمة تطول لتشمل الامبراطوريات القديمة لشمال إفريقيا، والشرق الأوسط، وآسيا، وصولا إلى بلاد فارس، والإغريق، وروما، والحملات المسيحية الصليبية، وجميع بناة الامبراطوريات الأوربية لحقبة ما بعد كرستوفر كولمبوس. كان الدافع الإمبريالي ـ واستمر ـ سببا لمعظم الحروب، والتلوث، والمجاعة، وانقراض الأنواع، والإبادة الجماعية. وقد أثر ذلك في وعي ورفاهية مواطني تلك الامبراطوريات على نحو خطير، الأمر الذي أسهم في خلق آفة اجتماعية أنتجت وضعا ابتلي فيه أصحاب أكثر الثقافات ثراءً بالتاريخ بأعلى معدلات الانتحار وتعاطي المخدرات والعنف.

فكرت مليا ومطولا بهذه الأسئلة، إلا أني تجنبت النظر في طبيعة دوري في كل هذا، وجاهدت كي لا أرى في نفسي قاتلا اقتصاديا، وإنما كي أرى رجلَ اقتصاد. لقد بدا أمرا مشروعا جدا، وإذا ما أردت تأكيدا، فبوسعي إلقاء نظرة على تفاصيل مُرَتَّبي المدفوع كليا من شركة ماين، تلك الشركة الخاصة. في مقابل ذلك، لم أحصل على أي قرش من وكالة الأمن القومي أو أي وكالة حكومية أخرى. لذلك أصبحت مقتنعا إلى حد كبير.

مساء أحد الأيام، دعاني برونو إلى مكتبه. قام الرجل من مكتبه وتحرك ليقف خلفي ويربت على كتفي. قال: «لقد قمت بعمل رائع»، وأضاف: «ولكي نعبر عن تقديرنا، قُرِّر منحك فرصة العمر، شيئا لم يحظ به سوى قلة قليلة من الناس، وأغلبهم ممن هم في ضِعف سنّك».

13

رئيس بنما وبطلها

في وقت متأخر من إحدى ليالي نيسان العام 1972، هبطت طائرتنا في مطار توكومين الدولي في بنما أثناء عاصفة مطرية استوائية. كما كان شائعا في تلك الأيام، تشاركت سيارة أجرة مع عدد من المديرين التنفيذيين. ولمّا كنتُ أتحدث الإسبانية، فقد انتهى بي الحال جالسا في المقعد الأمامي قرب السائق. حدقت عبر نافذة سيارة الأجرة دونما اكتراث بشيء. عبر المطر المتساقط، أضاءت الأنوار لوحة إعلانات كبيرة تحمل صورة لرجل وسيم بجبين بارز وعينين وَقّادتين. بدت قبعته الكبيرة معقوفة بشدة من أحد جانبيها نحو الأعلى. ميّزتُ صورة الرجل الذي كان بطل بنما المعاصر، عمر توريخوس.

رُتّب لهذه الزيارة بالأسلوب المعتاد، وذلك عبر التوجه إلى قسم المراجع في مكتبة بوسطن العامة. عرفت أن أحد أسباب شعبية توريخوس بين أبناء شعبه تمحورت حول دفاعه الثابت عن حق بنما في حكم نفسها من جهة، ومطالباته بالسيادة البنمية على قناتها من جهة ثانية. بدا توريخوس مصمما على تجنيب بلاده ــ تحت قيادته ــ مزالق تاريخها الشائن.

كانت بنما تابعة إلى كولومبيا حينما قرر المهندس الفرنسي فيرديناند دي لا سيبس، وهو المهندس الذي أشرف على إنشاء قناة السويس، بناء قناة عبر مضيق أميركا الوسطى بغية ربط المحيطين الأطلسي والهادي معًا. ابتداءً من العام 1881، بذل الفرنسيون جهودا عملاقة انتهت إلى كارثة تلو الأخرى. وفي خاتمة المطاف، انتهى المشروع بكارثة مالية عام 1889، إلا أنه ألهم تيودور روزفلت حلما كبيرا. خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، طالبت الولايات المتحدة كولومبيا بتوقيع معاهدة تحول المضيق إلى كونسورتيوم «نورث أميركا». رفضت كولومبيا.

أرسل الرئيس روزفلت عام 1903 السفينة الحربية الأميركية ناشفيل إلى المنطقة. نزل الجنود هناك وأمسكوا قائد ميلشيا محليًّا يحظى بشعبية بين السكان وقتلوه، ومن ثم أعلنوا بنما دولة مستقلة. نُصّبت حكومة موالية ووُقعت اتفاقية القناة الأولى التي أوجدت منطقة سيطرة أميركية على

جانبي القناة المستقبلية، وشرّعت التدخل الأميركي العسكري، فضلا عن منحها واشنطن سيطرة فعلية على الدولة «المستقلة» التي شُكِّلت للتو.

من اللافت توقيع تلك المعاهدة من جانب وزير الخارجية الأميركي جون هاي من جهة وفيليب بونو فاريا، وهو مهندس فرنسي وجزء من فريق العمل الأصلي، ودون أي توقيع بنمي على الإطلاق. على نحو أساسي، أُجبرت بنما على ترك كولومبيا بهدف خدمة مصالح الولايات المتحدة، وذلك عبر صفقة أبرمت ما بين الأميركيين ورجال فرنسيين. وبالعودة إلى ذلك الوقت، بدت الحوادث تبشر بخواتيمها من البداية.[29]

لأكثر من نصف قرن، حكمت بنما مجموعة من العائلات الأوليغارشية الثرية ممن كان لها صلات قوية بالولايات المتحدة. كانت تلك عائلات دكتاتورية من اليمين المتطرف المستعد للقيام بكل ما يلزم لضمان استمرار المصالح الأميركية. على غرار معظم حكام أميركا اللاتينية الدكتاتوريين الذين اصطفوا إلى جانب واشنطن، ترجم حكام بنما المصالح الأميركية عبر إخضاع وسحق أي حركة شعبية فاحت منها رائحة الاشتراكية. ودَعَم أولئك الزعماء الدكتاتوريون أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي الأميركيتين ضد الأنشطة الشيوعية ضمن الجزء الغربي من نصف الكرة الأرضية الجنوبي، وساعدوا كبريات أعمال الشركات الأميركية مثل شركة ستاندارد أويل النفطية المملوكة لعائلة روكفلر، وشركة يونايتيد فروت (التي سعت شركة زاباتا المملوكة لعائلة جورج بوش الأب إلى شرائها). على ما يبدو، لم تشعر حكومات أولئك الزعماء بأن دعم المصالح الأميركية جاء على حساب حياة الناس الذين عاشوا في فقر مدقع أو عملوا فعليا كعبيد لصالح الشركات والمزارع الكبرى.

كوفئت العائلات البنمية الحاكمة بسخاء على دعمها واشنطن، حيث تدخلت القوات الأميركية لصالح تلك العائلات عشرات المرات في الفترة ما بين إعلان استقلال بنما وحتى العام 1968. لكن في ذلك العام، وحينما كنت لا أزال متطوعا في فيالق السلام في الإكوادور، تغير مسار التاريخ البنمي على نحو مفاجئ. أطاح انقلاب بحكم آرنولفو آرياس، الذي كان الأخير ضمن قائمة حكام هذا البلد الدكتاتوريين، فيما برز عمر توريخوس كرئيس للدولة، على الرغم من عدم مشاركته الفعلية في ذلك الانقلاب.[30]

حظي توريخوس بشعبية وتقدير كبيرين ما بين أفراد الطبقات الوسطى والفقيرة في بنما. ثم إن توريخوس نفسه نشأ في مدينة سانتياغو الريفية حيث عمل والداه كمدرسين هناك. ارتقى توريخوس بسرعة في صفوف الحرس الوطني الذي يعد القوة العسكرية الأهم، والتي حظيت بدعم متزايد في صفوف فقراء البلاد إبان ستينيات القرن الماضي. اكتسب توريخوس سمعته الطيبة عبر الإصغاء للمعدمين. تجول الرجل في شوارع مدن الصفيح، عقد اجتماعات ولقاءات في أحياء فقيرة لم يجرؤ سياسيون آخرون على دخولها، وساعد العاطلين على إيجاد فرص عمل لهم، وعادة ما تبرع بموارده المالية المحدودة للعائلات المنكوبة بالأمراض والمآسي.[31]

تعدى حب توريخوس للحياة وتعاطفه مع الناس حدود بنما نفسها. صمم توريخوس على تحويل بلاده إلى ملاذ آمن للمضطهدين والمطاردين سياسيا، ملاذ يوفر اللجوء من كلا جانبي السياج السياسي لبنما، سواء الخصوم اليساريون لدكتاتور شيلي بينوشيه أو جماعات اليمين المسلحة المناهضة لكاسترو. وقد رأى فيه الكثير من الناس عامل سلام، ذلك المفهوم الذي أكسبه الكثير من الاحترام عبر أرجاء غرب نصف الكرة الأرضية الجنوبي. وبرزت سمعته كزعيم كَرَّس نفسه لحل الخلافات ما بين الكثير من الفرقاء المتناحرين في دول أميركا اللاتينية، ابتداءً من الهندوراس، وغواتيمالا، والسلفادور، ونيكاراغوا، وكوبا، وكولومبيا، وبيرو، والأرجنتين، وتشيلي، والبارغواي. وقد ظهرت أمته الصغيرة المكونة من مليوني نسمة كنموذج على الإصلاح الاجتماعي ومصدر إلهام لزعماء العالم المتنوعين كمنظمات العمل التي تآمرت من أجل تفتيت الاتحاد السوفييتي والثوريين الإسلاميين كما هو الحال مع معمر القذافي في ليبيا.[32]

إبان ليلتي الأولى في بنما، وحينما توقفت السيارة عند تقاطع مروري مزدحم تركني أراقب الضجيج بصمت من وراء الزجاج، شعرت بتأثير ذلك الرجل المبتسم عبر صورة الإعلان، وتأثرت بوسامته وجاذبيته وشجاعته. علمت من خلال ساعات طويلة من البحث في مكتبة بوسطن العامة أنه رجل صلب متمسك بمعتقداته. للمرة الأولى في تاريخها، لم تكن بنما دمية في يد واشنطن أو غيرها. لم يستسلم توريخوس قط لإغراءات موسكو أو بكين، وآمن بالإصلاح الاجتماعي ومساعدة أولئك الذين ولدوا في الفقر، إلا أنه لم يدافع عن الشيوعية. وعلى النقيض من كاسترو، بدا توريخوس مصمما على نيل الحرية من الولايات المتحدة دون عقد تحالفات مع أعدائها.

صادفني مقال ضمن مجلة مغمورة في أحد رفوف المكتبة امتدح توريخوس كرجل سيغيّر تاريخ الأميركيتين، ويعكس نمطا طويلا من الهيمنة الأميركية. كنقطة بداية له، استشهد كاتب المقال بمذهب ما يعرف بـ«المصير الواضح أو القدر المتجلي»، الذي شاع في أوساط الأميركيين إبان أربعينيات القرن التاسع عشر، والمبني على فكرة غزو أميركا الشمالية التي جرت بأمر إلهي، وقرار الرب ـ وليس الإنسان ـ وجوب تنفيذ الإبادة الجماعية بحق الهنود الأصليين، وتدمير الغابات، والانقراض شبه التام للجاموس، وتجفيف المستنقعات، وتغيير مسارات الأنهار، فضلا عن تطوير اقتصاد يعتمد على الاستغلال المستمر للعمالة والموارد الطبيعية.

دفعني ذلك المقال إلى التفكير بموقف بلادي إزاء العالم. استُخدِم مبدأ مونرو ـ الذي أعلنه الرئيس جيمس مونرو عام 1823 ـ بغية دفع مذهب «المصير الواضح» خطوة إضافية إلى الأمام. ففي فترة خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر استُشهِد بذلك المبدأ بهدف تأكيد حق الولايات المتحدة الخاص على منطقة غرب الكرة الأرضية، بما في ذلك الحق في غزو أي أمة في وسط وجنوب أميركا ترفض دعم سياسات الولايات المتحدة.

استحضر ثيودور روزفلت مبدأ مونرو ذريعة لتبرير تدخل الولايات المتحدة في جمهورية الدومينيكان، وفنزويلا، وإبان «تحرير» بنما من كولومبيا. واعتمد جمع من الرؤساء الأميركيين ـ لا سيما تافت ويلسون وفرانكلين روزفلت ـ عليه لتوسيع نشاطات واشنطن في الأميركيتين بحلول فترة نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي خاتمة المطاف، وأثناء النصف الثاني من القرن العشرين، استغلت الولايات المتحدة تهديد الشيوعية لتبرير توسعة استخدام هذا المبدأ عبر أرجاء العالم الأخرى، بما فيها فيتنام وإندونيسيا.[33]

لكن على ما يبدو، فإن هناك الآن رجلاً واحداً يقف في طريق واشنطن. عرفت أنه لم يكن الأول، فقد سبقه زعماء آخرون مثل كاسترو وإليندي. لكن توريخوس كان الوحيد الذي اتخذ مواقفه خارج مملكة الإيديولوجية الشيوعية ومن دون الادعاء بثورية حركته. ببساطة، قال توريخوس إن لبنما الحق بالسيادة على شعبها وأرضها وممرها المائي الذي يشطر البلاد إلى نصفين، وإن هذا الحق نافذ ومقدس كجميع الحقوق التي تتمتع بها الولايات المتحدة.

واعترض توريخوس على ما يعرف باسم «مدرسة الأميركيتين» (والتي تغير اسمها إلى معهد نصف الكرة الغربي للتعاون الأمني في العام 2001)، واعترض كذلك على مركز تدريب عمليات المناطق الحارة التابع إلى القيادة الجنوبية لقوات الولايات المتحدة، وكلاهما تمركز في منطقة القناة. لسنوات طويلة، وجهت القوات الأميركية المسلحة الدعوة لزعماء ورؤساء أميركا اللاتينية الدكتاتوريين لإرسال أبنائهم وقادتهم العسكريين للالتحاق بتَيْنك المنشأتين اللتين تعدان الأكبر والأفضل تجهيزا خارج الأراضي الأميركية. ويتعلم هؤلاء هناك فنون التحقيق ومهارات العمليات السرية إلى جانب التكتيكات العسكرية التي سيستخدمونها في محاربة الشيوعية وحماية ممتلكاتهم وممتلكات الشركة النفطية وباقي الشركات الأخرى. وأتاحت هذه التدريبات فرصة للترابط والتواصل مع بعض من كبار الضباط الأميركيين.

كانت هاتان المنشأتان موضع كره الأميركيين اللاتينيين فيما خلا القلة الثرية التي أفادت منهما. عُرف عن مركزي التدريب تقديمها تدريبات لفرق الموت اليمينية ومسؤولي التعذيب الذين حولوا الكثير من الدول إلى أنظمة استبدادية.

أوضح توريخوس بما لا يقبل اللبس موقفه الرافض لوجود هذين المركزين على الأراضي البنمية، مع تشديده اعتبار منطقة القناة جزءًا لا يتجزأ من حدود بلاده.[34]

بينما شاهدت صورة الجنرال الوسيم على لوحة الإعلانات، وقرأت العبارة أسفل وجهه تقول: «الحرية حلم عمر، ولم يُخترع الصاروخ الذي يقتل الأحلام بعد!»، شعرت برعشة سرت في عظامي. انتابني هاجس بأن قصة بنما في القرن العشرين لا تزال بعيدة كل البعد عن خاتمتها، وأن توريخوس يعيش وقتا صعبا وظرفا مأساويا.

ضربت العاصفة الاستوائية على زجاج النافذة، وتحولت إشارة المرور إلى اللون الأخضر، في حين ضرب السائق على زر البوق لتنبيه السائق أمامنا. تأملت في وظيفتي. لقد أوفدوني لإكمال مفاوضات ما ستكون أول خطة تنمية حقيقية شاملة تنفذها شركة ماين. ولسوف تبرر هذه الخطة استثمارات من جانب البنك الدولي، وبنك التنمية للبلدان الأميركية، والوكالة الأميركية للتنمية الدولية بقيمة مليارات الدولارات في قطاعات الطاقة، والنقل، والزراعة في هذا البلد الصغير

والحيوي جدا. وقد كانت تلك، بطبيعة الحال، وسيلة احتيال لجعل بنما مدينة للأبد، وبالتالي إعادتها إلى وضع الدولة الدُّمية.

مع انطلاق سيارة الأجرة عبر ظلام الليل، استيقظت في داخلي نوبة من الشعور بالذنب، إلا أني قمعتها. ولِمَ سأهتم يا ترى؟ لقد أخذت زمام المبادرة في جاوة، وبعت روحي، ومُنحت الآن ــ كما قال برونو ــ فرصة العمر. يمكن أن أصبح الآن ثريًّا، ومشهورًا، وقويًّا بضربة واحدة.

14

الاستعمار الأميركي في منطقة القناة

في اليوم التالي، بعثت الحكومة البنمية برجل لمرافقتي وتعريفي بالأماكن. كان اسمه فيديل، وقد انجذبت إليه على الفور.

كان فيديل طويلا ورشيقا وفخورا ببلده إلى حد كبير. قاتل جده الثالث مع بوليفار[35] بهدف انتزاع الاستقلال من إسبانيا. شعر فيديل بسعادة غامرة حينما قلت له إني على صلة قرابة بتوم باين[36] مؤلف كتاب «الفطرة السليمة»، وقال لي إنه قرأه بالإسبانية. تحدث فيديل الإنكليزية، لكن مشاعره تأثرت حينما عرف أني أجيد لغة بلاده. قال فيديل: «يعيش الكثير من أبناء شعبكم هنا منذ سنين، لكنهم لم يتجشموا عناء تعلم لغتنا».

قادني فيديل بجولة شملت أحد أكثر الأماكن ازدهارا وإثارة في مدينته، والتي تحمل اسم «نيو بنما». وحينما مررنا بجانب بعض ناطحات السحاب ذات الهياكل الحديدية المغطاة بألواح زجاجية، أشار إلى توفر بنما على أكبر عدد من البنوك الدولية جنوب نهر ريو غراندي.[37]

قال فيديل «عادة ما يطلق على بنما لقب سويسرا الأميركيتين»، وأضاف: «نحن لا نسأل عملاءنا سوى أسئلة قليلة وحسب».

بالعودة إلى المدينة، سار فيديل ضمن منطقة وصفها بالأحياء الفقيرة التي قال «إنها ليست الأسوأ»، لكنه أكد أني سأتذوق النكهة الحقيقية من خلالها!

انتشرت الأكواخ الخشبية التي تخرج منها مجاري المياه الراكدة نحو الشوارع، وبرزت منازل محطمة بدت كقوارب خربة سقطت في بالوعات المجاري. ملأت رائحة العفن والمجاري سيارتنا في حين كان الأطفال ذوو البطون المنتفخة يركضون في الأرجاء. حينما أبطأت السيارة، كان الأطفال يقتربون مني وينادونني «عمي»، ويستجدون مني المال. ذكرني المشهد الأليم بجاكارتا.

لوّنت رسومات «الغرافيتي» معظم الحيطان. كان بعض تلك الرسومات تقليديا يحمل صور قلوب وأسماء بعض المحبين نقشت في الداخل، لكن معظم تلك الرسومات عبرت عن شعارات تنم عن الحقد على الولايات المتحدة. تقول بعض الشعارات: «عودوا أدراجكم أيها الأغراب»، و«توقفوا عن إلقاء قذارتكم في قناتنا»، و«العم سام، سيد العبودية»، و«أخبروا نيكسون: بنما ليست فيتنام».

لكن الشعار الذي أصاب قلبي بالقشعريرة كان: «الموت من أجل الحرية هو الطريق إلى المسيح». وقد تناثرت ملصقات صور عمر توريخوس ما بين تلك الشعارات.

قال فيديل: «والآن إلى الجانب الآخر»، وأضاف: «لدي الأوراق الرسمية وأنت مواطن أميركي، لذلك يسعنا الذهاب». تحت سماء أرجوانية اللون، قاد الرجل السيارة إلى منطقة القناة.[38] لم أكن مستعدا بقدر ما توقعت نفسي. بالكاد صدقت فخامة المكان ما بين الأبنية البيض الضخمة، والحدائق المزينة، والمنازل الفخمة، وملاعب الغولف، والمتاجر، والمسارح.

قال: «في واقع الحال، كل شيء هنا مملوك للأميركيين، من محلات السوبرماركت، والحلاقة، وصالونات التجميل، والمطاعم، وجميعها معفاة من القوانين والضرائب البنمية. يوجد هنا سبعة ملاعب غولف بسعة ثماني عشرة حفرة، ومكاتب بريد متوزعة بشكل متناسب، ومحاكم، ومدارس أميركية. إنه بلد داخل البلد وحسب». حدق إلي فيديل وقال: «هناك»، وأشار إلى المدينة خلفنا، «يبلغ معدل الدخل السنوي للفرد الواحد أقل من 1000 دولار في العام، في حين تزيد نسبة البطالة عن 30%. لا يجني الناس في مدن الصفيح التي زرناها أي رقم قريب من ألف دولار بكل تأكيد، ونادرا ما يتوفر أي شخص على عمل».

قلت لفيديل: «يبلغ الاستعمار الأميركي أوجه هنا»، وأضفت: «ما الذي جرى؟».

التفت إليّ ورمقني بنظرة تغيرت من الغضب إلى الحزن.

هز الرجل رأسه وقال: «ما الذي يسعنا فعله؟»، وأضاف: «لست أدري، إلا أني سأقول التالي: لا يزال توريخوس يحاول. وأتصور أن مصيره سيكون الموت، لكنه سيقوم بكل ما يستطيع القيام به، فهو من نوعية الرجال الذين يقاتلون من أجل شعوبهم».

15

حوارات مع الجنرال

كانت دعوة غير متوقعة. صبيحة أحد الأيام ضمن زيارتي ذاتها في العام 1972، وحينما كنت جالسا في مكتبي داخل شركة الكهرباء البنمية الوطنية المملوكة للحكومة، جلست أطالع كشفا بأرقام إحصائية حينما قرع رجل إطار باب غرفتي المفتوح بطريقة مهذبة. دعوته للدخول وكنت سعيدا بأي عذر يصرف ذهني عن الأرقام التي تناثرت أمامي. قدم الرجل نفسه على أنه سائق الجنرال، وقال إنه جاء ليأخذني للقائه في أحد أكواخه.

بعد ساعة من الزمن، كنت جالسا على الطاولة ذاتها مع الجنرال عمر توريخوس. ارتدى الرجل ملابس غير رسمية، لكن على النمط البنمي التقليدي متمثلا ببنطال خاكي اللون مع قميص بأكمام قصيرة ومزَرَّر إلى الأسفل ولون أزرق مخطط بأخضرَ رقيق. بدا الرجل طويلا ووسيما وذا لياقة بدنية. في واقع الحال، كان توريخوس مرتاحا ومسترخيا جدا بالمقارنة مع طبيعة وحجم مسؤولياته. انسابت خصلة من شعرة على جبينه العريض.

سألني الجنرال عن رحلاتي الأخيرة لإندونيسيا، وغواتيمالا، وإيران. بدا الرجل مفتونا بهذه البلدان الثلاث، إلا أن الفضول أخذه إزاء شاه إيران محمد رضا بهلوي. وصل الشاه إلى سلطة إيران في العام 1941 بعدما تعاون البريطانيون والسوفييت على الإطاحة بوالده الذي اتهموه بالتعاون مع هتلر.[39]

تساءل توريخوس: «هل تتخيل شيئا كهذا، أن تكون جزءا من مؤامرة للإطاحة بوالدك؟».

كان الرئيس البنمي مطلعا جيدا على تاريخ الدول البعيدة. تحدثنا مطولا عن انقلاب الطاولة على الشاه عام 1951، وكيف أجبره رئيس وزرائه، محمد مصدق، على التنحي والرحيل إلى المنفى. يعرف توريخوس، وكما هو الحال مع كل العالم، كيف صبغت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية رئيس الوزراء الإيراني بصبغة الشيوعية، وأنها تدخلت لاستعادة عرش الشاه. لكن

توريخوس لم يعرف ـ أو لم يتطرق ـ للتفاصيل التي أوردتها لي كلودين بخصوص مناورات كيرميت روزفلت المذهلة وحقيقة أن تلك المناورات مثلت بداية حقبة جديدة من الإمبريالية، وعود الثقاب الذي أوقد نيران الامبراطورية العالمية.

استمر توريخوس: «بعد استعادة عرشه، شرع الشاه بسلسلة من البرامج الثورية الهادفة إلى تطوير القطاع الصناعي وإدخال إيران عصرا جديدا».

سألته كيف له معرفة الكثير عن إيران.

قال: «لقد جعلت من هذا الموضوع محورا لي»، وأضاف: «لا أفكر كثيرا بسياسات الشاه ـ رغبته في الإطاحة بوالده والتحول إلى دمية لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ـ لكنه يقوم ببعض الأشياء الجيدة لبلده كما يبدو. ربما سأتعلم منه شيئا إذا ما بقي نظامه».

«وهل تظن أنه لن يستمر؟».

«لدى الرجل الكثير من الأعداء الأقوياء».

«وبعض أفضل الحراس الشخصيين في العالم».

نظر إلي توريخوس بسخرية وقال: «يتمتع جهاز شرطته السرية، السافاك، بسمعة سيئة كجهاز وحشي لا يرحم. ولا يكسبه أمر كهذا الكثير من الأصدقاء بلا شك. لذلك، لن يستمر حكم هذا الرجل طويلا». توقف الرجل عن الحديث لبرهة ثم قال: «حراس شخصيون؟ لدي أنا البعض كذلك». لوّح بيده ناحية الباب وقال: «هل تظن أنهم سيحمون حياتي إذا ما قررت بلادك التخلص مني؟».

سألته إذا ما تخيل احتمال هذا الكلام حقا.

رفع الرجل حاجبيه بطريقة جعلتني أشعر بالخجل لسؤالي الأحمق. قال: «نحن لدينا القناة، وهذا أكبر بكثير مما لدى آربينز وشركة يونايتيد فروت».

بحثت مسبقا في تاريخ غواتيمالا، وفهمت مغزى كلام توريخوس. كانت شركة يوناتيد فروت بمثابة المكافئ السياسي لقناة بنما. أُسِّست شركة يونايتيد فروت عام 1800، ونمت لتصبح

واحدة من أكبر القوى المؤثرة في أميركا الوسطى. بداية خمسينيات القرن العشرين، انتُخِبَ جاكوبو آربينز رئيسا لغواتيمالا عبر انتخابات وُصفت بكونها نموذجا للعملية الديمقراطية في نصف الكرة الأرضية الغربي. في ذلك الوقت، امتلك أقل من 3% من الغواتيماليين ما يعادل 70% من أراضي البلاد. وعد آربينز بمساعدة الفقراء على التخلص من الفقر والمجاعة، وشرع بعد انتخابه بتطبيق برنامج شامل لاستصلاح الأراضي.

قال توريخوس: «هلل أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة عبر أرجاء أميركا اللاتينية لخطوات آربينز»، وأضاف كذلك: «شخصيا، كان آربينز أحد الأبطال في نظري. لكننا حبسنا أنفاسنا. كنا نعلم بمعارضة شركة يونايتيد فروت لتلك التدابير بحكم أنها كانت من أكبر مالكي الأراضي وأشدهم قمعا في غواتيمالا. وامتلكت الشركة مزارع كبيرة في كولومبيا، وكوستا ريكا، وكوبا، وجامايكا، ونيكاراغوا، وسانتو دومينيغو، وهنا في بنما كذلك. لم يكن بوسعهم تقبل انتشار أفكار آربينز بيننا».

عرفت باقي القصة. أطلقت شركة يونايتيد فروت حملة دعائية ضخمة في الولايات المتحدة بهدف إقناع الرأي العام الأميركي ومجلس الشيوخ أن آربينز لم يكن سوى جزء من مؤامرة روسية وأن غواتيمالا تدور في فلك السوفييت. قادت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية عام 1954 انقلابا. قصف طيارون أميركيون مدينة غواتيمالا وأطيح بالرئيس آربينز المنتخب ديمقراطيا، واستبدلوه بالعقيد كارلوس كاستيلو آرماس الذي كان دكتاتورا من اليمين المتطرف.

كانت الحكومة الجديدة مدينة بكل شيء لشركة يونايتيد فروت. وعلى سبيل تعبيرها عن الامتنان لصناعها الأميركيين، عكست الحكومة جميع إجراءات استصلاح الأراضي السابقة، وألغت الضرائب على الفوائد والأرباح المدفوعة للمستثمرين الأجانب، وقضت على نظام الاقتراع السري، وزَجَّت الآلاف من منتقديها في غياهب السجون.

حوكم كل من تجرأ على الحديث علنا ضد كاستيلو. وقد تتبع المؤرخون عواصف العنف والإرهاب التي عصفت بغواتيمالا لمعظم العقود اللاحقة من القرن العشرين إلى ذلك التحالف غير السري ما بين شركة يونايتيد فروت، ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، والجيش الغواتيمالي تحت سلطة العقيد الدكتاتور.[40]

استمر توريخوس بكلامه قائلا: «تعرض آربينز للاغتيال».

وأضاف: «اغتالوه سياسيا وشخصيا»، وقال بعبوس: «كيف يسع شعبكم ابتلاع القذارة التي تتقيَّؤُها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية؟ لن أرحل بهذه السهولة، فالجيش هنا أبناء شعبي، ولن ينجح الاغتيال السياسي ضدي». ثم ابتسم وقال: «سيتعين على وكالة الاستخبارات المركزية اغتيالي وحسب!».

جلسنا لدقائق والصمت يحيط بنا، وضاع كل منا في خضم أفكاره.

تساءل توريخوس أولا: «هل تعلم هوية مالك شركة يونايتيد فروت؟».

أجبت: «زاباتا النفطية المملوكة لجورج بوش، سفيرنا في الأمم المتحدة».

قال: «إنه رجل طموح»، ثم انحنى على المنضدة إلى الأمام وأخفض صوته وقال: «والآن أقف نِدًّا لأصدقائه في شركة باكتل».

أذهلني كلام الجنرال. كانت باكتل واحدة من أقوى الشركات الهندسية بالعالم، ثم إنها تتعاون في بعض المشاريع مع شركة ماين أحيانا. وفي حالة خطة بنما الشاملة، افترضت أنها ستكون واحدة من كبريات منافسينا.

سألت: «ماذا تعني؟».

قال: «إننا نفكر في مشروع شق قناة جديدة، قناة بمستوى سطح البحر ومن دون هَوِيس مِلَاحي»، وأضاف: «يمكن لهذه القناة تحمل مرور سفن أكبر. وربما يبدي اليابانيون اهتماما بتمويل المشروع».

قلت: «إنهم أكبر زبائن القناة».

قال: «بالضبط. ومن المؤكد أنهم سيقومون بالعمل الإنشائي إذا ما قدموا الأموال للمشروع».

صدمني الكلام. «سيقصي هذا شركة باكتل من العمل».

قال قبل صمته عن الكلام: «سيكون العمل الإنشائي الأكبر في التاريخ الحديث»،

وأضاف: «تمتلئ شركة باكتل بأصدقاء نيكسون، وفورد، وبوش». (بوش كسفير لواشنطن في الأمم المتحدة، فورد كزعيم للأقلية في مجلس الشيوخ ورئيس المؤتمر الوطني الجمهوري، والذي يعرفهم توريخوس جيدا كوسطاء لسلطة الجمهوريين)، وأضاف كذلك: «قيل لي إن عائلة باكتل تحرك خيوط النفوذ في الحزب الجمهوري».

تركني ذلك الحوار في وضع غير مريح. لقد كنت واحدا من أولئك الناس الذين أداموا نظاما مقيتا جدًّا، وكنت واثقا أنه يعلم ذلك. اصطدمت محاولاتي إقناعه قبول القروض الدولية في مقابل التعاقد مع شركات هندسية وإنشائية أميركية بجدار صلب على ما يبدو. قررت مواجهة الجنرال وجها لوجه.

سألته: «لم طلبتني هنا يا سيادة الجنرال؟».

ألقى الرجل نظرة سريعة على ساعته وابتسم. «نعم، حان الوقت الآن للدخول في صلب العمل. بَنَما بحاجة إلى مساعدتك. وأنا بحاجة إلى مساعدتك».

شعرت بالصدمة. «مساعدتي؟ كيف لي مساعدتكم؟».

قال: «سنستعيد القناة، لكن ذلك ليس كافيا». استرخى الرجل على كرسيه. «يتوجب علينا الارتقاء لنصبح نموذجا. يتوجب علينا إظهار اهتمامنا بالفقراء، والبرهنة على تصميمنا على تأكيد استقلالنا عن روسيا والصين وكوبا. لا بد لنا من إثبات تعقل بنما للعالم، وأننا لا نقف بالضد من الولايات المتحدة وإنما نعمل من أجل حقوق الفقراء». وقال لي إنه أكمل أبحاثه وخلص إلى أنني الرجل الذي سيستمع إليه. أثرت فيه تجربتي مع فيالق السلام في مساعدة الفقراء والمعدمين، وإتقاني للغة الإسبانية، عدا عن حبي الواضح لأميركا اللاتينية ــ في الجنرال كثيرا.

وضع توريخوس رِجْلا فوق الأخرى، وقال: «بغية القيام بذلك، يتوجب علينا بناء قاعدة اقتصادية لا تشبه أي قاعدة أخرى في نصف الكرة الغربي. يشتمل هذا الكلام على الطاقة الكهربائية، لكنها يجب أن تكون الطاقة الكهربائية التي تصل مدعومة إلى فقرائنا. ينطبق الكلام ذاته على قطاعات الاتصالات والمواصلات، ولا سيما الزراعة. ولسوف يتطلب هذا الكلام المال، والمقصود مالُكُم، والبنك الدولي، وبنك التنمية للبلدان الأميركية».

عاد الجنرال ليتكئ إلى الأمام من جديد، وسلط بصره عليه، وقال: «إنني أستوعب رغبة شركتكم في الحصول على عمل أكثر، والذي تقومون به عبر تضخيم أحجام المشاريع بالعادة كما في طرق سريعة أعرض، ومحطات طاقة كهربائية أكبر، وموانئ أعمق. لكن الأمر مختلف هذه المرة. امنحني الأفضل لشعبي وسأمنحكم العمل الذي تريدون».

كان مقترحه غير متوقع تماما، صدمني وأثارني على حد سواء. تحدى كلامه كل ما علمتني إياه شركة ماين بكل تأكيد. من المؤكد أنه أدرك أن لعبة المساعدات الأجنبية لم تكن إلا خدعة، وكان عليه إدراك ذلك بالفعل. لقد وُجِدت تلك اللعبة لتجعل من الزعيم ثَرِيًّا وتقيّد بلاده بالديون. لقد وُجِدت تلك اللعبة كي تبقى بنما ملزمة نحو الولايات المتحدة وسلطة الشركات إلى الأبد. لقد وُجِدت لإبقاء أميركا اللاتينية على طريق مبدأ «المصير الواضح أو القدر المتجلي» خاضعة لسيطرة واشنطن وَوُول ستريت إلى الأبد. كنت واثقا بأنه علم بأن النظام مبنيٌّ على فرضية عرضة جميع الرجال في السلطة للفساد، وأن قراره عدم اللجوء إلى هذا الأسلوب بهدفة إثراء نفسه يصنع منه تهديدا ونوعا جديدا من أحجار الدومينو التي قد تبدأ سلسلة ردود أفعال قد تقلب النظام بأكمله في خاتمة المطاف.

نظرت عبر طاولة القهوة إلى ذلك الرجل الذي فهم بكل تأكيد تمتعه بقوة فريدة جراء وجود القناة، وأن هذا الكلام وضعه في وضع محفوف بالمخاطر إلى حد كبير. توجب عليه الحذر إلى حد كبير. لقد أثبت نفسه كزعيم ما بين زعماء البلدان منخفضة الدخل. ولو أنه صمم، كما حصل مع بطله آربينز في الماضي، على اتخاذ موقف، فلا شك أن هذا الموقف سيستحضر مراقبة العالم أجمع. كيف سيستجيب النظام؟ وكيف سترد الولايات المتحدة على وجه الخصوص؟ لطالما تلطخ تاريخ أميركا اللاتينية بدماء أبطالها.

وأدركت أنني نظرت إلى رجل دحض جميع المبررات التي صغتها وخلقتها لتمرير أفعالي. لقد كان لهذا الرجل نصيبه من العيوب الشخصية، لكنه لم يكن قرصانا، ولا صورة معاصرة لهنري مورغان أو فرانسيس دريك،[41] وكانا مغامرين متهورين استخدما ما يعرف بـ«تفويض رد الاعتداء» الممنوح من الملوك الإنكليز ذريعة لشرعنة أعمال القرصنة. حدثتني نفسي أن الصورة على لوحة الإعلانات لم تكن مصممة لتحقيق خداع سياسي. وفي خاتمة المطاف، ألم يقل توم باين شيئا شبيها بـ«الحرية حلم عمر، ولم يُخترع الصاروخ الذي يقتل الأحلام بعد!».

لكني تساءلت على الرغم من ذلك. ربما لا تموت المُثُل، لكن ماذا عن الناس الذين تبنوها يا ترى؟ جيڤارا، وآربينز، وإليندي الذي كان لا يزال حيا في حينها، لكن إلى متى؟ وواجهني سؤال آخر كذلك: كيف سأتصرف إذا ما استعد توريخوس لدور الشهيد يا ترى؟

بحلول وقت مغادرتي، فهم كلانا أن شركة ماين ستحصل على عقد الخطة الشاملة، وأني سأحرص، حتى ذلك الوقت، على مسايرة عرض توريخوس.

16

دخول مرحلة جديدة وشريرة من التاريخ الاقتصادي

بصفتي كبيرا للاقتصاديين فيها، لم أكن المسؤول الوحيد عن ذلك القسم في شركة ماين إلى جانب مسؤوليتي عن إنجاز الدراسات التي ننتجها عبر أرجاء المعمورة وحسب، وإنما كان متوقعا إلمامي بالاتجاهات والنظريات الحالية في العالم.

كان الاقتصاد الدولي على وشك مواجهة تغييرات كبيرة ابتداءً من بداية سبعينيات القرن العشرين.

إبان ستينيات القرن الماضي، شكلت مجموعة من الدول منظمة أطلق عليها اختصارا «أوبك»، وهي عبارة عن تكتل يضم الدول المنتجة للنفط، والتي جاء قرار تأسيسها ردا على سياسات كبريات شركات تكرير النفط العالمية القوية. كانت إيران أحد العوامل المهمة في المعادلة. فعلى الرغم من أن الشاه يدين بعرشه وربما حياته للولايات المتحدة وتدخلها السري إبان فترة أزمة مصدق ـ أو بسبب هذه الحقيقة ربما ـ فهو يعرف عمليًّا إمكانية قلب الطاولة ضده في أي وقت. وشارك زعماء الدول الأخرى الغنية بالنفط الشاه الخوف والوعي ذاته. عدا عن أن أولئك الزعماء عرفوا تماما أن كبريات الشركات العالمية المعروفة باسم «الأخوات السبعة» تعاونت بهدف خفض أسعار النفط ـ ومعها انخفضت المستحقات التي تدفعها للدول المنتجة ـ وبالتالي كرست هذا الأسلوب وسيلة لجني أرباح هائلة. قررت دول الأوبك تنظيم نفسها والرد.

بلغ الأمر ذروته بداية سبعينيات القرن الماضي حينما تمكنت دول الأوبك من إخضاع الدول الصناعية الكبرى. انتهت سلسلة من الإجراءات المنسقة بفرض الحظر النفطي عام 1973، ذلك الحظر الذي تجلت أبرز صوره في طوابير السيارات الطويلة أمام محطات الوقود الأميركية، وهدد بالتسبب بكارثة اقتصادية تضاهي بحجمها قوة ما حصل إبان الكساد العظيم الذي ضرب العالم خلال فترة ما بين الحربين العالميتين. كانت صدمة ممنهجة لاقتصاد العالم المتقدم، وهزة ضخمة لم يستوعب أثرها إلا قلة من الناس.

لم تقع الأزمة النفطية في وقت أسوأ على الولايات المتحدة. كانت الأمة الأميركية مشوشة، يملَؤُها الخوف والشك بالذات، تجر أذيال الخيبة عائدة من حرب مذلة في فيتنام مع رئيس على وشك الاستقالة. لم تقتصر مشكلة نيكسون على جنوب شرق آسيا أو فضيحة ووتر غايت وحسب. لقد اعتلى سدة الحكم في حقبة كان سيُفهم قبلها أنها على أعتاب تحول كبير في السياسة والاقتصاد العالميين. بدا المشهد في أيامها كما لو كان لأولئك «اللاعبين الصغار»، بمن فيهم دول الأوبك، اليد الطولى في المواجهة.

من جانبي، كنت مأخوذا بشدة بتلك الحوادث العالمية الهائلة. لكنني كنت منغمسا في المنافع التي جنيتها عبر سلطة الشركات، وإنْ تمتع جزء مني برؤية الأسياد يتقهقرون إلى مكاناتهم التي يستحقون. أتصور أن هذا الوضع خفف شيئا من شعوري بالذنب.

لم يكن لأحد منا استيعاب التأثير الكامل للحضر النفطي وقت حصوله. من المؤكد أننا خرجنا بنظرياتنا الخاصة، لكننا لم ندرك حقيقة وطبيعة الصورة التي اتضحت فيما بعد. أدركنا بعد فوات الأوان تراجع معدلات النمو الاقتصادي ما بعد الأزمة النفطية إلى نصف ما كانت عليه في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وأن هذه المعدلات جاءت قبالة ضغط تضخمي هائل. اختلفت بنية النمو الذي ساد في حينها ولم ينتج القدر ذاته من الوظائف كما في السابق، الأمر الذي رفع معدلات البطالة إلى مستويات فلكية. وعلاوة على كل ذلك، تلقى النظام النقدي العالمي ضربة موجعة، حيث انهارت شبكة التعاملات بمعدلات أسعار الصرف الثابتة التي سادت ما بعد الحرب العالمية الثانية، انهارت عمليا.

إبان ذلك الوقت، كثيرا ما التقيت مع الأصدقاء لمناقشة هذه القضايا على الغداء أو المشروب ما بعد العمل. عمل بعض أولئك الناس تحت إشرافي حيث تضمن الكادر بمعيتي بعضا من أذكى الشبان، ممن كانوا مفكرين أحرارا في الغالب، أحرارا بالمعايير التقليدية على أقل تقدير. كان الآخرون مديرين تنفيذيين في بعض مراكز الفكر في بوسطن، أو إنهم كانوا أساتذة جامعيين في بعض الكليات المحلية، في حين كان أحدهم مساعدا لأحد أعضاء مجلس الشيوخ في الولاية. كانت لقاءاتنا غير رسمية، واقتصر حضورها على شخصين فقط في بعض الأحيان، في حين تضمن بعضها الآخر أكثر من عشرة مشاركين بالمقابل. لكن في المجمل، كانت اللقاءات مفعمة بالحيوية والصخب الدائمين.

حينما أعود بذاكرتي إلى تلك المناقشات، أجد نفسا محرجا بحس التعالي والتفوق الذي شعرت به. عرفت أشياء لم يكن مصرحا لي الحديث عنها. تباهى بعض أصدقائي بشهاداتهم وعلاقاتهم بحكومة الولاية أو واشنطن، الأساتذة الجامعيين أو المفكرين من حملة الدكتوراه، وكنت أجيب بأن هذا هو دوري ككبير للاقتصاديين في شركة استشارية كبرى، حيث أسافر عبر أرجاء العالم في مقاعد الدرجة الأولى. لكنني برغم ذلك عجزت عن مناقشة لقاءاتي الخاصة مع رجال من أمثال توريخوس، أو الحديث بأشياء عن الأساليب التي اتبعناها للتلاعب بالدول في جميع قارات المعمورة.

حينما تحدثنا عن قوة «اللاعبين الصغار»، اضطررت إلى ممارسة قدر كبير من ضبط النفس. لقد عرفت ما لم يعرفه أولئك الأصدقاء على الأغلب، عرفت بأن سلطة الشركات بما فيها من عصابات قتلة الاقتصاد ومعهم «أبناء آوى» الذين ينتظرون متأهبين في الظل ما كانوا ليسمحوا لأولئك اللاعبين الصغار بانتزاع السيطرة منا. في واقع الحال، لم يكن بوسعي سوى الاعتماد على أمثلة آربينز ومصدّق، فضلا عن المثال الأحدث للعام 1973، متمثلا في عملية وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بالإطاحة بالرئيس التشيلي المنتخب ديمقراطيا، سلفادور إلينيدي. ولا شك أني فهمت بأن قبضة الامبراطورية العالمية آخذة بالنمو والقوة بصرف النظر عن المواجهة مع منظمة الأوبك، أو عبر مساعدتها كما شككت وتأكد لي في وقت لاحق.

عادة ما ركزت حواراتنا على أوجه التشابه بين ظروف السبعينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. مثلت حقبة الثلاثينيات نقطة تحول رئيسية في الاقتصاد الدولي وطريقة دراسته وتحليله وفهمه. فتح ذلك العقد الباب أمام ما تعرف بفلسفة «الاقتصاد الكنزي» ومعه فكرة لعب الحكومة دورا رئيسيا في إدارة الأسواق وتقديم الخدمات مثل الصحة، وإعانات البطالة، فضلا عن باقي صور الرعاية الاجتماعية الأخرى.

نتج عن ذلك الكساد ما يُعرف بـ«الصفقة الجديدة»[42] التي جاءت على شكل سياسات تعزز تنظيم الاقتصاد، التدخل المالي الحكومي، فضلا عن التطبيق المكثف للسياسة النقدية. فضلا عن ذلك، قاد الكساد العظيم ومعه الحرب العالمية الثانية إلى إيجاد مؤسسات مثل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، عدا عن الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة. مثلت الستينيات فترة محورية في تلك الحقبة وفي موضوع التحول من الاقتصاد الكلاسيكي الجديدة إلى الاقتصاد الكنزي.

وقد حصل هذا التحول في فترتي إدارتي كينيدي وجونسون، فضلا عن التأثير الفردي الأكبر المتمثل في رجل واحد يدعى روبرت مكنمارا.

لطالما كان مكنمارا موضوعا متكررا في نقاشات مجموعاتنا، وفي غيابه بطبيعة الحال. كنا نعلم جميعا عن مسيرة صعوده الصاروخي من منصب مدير لشؤون التخطيط والتحليل المالي إلى رئيس لشركة فورد لصناعة السيارات، ومن ثم وزيرا للدفاع، لينتهي به المطاف رئيسا للبنك الدولي.

بات مكنمارا واحدا من المدافعين الأشِدَّاء عن المنهج الكنزي في الأداء الحكومي، وذلك عبر استخدام النماذج الرياضية والأساليب الإحصائية لتحديد مستويات القوات، وتخصيصات الأموال، فضلا عن الستراتيجيات الأخرى المتبعة في فيتنام. وبات دفاعه عن منهج «القيادة العدوانية» بمثابة علامة فارقة لا للمديرين الحكوميين وحسب، وإنما لمديري الشركات التنفيذيين كذلك. وقد شكل هذا المنهج فلسفة جديدة في أسلوب تدريس الإدارة ضمن بعض من أهم وأرفع كليات دراسات الأعمال في البلاد، وقاد في النهاية إلى خلق سلالة جديدة من رؤساء مجالس الإدارات الذين قدر لهم الانتشار عبر أرجاء العالم لقيادة موجة الاندفاع نحو الامبراطورية العالمية.[43]

إبان جلوسنا على الطاولة لمناقشة حوادث العالم، وصف أصدقائي مكنمارا بأنه النموذج الأصلي لـ«المجمع الصناعي العسكري».[44] وقد أرعب هذا الخرق الواضح في مبدأ الفصل بين السلطات الكثير من أصدقائي، في حين كنت الأقل مفاجأةً بينهم بذلك ربما.

أما الآن، فإني أرى أعظم مساهمات روبرت مكنمارا وأكبرها شرًّا في التاريخ دوره في دفع البنك الدولي ليصبح وكيلا للامبراطورية العالمية على مستوى غير مسبوق من قبل، مع إرساء سابقة خطيرة بهذا الخصوص. ودافع مكنمارا عن فكرة أنكم «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا قروض البنك الدولي، ووظفوا شركاتنا لبناء بنيتكم التحتية، والتزموا الشروط التي يفرضها صندوق النقد الدولي»، وأخذها إلى مستويات جديدة. ولا بد من الإشارة إلى تمكن أسلاف مكنمارا من البناء على قدرته على ردم الفجوات ما بين المكونات الأساسية لسلطة الشركات وتحسينها.

حصل ذلك إبان فترة عملي كقاتل اقتصادي، ولا يزال مستمرا كذلك إلى اليوم.

فعلى سبيل المثال، شغل جورج شولتز منصب وزير الخزانة في إدارة نيكسون، وخدم كرئيس لشركة باكتل، ومن ثم وزيرا للخارجية في إدارة ريغان لاحقا. وكان كاسبر واينبيرغر نائبا لرئيس باكتل ومستشارا عاما لها، ومن ثم تولى منصب وزير الدفاع في إدارة ريغان. أما ريتشارد تشيني، فقد خدم كوزير للدفاع في ولاية جورج بوش الأب (وقد كان بوش الأب نفسه رجل نفط، وسفير أميركا لدى الأمم المتحدة، إلى جانب رئاسته لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قبل توليه منصب نائب الرئيس الأميركي في ولايتي ريغان الأولى والثانية)، ورئيس شركة هاليبورتن، فضلا عن توليه منصب نائب الرئيس الأميركي جورج بوش الأب. أما وزير خزانة الرئيس بيل كلينتون، فقد كان روبرت روبن، والذي كان رئيس مجلس إدارة مساعد لمجموعة غولدمان ساكس. لاشك أنها قائمة ساحقة واستمرت أثناء ولايات باراك أوباما، ودونالد ترامب، وجوي بايدن.

وبالعودة إلى الماضي، أجد نفسي مصدوما ببراءة تلك الأيام حينما عملت قاتلا اقتصاديا ومكنمارا رئيسا للبنك الدولي. ضمن جملة من النواحي، كنا لا نزال عالقين مع الوسائل القديمة لبناء الامبراطورية. لقد قدم لنا كيرميت روزفلت مثالا أفضل عبر الإطاحة برئيس الوزراء الإيراني المنتخب ديمقراطيا واستبداله بملك مستبد. وحققنا نحن قتلة الاقتصاد العديد من أهدافنا في مناطق مثل إندونيسيا، والإكوادور، لكن فيتنام قدمت مثالا صادما على سهولة انزلاقنا نحو الأساليب القديمة.

ولسوف يتطلب الأمر عضوا بارزا في منظمة أوبك، كالعربية السعودية، بغية تغيير ذلك.

17

قضية تبييض أموال العربية السعودية

أطلعني عام 1974 دبلوماسي سعودي على صور للرياض عاصمة البلاد، ومن جملة تلك الصورة كانت واحدة تظهر قطيعا من الماعز يرعى بين أكوام النفايات خارج إحدى المباني الحكومية، وعندما سألت ذلك الدبلوماسي عن ذلك القطيع، أجابني بطريقة صادمة. قال لي إنها تمثل المنظومة الرئيسية للتخلص من نفايات المدينة.

قال الدبلوماسي السعودي: «لن يجمع أي سعودي يحترم نفسه النفايات»، وأضاف: «نحن نتركها للحيوانات».

ماعز في عاصمة أغنى مملكة نفطية في العالم. بدا أمرا لا يصدق.

في ذلك الوقت، كنت جزءا من مجموعة استشارية بدأت للتو محاولاتها إيجاد حل لأزمة النفط. قادني الماعز إلى فهم كيفية نشوء الحل، لا سيما مع أخذ نمط التنمية الذي ساد البلاد خلال القرون الثلاثة الماضية بنظر الاعتبار.

إبان الثامن عشر، جمع أمير الحرب محمد بن سعود قواته مع الأصوليين من السلفيين أتباع المذهب الوهابي المتطرف. نتج عن هذا الكلام اتحاد قوي مكن عائلة سعود وحلفاءها الوهابيين من إخضاع معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك المواقع الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة.

يعكس المجتمع السعودي مثالية مؤسسيه المتزمتين، فضلا عن تطبيق التفسير الصارم للمعتقدات القرآنية. ضَمِن وجود الشرطة الدينية الالتزام بأداء الصلوات خمس مرات يوميا. وكان ملزما للنساء تغطية أنفسهن بالحجاب من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين. فرضت عقوبات شديدة وقاسية على المجرمين، عقوبات شملت قطع الرأس العلني والرجم أمام الجمهور. أثناء زيارتي الأولى للرياض، تفاجأت حينما قال لي سائقي إن بوسعي ترك كاميرتي وحقيبتي وحتى محفظتي

بشكل واضح في سيارتنا المركونة قرب أحد الأسواق المفتوحة، ومن دون الحاجة إلى إقفال السيارة.

قال السائق: «لن يفكر أحد في السرقة هنا، فالسارقون تقطع أيديهم».

في وقت لاحقٍ من ذلك اليوم، سألني السائق إذا ما رغبت في زيارة ما يُعرف بـ«ساحة الصفاة» بغية مشاهدة تنفيذ حكم إعدام بحق أحد الأشخاص. يلتزم الوهابيون بتنفيذ ما يُعد أشد الأحكام المتزمتة بطريقة جعلت الشوارع تخلو من اللصوص، فضلا عن مطالبتهم بإيقاع أشد العقوبات قسوة بحق منتهكي القوانين. رفضت الدعوة.

أسهمت رؤية السعودية للدين كعنصر مهم وأساسي من عناصر السياسة والاقتصاد في قرار الحظر النفطي الذي صدم العالم الغربي. بحلول يوم السادس من أيلول العام 1973 (والمصادف لما يعرف بيوم كيبور أو عيد الغفران الذي يعد أقدس الأعياد اليهودية)، شنت مصر وسوريا هجومين منسقين ومتزامنين ضد إسرائيل. أذن الهجومان ببدء ما عرف لاحقا بحرب أكتوبر، تلك الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة والأشد تدميرا بين حروب الجانبين، عدا عن تأثيرها الأكبر في العالم أجمع. ضغط السادات رئيس مصر على فيصل ملك السعودية للرد على الولايات المتحدة لتواطؤها مع إسرائيل عبر توظيف ما أسماه الرئيس المصري «سلاح النفط». بحلول السادس عشر من أيلول، أعلنت إيران ومعها خمس دول عربية خليجية من ضمنها السعودية عن زيادة بمقدار 70% على أسعار النفط المعروضة. عبر لقاء جرى في مدينة الكويت، ناقش وزراء النفط العرب خيارات إضافية. أعرب وزير النفط العراقي عن موقف هجومي متشدد ضد الولايات المتحدة. ودعا الوفد العراقي وفود الدول الأخرى إلى تأميم الأعمال والأنشطة الأميركية في العالم العربي، فضلا عن فرض حظر شامل على الولايات المتحدة وجميع الدول الأخرى المتعاطفة مع إسرائيل، مع سحب كل الودائع العربية الموجودة في جميع المصارف الأميركية. وأشار العراقيون إلى أهمية الحسابات العربية، وأن من شأن خطوة كهذه التسبب بذعر هائل لا يختلف عما حصل في العام 1929. تردد الوزراء، وأعرب الآخرون عن الموافقة على خطة متطرفة كهذه، غير أنهم قرروا في السابع عشر من ذلك الشهر المضي قدما بتطبيق حظر محدود يبدأ بتقليص الإنتاج بنسبة 5% شهريا حتى تتم تلبية مطالبهم السياسية. واتفق المشاركون على وجوب معاقبة الولايات المتحدة لمواقفها المؤيدة

لإسرائيل، وبالتالي يتوجب إخضاعها لأحد أقسى العقوبات. أعلنت بعض الدول التي حضرت الاجتماع عن تقليص يبلغ 10% من الإنتاج عوضا عن نسبة 5% المتفق عليها.

بحلول التاسع عشر من أكتوبر، طلب الرئيس نيكسون من مجلس الشيوخ الموافقة على تقديم مساعدة عاجلة بقيمة 2.2 مليار دولار لإسرائيل. في اليوم التالي، أعلنت العربية السعودية ومعها باقي الدول العربية المنتجة للنفط عن حظر كامل الشحنات النفطية المتجهة إلى الولايات المتحدة.[45]

انتهى الحظر النفطي في الثامن عشر من آذار العام 1974. دام الحظر وقتا قصيرا، لكنه خلّف تأثيرا هائلا. قفز سعر بيع النفط السعودي من 1.39 دولار للبرميل في الأول من كانون الثاني العام 1970 إلى 8.32 دولار في الأول من كانون الثاني عام 1974.[46] لن ينسى السياسيون والإدارات القادمة الدروس المستقاة من فترة بداية وحتى نصف السبعينيات من القرن العشرين. وعلى المدى الطويل، قُدّر لصدمة تلك الأشهر القليلة المساعدة في زيادة قوة سلطة الشركات، وأسهمت في ربط الثالوث المكون من الشركات الكبيرة، والبنوك الدولية، والحكومات، بشكل لم يسبق له مثيل. وقد قدر لهذا الارتباط الاستمرار.

وتمخض الحظر عن جملة مهمة من المتغيرات في المواقف والسياسات. أقنعت نتائج الحظر وول ستريت وواشنطن بعدم التسامح أو القبول بحصول حظر كهذا من جديد. لطالما كان ضمان إمداداتنا النفطية أولوية مهمة، لكنه تحول إلى هوس ما بعد عام 1973. رفع الحظر النفطي مكانة العربية السعودية إلى مصاف اللاعبين في عالم السياسة وأجبر واشنطن على الاعتراف بأهمية المملكة الستراتيجية لاقتصادنا. فضلا عن ذلك، شجع الحظر قادة الشركات الكبيرة على البحث بلا هوادة عن كل الوسائل الممكنة لإعادة ضخ أموال «البترودولار» إلى أميركا، مع التفكير في حقيقة افتقار حكومة السعودية إلى الإطار المؤسسي والإداري للتعامل الصحيح مع هذه الثروة المتضخمة التي هبطت عليها.

مثلت عوائد النفط التي نجمت عن ارتفاع الأسعار المجنون نعمة ونقمة للعربية السعودية على حد سواء. ملأت تلك الأموال خزائن البلاد الوطنية بمليارات الدولارات، لكنها تسببت بتقويض بعض المعتقدات الدينية الصارمة للوهابيين. أخذ الأثرياء السعوديون يجوبون العالم، وباتوا يدرسون في مدارس وجامعات أوربية وأميركية. ابتاع السعوديون السيارات الفاخرة والمنازل الضخمة إلى

جانب السلع الأجنبية. حلّ نوع جديد من المادية محل المعتقدات الدينية المحافظة، وكانت تلك المادية مفتاح الحل من مخاوف أزمات النفط في المستقبل.

بعد وقت قصير من نهاية الحظر، دخلت واشنطن في مفاوضات مع السعوديين، وعرضت عليهم الدعم التقني، والمعدات العسكرية، والتدريب، فضلا عن مناهج الإدارة الحديثة والاستثمارات، وذلك في مقابل أموال «البترودولار»، والأهمّ متمثِّلًا في تطمينات بعدم تكرار أي حظر نفطي آخر. نتج عن تلك المفاوضات تأسيس واحدة من أكثر المنظمات استثنائية، والتي تمثلت في «الهيئة الأميركية ـ السعودية للتعاون الاقتصادي المشترك»، والتي تعرف اختصارا بـJECOR، حيث جسدت مفهوما مبتكرا يتناقض وبرامج المساعدات الأجنبية التقليدية، والتي اعتمدت على المال السعودي بهدف التعاقد مع الشركات الأميركية لبناء العربية السعودية.

على الرغم من إناطة مسؤولية الإدارة الاجمالية والنقدية إلى وزارة الخزانة الأميركية، تمتعت الهيئة باستقلالية إلى حد بعيد. وفي خاتمة المطاف، أنفقت تلك الهيئة مليارات الدولارات خلال فترة ربع القرن اللاحقة دون أي إشراف فعلي من جانب مجلس الشيوخ. فلأن التمويل لم يكن أميركيا، لم يكن هناك من سلطة مراقبة لمجلس الشيوخ، وبصرف النظر عن دور وزارة الخزانة. بعد دراسة مستفيضة لطبيعة ونشاط الهيئة الأميركية ـ السعودية للتعاون الاقتصادي المشترك قام بها ريتشارد جونز وديفيد هولدن، خلص الاثنان إلى أنها كانت «الاتفاقية الأكثر شمولا من نوعها التي عقدتها الولايات مع دولة نامية، ولهذه الاتفاقية القدرة على ترسيخ وتعزيز الوجود الأميركي بعمق مع مفهوم الترابط المتبادل مع المملكة».[47]

ـ أقحمت وزارة الخزانة الأميركية شركة ماين مبكرا بغية عملها بصفة مستشار. استُدْعيت لإبلاغي بتولي عمل مهم وحساس، وأن كل ما قمت به وعرفته في السابق لا بد من بقائه سريًّا إلى أقصى الحدود. من وجهة نظر شخصية، بدا لي الأمر كعملية سرية. في حينها، قادني الاعتقاد بأن شركة ماين تضطلع بدور استشاري أساسي في الموضوع، إلا أنني أدركت لاحقا أننا كنا جزءًا من مجموعة مستشارين أكبر طُلبت الإفادة من خبرتهم.

بحكم حصول كل شيء بمنتهى السرية، لم أكن مطلعا على طبيعة المناقشات التي جرت بين وزارة الخزانة وباقي الشركات الاستشارية الأخرى، وبالتالي لم أكن على دراية موثوقة إزاء أهمية

دوري الذي يسبق إعداد الصفقة. لكني أعلم الآن أن تلك الترتيبات أسست لمعايير جديدة تحدد عمل قتلة الاقتصاد، وأنها أطلقت بدائل مبتكرة للمناهج التقليدية المتبعة بهدف حفظ وتعزيز مصالح الامبراطورية. ثم إنني أعرف الآن أن معظم السيناريوهات التي تنشأ عن دراساتي ستصبح موضع التطبيق في خاتمة المطاف، وأن شركة ماين ستحصل على أول عقودها الكبيرة والمربحة جدا في العربية السعودية، وأني تلقيت علاوة كبيرة في ذلك العام.

تمثل عملي في تطوير توقعات عما يمكن تحقيقه من خلال استثمار المقادير الهائلة من الأموال التي تملكها السعودية في مجالات البنية التحتية، مع رسم سيناريوهات لإنفاق تلك الأموال. باختصار، طُلب إلي إبراز القدر الأقصى الممكن من الإبداع لتبرير ضخ مئات الملايين من الدولارات في الاقتصاد السعودي، وذلك بشرط تضمين الشركات الهندسية والإنشائية الأميركية في العمل. وقِيل لي أن أقوم بهذا الشيء وحدي، ودون الاعتماد على أي فرد من الكادر الذي يعمل بمعيتي، حيث عُزلت في غرفة اجتماعات صغيرة على ارتفاع عدة طوابق عن قسمي. وحُذِّرت من أن عملي يمس الأمن القومي وقد يكون مربحا جدا لشركة ماين.

بطبيعة الحال، لم يكن الهدف الأساس من مهمتي هنا العمل المعتاد كما فهمت، فهذه الدولة الغنية والقوية سياسيا ما كانت بحاجة إلى القروض، وإنما كانت هناك حاجة إلى إيجاد وسائل تضمن عودة جزء كبير من أموال البترودولار إلى الولايات المتحدة. وفي خضم هذه العملية، ستغرق السعودية بالبحر الأميركي شيئا فشيئا، ويصبح اقتصادها أكثر تشابكا مع اقتصادنا، وتصبح أكثر اعتمادا علينا، على فَرَض أن ذلك سيقربها من الغرب أكثر بطريقة تجعلها أكثر تعاطفا واندماجا بنظامنا.

بمجرد بدئي العمل، أدركت أن قطعان الماعز التي ترعى في شوارع الرياض لم تكن إلا مفتاحا رمزيا، فقد كان تلك نقطة حساسة للسعوديين الذين يسافرون عبر الطائرات النفاثة إلى باقي أنحاء العالم. كانت الحاجة ماسة إلى استبدال قطعان الماعز بشيء أكثر ملائمة لتلك المملكة الصحراوية التي تتوق إلى الدخول إلى العالم الحديث. وعلمت عن ضغوط خبراء اقتصاد منظمة الأوبك باتجاه حصول الدول الغنية بالنفط على منتجات ذات قيمة مضافة أعلى من قيمة نفطهم. فعوضا عن مجرد تصدير نفطهم، حث أولئك الاقتصاديون تلك الدول على تطوير صناعاتها

الخاصة بهدف استخدام نفطها لإنتاج سلع تعتمد على النفط يمكنهم بيعها إلى باقي أنحاء العالم بأسعار أعلى مما تحققه مبيعات النفط الخام نفسه.

فتح هذا الإدراك المزدَوِج الباب أمام ستراتيجية أيقَنْتُ بأنها ستكون فوزا للجميع. بطبيعة الحال، لم يكن قطيع الماعز إلا مدخلا. يمكن استخدام أموال النفط للتعاقد مع شركات أميركية تحل محل قطعان الماعز لتعمل وفق أحدث أنظمة العالمية لجمع القمامة والتخلص منها، وبطريقة تمنح السعوديين الشعور بالفخر لاعتماد هذه التكنولوجيا الحديثة.

أخذت أفكر في قطعان الماعز كأحد جوانب المعادلة التي يمكن تطبيقها على مجمل قطاعات اقتصاد المملكة، وكمعادلة للنجاح في عيون العائلة المالكة، ووزارتي الخارجية والخزانة الأميركيتين، فضلا عن المديرين في شركة ماين. وفق هذه المعادلة، ستُخَصَّص الأموال بهدف خلق قطاع صناعي يركز على تحول النفط الخام إلى منتجات كاملة ومعدة للتصدير. سترتفع مجمعات الصناعات الكيمياوية عبر الصحارَى، وحولها المدن الصناعية الضخمة. ومن الطبيعي أن خطة كهذه ستتطلب إنشاء محطات لتوليد طاقة كهربائية ضخمة إلى جانب خطوط نقل عالية القدرة، وخطوط أنابيب لنقل النفط الخام، وشبكات اتصالات، وأنظمة نقل تشتمل على المطارات والموانئ المتطورة، مع طيف واسع من صناعات الخدمات والبنية التحتية الضرورية لاستمرار دوران كل هذه التروس.

كان لدينا جميعنا سقف توقعات مرتفع عن أن هذه الخطة ستتطور لتصبح نموذجا لكيفية القيام بهذه الأعمال في باقي أنحاء العالم. ولسوف يشيد السعوديون بمنجزاتنا وهم يتنقلون عبر أرجاء العالم، ويدعون زعماء العالم لمشاهدة المعجزات التي سنكون أنجزناها، وسيطلب منا أولئك الزعماء المساعدة في وضع خطط مشابهة لدولهم. وفي معظم الحالات، ستحصل الدول من خارج حلقة الأوبك على القروض والتمويل الذي يرهق كاهلهم عبر البنك الدولي بطبيعة الحال. لا شك في خدمة هذا الوضع مصالح الامبراطورية العالمية إلى حد كبير.

بينما جالت تلك الأفكار بخاطري، تذكرت قطعان الماعز وكلمات الدبلوماسي التي بقيت ترن في أذني حينما قال: «لن يعمل سعودي يحترم نفسه في جمع القمامة قط». لقد سمعت تلك العبارة مرارا، وضمن العديد من السياقات. بدا واضحا عدم نية السعوديين تعيين مواطنيهم في

وظائف وضيعة، سواء كعمال في المنشآت الصناعية أو أي من المشاريع الإنشائية الأخرى. ابتداءً، لم يكن السعوديون بالكثرة العددية التي تسمح بذلك. فضلا عن ذلك، أشارت عائلة آل سعود إلى التزامها توفير مستوًى تعليمي ونمطَ حياة لمواطنيها لا يتناسب وتلك الأعمال اليدوية. ربما يدير السعوديون بعض الأعمال الأخرى، لكنهم لا يرغبون ولا نية لديهم للعمل في المعامل أو الإنشاءات. لذلك، سيكون من الضروري بمكان استيراد العَمَالة من الدول الأخرى، دول معروفة برخص عمالتها المتعطشة إلى العمل. وإذا ما كان ممكنا، فيفضل استقدام تلك العمالة من باقي دول الشرق الأوسط أو الدول الإسلامية الأخرى، كما هو الحال مع مصر، وفلسطين، وباكستان، واليمن.

خلق هذا الاحتمال حيلة جديدة أكبر لفرص التنمية المقترحة. ستكون هنالك حاجة ماسة إلى بناء مجمعات إسكان ضخمة لاستيعاب العمالة القادمة، إلى جانب مراكز تجارية لتبَضُّعهم، مع مستشفيات، ومراكز شرطة، ومحطات مياه ومعالجة صرف صحي، ومحطات كهرباء، واتصالات، فضلا عن شبكات المواصلات. في واقع الحال، ستكون النتيجة النهائية خلق مدن حديثة لم تكن سوى صحراء قاحلة من قبل. وهنا كذلك ستبرز فرصة استكشاف التكنولوجيات الناشئة كما في محطات تحلية المياه، وأنظمة الموجات الدقيقة، ومجمعات الرعاية الصحية، وتكنولوجيا الحواسيب.

كانت العربية السعودية بمثابة حلم لأي مخططٍ، وخيالٍ حُقِّق لكل من انخرط في الأنشطة الهندسية والإنشائية. لقد مثلت هذه المملكة الصحراوية فرصة اقتصادية لا تضاهى ولا مثيل لها في التاريخ، دولة متخلفة تتوفر على موارد مالية لا متناهية، إلى جانب رغبة طاغية في الدخول في العصر الحديث بقوة وبأقصى سرعة.

لا بد لي من الاعتراف بأني استمتعت بهذا العمل إلى أقصى الحدود. لم توجد بيانات موثقة ومتاحة عن العربية السعودية، سواء في مكتبة بوسطن أو أي مكان آخر كي تبرر اعتماد نماذج الاقتصاد القياسي في هذا السياق. وفي واقع الحال، فإن ضخامة العمل المتوقع، والمتمثل بتحويل أمة بأكملها على نحو شامل وسريع وبمستوًى غير مسبوق من قبل، يعني أن وجود المعلومات التاريخية لن يمثل شيئا ذا صلة.

من جانب آخر، لم يوجد أحد يتوقع عملا تحليليًّا بهذا الحجم الكبير، أو بهذا المستوى من اللعبة على الأقل. لذلك، وبكل بساطة، فتحت الباب على مصراعيه أمام مخيلتي وانطلقت بكتابة تقرير يصور مستقبلا زاهرا وبراقا لمملكة واعدة. توفرت لدي بعض الأرقام العامة لتقدير أشياء مثل الكلفة التقريبية لإنتاج الميغاواط الواحد من الكهرباء، أو كلفة شق الميل الواحد من الطريق، أو الكلفة المطلوبة لتوفير الماء الصالح للشرب، والصرف الصحي، والإسكان، والطعام، والخدمات العامة للعامل الواحد. لم تكن مهمتي منصبة على تحسين وضبط تلك التقديرات أو الخروج باستنتاجات نهائية. كان عملي عبارة عن تقديم توصيف لسلسلة من الخطط (أو لنقل جملة من «الرؤى» توخِّيًا للدقة اللفظية) لما يمكن تحقيقه، وبالنتيجة الوصول إلى تقديرات تقريبية للتكاليف المرتبطة بها.

لطالما أبقيت الأهداف الحقيقية في نظر الاعتبار، تلك الأهداف المتمحورة حول تضخيم حجم المدفوعات لصالح الشركات الأميركية وجعل العربية السعودية معتمدة على نحو متزايد على الولايات المتحدة. في واقع الحال، لم يتطلب الأمر وقتا طويلا كي أستوعب تقارب الهدفين الشديد، حيث يتطلب أي مشروع تنموي جديد تحديثا وتطويرا مستمرين، وإن هذا يتطلب خدمات تضمن استمرار الاعتماد تقنيا على الشركات الأصلية التي طورت المشروع، وذلك بهدف إدامته وتحديثه. مع استمراري بالعمل، أخذت أجمع قائمتين من المشاريع التي تصورتها: تتضمن القائمة الأولى أنواع عقود التصميم والإنشاء التي يمكننا توقعها، في حين تتضمن القائمة الثانية اتفاقيات الإدارة والخدمة طويلة الأمد. ولسوف تحقق شركات ماين، وباكتل، وبراون آند روت، وهاليبورتن، وستون، وويبستر، والعديد من الشركات الهندسية والإنشائية الأميركية الأخرى ـ تحقق أرباحا كبيرة تدوم لعقود قادمة.

بعيدا عن الاقتصاد البحت، كانت توجد حيلة أخرى ستجعل من العربية السعودية أكثر اعتمادا علينا، وإن كان ذلك بطريقة مختلفة تماما. في واقع الحال، سيقود تحديث المملكة الغنية بالنفط إلى ردود فعل سلبية. على سبيل المثال، سيغضب المسلمون المتشددون، ومعهم إسرائيل وباقي دول الجوار التي ستشعر بالتهديد. لذلك، ستقود التنمية الاقتصادية في هذا البلد إلى نمو اقتصادي آخر على الأرجح، نمو يتمثل في حماية شبه الجزيرة العربية. ولسوف تضمن الشركات الخاصة المتخصصة في هذه الأنشطة، إلى جانب القوات الأميركية وصناعات الدفاع، عقودًا سخية،

ومرة أخرى ستوجد عقود خدمة وإدارة طويلة الأجل. وسيتطلب وجود هذه العقود مرحلة أخرى من المشاريع الهندسية والإنشائية، بما في ذلك المطارات، ومواقع الصواريخ، والقواعد البرية، فضلا عن كل أنواع المنشآت والبنى التحتية الأخرى.

بعثت بتقاريري بمغلفات مختومة عبر البريد الداخلي للشركة، مُعَنْونة إلى «مدير المشاريع في وزارة الخزانة». والتقيت أحيانا ببضعة أفراد من فريقنا، وكان منهم نائب رئيس شركة ماين ومديري. لمّا لمْ يحمل مشروعنا اسمًا رسميًّا لغاية ذلك الوقت، وهو المشروع الذي كان لا يزال في طور البحث والتطوير ولم يدخل رسميا ضمن أعمال الهيئة الأميركية ـ السعودية للتعاون الاقتصادي المشترك، أشرنا إليه بأصوات خافتة بتسمية SAMA. ظاهريًّا، رَمَز الاسم إلى هيئة شؤون غسيل الأموال السعودية، لكن ذلك كان تلاعبا بالألفاظ، وهو ما يطلق عليه البنك المركزي للملكة تسمية «وكالة النقد السعودية» أو SAMA.

اجتمع بنا ممثل وزارة الخزانة في بعض الأحيان. أثرت بعض الأسئلة ضمن تلك الاجتماعات، ووصفت عملي بوجه خاص ردا على ملاحظاتهم، ووافقت على القيام بكل ما يلزم لتنفيذ ما طلبوه مني. أعرب نائب رئيس شركة ماين وممثل وزارة الخزانة عن إعجاب كبير بعملي وأفكاري حول اتفاقيات الخدمات والإدارة طويلة الأجل. وقد دفع هذا الكلام أحد نواب رئيس الشركة إلى وضع مصطلح جديد لوصف هذا العمل في إشارة إلى المملكة قال فيه: «إنها البقرة التي نستطيع الاستمرار بحلبها حتى تغرب شمس حياتنا». أما بالنسبة إليّ، فإن تلك العبارة لطالما استحضرت صور الماعز عوضا عن الأبقار.

إبان تلك الاجتماعات، أدركت مشاركة الكثير من منافسينا في مهام مشابهة، وأننا جميعنا نتوقع الحصول على عقود مربحة نتيجة لهذه الجهود في خاتمة المطاف. افترضت دفع شركة ماين وباقي الشركات الأخرى فاتورة هذا العمل الأولي، وأنها تتحمل مخاطر قصيرة الأجل في سبيل ضمان دخولها ميدان العمل. وقد عُزِّز هذا التصور عبر حقيقة أرقام الأجر الذي وضعته عن ساعات عملي اليومية في كشف العمل الشخصي، تلك الأرقام التي بدت عامة وضمن النفقات الإدارية الموثقة. بدا اعتماد نهج كهذا نموذجيًّا في أثناء مرحلة البحث والتطوير وإعداد مقترحات المشاريع. في مثل هذه الحال، تجاوز الاستثمار الأولي المعيار الطبيعي بكل تأكيد، لكن نواب رئيس شركة ماين بَدَوا واثقين تماما بالعوائد المتوقعة.

على الرغم من معرفتنا حقيقة مشاركة المنافسين الآخرين، افترضنا جميعنا وجود ما يكفي من العمل للقيام به هناك. ثم إنني كنتُ في هذا العمل منذ وقت طويل بما يكفي لأدرك أن الجوائز التي ستتحقق ستعكس مستوى قبول وزارة الخزانة بالعمل المنجز، وأن المستشارين الذين خرجوا بتلك الأساليب التي نُفِّذت في النهاية سيحصلون على العقود المختارة. من جانبي، أخذت الأمر كتحدٍّ شخصي بهدف الخروج بسيناريوهات تنجح في مرحلة التصميم والإنشاء. كان نجمي يصعد بسرعة في شركة ماين، ولا شك أن دوري كلاعب رئيسي في مشاريع السعودية من شأنه تسريع هذا الصعود في حال نجاح تلك المشاريع.

في أثناء تلك الاجتماعات، ناقشنا إمكانية إطلاق العملية بمجملها سوابقَ جديدة وغير معروفة من قبل. لقد مثلت العملية منهجا مبتكرا لخلق عمل مربح في دول لا تحتاج إلى قروضنا المدفوعة من خلال البنك الدولي. خطر العراق وإيران على بالي فورا كمثالين محتملين على دول كهذه. وبالنظر إلى الطبيعة البشرية، شعرنا ـن زعماء دول كهذه سيشعرون بالحافز لتقليد العربية السعودية. في واقع الحال، عادَ لا يوجد شَكٌّ بأن الحظر النفطي الذي فُرضَ عام 1973، والذي كان له تأثيرات سلبية شديدة ابتداءً، سينتهي إلى فتح أبواب منافع غير متوقعة لأنشطة شركاتنا الهندسية والانشائية، وبالتالي يُعَبِّد الطريق أكثر أمام تعزيز الامبراطورية العالمية.

عملت على تلك المرحلة التخيلية لما يقرب من ثماني شهور ـ على الرغم من أن ذلك لم يشغل وقتي بشدة فيما خلا بضعة أيام وحسب ـ معزولا في غرفة اجتماعاتي الخاصة، أو في شقتي المطلة على حديقة «بوسطن كومون العامة». تولى جميع أفراد الكادر بمعيتي مهام أخرى واهتموا بأنفسهم كثيرا، على الرغم من أنني تفقدتهم بين الحين والآخر. بمرور الوقت، انحسر ستار السرية المحيط بعملنا. أدرك أناس أكثر قرب حصول شيء كبير يجري طبخه بهدوء، يتعلق بالعربية السعودية. تصاعدت الإثارة وترددت الشائعات. بات نواب رئيس شركة ماين ومعهم ممثلو وزارة الخزانة أكثر انفتاحا، حيث يعود ذلك جزئيا ـ كما أعتقد ـ إلى كونهم باتوا مطلعين شخصيا على معلومات وتفاصيل أكثر عن المخطط العبقري قيد الإعداد.

بموجِب تلك الخطة المتطورة، أرادت واشنطن من السعوديين ضمان ديمومة إمدادات النفط ومستويات الأسعار المتقلبة، إلا أنها تظل ضمن المعدلات المقبولة للولايات المتحدة وباقي حلفائنا. وفي حال قررت دول أخرى مثل إيران، أو العراق، أو إندونيسيا، أو فنزويلا، فَرْض حظر، تهب

السعودية بما تملك من إمدادات نفطية ضخمة لردم الفجوة، وإن مجرد معرفة تلك الدول بما يمكن للسعودية القيام به سيثبط من عزيمتها فيما يخص أي حظر مستقبلي محتمل. في مقابل هذه الضمانات، ستعرض واشنطن على آل سعود صفقة في غاية الجاذبية، صفقة تتمثل في التزام بتقديم دعم أميركي سياسي واضح وكامل، مع دعم عسكري إذا تطلب الأمر، وبما يضمن استمرار بقائهم حُكَّاما للبلاد.

كانت تلك صفقة بالكاد يستطيع آل سعود رفضها، لا سيما مع الأخذ في نظر الاعتبار موقع المملكة الجغرافي، وافتقارها إلى القوة العسكرية، وضعفها وانكشافها العام مقابل قوًى إقليمية أخرى مثل إيران، والعراق، وسوريا، وإسرائيل. وبطبيعة الحال، استخدمت واشنطن امتيازها لفرض شرط حرج آخر، شرطٍ أعاد تعريف دور قَتَلة الاقتصاد في العالم وخدم كنموذج سنسعى إلى تطبيقه لاحقا في دول أخرى، لا سيما في العراق. بالعودة إلى الماضي، أجد صعوبة في فهم الكيفية التي قبلت بها العربية السعودية هذا الشرط. شعرت معظم دول العالم العربي الأخرى، ودول الأوبك، والدول الإسلامية بالفزع حينما اكتشفت شروط الصفقة والطريقة التي أذعنت بها العائلة المالكة لمطالب واشنطن.

تمثل شرط واشنطن في استخدام العربية السعودية أموال البترودولار لشراء سندات الحكومة الأميركية، وبالمقابل، تنفق وزارتا الخارجية والخزانة الأميركيتان الأموال المتحصلة من فوائد تلك السندات بطريقة تمكن العربية السعودية من الخروج من مجتمع بدائي عفّى عليه الزمن إلى مجتمع عصري وحديث، مع الدخول إلى العالم الصناعي. بعبارة أخرى، ستستخدم الفوائد المتراكمة عن مليارات الدولارات السعودية لتمويل مستحقات الشركات الأميركية التي ستنفذ الرؤية التي خرجتُ أنا بها (وبعض المنافسين الآخرين على الأرجح)، بهدف تحويل العربية السعودية إلى قوة صناعية حديثة. ولسوف تقوم وزارة خزانتنا بتوظيفنا، وعلى حساب العربية السعودية، بهدف بناء مشاريع البنية التحتية وحتى بناء مدن سعودية كاملة عبر أرجاء شبه الجزيرة العربية.

على الرغم من احتفاظ السعوديين بحق تقديم مدخلات فيما يتعلق بالطبيعة العامة لتلك المشاريع، فإن الواقع تمثل في تحديد نخبة الأجانب (ومعظمهم من الكفار في عيون الغالبية من المسلمين) للشكل المستقبلي والمظهر الاقتصادي لشبه الجزيرة العربية. وسينفذ هذا الكلام في مملكة أُسِّست على المبادئ الوهابية المحافظة، والتي تدار وفق هذه المبادئ منذ قرون. بدا الأمر بمثابة

قفزة عظيمة فوق الإيمان من جانبهم. لكن في ظل تلك الظروف، وتبعا للضغوط السياسية والعسكرية التي ستأتي بها واشنطن لا محالة، أشك بتوفر العائلة المالكة السعودية على أي خيارات بديلة آنذاك.

من منظورنا، بدت آفاق الأرباح الهائلة غير محدودة. كانت صفقة سرية وحميمية مع إمكانية وضع سابقة مذهلة لا مثيل لها. وبغية جعل الصفقة أحلى، لم توجد حاجة إلى استحصال أي موافقة من مجلس الشيوخ، ذلك الإجراء الكريه من جانب الشركات، لا سيما الشركات الخاصة أمثال باكتل وماين التي لا تفضل فتح سجلاتها وكشف أسرارها لأيٍّ كان. في هذا السياق، يوجز توماس دبليو. ليبمان، وهو الزميل والباحث المساعد في معهد الشرق الأوسط والصحفي السابق، ببلاغة ودقة طبيعة وشكل الصفقة كما يلي:

سينقل السعوديون الذين يعومون على بحر من الأموال مئات الملايين من الدولارات إلى وزارة الخزانة التي ستتحفظ عليها حتى تظهر الحاجة إليها بغية دفع مرتبات البائعين والعاملين. وسيضمن هذا النظام إعادة تدوير وإرجاع الأموال السعودية نحو الاقتصاد الأميركي، مع ضمان مقدرة مديري الهيئة الأميركية السعودية المشتركة تنفيذ ما يرتؤون من المشاريع التي اتفقوا عليها مع السعوديين دون الحاجة إلى تبريرها أمام مجلس الشيوخ.[48]

استغرق وضع المعايير لهذا المشروع التاريخي وقتا أقل مما يتصوره أي شخص. بعد ذلك، تعين علينا إيجاد الوسيلة لتنفيذه. بغية تحريك عجلة المشروع، أُوفِد مسؤول رفيع المستوى من جانب الحكومة الأميركية إلى العربية السعودية ضمن مهمة بالغة السرية. لم أعرف الموفَد على وجه اليقين، إلا أنني أتصور أنه كان هنري كيسنجر.

بصرف النظر عن هُوية المبعوث، تمثلت أولى مهامه بتذكير العائلة المالكة بما حصل مع إيران المجاورة حينما حاول مصدق القضاء على المصالح النفطية البريطانية آنذاك. بعد ذلك، كان ليَعرض الخطوط العريضة لخطة تبدو في غاية الجاذبية، وذلك بغية استبعاد أي احتمال لرفضها مع إيصال فكرة عدم توفر السعوديين على بدائل أخرى. لا شك لديّ أن المبعوث الأميركي ترك لديهم انطباعًا واضحًا جدًّا بأنهم إما أن يقبلوا بعرضنا مع الحصول على الضمانات بدعمنا وحمايتنا

حكامهم، وإنما أنهم يملكون حق الرفض والسير على طريق مصدق. حينما عاد المبعوث إلى واشنطن، حمل معه رسالة مفادها رغبة السعوديين في الامتثال.

كانت توجد عقبة صغيرة واحدة. توجب علينا إقناع بعض الشخصيات المهمة داخل الحكومة السعودية، وهو ما قيل لنا إنه أمر عائلي. لم تكن العربية السعودية دولة ديمقراطية، ومع ذلك بدت هناك حاجة إلى التوافق داخل أسرة آل سعود.

أُسْنِدَت إليّ عام 1975 مهمة إقناع أحد أولئك اللاعبين السعوديين المهمين. لطالما أشرت إليه بالأمير «و»، إلا أنني لم أتبين ما إذا كان ولي العهد أو لا. تمحورت مهمتي حول إقناعه بأن قضية غسيل الأموال ستكون ذات نفع لبلاده وله شخصيا.

بدا الأمر صعبا في البداية. صوّر الأمير «و» نفسه كوهابي ملتزم وأصَرَّ أنه لا يريد رؤية بلاده تسير على خطى التجارة الغربية. وزعم أنه فهم الطبيعة الخبيثة لما نقترحه على بلاده، وأضاف أننا نسعى وراء الأهداف الصليبية ذاتها التي سعى إليها الصليبيون قبل ألف عام، تلك الأهداف المتمثلة في نشر النصرانية عبر أرجاء العالم العربي. في واقع الحال، كان الرجل محقًّا جزئيًّا إزاء هذه النقطة. برأيي الشخصي، لم يكن الاختلاف ما بيننا وبين الصليبيين القدامى إلا بالدرجة وحسب. زعم الكاثوليكيون الأوربيون في القرون الوسطى أن هدفهم كان تخليص المسلمين من العذاب، في حين زعمنا أننا نريد مساعدة السعوديين على التحديث. في الحقيقة، كان هدف الصليبيين الرئيس، كما هو الحال مع سلطة الشركات، توسيع امبراطوريتهم وحسب.

لكن بصرف النظر عن المعتقدات الدينية، كانت نقطة ضعف الأمير «و» تتمحور حول الشقراوات الجميلات، وبات من السخف الآن وصف ما آلت إليه الأمور على نحو نمطي وغير نزيه، مع وجوب القول بأن الأمير «و» كان الرجل الوحيد بهذه النزعة من بين الكثير من السعوديين الذين عرفتهم، أو إنه كان الوحيد الذي رغب في إظهار هذا الشيء أمامي، لكن هذه النزعة لعبت دورا في صياغة وإتمام هذه الصفقة التاريخية، وبرهنت على المدى الذي استطعت الذهاب إليه بغية إكمال مهمتي على أفضل وجه.

18

القوادة، وتمويل أسامة بن لادن

أعلمني الأمير «و» منذ البداية أنه يتوقع متعة مع امرأة بالمقاييس التي تعجبه كلما حضر لزيارة بوسطن، وأنه يريد منها ما يتجاوز خدمات المرافقة البسيطة. لكن الرجل حدد بوضوح عدم رغبته في فتاة اتصال محترفة، أو امرأة قد يصادفها هو أو أحد أفراد عائلته في الشارع او في أثناء حفلة كوكتيل. جرت لقاءاتي مع الأمير «و» بسرية تامة، ما سهل علي الامتثال لرغباته.

عاشت «سالي» في منطقة بوسطن. علمت مسبقا أنها من النوع الذي يثير الأمير بشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين. كانت سالي متزوجة من طيار يعمل على متن طائرات يونايتيد إيرلاينز ويسافر كثيرا بحكم عمله، إلا أنه لم يُخْفِ شيئا من خياناته وعلاقاته النسائية. بدت لي سالي متعالية إزاء مواقف وسلوكيات زوجها. نظرَتْ إلى مُرَتَّبه بعين التقدير، تقدير شمل السكن بشقة فخمة وسط بوسطن، فضلا عن المنافع والامتيازات التي تحظى بها زوجات الطيارين في تلك الأيام. وافقت المرأة على لقاء الأمير «و» بشرط واحد تمثل في إصرارها على اعتماد علاقتها المستقبلية معه كليا على سلوكه تجاهها.

لحسن حظي، قابل كل منهما الآخر وفقا لشرطه، لكن علاقة الأمير «و» غير الشرعية مع سالي، والتي مثلت فصلا فرعيا من قضية تبييض الأموال السعودية، تسببت بخلق سلسلة مشكلاتها الخاصة بها. على نحو صارم، حظرت شركة ماين على شركائها القيام بأي أعمال سرية. من وجهة نظر قانونية، كنتُ أشتري خدمات الجنس ـ القوادة ـ التي تعد نشاطا غير مشروع في ماساتشوستس، لذلك توجب علي إيجاد وسيلة للدفع لقاء خدمات سالي. لحسن الحظ، منحني قسم المحاسبة في الشركات حريات كبيرة عند التصرف بحساب نفقاتي. في واقع الحال، اعتدت دفع بقشيش جيد في كل مكان بغية إقناع عاملي المطاعم الراقية بمنحي إيصالات فارغة، فقد كانت تلك حقبة يكتب فيها الناس الإيصالات عوضا عن الحواسيب.

زادت جرأة الأمير «و» بمرور الوقت. في خاتمة المطاف، طلب مني الأمير ترتيب مجيء سالي لتعيش معه في منزله الريفي الخاص في السعودية. لم يكن ذلك من عينة الطلبات الغريبة في تلك الأيام، فقد نشطت تجارة الرقيق البيض (الفتيات الشابات) ما بين بعض الدول الأوربية والشرق الأوسط. تحصل تلك النساء على عقود عمل لفترات محددة من الوقت، وحينما تنتهي تلك العقود، تعود النسوة إلى بلدانهن مع حسابات مصرفية معتبرة. يصف روبرت باير، وهو ضابط مسؤول في جهاز العمليات التابع إلى وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لعشرين عاما، والمتخصص في شؤون الشرق الأوسط ـ يصف الموضوع كالتالي: «بداية سبعينيات القرن الماضي، وحينما بدأت أموال البترودولار تتدفق، شرع اللبنانيون المغامرون بتهريب المومسات إلى المملكة ولصالح الأمراء... وبما أن أحدًا من أفراد العائلة المالكة لا يعرف كيفية «ترصيد» دفتر الصكوك، أصاب اللبنانيون ثراءً فاحشا».[49]

كنت على دراية بهذه النوعية من المواقف وأعرف أناسا قادرين على ترتيب هذا النوع من العقود. لكن الأمر اكتنفته ثلاث مشكلات كبرى بالنسبة إلي، مشكلات تمثلت في: سالي، والمال، عدا عن حقيقة إدراكي أنني أقوم بشيء غير قانوني ومستهجن أخلاقيا. كنت واثقا بأن سالي لم تكن بصدد مغادرة بوسطن للذهاب إلى قصر في إحدى صحارى الشرق الأوسط، وكان واضحا تماما أن حتى أكبر مجموعة إيصالات مطاعم فارغة لن تغطي تكاليف هذا الموضوع.

اهتم الأمير «و» بالجانب المالي حيث أكد لي أنه سيدفع لعشيقته بنفسه، ولم يكن مطلوبا مني سوى إكمال الترتيبات. ثم إنني شعرت براحة عظيمة حينما قال لي إن «سالي» السعودية ليست مضطرة لتكون الشخص ذاته الذي رافقه في الولايات المتحدة. اتصلت ببعض الأصدقاء ممن تربطهم علاقات ببعض اللبنانيين في لندن وأمستردام. وفي غضون أسابيع قليلة، وقعت سالي البديلة العقد. قلل توقيع العقد عبر أناس في بريطانيا وهولندا من مخاوفي القانونية. حاولت تهدئة شعوري بالذنب حينما أقنعت نفسي بأن جميع المتورطين في الموضوع أناس بالغون ويأخذون قراراتهم بأنفسهم. ومن أكون أنا لأحكم على الناس يا ترى؟ لكنني أفهم الآن تأنيب ضميري لي لمعرفة أني كنت جزءًا من منظومة استغلت نساءً لم يَكُنْ أمامهن إلا قِلَّة من الخيارات في الحياة.

كان الأمير «و» شخصية معقدة. أرضت سالي متطلبات الأمير الغريزية، في حين أكسبتني المساعدة بهذا الشأن ثقته. لكن كل تلك الثقة لم تساعد في إقناعه باعتماد توصيات الهيئة السعودية ـ

الأميركية خدمة لبلاده. توجب علي العمل بجد لكسبه في صالح هذه القضية. في واقع الحال، قضيت ساعات طويلة أشرح له الأرقام الإحصائية وأساعده على تحليل نتائج الدراسات التي أجريت على بلدان أخرى، بما فيها نماذج الاقتصاد القياسي التي طورتها للكويت إبان فترة تدريبي مع كولدين، وخلال الأشهر الأولى قبل سفري إلى إندونيسيا. رضخ الأمير في خاتمة المطاف.

لم أكن على دراية بتفاصيل ما جرى بين زملائي من قتلة الاقتصاد الآخرين وباقي اللاعبين السعوديين المهمين، إلا أني عرفت لاحقا إقرار العائلة المالكة كامل الحزمة في نهاية المطاف. من جانبها، حصلت شركة ماين على واحد من بين أكثر العقود المربحة للغاية، والذي كان بإشراف وزارة الخزانة الأميركية. وأُوْفِدنا للقيام بمسح شامل لمنظومة وشبكة الطاقة الكهربائية القديمة وغير المنظمة عبر أرجاء البلاد، وذلك بهدف تصميم شبكة جديدة تفي بمتطلبات المعايير المعتمدة في الولايات المتحدة.

كما هو معتاد، كُلّفت بإرسال الفريق الأول، وذلك من أجل الخروج بالتقديرات الاقتصادية والحمل الكهربائي المتوقع لكل منطقة من مناطق البلاد. استعدَّ ثلاثة من الرجال الذين عملوا بمعيتي ـ وكلهم خبراء في المشاريع الدولية ـ للمغادرة إلى الرياض حينما بلغنا القسم القانوني في الشركة بوجوب تأسيس وتجهيز مكتب متكامل لنا بالعاصمة السعودية في غضون أسابيع كما ينص العقد بهدف إدارة العمليات من هناك. لم ينتبه أحد لهذه الفقرة لما يزيد على الشهر. ونصت اتفاقيتنا مع وزارة الخزانة الأميركية على وجوب تصنيع المعدات المستخدمة في المشروع في الولايات المتحدة أو العربية السعودية. وبحكم خلو المملكة من أي مصانع لإنتاج مثل تلك المعدات، توجب شحن كل شيء من أميركا. لكن مما أثار استياءنا اكتشافُ وجود طوابير طويلة من الشاحنات بانتظار الدخول إلى موانئ الجزيرة العربية. ربما تطلب الأمر بضعة أشهر أخرى لإيصال شحنة الإمدادات إلى المملكة. لكن شركة ماين لم تكن لتقبل خسارة عقد هائل كهذا لمجرد عدم الإيفاء بشرط تأسيس مكتب مؤثث للعمل في البلد المضيف. لذلك، وضمن اجتماع ضم كل الشركاء المعنيين، عصفنا أذهاننا لعدة ساعات بحثًا عن الحل. خرجنا بفكرة مُفادها استئجار طائرة من نوع بوينغ 747، وملْئها بالمعدات اللازمة من متاجر بوسطن، ومن ثم إرسالها إلى العربية السعودية. وأتذكر أنني اقترحت بأن من المفيد استئجار طائرة مملوكة لشركة يونايتيد إيرلاينز، وبقيادة طيار معين لعبت زوجته

دورًا محوريًّا في موافقة آل سعود على المشروع. (ولسوف أندم على دوري الدنيء في كل هذا وإن كنت بررته في حينها).

حولت الصفقة الأميركية المملكة السعودية بين ليلة وضحاها. حلت المئات من شاحنات كبس ونقل النفايات الصفراء الأميركية الصنع محل قطعان الماعز التي تعتاش على أكل الأزبال، والتي جاءت ضمن عقد بقيمة 200 مليون دولار شمل محطات لإدارة ومعالجة النفايات.[50] على نحو مماثل، حُدِّثَت جميع قطاعات الاقتصاد السعودي كليا، من الزراعة إلى الطاقة وحتى التعليم والاتصالات. وكما أورد توماس ليمان عام 2003 قائلًا:

أعاد الأميركيون تشكيل منظر طبيعي واسع جدا، منظر يضم بيوت الطين وخيم المزارعين بصورتهم التقليدية، ليتحول المشهد إلى وجود منتجات مقاهي ستاربكس في كل الزوايا، والمصاعد الكهربائية في جميع الأبنية الحكومية الجديدة. باتت العربية السعودية اليوم دولة خطوط نقل سريعة، وحواسيب، ومراكز تسوق مكيفة تضم مَحَالَّ تجارية تبيع المنتجات الأميركية ذاتها التي تباع في جادات أميركا المزدهرة، والفنادق الفاخرة، ومطاعم الوجبات السريعة، والقنوات التلفزيونية الفضائية، والمستشفيات الحديثة، وأبراج المكاتب العالية، فضلا عن المتنزهات ومدن الملاهي بما فيها من دُوَّامات ألعاب حديثة تصيب ركابها بالدوار.[51]

وضعت الخطط التي أخرجناها للوجود عام 1974 المعايير للمفاوضات المستقبلية التي جرت مع الدول الغنية بالنفط. أرست الهيئة الأميركية ـ السعودية الدعامة الثانية بعد تلك الدعامة التي أرساها كيرميت روزفلت في إيران سابقا. وقد استهلت هذه الدعامة مستوًى مبتكرًا من التعقيد على ترسانة الأسلحة السياسية ـ الاقتصادية التي تستخدمها سلالة محاربي الامبراطورية العالمية الجدد.

ومثَّلت قضية تبييض الأموال السعودية والهيئة الأميركية ـ السعودية المشتركة سوابق جديدة في ميدان الشرعية الدولية، الأمر الذي بدا واضحا كل الوضوح في قضية عيدي أمين. حينما ذهب الدكتاتور الأوغندي سيئ الصيت إلى المنفى عام 1979، منحته العربية السعودية اللجوء. فعلى الرغم من اعتباره مجرما وقاتلا مسؤولا عن مصرع ما بين 100000 و300000 من أبناء شعبه، فإنه تقاعد ليعيش حياة ترف مع مجموعة كبيرة من السيارات الفاخرة، يحف به الخدم برعاية

آل سعود. من جانبها، اعترضت الولايات المتحدة بهدوء، إلا أنها رفضت ممارسة الضغط في القضية مخافة تقويض ترتيباتها مع السعوديين. وفي هذا السياق، قضى أمين سنوات عمره الباقية في رحلات الصيد والنزهات على الشواطئ. وقد توفي الدكتاتور الأوغندي في جدة عام 2003 متأثرا بفشل كلوي عن عمر يناهز الثمانين.[52]

لكن الصورة الأدق للضرر تمثلت في الدور الذي سمح للعربية السعودية بلعبه في تمويل الإرهاب الدولي. ففي هذا السياق، لم تكتم الولايات المتحدة سرًّا في رغبتها تمويل آل سعود لحرب أسامة بن لادن في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي إبان ثمانينيات القرن الماضي، حيث ساهمت الرياض وواشنطن كلاهما بما يقدر بـ3.5 مليار دولار لصالح المجاهدين.[53] لكن مشاركة الولايات المتحدة والسعودية تجاوزت مجرد ذلك الرقم بكثير.

نهاية العام 2003، نفذت شبكة يو أس نيوز آند وورد ريبورت دراسة موسعة حملت عنوان «العلاقة السعودية»، وبحسب تلك الدراسة، استعرضت الشبكة سجلات تضم آلاف الوثائق القضائية، ووثائق استخبارات أميركية وأجنبية، فضلا عن وثائق أخرى، إلى جانب مقابلات أجرتها مع العشرات من المسؤولين الحكوميين والخبراء المتخصصين في شؤون الإرهاب والشرق الأوسط، وقد خلص تقرير الشبكة إلى ما يلي:

خلصت الأبحاث إلى أدلة ساحقة لا يمكن دحضها تشير إلى أن العربية السعودية، حليف الولايات المتحدة القديم ومنتج النفط الأكبر بالعالم، وكما وصفها أحد كبار مسؤولي وزارة الخزانة الأميركية بأنها باتت «بؤرة لتمويل الإرهاب».

منذ نهاية ثمانينيات القرن الماضي، وبعد الصدمات المزدوجة التي سببتها الثورة الإيرانية والحرب السوفييتية في أفغانستان، تحولت الأعمال شبه الخيرية التي تقوم بها العربية السعودية إلى مصدر رئيسي لتمويل الحركات الجهادية المتنامية بسرعة. ففي ما يقرب من عشرين بلَدًا، تستخدم تلك الأموال السعودية لإدارة معسكرات التدريب شبه العسكرية، زشراء الأسلحة، وتجنيد المقاتلين الجدد.

يقول بعض ضباط المخابرات السابقين إن السخاء السعودي دفع المسؤولين الأميركيين إلى غَضِّ النظر عما يجري. وفي هذا السياق، دُفعت المليارات من الدولارات على شكل عقود ومنح

ومرتبات إلى جملة واسعة من المسؤولين الأميركيين السابقين الذين تعاملوا مع السعوديين، مسؤولين ما بين سفراء، ومديري محطات لوكالة الاستخبارات المركزية، وحتى وزراء في إدارات أميركية.

وأشارت اتصالات إلكترونية تُعُقِّبَت إلى محادثات أكدت دعم أفراد من العائلة المالكة السعودية لا لتنظيم القاعدة وحده وحسب، وإنما لجماعات إرهابية أخرى.[54]

بعد هجمات عام 2001 الإرهابية التي استهدفت برجي التجارة العالمي والبنتاغون، برزت أدلة أكثر حول العلاقة السرية ما بين واشنطن والرياض. شهر تشرين الأول من العام 2003، كشفت مجلة فانيتي فير معلومات لم تكن متاحة للعلن سابقا، ضمن تقرير استقصائي معمق حمل عنوان «إنقاذ السعوديين» في واقع الحال، لم أستغرب القصة التي ظهرت بخصوص العلاقات ما بين أسرة بوش، وآل سعود، وعائلة بن لادن. عرفت أن تلك العلاقات تعود إلى مرحلة قضية غسيل الأموال السعودية على أقل تقدير، والتي بدأت في عام 1974، وإلى فترة جورج بوش الأب حينما كان سفيرا لواشنطن في الأمم المتحدة (للفترة ما بين 1971 و1973) ومن ثم كرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (للفترة ما بين 1976 و1977). لكن ما فاجأني تمثل في الحقيقة التي كشفت عنها مجلة فانيتي فير لاحقا، حيث خلصت إلى:

توطدت علاقة متينة بين عائلة بوش وآل سعود، وكلاهما يمثلان الأسرتين الأكثر قوة في العالم، توطدت على مستويات شخصية ومهنية وسياسية لأكثر من عشرين عاما.

في ميدان القطاع الخاص، دعم السعوديون شركة هاركان للطاقة، وكانت شركة نفطية متعثرة استثمر فيها جورج بوش الابن. وفي الأوان الأخير، ظهر الرئيس الأسبق جورج بوش الأب ومعه حليفه القديم، وزير خارجيته الأسبق جيمس بيكر، ظهرا معا إلى جانب السعوديين ضمن حملة لجمع الدعم المالي لصالح مجموعة كارلايل التي تعد واحدة من أكبر صناديق الاستثمار الخاصة في العالم. واليوم يستمر الرئيس الأسبق جورج بوش بالعمل كمستشار أقدم لصالح الشركة التي تشير المعلومات إلى أن سعوديين على صلة بالجماعات الإرهابية يستثمرون فيها.

قبل أيام قليلة من حوادث الحادي عشر من أيلول، نُقل سعوديون أثرياء، بمن فيهم أفراد من عائلة بن لادن، على متن طائرات نفاثة خاصة خارج الولايات المتحدة. وعلى ما يبدو، لم يفتش أحد

تلك الرحلات، في حين لم يستجوب أيٌّ من الركاب قط. فهل ساعدت علاقة عائلة بوش القديمة مع السعوديين في حصول ذلك؟[55]

القسم الرابع

1975-1981

19

مفاوضات قناة بنما

خلقت السعودية الكثير من الوظائف، لكن وظيفتي كانت تسير على خير ما يرام. لكن النجاح الذي حققته في مملكة الصحراء فتح أبوابًا جديدة أمامي بكل تأكيد. بحلول عام 1977، بنيتُ امبراطورية صغيرة تشتمل على كادر بحدود عشرين فردًا من المتخصصين ضمن موقع في مكتبنا ببوسطن، فضلا عن حظيرة من المستشارين من باقي أقسام شركة ماين ومكاتبها المتوزعة عبر أرجاء العالم. في ذلك الوقت، ارتقيت لأكون أصغر الشركاء سِنًّا في الشركة التي تبلغ مئة عامًا. وإلى جانب عنواني الوظيفي ككبير للاقتصاديين في شركة ماين، كنت أشغل منصب المدير الاقتصادي للتخطيط الإقليمي، وحاضرت في جامعة هارفرد ومواقع أخرى، في حين تُقابلني الصحف وتطلب كتاباتي وآرائي حول الحوادث الجارية.[56] امتلكتُ يختا بحريا أرْسَيْته في ميناء بوسطن إلى جانب السفينة البحرية التاريخية «كونستيتيوشن»، والتي تحول اسمها إلى «أولد آيرون سايد» المشهورة بإخضاع قراصنة البرابرة بعد وقت قصير من الحرب الثورية. كنت أتلَقَّى مُرَتَّبًا ممتازًا وأملك أسهمًا في الشركة عدا عن وعود بارتقاء إلى مستوى المليونير قبل وصولي سن الأربعين. وعلى الرغم من انهيار زواجي، فإنني كنت أقضي الوقت مع نساء من قارات عدة.

دفعتني تلك المنافع، إلى جانب ذكريات نشأتي كابن مدرّس لمدرسة داخلية لأبناء الأثرياء، مع مشاعري عن قلة جاذبيتي أمام النساء ــ دفعتني كلها إلى إدمان العمل. والآن أفهم أني تميزت بفرص لم تتوفر إلا لنسبة قليلة من البشر جرّاء لون بشرتي، وجندري، وجنسيتي المختلفة عن باقي الناس. انغمست في ذاتي ولم أرغب في رؤية الناس الذين يشابهونني في الخلفية غير مستحقين لامتيازاتهم. لذلك، ولوقت طويل جدا، رأيت في تلك الامتيازات حقا مكتسبا وأمرا مفروغا منه.

جاءتني فرصة جديدة بعد وقت قصير. خرج مديري برونو بفكرة مبتكرة عن إنتاج التنبؤات الاقتصادية، فكرة تعتمد نموذج الاقتصاد القياسي المبني على كتابات عالم رياضيات روسي من مطلع القرن. يتضمن النموذج إلحاق احتمالات ذاتية بالتنبؤات الخاصة بنمو قطاعات اقتصادية

معينة. بدت الفكرة بمثابة أداة مثالية لتبرير معدلات زيادة النمو المتضخمة التي نروم إظهارها بغية الحصول على قروض كبيرة، في حين طلب مني برونو البحث في إمكانية ما يمكنني القيام به بهذا الخصوص.

استقدمت عالم رياضيات شابًّا من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ويدعى ناديبورام براساد، إلى قسمي وخصصت له ميزانية معينة. في غضون ستة شهور، طور الدكتور براساد طريقة ماركوف لنموذج الاقتصاد القياسي. وتَمَكَّنَّا معًا من إنتاج سلسلة من أوراق الأبحاث التقنية التي قدمها ماركوف كطريقة ثورية للتنبؤ بتأثير الاستثمارات في البنية التحتية في التنمية الاقتصادية.

كان ذلك النموذج الذي نحتاج إليه على وجه التحديد، تلك الأداة التي برهنت علميا على أننا نقوم بالخير للدول عبر مساعدتها على تحمل ديون لن تتمكن من سدادها أبدًا. فضلا عن ذلك، لا يسع أحد سوى خبراء الاقتصاد القياسي المتمرسين بقوة، ممن يتوفرون على الوقت والمال، استيعاب تشابكات وتعقيدات ماركوف أو التشكيك بنتائجها. نُشرت أوراقنا البحثية في جملة من المؤسسات المرموقة. وفي خاتمة المطاف، قُدمت تلك الأبحاث رسميا في المؤتمرات والجامعات في عدد من البلدان. ذاع صيتنا ــ مع الأبحاث ــ في أوساط عملنا الاقتصادي والاستشاري.[57]

بقينا في هذه الأثناء أنا وتوريخوس على اتفاقنا السري. حرصت على دقة وأمانة دراساتنا، وأن تأخذ توصياتنا الفقراء بنظر الاعتبار. وعلى الرغم من أني سمعت تذمُّرًا من بعض الناس أن تنبؤاتي لبنما كانت دون المستويات المتضخمة المعتادة، وفاحت منها رائحة الاشتراكية، استمرت شركة ماين بكسب العقود من توريخوس. تضمنت تلك العقود، ابتداءً، تقديم خطط شاملة مبتكرة تتعلق بالزراعة إلى جانب قطاعات البنية التحتية التقليدية الأخرى. ولمحت من بعيد انطلاق مفاوضات إعادة تحديد وضع القناة بين جيمي كارتر وتوريخوس.

خلقت مفاوضات القناة اهتمامًا كبيرًا وأثارت الكثير من المشاعر عبر أرجاء العالم. تابع العالم أجمع إذا ما قررت الولايات المتحدة القيام بما يعتقد ــ على نطاق واسع ــ أنه الشيء الصحيح متمثلا بإعادة السيطرة على القناة إلى البنميين، أو أنها ستعيد تأسيس نسختنا العالمية من فلسفة «المصير الواضح أو القدر المتجلي» من جديد، تلك الفلسفة التي عُرِّضت لمحنة كبيرة في فيتنام.

قررت أميركا انتخاب رجل عقلاني ومتعاطف كما بدا لكثير من الناس، وأوصلته إلى سدة الحكم في الوقت المناسب. لكن معاقل المحافظين في واشنطن ومعهم منابر اليمين الديني دقت أجراس الخطر بسخط واضح. فكيف لنا التخلي عن تلك القناة، رمز الدفاع الوطني والبراعة الأميركية، ذلك الشريط المائي الرابط ما بين ثروات أميركا الجنوبية وأهواء ومصالح أميركا الشمالية؟

توقَّع توريخوس عام 1975 قائلا: «فورد رئيس ضعيف ولن يُعاد انتخابه». قال توريخوس ذلك الكلام أمام مجموعة من البنميين المتنفذين. كنت واحدًا من بين قلة من الأجانب الذين تلقوا دعوة للحضور ضمن ذلك التجمع في النادي القديم والأنيق حيث السقوف مزينة بمراوح تطلق أزيزًا لافِتًا في أثناء الدوران. قال توريخوس: «لهذا السبب، قررت الإسراع بموضوع القناة. إنه وقت مناسب لخوض حرب سياسية شاملة والانتصار فيها».

ألهمني خطاب توريخوس. عدت إلى غرفتي في الفندق وخربشت ورقة أرسلتها في نهاية المطاف إلى جريدة بوسطن غلوب. على الجانب الآخر في بوسطن، رد عَلَيّ محرر بطلب بعث به إلى مكتبي، ودعاني فيه إلى كتابة مقال افتتاحي بهذا الخصوص. علمت مسبَّقًا بخطورة القيام بذلك، إلا أني أحسست بشيء قوي إزاء قضية القناة، وتوقعت في حينها أن من شأن كتابة شيء كهذا تخفيف مشاعر الإحباط في داخلي جراء ما أقوم به. فضلا عن ذلك، قلت لنفسي إن توريخوس سيُقَدِّر كلامي، وإني ربما أستخدم هذا وسيلة لمساعدة شركة ماين على ضمان عمل أكبر في بنما.

احتلَّت مقالتي الافتتاحية التي حملت عنوان «ليس للاستعمار من مكان في بنما العام 1975» ما يقرب من نصف صفحة مقابل الافتتاحيات الأخرى في ذلك العدد الصادر يوم التاسع عشر من أيلول، 1975.

ضمن تلك الافتتاحية، أوردت ثلاثة أسباب محددة لنقل مسؤولية القناة إلى بنما. أولا، «إن الموقف الحالي ليس عادلا، وهو بحد ذاته سبب جيد لأي قرار تصحيح». ثانيا، «تسبب الاتفاقية الحالية مخاطر أمنية أكبر بكثير مما يمكن وقوعه في حال إعادة السيطرة عليها للبنميين». واستشهدت بدراسة أعدتها هيئة القنوات الرابطة ما بين البحار، والتي خلصت إلى «أن الملاحة عبر القناة قد تتوقف لعامين بانفجار قنبلة ـ قد يزرعها شخص واحد ـ على جانب سد غاتون»، تلك

النقطة التي شدد عليها الجنرال توريخوس شخصيا وعلنا. ثالثا، «يخلق الموقف الحالي مشكلات خطيرة للعلاقات الأميركية ـ اللاتينية المضطربة أصلا». وأنهيت مقالي الافتتاحي كالتالي:

«تتمثل الوسيلة الأفضل والأكفأ لاستمرار عمل القناة بمساعدة البنميين على استعادة كامل سيطرتهم ومسؤوليتهم عليها. وعبر القيام بذلك، يمكننا القول بفخر إننا قدمنا شيئا يؤكد التزامنا بمفهوم حق تقرير المصير الذي ألزمنا أنفسنا به منذ مئتي عام.

كان الاستعمار ممارسة شائعة في مطلع القرن العشرين، وكان كذلك في عام 1775. وربما يمكن فهم التصديق على اتفاقية كهذه في سياق تلك الأزمنة. لكن عاد لا يكون للاستعمار من مكان في عام 1975. لذلك، وفيما نحتفل بالذكرى المئوية الثانية، لا بد لنا من إدراك هذا الكلام والتصرف بموجبه».[58]

بدت كتابة تلك الافتتاحية خطوة جريئة، لا سيما وأني ارتقيت إلى مستوى شريك في شركة ماين للتو. لم يكن متوقعا من الشركاء الإدلاء بأي شيء للصحافة، ولا سيما الإحجام عن نشر النقد السياسي اللاذع في الصفحات الافتتاحية لواحدة من أهم وأبرز صحف نيوإنغلاند. عبر البريد الداخلي للمكتب، تلقيت كَمًّا كبيرا من الملاحظات السيئة مجهولة المصدر أرفقت مع نسخ المقال. إلا أني تأكدت خَطَّ يد أحد كتاب الملاحظات، والذي كان تشارلي إيلينغورث. كان إيلينغورث أول مدير مشروع عملت معه في شركة ماين، والذي شغل هذا المنصب منذ عشر سنوات دون الوصول إلى منصب الشريك (مقارنة بخمس سنوات قضيتها في الشركة لأصبح شريكا بالمقابل). ألصقت علامة تضم جمجمة وعظمتين متشابكتين بشكل بارز على الملاحظة التي بدت بسيطة جدًّا: «أهذا الشيوعي شريك في شركتنا؟». من جانبه، استدعاني برونو إلى مكتبه وقال: «سوف تسمع الكثير من النقد والشكاوى لما فعلت. أنت تعرف أن شركة ماين متحفظة جدا، لكني أريدك أن تعرف أني أرى تصرفك في غاية الذكاء. ولسوف يحب توريخوس هذه الخطوة منك، لذلك آمل منك إرسال نسخة له»، وأضاف كذلك: «حسنًا جدًّا. أما هؤلاء المهرجون هنا في المكتب، هؤلاء الذين يرون في توريخوس رجلًا اشتراكيًّا، فلن يُلقوا بالًا لأي شيء ما دام العمل مستمرًّا لصالح الشركة». كان برونو محقًّا كالعادة. أما الآن، فقد كان العام 1977، وكارتر لا يزال في البيت الأبيض، في حين تستمر مفاوضات القناة الجدية. اختار الكثير من منافسي شركة ماين الجانب الخاطئ وانسحبوا من بنما، إلا أن أعمالنا تضاعفت في هذا البلد.

لكن في خضم تلك التطورات، تبادر إلى ذهني سؤال عاد بي إلى ذلك اليوم من عام 1972 حينما جلست على طاولة القهوة مع توريخوس. في ذلك الوقت، افترضت معرفة الجنرال بلعبة الديون الأجنبية الرامية إلى جعله ثَرِيًّا في مقابل إفقار بلده وتكبيلها بديون لا تنتهي. كنت واثقا بمعرفته بناء العملية برمتها على فرضية تقول بعرضة جميع رجال السلطة للفساد، وأن قراره عدم البحث عن منفعته الشخصية وإنما مساعدة شعبه عبر الدعم الأجنبي سيُنظر إليه كتهديد ربما يقود إلى انهيار منظومة قروضنا برُمَّتها. في واقع الحال، كان الرجل نَصْب عين العالم، في حين كان لأعماله تداعيات تتجاوز حدود بنما بكثير، وبالتالي سينظر إليها بمنظور الأهمية الكبيرة.

تساءلت في سري عن ردة فعل سلطة الشركات إذا ما ساعدت القروض الأجنبية فقراء بنما فعلا، ومن دون التحول إلى ديون يستحيل سدادها. ثم تساءلت إذا ما شعر توريخوس الآن بالندم على صفقته معي ذلك اليوم، فيما كنت مشوَّشًا ولم أعرف حقيقة شعوري حول تلك الصفقة. لقد تراجعت عن دور القاتل الاقتصادي، ولعبت لعبته عوضا عن لعبتي، وقبلت مساعدته بأمانة في مقابل عقود عمل أكثر. بمنظور اقتصادي بحت، كان قرار عمل حكيم من شركة ماين. إلا أن ذلك الوضع تعارض مع ما غرسته كلودين في داخلي، فهو لا يدفع الامبراطورية العالمية إلى الأمام. فهل أطلقت كلودين أبناء آوى للتحرك يا ترى؟

تذكرت الأفكار التي دارت في خَلَدي وأنا أغادر كوخ توريخوس المبني من طابق واحد ذلك اليوم، وأن تاريخ أميركا اللاتينية ملطخ بدماء أبطالها القتلى. لا يتعامل نظام مبني على إفساد الشخصيات العامة بلطف مع من يرفضون محاولات الإفساد تلك حتما.

بعد ذلك، وبحلول العام 1977، نجح توريخوس في مفاوضاته وعقد معاهدة جديدة مع الرئيس كارتر، معاهدة نقلت القناة ومسؤوليتها إلى السيطرة البنمية. بعد ذلك، تعيّن على البيت الأبيض إقناع مجلس الشيوخ بالتصديق عليها، الأمر الذي أشعل نيران معركة شاقة وطويلة. صَدَّق مجلس الشيوخ على معاهدة القناة بفرق صوت واحد في خاتمة المطاف، لكن المحافظين أقسموا على الانتقام.

20

الشاهنشاه، ملك ملوك إيران

بين الأعوام 1975 و1978، تكررت زياراتي إلى طهران لمرات عديدة. تنقلت أحيانا ما بين أميركا اللاتينية وإندونيسيا وطهران. مثَّل الشاهنشاه (ويعني لقبه الرسمي بالفارسية «ملك الملوك») وضعا مختلفا تماما عما عايشناه في الدول الأخرى التي عملنا فيها.

تُعَدُّ إيران دَولةً غنية بالنفط كما هو الحال مع العربية السعودية، وبالتالي فهي ليست بحاجة إلى الاقتراض بغية تمويل قائمة مشاريعها الطَّمُوحة. لكن إيران اختلفت إلى حد كبير عن العربية السعودية بضخامة عديد سكانها، فضلًا عن كَوْنها بلَدًا غير عربي على الرغم من إسلامها وشرق أوسطيتها. ويقلد شعب إيران المذهب الشيعي وليس السني، في حين لم تكن معظم النساء الإيرانيات يرتدين الحجاب. فضلًا عن ذلك، عاشت البلاد تاريخا من الاضطراب السياسي، سواء على المستوى الداخلي أو على مستوى علاقتها بجيرانها. لذلك، عمدنا إلى نهج مختلف. بحسب هذا الكلام، عملت واشنطن ومجتمع الشركات معًا على تحويل الشاه إلى رمز للتقدم. وفي هذا السياق، بذلنا جهودًا كبيرة في سبيل إقناع العالم بالنجاح الذي يمكن تحقيقه على يد زعيم ديمقراطي قوي صديق للشركات والمصالح الأميركية. بصرف النظر عن وضوح لقبه الرسمي غير الديمقراطي من جهة، والحقيقة الأقل وضوحا المتمثلة في تنسيق وتنفيذ وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية انقلابا ضد سلفه رئيس الوزراء الإيراني المنتخب ديمقراطيا، صممت واشنطن وشركاؤها الأوربيون على تقديم حكومة الشاه كبديل لحكومات العراق، وليبيا، وكوريا وباقي الدول الأخرى حيث يوجد تيار قوي وخفي من العداء لأميركا.

بالعودة إلى المظاهر، بدا الشاه صديقًا تقدُّميًّا لمواطنيه ذوي الامتيازات الضعيفة. أطلق الرجل عام 1963 ما يُعرف بالثورة البيضاء التي اشتملت على أجندة موسعة من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية. في الوقت ذاته، طورت إيران واحدًا من أقوى الجيوش العسكرية بين دول الشرق الأوسط المسلم.[59]

انخرطت شركة ماين بجملة من المشاريع التي غطت معظم أرجاء إيران، من المناطق السياحية على ساحل بحر قزوين الشمالي إلى المنشآت العسكرية السرية التي تشرف على مضيق هرمز جنوبا. تركزت جهودنا على تصميم الأنظمة الكهربائية لتجهيز الوقود اللازم لنمو القطاعات العسكرية، الصناعية، والتجارية، إلى جانب فعل كل ما يلزم لتحقيق الأرباح الكبيرة لشركة ماين وباقي الشركات الأميركية الأخرى.

بدت إيران على السطح نموذجا للتعاون المسيحي ـ الإسلامي، إلا أني عرفت مبكرًا أن مظاهر الهدوء والسكون قد تُخفي حنقًا وغضبًا عميقًا تحت السطح.

في وقت متأخر من مساء أحد الأيام عام 1977، عدت إلى غرفة فندقي لأجد ملاحظة مرمية تحت الباب. شعرت بالصدمة البالغة حينما اكتشفت أن الورقة ممهورة بتوقيع شخص يدعى يامن. لم ألتَقِ ذلك الشخص من قبل قط، إلا أني سمعت عنه من خلال اللقاءات والنقاشات الحكومية كشخص راديكالي مخرب. تضمنت الملاحظة دعوة لي للحضور إلى مطعم محدد. لكن الملاحظة حملت تحذيرًا يقول: «لا تتجشم عناء المجيء ما لم تكن مهتَمًّا في استكشاف جانب من إيران لم يسبق لمن (مثلك) رؤيته من قبل».

أوصلتني سيارة الأجرة أمام واجهة ضيقة لجدار مرتفع، مرتفع إلى الحد الذي لا يمكن رؤية البناء من خلفه. قادتني امرأة إيرانية إلى الداخل عبر ممر مضاء بمصابيح زيتية معلقة على سقف منخفض. كانت الجدران مزينة بأحجار شبه كريمة وبعض أمهات اللؤلؤ. كان المكان مضاءً بشموع بيضٍ معلقة على ثريات برونزية مصممة على نحو معقد.

اقترب مني رجل طويل القامة بشعر أسود، يرتدي بِذْلَةً زرقاء اللون، وصافحني. قدم الرجل نفسه باسم «يامن»، وبلهجة تدل على تعليمه البريطاني. بدا الرجل بعيدا كل البعد عن وصف الراديكالي المخرب. وجهني الرجل لتجاوز بضعة طاولات حيث يجلس بعض الأزواج لتناول الطعام في كوة بالغة الخصوصية، وأكد لي أن في وسعنا الكلام بكل ثقة. تكوّن لدي ذلك الانطباع بأن هذا المطعم يلبي متطلبات اللقاءات السرية. ولربما كان لقاؤنا السري غير العاطفي الوحيد بين كل اللقاءات التي ضمها المطعم تلك الليلة.

بدا واضِحًا إبان نقاشنا أن يامن رأى بي مجرد مستشار اقتصادي وحسب، وليس شخصًا ذا دوافع خفية. وأوضح الرجل لي أنه خصني بهذا اللقاء بحكم تجربتي كمتطوع في فيالق السلام، وأني انتهز كل فرصة ممكنة بهدف معرفة البلاد والاختلاط بأهلها.

قال يامن: «إنك رجل شاب جدًّا بالمقارنة مع من هم في ميدان تخصصك»، وأضاف: «لديك اهتمام حقيقي بتاريخنا ومشكلاتنا الحالية. أنت أملنا الآن».

سألني يامن عما يُعرَف بمشروع الصحراء المزهرة.[60] قال: «يعتقد الشاه أن صحراءنا كانت سهولًا خصبة وغابات غَنَّاء، أو هكذا يدعي على أقل تقدير. بحسب نظريته، مرت الجيوش الضخمة في حقبة الإسكندر المقدوني ومعها الملايين من الأغنام والماعز التي اكتسحت الأرض وأكلت كل النباتات والمزروعات. تسبب ذلك بجفاف كبير حوّل الأرض إلى صحراء. والآن لا يتطلب الأمر، أو كما يقول الشاه، إلا زراعة الملايين والملايين من الأشجار وحسب. بعد تلك المعزوفة، ستعود الأمطار وتزهر الصحراء من جديد. ولا شك أننا سننفق مئات الملايين من الدولارات في هذه العملية». ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، وقال: «ولسوف تجني شركات كشركتكم أرباحا هائلة».

وأضاف: «أرى أنك لست مقتنعا بهذه النظرية».

قلت: «تعد الصحراء رمزا. وإن تحويلها إلى بقعة خضراء يتطلب ما هو أكثر من مجرد الزراعة».

تجمع حولنا عمال المطعم يحملون صحونا جميلة من المأكولات الإيرانية الشهية. قال: «هل لي بسؤالك يا سيد بيركنز، وتقبّل جرأتي؟ ما الذي دمر ثقافات الهنود، سكان بلدكم الأصليين؟».

أجبته بأن هناك العديد من العوامل، بما فيها الجشع والأسلحة المتفوقة.

«نعم، كل ما ذكرت. لكن الأهم من كل ذلك، ألم يأتِ هذا بالدمار على البيئة؟»، واستمر بالشرح عن الدمار الذي لحق بالغابات والحيوانات من أمثال الجاموس، وبمجرد انتقال الناس إلى المحميات الجديدة، تنهار أسس الثقافات كليا.

ثم قال: «يتكرر الأمر هنا الآن كما ترى. يهدد مشروع الصحراء المزهرة بتدمير كل شيء ضمن نسيجنا العام. فكيف لنا السماح بحدوثه؟».

قلت له إن فهمي العام عن الفكرة بمجملها مبنيٌّ على ولادة المشروع من رحم الشعب. رد الرجل بضحكة متهكمة قائلا: «تلك فكرة زرعتها حكومة الولايات المتحدة في رأس الشاه، ذلك الملك الدمية».

ثم قال: «إن فارِسيًّا حقًّا ما كان ليسمح بشيء كهذا أبدًا». بعدها، شرع الرجل بأطروحة طويلة حول العلاقة ما بين الشعب ـ البدو ـ والصحراء. وشدد على قضاء العديد من سكان إيران الحضر عطلهم في الصحراء، حيث ينصبون فيها خياما كبيرة بما يكفي لكامل العائلة. وأضاف: «إننا ـ شعبنا ـ جزء من الصحراء. أما الناس الذين يزعم الشاه حكمهم بقبضة من حديد ليسوا من الصحراء في شيء. نحن الصحراء».

وحدثني عن تجاربه الشخصية في الصحراء. وبحلول نهاية المساء، رافقني الرجل حتى سيارة الأجرة التي كانت بانتظاري خارجا. وتطرق إلى شبابي وانفتاحي من جديد، وأن وجودي في منصبي منحه الأمل بالمستقبل.

قال: «إني سعيد جدا بالوقت الذي قضيته مع رجل مثلك». استمر الرجل مصافِحًا يدي وأضاف: «أستميحك العذر في طلب معروف آخر، ولا أطلب شيئا كهذا باستخفاف أبدًا. إلا أني أقول هذا لأن الوقت الذي قضيناه معًا هذه الليلة سيعني لك شيئًا بالتأكيد. ولسوف تكسب الكثير من ورائه. أود تقديمك إلى صديق لي، صديق بوسعه إخبارك الكثير عن ملك ملوكنا. ولربما سيصدمك ما يقوله الرجل، إلا أني أضمن لك أن لقاءه يستحق العناء والوقت بحق».

21

اعترافات رجل معذَّب

بعد مضي بضعة أيام، قادني يامن عبر شوارع طهران وصولا إلى منطقة فقيرة من مدن الصفيح المغبرة، وعبر طريق قديم تسلكه الإبل وصولا إلى حافة الصحراء. مع مشهد غروب الشمس، أوقف الرجل سيارته وسط مجموعة من الأكواخ الطينية المحوطة بأشجار النخيل.

قال الرجل: «إنها واحة ضاربة في القدم». قادني الرجل حتى وصلنا أحد الأكواخ وقال: «يحمل الرجل الموجود داخل الكوخ شهادة دكتوراه من واحدة من أرفع جامعاتكم المرقومة. ولأسباب ستتضح لاحقا، لا بد من الحديث عنه دون الكشف عن اسمه. بوسعك مناداته بالدكتور».

طرق يامن على باب الكوخ الخشبي قبل مجيء رد بصوت مكتوم. دفع يامن الباب ودخل. كانت الغرفة بلا نوافذ، ومضاءة بمصباح زيتي على طاولة منخفضة في الزاوية. بدأت ملامح الرجل المخفية بالظهور بعد جلوسه أمام المصباح الزيتي بطريقة أبقت تفاصيله مخفية. لا يسعني القول سوى أنه التف ببطانية ووضع شيئا فوق رأسه. جلس الرجل على كرسي مدولب. وفيما عدا تلك الطاولة والكرسي المدولب، لم يكن هنالك من أثاث في الغرفة. أشار لي يامن للجلوس على سجادة مفروشة على الأرض، ثم توجه لمعانقة الرجل برقة قبل إخباره ببضعة كلمات في أذنه. جلس يامن إلى جواري.

قال يامن: «لقد حدثتك عن السيد بيركنز، وأن من دواعي اعتزازنا إتاحة هذه الفرصة للقائك سيدي».

رد الرجل بصوت منخفض أجَشّ، وبلكنة استحال علَيَّ تمييزها قائلا: «على الرحب والسعة يا سيد بيركنز». وجدت نفسي أتكئ إلى الامام لأختصر المسافة القصيرة التي فصلت بيننا. قال الرجل: «أمامك رجل مكسور أيها السيد. لكنني لم أكن كذلك دوما. كنت رجلا قوي البنية مثلك

تماما. كنت مستشارا مقربا وموثوقا للشاه». سكت الرجل لبرهة طويلة، برهة اختزلت زمنا ماضيا طويلا على ما يبدو. وبنبرة عبّرت عن الحزن أكثر من الغضب، قال «إنه الشاهنشاه، ملك الملوك».

استمر الرجل: «أعرف العديد من زعماء العالم شخصيا. آيزنهاور، ونيكسون، وديغول. لقد وثقوا بي للمساعدة في قيادة هذه البلاد نحو المعسكر الرأسمالي. وثق الشاه بي ووثقت به. وكنت مقتنعا بأن إيران ستقود العالم الإسلامي نحو عصر جديد».

استدار الكرسي المدولب ببطء. أمكن لي رؤية وجه الرجل من الجانب، لحيته الكثة، ومن ثم استغربت التسطيح في وجهه. كان وجه الرجل مجدوعا بلا أنف! ارتجفت للمنظر وخنقتني الشهقة.

قال الرجل: «ليس منظرا جميلا يا سيد بيركنز، أليس كذلك؟ من المؤسف أنك لا تستطيع رؤيته بالكامل. إنه لمنظر بشع بحق. لكنني واثق أنك ستُقَدِّر الآن ضرورة بقاء اسمي سرًّا. بوسعك البحث عن هويتي بكل تأكيد، على الرغم من أنك قد تصطدم باكتشاف أني رجل ميت. عادَ لا يكون لي من وجود رسميًّا، لكني أثق بأنك لن تحاول البحث عني. ومن مصلحتك أنت وعائلتك أن لا تنبش بحثا عن اسمي، فذراع الشاه وجواسيسه في جهاز السافاك يصلون إلى كل مكان».

عاد الكرسي إلى الزاوية التي كان فيها. شعرت بشيء من الارتياح، كما لو أن عدم رؤية جانب وجه الرجل أخفى على نحو ما ذلك العنف الذي حصل له. في ذلك الوقت، لم يكن لدي دراية بهذا التقليد ما بين بعض الثقافات الإسلامية. يعاقب الأفراد الذين يعدون مسببين للعار في أوساط مجتمعاتهم أو زعمائهم بقطع أنوفهم. لذلك، يحمل هؤلاء ما يميزهم جراء العار الذي تسببوا به مدى الحياة، كما برهن وجه هذا الرجل بوضوح.[61]

قال الرجل: «أنا واثق، يا سيد بيركنز، أنك تتساءل عن سبب دعوتنا لك هنا». ومن دون انتظار ردّي، استرسل الرجل قائلا: «كما ترى، فإن هذا الرجل الذي يسمي نفسه ملك الملوك ليس في حقيقته سوى شيطان وحسب. أطاحت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بوالده بمساعدتي، تلك الحقيقة التي أكره الإقرار بها، وذلك لأنهم اتهموه بالتعاون مع النازية. ومن ثم جاءت محنة مصدق. واليوم، ها هو «شاهنا» على طريق تجاوز هتلر ما بين ممالك الشر. وهو يقوم بذلك مدركا تماما وجود الدعم من جانب حكومتكم».

سألت «لم ذلك؟».

رد الرجل: «ببساطة شديدة، لأنه حليفكم الحقيقي الوحيد في الشرق الأوسط، ولأن العالم الصناعي يدور حول محور النفط الموجود في الشرق الأوسط. صحيح أن لديكم إسرائيل، لكن ذلك البلد عبء عليكم أكثر منه ميزة. ثمّ لا وجود للنفط في إسرائيل. أما سياسيوكم فهم بحاجة إلى استرضاء اليهود بغية الحصول على أصواتهم وأموالهم لتمويل الحملات الانتخابية. لذلك، أخشى أنكم عالقون مع إسرائيل. في مقابل ذلك، يبدو الحل في إيران. تحتاج إلينا شركاتكم النفطية، فيما تحتاجون أنتم إلى شاهنا، أو هكذا تتصورون، كما تصورتم حاجتكم إلى حكام فيتنام الفاسدين».

قلت: «وهل ترى في إيران مكافئا لفيتنام؟».[62]

رد الرجل: «بل ربما كان الأمر أسوأ. كما ترى، لن يطول بقاء الشاه أكثر، والعالم الإسلامي يكرهه. ولا أقول إن العرب يكرهونه وحسب، بل المسلمون في كل مكان، من إندونيسيا إلى الولايات المتحدة. لكن الكره الأكبر للشاه يتركز هنا، ما بين أبناء الشعب الفارسي». في تلك اللحظة، سمعت صوت طقطقة خفيفة وأدركت أنه صدم جانب كرسيه المدولب بشيء ما.

قال الرجل: «إنه الشر المتجسد، ونحن الفرس نمقته بشدة».

خيم الصمت على الأجواء. لم يكن بوسعي سوى سماع صوت الأنفاس الثقيلة، كما لو استنزف الجهد الكبير الرجل بشدة.

بصوت خافت وهادئ، قال يامن: «الدكتور مقرب من الملالي»، وأضاف: «يوجد تيار خفي كبير ما بين الأجنحة الدينية، تيار يسود معظم أرجاء البلاد فيما خلا حفنة قليلة من الناس ضمن الطبقات التجارية من المستفيدين من رأسمالية الشاه».

قلت: «ليس لدي شك فيما قلت، إلا أنه يتعين علي القول إني، وعبر أربع زيارات قمت بها إلى هنا، لم أشهد شيئا مما ذكرت. يعبر جميع من حدثتهم عن مشاعر الحب تجاه الشاه، ومشاعر التقدير إزاء الفورة الاقتصادية التي تعم البلاد».

عقّب يامن قائلا: «أنت لا تتحدث الفارسية، ولذلك أنت لا تسمع إلا ما يراد لك سماعه من جانب أكثر المستفيدين من هذا الوضع. لقد انتهى الحال بمن درسوا في الولايات المتحدة وبريطانيا للعمل لصالح الشاه. وها هو الدكتور أمامك استثناء الآن».

توقف الرجل عن الكلام وبدا أنه يبحث عن كلماته اللاحقة، ثم قال: «لا يختلف الأمر مع صحافتكم كذلك، فهم لا يتكلمون إلا مع القلة ممن ينتمون إلى حلقة أقارب الشاه أو المقربين منه. وبطبيعة الحال، يتحكم النفط بتلك الصحافة، الأمر الذي يجعلها تسمع ما تريد سماعه وتكتب ما يريد معلنوها نشره».

بصوت أكثر تعبا، قال الدكتور: «لماذا نقول لك كل هذا الكلام يا سيد بيركنز؟».

عاد ليجيب بنفسه: «لأننا نريد إقناعك كي تقنع شركتك بالبقاء بعيدا عن بلادنا. إننا نريد تحذيرك من أنك وإنْ تصوَّرْتَ إمكانية جني الكثير من المال هنا، فإن هذا محض خيال وحسب. لن تستمر هذه الحكومة. وتأكد أنها حينما تذهب، لن يكون لمن يخلفها أي تعاطف مع أمثالك».

سألت: «هل تقصد أننا لن نحصل على مستحقاتنا؟».

انهار الرجل في نوبة من السعال. وعندما توقف السعال، تكلم مع يامن بالفارسية.

قال لي يامن: «لا بد لنا من إنهاء هذا الحديث»، وأضاف: «ردًّا على سؤالك، لن تحصل على مستحقاتك. ستقوم بكل العمل المَنُوط بك. وحينما يحل موعد قطف الثمار، سيكون الشاه قد رحل».

في أثناء طريق عودتنا، سألت يامن عن سبب رغبته، هو ومعه الدكتور، في تجنيب شركة ماين الكارثة المالية التي توقعها؟

قال: «سنكون سعداء برؤية إفلاس شركتكم، إلا أننا نفضل رؤيتكم ترحلون عن إيران. إن رحيل شركة كشركتكم عن بلادنا كفيل بفتح الباب، وهذا ما نأمله. كما ترون، فنحن لا نريد حمامات دماء هنا، غير أنه لا بد من رحيل الشاه. لذلك، سنقوم بكل ما يلزم من أجل تحقيق هذه الغاية. ولسوف ندعو الله أن تقنع مديرك السيد زامبوتي بالخروج من هنا ما دام هناك متسع من الوقت!».

22

سقوط ملك

مساء أحد الأيام من عام 1978، وحينما جلست وحيدا في المشرب الفخم لقاعة انتظار فندق الإنتركونتينينتال في طهران، أحسَسْتُ بيَدٍ تُرَبِّت على كتفي. التَفَتُّ إلى الوراء لأجد رجلا إيرانيا بَدِينا يرتدي بذلة رجال الأعمال. قال الرجل: «سيد جون بيركنز، ألا تذكرني؟».

على الرغم من اكتسابه الكثير من الوزن، لم تكن أذني لتخطئ صوت لاعب كرة القدم السابق. لقد كان صديقي الإيراني القديم من كلية ميدلبيري، فرهاد، ذلك الصديق الذي لم أره منذ أكثر من عقد من الزمن. تعانقنا وجلسنا معًا. بدا واضحا منذ البداية معرفة فرهاد لكل شيء عني وعن عملي. كما كان واضحا كذلك أنه لم يرغب في مشاركتي أي شيء بخصوص عمله هو. قال لي فرهاد إن شيئا «خطيرا» على وشك الحصول، وإن من مسؤوليته تأكُّد مغادرتي البلاد. في تلك اللحظة، فهمت أن فرهاد يعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية أو ربما وكالة استخبارية أميركية أخرى.

قال: «فلندخل في صلب الموضوع على الفور. سأغادر بالطائرة إلى روما يوم غد، حيث يعيش والداي، وقد حجزت لك تذكرة معي». مد الرجل يده في جيبه وناولني تذكرة طيران. لم أشعر بشك تجاهه لوهلة، إلا أني كنت مكَلَّفًا بعمل أقوم به. لكنني فهمت جزئيًّا من هذا الكلام ضرورة بقائي بعيدًا عن المتاعب، وعلى قيد الحياة.

توجهنا إلى روما حسب الموعد، وتناولنا طعام العشاء مع والديه. أعرب والد فرهاد، وهو جنرال إيراني سابق وقف أمام الشاه الشاب لإنقاذ حياته من طلقة سلاح أطلقها شخص أراد اغتياله، أعرب عن خيبة أمل واضحة في رئيسه السابق. قال الجنرال المتقاعد بأن الشاه كشف عن معدنه الحقيقي خلال السنوات الماضية، وظهرت حقيقة غطرسته وجشعه. وأنحى الجنرال باللائمة على السياسة الأميركية، لا سيما دعمها إسرائيل والزعماء الفاسدين والحكومات المستبدة، حيث تسببت

هذه السياسة بنشر روح الكراهية عبر أرجاء الشرق الأوسط، وتوقع زوال حكم الشاه في غضون أشهر قليلة.

وأضاف: «هل تعلم أنكم زرعتم بذرة التمرد في الخمسينيات حينما عمدتم إلى الإطاحة بمصدق. كان تخطيطكم وتنفيذكم في منتهى الذكاء آنذاك، لكن الأمر عاد ليرتد عليكم الآن، وعلينا».[63]

أذهلني كلام والد فرهاد، ذلك الكلام الذي لم يسبق لي سماع شيء يشبهه فيما خلا يامن والدكتور، إلا أن صدور رأي كهذا من هذا الرجل بدا أمرًا مختلفًا وذا دلالة. في ذلك الوقت، كان الجميع على معرفة بوجود تيار الإسلام الأصولي تحت الأرض، إلا أننا أقنعنا أنفسنا بشعبية الشاه بين غالبية أبناء شعبه، وبالتالي منعته السياسية الحتمية. لكن الجنرال بدا مصمِّمًا على رأيه.

قال الرجل بمهابة: «احفظ كلماتي جيدا، لن يكون سقوط الشاه إلا البداية وحسب. لكن هذا السقوط يمثل استعراضًا مسبقًا لوِجهة العالم الإسلامي. لقد دُفِن غضبنا تحت الرمال طويلا، ولسوف ينفجر هذا الغضب قريبا».

أثناء ذلك العشاء، سمعت الكثير عن آية الله روح الله الخميني. أعرب فرهاد ووالده عن موقف رفض واضح لتشيعه المتشدد، لكن الاثنين أبديا إعجابهما بنجاحاته ضد الشاه. وقالا لي إن ذلك الرجل الذي يعني اسمه «الملهم من الله» ولد لعائلة كرست نفسها للدراسات الدينية في قرية بالقرب من طهران عام 1902.

أوضح الخميني بلا لبس أنه لن يتورط بصراعات الشاه مصدق بداية خمسينيات القرن الماضي، إلا أنه عارض الشاه بقوة ونشاط في الستينيات منه وانتقده بإصرار وشدة حتى نُفي إلى تركيا، ومن ثم إلى مدينة النجف الشيعية المقدسة في العراق، حيث بات الزعيم المعترف به للمعارضة الإيرانية. بعث الإمام الخميني برسائل، ومقالات، وأشرطة مسجلة يحث بها الإيرانيين على الثورة والإطاحة بالشاه بغية خلق دولة دينية.

بعد يومين من العشاء مع فرهاد ووالديه، تواردت الأنباء عن تفجيرات وأعمال شغب في إيران. بدأ آية الله الخميني والملالي هجومهما الذي سيتمخض عن الانتصار وإحكام السيطرة على إيران قريبا. تسارعت الحوادث إثر ذلك. انفجر الغضب الذي وصفه والد فرهاد على شكل ثورة

إسلامية عنيفة. غادر الشاه بلاده هاربا إلى مصر في كانون الثاني العام 1979، ومن ثم شُخّصت حالة إصابته بالسرطان، لينتقل إلى مستشفى بنيويورك بهدف العلاج.

طالب أتباع الخميني بإعادة الشاه. اقتحمت في شهر تشرين الثاني من العام 1979 مجموعة مليشياوية إسلامية مقر السفارة الأميركية في طهران واحتلتها لتحتجز اثنين وخمسين أميركيا رهائن لفترة 444 يوما.[64] سعى الرئيس كارتر إلى التفاوض من أجل إطلاق سراح المحتجزين. وحينما فشلت المفاوضات، وافق الرئيس على تنفيذ عملية إنقاذ عسكرية في نيسان العام 1980. انتهت العملية إلى كارثة، وتحولت إلى ما يوصف بالمطرقة التي دقت المسمار الأخير في نعش رئاسة كارتر.

في سياق متصل، مارست الجماعات السياسية والتجارية الأميركية ضغوطا هائلة في سبيل ترحيل الشاه إلى خارج الولايات المتحدة. منذ يوم رحيله عن طهران، واجه الملك المخلوع صعوبات بالغة في إيجاد ملاذ آمن يحميه، لا سيما وأن جميع أصدقائه تجنبوه. لكن الجنرال توريخوس أعرب عن تعاطفه المعتاد وعرض منح الشاه اللجوء في بنما، بصرف النظر عن كرهه الشخصي لسياسات الشاه. وصل الشاه وحصل على الملاذ الآمن في المنتجع ذاته الذي أجريت فيه مؤخرا مفاوضات معاهدة القناة.

طالب الملالي بتسليم الشاه في مقابل إطلاق سراح المحتجزين في السفارة الأميركية. من جانبهم، اتخذ معارضو معاهدة القناة في واشنطن موقفا هجوميا ضد توريخوس الذي اتهموه بالفساد والتعاون مع الشاه، وبالتالي تعريض أرواح مواطنين أميركيين للخطر. وطالب أولئك المعارضون بتسليم الشاه إلى آية الله الخميني. ومن المفارقات أن العديد من أولئك المعارضين لتوريخوس كانوا قبل أسابيع قليلة من أشد أنصار الشاه ومؤيديه. في خاتمة المطاف، رُحِّل ملك الملوك الذي كان متغطرسا يوما إلى مصر، وتوفي هناك متأثرا بالسرطان.

تحققت نبوءة الدكتور، وخسرت شركة ماين ملايين الدولارات في إيران مثلما خسر الكُثُر من منافسينا الأميركيين كذلك. وخسر كارتر معركة إعادة انتخابه، في مقابل انطلاق مسيرة إدارة ريغان ـ بوش إلى واشنطن العاصمة، حاملة معها الوعود بتحرير المحتجزين، وإسقاط الملالي، وإعادة الديمقراطية إلى إيران، فضلا عن تصحيح وضع قناة بنما الذي تغير إثر المعاهدة الجديدة.

بالنسبة إليّ، بدت الدروس واضحة ولا تقبل الجدال. لقد برهنت إيران بما لا يترك مجالا للشك أن الولايات المتحدة كانت أمة تنكر حقيقة دورنا وما نقوم به في العالم. لقد بدا أمرا غير مفهوم مطلقا أننا كنا مُضَلّلين إلى هذا الحد عن الشاه وموجة الكره المتصاعدة ضده. ولا يختلف الأمر في حقيقته عن جهل أناس مثلنا في شركات كشركة ماين حيث توفرنا على مكاتب وموظفين في هذه البلاد، إلا أننا كنا نجهل كل شيء حتما. ربما رأت وكالة الأمن القومي الأميركي ومعها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بوضوح ما كان واضحا أصلا لتوريخوس حينما التقيته عام 1972، إلا أني لسبب ما لم أفهم ما يحصل قطّ. لقد شجَّعَنَا مجتمع استخباراتنا على إغلاق عيوننا عمدا.

23

كولومبيا: حجر الأساس لأميركا اللاتينية

بينما أوجدت حالات العربية السعودية وإيران وبنما دراسات مربكة ومثيرة للاهتمام على حد سواء، فإنها برزت كذلك كاستثناءات عن القاعدة، فبحسب مخزونات النفط السعودية والإيرانية الهائلة مع وجود القناة في بنما، مثلت تلك الدول الثلاث استثناءً للقاعدة العامة. في مقابل ذلك، كان وضع كولومبيا تقليديا، حيث تولت شركة ماين الدور الأساس في تصميم وإنشاء شبكة توليد الطاقة الكهربائية عبر السدود هناك.

ذات مرة قال لي أستاذ جامعي كولومبي إن تيدي روزفلت وصف كولومبيا بأنها تمثل «الحجر الأساس لقوس أميركا الجنوبية». على الخريطة، تقع كولومبيا في أقصى قمة القارة، كما لو أنها تجمع كامل القارة اللاتينية معا. لما يقرب من قرنين من الزمن، نظرت الولايات المتحدة إلى كولومبيا كبوابة دخول إلى نصف الكرة الأرضية الجنوبي، سواء سياسيًّا أو على صعيد العمل.

تتمتع كولومبيا بقدر عظيم من الجمال الطبيعي، ذلك الجمال الموزع ما بين شطآن النخيل الخلابة، والجبال الساحرة، و«سهوب» رائعة توازي سهول أميركا الشمالية في جمالها، فضلا عن غابات مطيرة شاسعة وغنية بتنوعها البيولوجي.

لعبت كولومبيا دورًا حاسمًا في تاريخ أميركا اللاتينية. إبان الحقبة الاستعمارية، كانت البلاد مقرا لنائب الملك الإسباني لجميع المقاطعات الشمالية التابعة للمملكة الإسبانية من بيرو إلى جنوب كوستاريكا. ولفترات طويلة من التاريخ، أبحرت أساطيل الذهب المتجهة إلى إسبانيا من ميناء كارتاخينا الكولومبي، ووقعت الكثير من الحوادث الحاسمة ضمن حروب الاستقلال في كولومبيا.

أما في العصر الحديث، فقد أنتجت كولومبيا بعضا من ألمع الكتاب، والفنانين، والفلاسفة اللاتينيين، إلى جانب بعض من أفضل الحكومات المسؤولة ماليا وديمقراطيا إلى حد ما. وعلى النقيض من العديد من الدول الأخرى، بما فيها دول قوية كالبرازيل والأرجنتين، تمتعت كولومبيا

بسمعة الحليف الأميركي الموثوق، بصرف النظر عن عيبها المتمثل في وجود ونشاط عصابات المخدرات.[65]

لكن كل أمجاد التاريخ الكولومبي تقابلها صور من الكراهية والعنف. فمقر نائب الملك الإسباني كان موطنا لما يشبه «محاكم التفتيش». بنيت الحصون الرائعة، والمزارع، والمدن باستخدام العبيد من الهنود والأفارقة، ودُمّرت ثقافات أصلية بسيوف «المفتشين» والأوبئة. أما في الأزمنة المتأخرة، فقد أدت الثورات، ومهربو المخدرات، والجماعات المسلحة المعادية للحركات البيئة والسكان الأصليين، ومعدلات الفقر المرتفعة، والفجوة الكبيرة بين الأقلية الغنية والأغلبية الفقيرة ـ أدت إلى معاناة كبيرة وأعداد لا تحصى من الوفيات.

بصرف النظر عن كل الجوانب السلبية، ترى واشنطن ومعها وول ستريت كولومبيا ضرورية للاقتصاد الأميركي. من جهة، تمثل كولومبيا مصدرًا للعديد من المنتجات المستهلكة في الولايات المتحدة كما في القهوة، والموز، والأنسجة، والأحجار الكريمة، والزهور، والنفط، والكوكايين. ومن جهة ثانية، يمثل هذا البلد سوقا لمنتجاتنا وخدماتنا.

تعد الخبرات الهندسية والإنشائية من بين أهم الصادرات الأميركية التي توجهت إلى كولومبيا في فترة نهاية القرن العشرين. كان هذا البلد نموذجيا بالقياس إلى العديد من الأماكن التي عملت فيها ولا شك. وكان من السهل نسبيًّا برهنة تَحَمُّل الدولة لديون ضخمة ومن ثم إعادة تسديدها مع فوائدها من خلال ما تحققه مشاريع الموارد الطبيعية في البلاد. ولسوف تقود الاستثمارات الضخمة في ميادين شبكات الطاقة الكهربائية، والطرق السريعة، والاتصالات التي فتحت الأبواب أمام استغلال احتياطيات النفط والغاز الهائلة في مناطقها الأمازونية غير المطورة، إلى خلق العوائد المالية المطلوبة لسداد القروض وفوائدها.

كانت تلك النظرية. لكن الحقيقة المتسقة مع نياتنا الفعلية عبر العالم لم تكن سوى إخضاع بوغوتا، وإقحامها في فلك الامبراطورية العالمية أكثر. تمثل عملي، كما كان في العديد من الأماكن، بصناعة قضية محبوكة تبرر منح قروض ضخمة للغاية.

مع استثناء بعض نوبات الشعور بالذنب العرضية التي انتابتني في أثناء العمل، باتت كولومبيا بمثابة ملجأ شخصي لي. سبق وقضيت، أنا وآن، بضعة أشهر هناك بداية سبعينيات القرن

الماضي، ودفعنا دفعة مقدمة عن شراء مزرعة قهوة صغيرة على أحد الجبال الكولومبية المطلة على ساحل الكاريبي. لكن الألم الذي سببته لآن خلال السنين الماضية انغرس في أعماقها بشدة. ازدادت الفجوة ما بيننا، ولم أتعرف هذه البلاد إلا بعد نهاية ذلك الزواج.

افتتحت مكتبا في مدينة بارانكويلا الساحلية عام 1977، وهناك التقيت امرأة كولومبية جذبتني حينها على الفور، امرأة تحولت إلى عامل قوي في تغيير مسار حياتي.

كانت باولا ناشطة سياسية بشعر طويل أشقر وعينين خضراوين مذهلتين، وبصورة جمال لا يتوقعه معظم الأجانب عن كولومبيا. هاجر والدا باولا من شمال إيطاليا. وبغية الحفاظ على تراثها الأصلي، عملت باولا كمصممة أزياء. خطت باولا خطوة إضافية إلى الأمام وافتتحت معملا صغيرا حولت فيه تصاميمها إلى ملابس فعلية باعتها لاحقا في المتاجر الراقية عبر أرجاء البلاد فضلا عن تصديرها إلى بنما وفنزويلا. كانت باولا امرأة عطوفة للغاية وساعدتني على تخطي بعض الصدمات الشخصية الناجمة عن انهيار زواجي، ثمّ إنّ باولا عرَّفتني الكثير عن عواقب عملي.

كما أشرت في وقت سابق، فإن الحياة ليست سوى سلسلة من المصادفات التي لا سيطرة لنا عليها. بالنسبة إليّ، تضمن هذا الكلام نشأتي في مدرسة ثانوية ريفية للذكور في مقاطعة هامبشاير، والتعرف إلى آن وعمها فرانك، وحرب فيتنام، فضلا عن علاقتي مع إينار غريف. لكن بمجرد حصول مصادفات كهذه، يتوجب علينا اتخاذ الخيارات. ولذلك، فإن كيفية استجابتنا، وطبيعة أفعالنا، هي التي تصنع الفرق. على سبيل المثال، قاد تفوقي الدراسي، وزواجي من آن، ودخولي فيالق السلام، عدا عن اختياري العمل كقاتل اقتصادي ـ قادت كلها إلى وجودي في مكاني الحالي من الحياة.

مثلت باولا صدفة أخرى، صدفة سيقود تأثيرها إلى تغيير مسار حياتي. حتى قابلتها، لطالما وجدت نفسي أتساءل عما أفعله، وأشعر بالذنب أحيانا، إلا أني دائما ما وجدت الوسيلة لـ«عقلنة» التوافق والاستمرار مع النظام. ربما ظهرت باولا في حياتي في الوقت المناسب. في واقع الحال، كان بوسعي الاستمرار وحسب، لا سيما أن تجاربي في العربية السعودية وإيران وبنما ستدفعني إلى العمل. لكن حتى مع يقيني بأن تأثير امرأة واحدة، تمثلت في كلودين، كان حاسما وأساسيا في إقناعي

بالتحول إلى قاتل اقتصادي، أيقنت كذلك أن عاملا مساعدا آخر تطلب بعض الوقت تمثل في باولا. لقد أقنعتني بالغوص في أعماق نفسي لأرى أني لن أجد السعادة أبدًا ما بقيت أقوم بهذا الدور.

24

الجمهورية الأميركية في مواجهة الامبراطورية العالمية

قالت باولا ذا يوم، إذ كنّا نجلس في أحد مقاهي مدينة بارانكويلا: «سأكون صريحة معك»، قالت: «يشعر الهنود والمزارعون الذين يعيشون على طول منطقة النهر بكره شديد لكم، ويتعاطف أولئك الناس الذين يعيشون في المدن ولا يعانون تأثيرات مباشرة، يتعاطفون مع الجماعات المسلحة التي تهاجم موقع عملكم الإنشائي. تطلق حكومة بلادكم على هؤلاء الناس تسمية الشيوعيين والإرهابيين، فضلا عن مهربي المخدرات، إلا أن الحقيقة لا تعدو كونهم أناسًا عاديين ينحدرون من عائلات تعيش في أراضٍ تدمرها شركتكم».

تحدثت إليها للتو عن مانويل توريس، وكان مهندسا وظفته شركة ماين وأحد الذين تعرضوا للهجوم على يد جماعات المسلحين في موقع عملنا الإنشائي على سد ألتوسينو. حصل مانويل الذي كان مواطنا كولومبيا على عمل جراء تعليمات وزارة الخارجية الأميركية التي تحظر علينا إرسال مواطنين أميركيين لموقع العمل، الأمر الذي يرمز إلى مفهوم سيئ يتعلق بقيمة «الأميركيين المتميزين» في مقابل سهولة استبدال الكولومبي ببديله. كان ذلك نوعا من الشعور بالكره تجاه الأجانب، شعورا كنت أكرهه على نحو متزايد. وصعّبت علي مشاعري إزاء سياسات عنصرية كريهة كهذه التعايش مع نفسي على نحو متزايد.

قلت لباولا: «بحسب مانويل، أطلق المسلحون نيران بنادقهم الكلاشنكوف في الهواء وتحت قدميه»، وأضافت: «بدا الرجل هادئا حينما أخبرني بالقصة، إلا أن الوضع كان هستيريا. لم يصب المسلحون أي شخص، لكنهم تركوا رسالة وانطلقوا أسفل النهر بقواربهم. سألت الرجل إذا ما كانوا من مقاتلي قوات كولومبيا الثورية المسلحة أو حركة التاسع عشر من نيسان الكولومبية المسلحة، وكلاهما من أسوأ الجماعات الكولومبية سمعة».

قالت: «ثم ماذا؟».

«قال إنهم لم يكونوا تابعين لأي من المجموعتين. إلا أنه أكد لي أنه يصدق ما أورده المسلحون في رسالتهم».

تناولت باولا الجريدة التي جلبتها معي وأخذت تقرأ الرسالة بصوت عال.

«نقسم بدماء أسلافنا، نحن الذين نعمل كل يوم من أيام حياتنا كي لا نتضور جوعا، أننا لن نسمح ببناء السدود على أنهارنا. نحن، وإنْ كنا هنوداً بسطاء وسكان هذه الأرض القدامى، فإننا نفضل الموت على الوقوف موقف المتفرج وأرضنا تُعَرَّض للغرق. ونحذر إخواننا الكولومبيين: توقفوا عن العمل في شركات البناء».

وضعت باولا الجريدة جانبا وقالت: «بِمَ أجبته؟».

قلت: «توجب علي الامتثال لتعليمات الشركة. سألته إذا ما اعتقد أنها كانت رسالة كتبها مزارع ربما».

نظرت إلي باولا بصبر.

قلت: «هز الرجل كتفيه»، التقت عيوننا وقلت: «أوه يا باولا، إني أحتقر نفسي للعب هذا الدور».

بنبرة تنم عن الضغط، قالت باولا: «وما الذي فعلته بعدها؟».

قلت: «ضربت المنضدة بقبضتي، وأرعبه ذلك. وسألته عما إذا بدا له أمرًا منطقيًّا حَمْلُ مزارعين بنادق كلاشنكوف. ثم سألته عمن اخترع الكلاشنكوف».

قالت: «وهل عرف فعلا؟».

قلت: «نعم، إلا أن صوت جوابه بالكاد سُمِع. قال إنهم الروس، وقد همس بذلك همسا. طمأنته أنه كان محقا، وقلت له إن المخترع كان شيوعيا يدعى كلاشنكوف، والذي كان ضابطا نال أوسمة عدة من الجيش الأحمر. كانت تلك طريقتي في إدارة الكلام كي أوصله إلى نقطة أن كتّاب الرسالة كانوا شيوعيين».

سألتني: «وهل تصدق ذلك؟».

استوقفني سؤالها. كيف يسعني الإجابة بصدق يا ترى؟ تذكرت لحظتها إيران ويامن الذي وصفني كرجل عالق بين عالمين، رجل في المنتصف. على نحو ما، تمنيت لو أني كنت في موقع العمل أثناء الهجوم، أو واحدا من أفراد المجموعة المسلحة ربما. انتابني شعور غريب، شيء من الغيرة تجاه يامن والدكتور والمتمردين الكولومبيين. لقد كانوا رجالًا أصحاب مبادئ وقناعات، واختاروا عوالم حقيقية لا أرضًا حرامًا ما بين العوالم.

في خاتمة المطاف، قلت لها: «لدي عمل أقوم به». ابتسمت باولا برقة وقالت: «عملاً أكرهه».

واصلت كلامي. استعدت خيالات الرجال الذين فكرت بهم كثيرا على مر السنين، رجال مثل توم باين وباقي أبطال الحروب الثورية الآخرين، فضلا عن القراصنة وسكان الحدود. لقد وقفوا جميعهم على خطوط التماس والمواجهة وليس في المنتصف. لقد اتخذوا مواقف، وإن كان بعضها وحشيًّا وأنانيًّا، وتعايشوا مع العواقب.

قلت: «يزداد كرهي لعملي يوما بعد يوم».

أمسكت باولا بيدي وقالت: «عملك؟».

التقت عيوننا واستمرت نظراتها. فهمت ما قصدته بالإشارة إلى عملي. كانت ترمي إلى «نفسي».

أمسكت باولا يدي وأومأت ببطء، في حين شعرت بشيء من الارتياح الفوري لمجرد الاعتراف بالحقيقة.

«ما الذي ستقوم به يا جون؟».

حرت جوابا. تحول شعور الارتياح إلى موقف دفاعي. تلعثمت ملتجئًا إلى التبريرات التقليدية المعتادة، وقلت إني أقوم بفعل الخير، وإني أبحث عن وسائل لتغيير النظام من الداخل، إلى جانب موقف البديل الجاهز المتمثل في أن المغادرة تعني شخصًا آخر أسوأ يأتي ليحل مكاني. لكن

من طريقة نظرتها إليّ، شعرت بعدم اقتناع باولا بما قلت. إلا أن الأسوأ من ذلك كان عدم اقتناعي أنا. دفعتني باولا إلى فهم الحقيقة الأساسية، حقيقة عدم وقوع اللوم على عملي، وإنما عليّ.

تكلمت أخيرا لأسألها: «وماذا عنكِ أنتِ؟ ماذا تعتقدين؟».

أطلقت حسرة صغيرة وتركت يدي متسائلة: «هل تحاول تغيير الموضوع؟».

أومأتُ برأسي.

أعربت عن موافقتها وقالت: «حسناً»، ثم تناولت ملعقة وبدت كما لو أنها تتفحصها. قالت: «أعرف عن تلقي بعض الجماعات المسلحة تدريباتها في روسيا والصين». أنزلت الملعقة في قدح القهوة بالحليب أمامها، وحركته ببطء قبل تذوقه. أضافت: «ما الذي بوسعهم فعله كذلك؟ يتوجب عليهم التدريب على الأسلحة الحديثة وكيفية محاربة الجنود الذين تدربوا في مدارسكم العسكرية. يبيع أفراد هذه المليشيات المخدرات أحيانا، وذلك بهدف توفير الأموال والإمدادات. وهل لديهم وسيلة أخرى لشراء السلاح يا ترى؟ إنهم يواجهون احتمالات رهيبة. ولا يساعدهم بنككم الدولي في حماية أنفسهم. في واقع الحال، يدفعهم هذا البنك إلى وضعهم هذا». ارتشفت باولا من قدح قهوتها. قالت: «إني مؤمنة بعدالة قضيتهم. لن تساعد الكهرباء سوى أقلية وحسب، أقلية تتمثل في الكولومبيين الأثرياء، في حين سيموت الآلاف جراء تسمم الأسماك والمياه بعد انتهائكم من بناء السد».

شعرت بشيء يدب في عروقي وأنا اسمع كلامها المفعم بالتعاطف مع أناس يختلفون معي، ويناهضوننا. وجدت نفسي أحك ذراعي بأظافري. سألتها بحيرة: «كيف لكِ معرفة كل هذا عن الجماعات المسلحة؟»، سألتها والشعور بالغرق يحاصرني، وانتابني هاجس كما لو أني لا أريد معرفة الجواب.

قالت: «ارْتَدْتُ الجامعة مع بعضهم». دفعت قدحها إلى الأمام مع بعض التردد، ثم أضافت: «وينخرط شقيقي في الحركة».

هكذا الأمر إذن. شعرت بفراغ شديد. تصورت أني أعرف كل شيء عن باولا، لكن اكتشاف هذا الشيء أشعرني كمن عاد إلى منزله ليجد زوجته مع رجل آخر في فراشه.

قلت: «لِمَ لمْ تخبريني بذلك من قبل؟».

قالت: «بدا أمرًا غير ذي صلة، ولم سأفعل ذلك؟ ثم إنه ليس بالأمر الذي أفخر به». سكتت لبرهة ثم قالت: «لم أره منذ عامين. لا بد أنه شديد الحذر».

قلت: «كيف لكِ التأكد أنه على قيد الحياة؟».

ردّت: «لا أعلم شيئا سوى وضع الحكومة اسمه مؤخرا ضمن قائمة المطلوبين. لا شك أنها علامة جيدة».

انتابني إحساس من الغيرة اللا عقلانية. سألتها: «كيف تأتّى له أن يكون واحدًا منهم؟»، أبقت عينيها على قدح القهوة لحسن الحظ، وقالت: «تظاهر أمام مكاتب إحدى الشركات النفطية، شركة أوكسيدينتال على ما أظن. احتَجَّ على أعمال الحفر في أراضي السكان الأصليين، وفي غابات قبائل تواجه الانقراض، ومعه عشرة من أصدقائه. هاجمهم الجيش، وضربهم، ومن ثم ألقى بهم في السجن لا لشيء غير قانوني فيما خلا وقوفهم خارج مبنى يلوحون ويرددون الشعارات». أشاحت باولا بنظرها ناحية نافذة قريبة وقالت: «بقي شقيقي في السجن لستة أشهر، ولم يخبرنا عما حصل معه قط، إلا أنه خرج من السجن شخصا مختلفا كليا».

لم يكن ذلك إلا الأول من بين أحاديث كثيرة مشابهة مع باولا، وأنا أدرك الآن كيف هيأت تلك الأحاديث المسرح لما سيأتي لاحقا. تمزقت روحي على الرغم من أنني بقيت خاضعا لتأثير محفظتي المالية ونقاط الضعف التي حددتها وكالة الأمن القومي في شخصيتي قبل أكثر من عقد مضى.

عبر دفعي إلى مواجهة مشاعري الدفينة من وراء الإعجاب بسحر القراصنة والمتمردين، ساعدتني باولا على المضي قدما على طريق الخلاص.

إلى جانب محنتي الشخصية، ساعدني الوقت الذي قضيته في كولومبيا على استيعاب الفرق ما بين المثل التي قامت عليها الجمهورية الأميركية من جهة، وتلك التي ترتكز عليها الامبراطورية العالمية الجديدة من جهة أخرى.

بعث الجانب المثالي من الجمهورية بالأمل في العالم، وبَدَت أسسها أخلاقية وفلسفية عوضا عن كونها مادية. لقد أعلنت هذه الجمهورية عن قيامها على مفاهيم المساواة والعدالة للجميع. لكن كان هناك جانب مظلم كذلك، جانب يتعلق بحرمان من لا يملكون الأراضي، ومعهم النساء والأقليات، من حق التصويت لما يزيد على قرن من الزمان، الأمر الذي لا يزال سببا لاندلاع العنف العرقي، والسياسات المجحفة والمتحيزة، عدا عن وحشية الشرطة. استطاعت الجمهورية القديمة فتح أذرعها لإيواء المضطهدين، ثم أجبرت أطفالهم على العمل بمصانعها في ظروف لا تختلف عن ظروف العبودية، ومن ثم صدرت هذه الظروف ذاتها إلى المعامل التي تستغل العمال في باقي أرجاء العالم. إنها جمهورية قادرة على إلهام السلام، فضلا عن كونها قوة عسكرية قادرة على إحداث الفرق والتغيير في ميزان القوة، كما حصل في الحرب العالمية الثانية. وقد بقي شيء من الأمل في مؤسسات مثل الشركات الكبرى، والبنوك، والبيروقراطيات الحكومية التي هددت تلك المثل، في حين كان ممكنا إعادة توجيهها إلى مبدأ تغيير جذري، تغيير يبرهن على الجمهورية في أفضل صورها. من الناحية النظرية على الأقل، تتوفر هذه المؤسسات على شبكات الاتصالات وأنظمة النقل الضرورية للقضاء على الأوبئة، ومكافحة الجوع، وحتى درء الحروب إذا ما أمكن إقناعها باتخاذ ذلك المسار.

على الجانب الآخر، تدحض الامبراطورية العالمية كل المثل التي بشرت بها الجمهورية. إنها منظومة جشعة ومادية لا تخدم إلا نفسها، منظومة تعتمد على المذهب «الاتجاري».[66] وكما هو الحال مع الامبراطوريات السابقة، فإنها تفتح أذرعها لمراكمة الموارد، والاستيلاء على كل شيء يلوح في الأفق، فضلا عن إشباع نهمها الذي لا ينتهي. ولسوف تقوم بفعل كل ما يلزم في سبيل مساعدة حكامها على كسب قوة وثراء أكبر وأكثر.

بطبيعة الحال، وعبر تعلمي لفهم هذا التمايز، أمكن لي تطوير إحساس أكبر وأوضح بالدور الذي كنت ألعبه. لقد حذرتني كلودين. فمنذ البدء، أوضحت لي ما يمكن توقعه مني في حال قبلت العمل المعروض من قبل شركة ماين. لكن الأمر تطلب مروري بتجارب العمل في دول مثل إندونيسيا، وبنما، وإيران، وكولومبيا بغية مواجهة التداعيات الأعمق. وتطلَّب الأمر كذلك صبرًا، وحبًّا، وقصصًا شخصيةً لإنسانة مثل باولا.

كنت مخلصا لمثل الجمهورية الأميركية، إلا أن ما ارتكبناه عبر النمط الجديد والدقيق للغاية من الإمبريالية لم يكن في حقيقته إلا مكافِئًا ماليًّا لما حاولنا إنجازه عسكريًّا في فيتنام. وإذا ما علمتنا تجربة جنوب شرق آسيا أن الجيوش العسكرية لها محددات تقيّدها، جاءت استجابة رجال الاقتصاد عبر ابتكار خطة جديدة، فيما خدمت وكالات المعونات الأجنبية والعقود الخاصة غرض أولئك الاقتصاديين (أو إن أولئك الاقتصاديين خدموها توخيا للدقة اللفظية)، وبالتالي أصبحوا أكثر براعة في تنفيذ تلك الخطة. لطالما عدت بذاكرتي إلى ذلك اليوم في بوسطن حينما قالت لي كلودين إن ستراتيجية القتل الاقتصادي بمجملها تعتمد على أربع دعائم تتمثل في: الخوف، والدَّيْن، والقلق من عدم الكفاية، فضلا عن سياسة فرِّقْ تَسُدْ.

ضمن دول في جميع قارات العالم، رأيت كيف يعمل الناس لصالح الشركات الأميركية ـ وإن لم يكن عملهم جزءا من شبكة القتل الاقتصادي ـ حيث شاركوا في أشياء أكثر ضررا بكثير من كل ما تصوره نظريات المؤامرة. لقد واظبوا على فعل كل ما يقال لهم بهدف إدامة النظام الذي روجنا له نحن قتلة الاقتصاد بشدة. كما هو الحال مع العديد من المهندسين في شركة ماين، عجز أولئك العاملون عن رؤية عواقب أفعالهم، مقتنعين بمساعدة المصانع التي تستغل العاملين والمعامل التي تنتج الأحذية وقطع غيار السيارات لشركاتهم، مساعدتها الفقراء على الخروج من قبر الفقر، وذلك عوضا عن دفنهم أعمق في نوع من العبودية التي تُذَكِّرنا بالرق ومزارع القرون الوسطى.[67] كما هو الحال مع صور الاستغلال السابقة، دُجِّن الأقنان والعبيد المعاصرون اجتماعيًّا ليعتقدوا بأنهم أفضل حالًا من تلك الأرواح اليائسة التي بقيت على الهامش، سواء في مجاهيل أوربا المظلمة أو أدغال إفريقيا البعيدة، أو في براري التخوم الأميركية.

تحول الصراع الذي عانيته ما بين وجوب الاستمرار بشركة ماين أو تركها إلى معركة مفتوحة. دفعني ضميري إلى الرحيل، إلا أن الجانب الآخر ـ وهو ما أود وصفه بشخصيتي التي كونتها عبر كلية الأعمال ـ لم يكن واثقا تماما. استمرت امبراطوريتي بالتوسع، وإضافة العاملين، والتمدد نحو دول جديدة، وتضخم حصص أسهمي في محافظ مالية متعددة، إلى جانب تضخم «الأنا» الكبير لدي.

إلى جانب إغراءات المال، ونمط الحياة الباذخ، والأدرينالين المرتفع بفعل حيازة السلطة، لطالما تذكرت تحذير كلودين من أن دخولي هذا العالم يشبه بطاقة سفر باتجاه واحد، ولا عودة من

ورائه.

قلت لباولا إن كلودين كانت محقة بخصوص الكثير من الأشياء. ردت باولا: «كان ذلك قبل وقت طويل مضى. لقد تغيرت الحياة، وما هو الفرق على أي حال؟ أنت لست سعيدا في أعماقك. وما الذي يسع أيًّا كان لجعل الأمور أسوأ مما هي عليه يا ترى؟».

كانت تلك عبارة لازمة لطالما كررتها باولا مرارا، عبارة اتفقت معها في خاتمة المطاف. اعترفت لباولا ـ ولنفسي ـ بصعوبة الاعتماد على المال، والمغامرة، والفخامة بغية تبرير الذنب، والشعور بالتوتر، والاضطراب. كشريك في شركة ماين، تضخمت ثروتي، وأدركت أن بقائي أكثر يعني أني سأظلّ واقعا في هذا الفخ إلى الأبد.

نهار أحد الأيام، وحينما كنا نتجول على طول الشاطئ بالقرب من حصن كارتاخينا الإسباني، ذلك الحصن الذي واجه هجمات لا تعد ولا تحصى من جانب القراصنة، خرجت باولا بفكرة لم تخطر على بالي من قبل. تساءَلَت باولا: «ماذا لو تكتمت على كل شيء تعرفه؟».

قلت: «هل تقصدين البقاء على الصمت؟ وأن لا أكشف عن ما أعلمه؟».

قالت: «بالضبط. لا تعطهم المبرر لملاحقتك. في واقع الحال، امنحهم كل الأسباب التي تدعوهم إلى تركك وشأنك كي لا تتسبب بتعكير الأجواء».

بدا كلامها منطقيا إلى حد كبير، وتساءلت لِمَاذا لَم يخطر في بالي من قبل. أنا ما كنت لأكتب كتابًا أو أفعل شيئًا لفضح الحقيقة التي باتت واضحة أمامي الآن. ولن أكون فاتحا صليبيا وإنما، سأعمد إلى التركيز على الاستمتاع بحياتي، والسفر من أجل البهجة والمتعة، وربما الزواج وتأسيس أسرة من جديد. لقد اكتفيت، وأريد الخروج ببساطة وحسب.

قالت باولا: «لقد كان كل ما تعلمته عبارة عن كذبة. وحياتك كذبة»، وأضافت: «هل ألقيت نظرة على سيرتك الذاتية مؤخرا؟».

اعترفت بأني لم أفعل.

نصحتني قائلة: «بل قم بذلك»، وأضافت: «سأقرأ النسخة الإسبانية من سيرتك الذاتية في يوم آخر، ولو أنها أشبهت النسخة الإنكليزية في أي شيء، فإنك كنت لتجد ذلك مسلِّيًا جدًّا».

25

سيرة ذاتية مخادعة

إبان وجودي في كولومبيا، وصلت الأخبار عن تقاعد جايك داوبر من منصب رئيس شركة ماين. لذلك، وكما كان متوقعا، عيّن ماك هول رئيس مجلس الشركة برونو كبديل عن داوبر. انشغلت خطوط الهواتف الواصلة ما بين بوسطن وبارانكويلا إلى حد كبير. توقع الجميع أني سأحصل على ترقية كذلك، لا سيما مع معرفة الجميع أني كنت واحدا من رعايا برونو الثقات.

أضافت لي هذه التغييرات والشائعات حافزا بغية مراجعة موقفي. اتبعت نصيحة باولا فيما كنت لا أزال في كولومبيا، وقرأت سيرتي الذاتية بنسختها الإسبانية. صدمني الأمر. بالعودة إلى بوسطن، سحبت النسخة الإنجليزية ومعها نسخة شهر تشرين الثاني من العام 1978 من مجلة الشركة الخاصة التي تحمل اسم «ماين لاينز»، تلك النسخة التي أبرزتني ضمن مقال حمل عنوان «متخصصون يقدمون خدمات جديدة لعملاء شركة ماين». (يمكن الاطلاع عليها في الصفحتين 144 – 145 من عدد المجلة لذلك التاريخ). منحتني تلك السيرة الذاتية ومعها تلك المقالة شعورا عظيما بالفخر فيما مضى. أما الآن، وكما قالت لي باولا، بات ذلك الكلام مصدرا لشعور متزايد بالغضب والحنق. مثّلت التفاصيل الواردة في تلك الوثائق صورة من الخداع المتعمد. كانت الحقائق الأساسية صحيحة، لكن القصص المهمة من وراء تلك الحقائق كانت محذوفة. وحملت تلك الوثائق أهمية أعمق، أهمية تمثلت في كونها عكست حقيقة عصرنا ووصلت إلى جوهر مسيرتنا الحالية نحو الامبراطورية العالمية، وطورت ستراتيجية محسوبة بهدف نقل المظاهر التي تخفي الحقائق من ورائها. على نحو غريب، رمزت تلك القصة إلى حياتي حتى تلك اللحظة، تلك القصة التي كانت بمثابة قشرة لامعة تغطي البنية الاصطناعية المركبة.

بطبيعة الحال، لم أشعر بأي راحة إزاء إدراكي وجوب تحمل معظم المسؤولية عما ورد في سيرتي الذاتية. تبعا لإجراءات العمل القياسية، كان لزاما علي تحديث سيرتي الذاتية الأساسية مع ملف يتضمن جميع المعلومات الاحتياطية المتعلقة بالعملاء الذين خدمتهم إلى جانب نوعية العمل

الذي أُنجِز. وإذا ما أراد مسؤول تسويق أو مدير مشروع إدراج اسمي ضمن مقترح عمل ما أو استخدام بيانات الاعتماد خاصتي بطريقة أخرى، لا يتطلبه الأمر سوى مراسلة قسم البيانات الأساسية بطريقة تركز على احتياجاته الخاصة وحسب.

على سبيل المثال، قد يختار هذا المدير (بحسب احتياجاته) تسليط الضوء على تجربتي في الشرق الأوسط، أو يعمد إلى كتابة عروض تقديمية لصالح البنك الدولي وباقي المحافل الدولية الأخرى. وفي كل مرة يراد القيام بذلك، يتعين على الشخص المسؤول طلب موافقتي الفعلية قبل نشر السيرة الذاتية المعدلة. لكن بحكم سفري الكثير كما هو الحال مع العديد من موظفي شركة ماين الآخرين، حصلت الكثير من الاستثناءات. لذلك، فإن السيرة الذاتية التي اقترحت باولا عليّ قراءتها ونظيرتها الإنجليزية كانتا جديدتين كليا بالنسبة إلي، على الرغم من تضمين المعلومات في ملفي بكل تأكيد.

ملاحظة: يشار إلى البنك الدولي للإعمار والتنمية باسم البنك الدولي كذلك.

EXPERIENCE

John M. Perkins is Manager of the Economics Department of the Power and Environmental Systems Division.

Since joining MAIN, Mr. Perkins has been in charge of major projects in the United States, Asia, Latin America and the Middle East. This work has included development planning, economic forecasting, energy demand forecasting, marketing studies, plant siting, fuel allocation analysis, economic feasibility studies, environmental and economic impact studies, investment planning and management consulting. In addition, many projects have involved training clients in the use of techniques developed by Mr. Perkins and his staff.

Recently Mr. Perkins has been in charge of a project to design computer program packages for 1) projecting energy demand and quantifying the relationships between economic development and energy production, 2) evaluating environmental and socio-economic impacts of projects, and 3) applying Markov and econometric models to national and regional economic planning.

Prior to joining MAIN, Mr. Perkins spent three years in Ecuador conducting marketing studies and organizing and managing a construction materials company. He also conducted studies of the feasibility of organizing credit and savings cooperatives throughout Ecuador.

EDUCATION

Bachelor of Arts in Business Administration
Boston University
Post Graduate Studies:
Model Building, Engineering Economics, Econometrics, Probability Methods

LANGUAGES

English, Spanish

PROFESSIONAL AFFILIATIONS

American Economic Association
Society for International Development

PUBLICATIONS

"A Markov Process Applied to Forecasting the Demand for Electricity"
"A Macro Approach to Energy Forecasting"
"A Model for Describing the Direct and Indirect Interrelationships between the Economy and the Environment"
"Electric Energy from Interconnected Systems"
"Markov Method Applied to Planning"

JOHN M. PERKINS

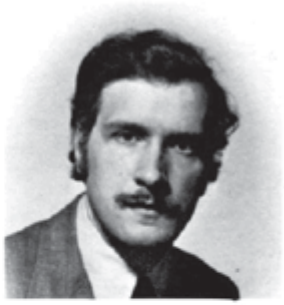

CREDENTIALS

Forecasting Studies
Marketing Studies
Feasibility Studies
Site Selection Studies
Economic Impact Studies
Investment Planning
Fuel Supply Studies
Economic Development Planning
Training Programs
Project Management
Allocation Planning
Management Consulting

Clients served:

- Arabian-American Oil Company, Saudi Arabia
- Asian Development Bank
- Boise Cascade Corporation
- City Service Corporation
- Dayton Power & Light Company
- General Electric Company
- Government of Kuwait
- Instituto de Recursos Hidraulicos y Electrificacion, Panama
- Inter-American Development Bank
- International Bank for Reconstruction and Development
- Ministry of Energy, Iran
- New York Times
- Power Authority of the State of New York
- Perusahaan Umum Listrik Negara, Indonesia
- South Carolina Electric and Gas Company
- Technical Association of the Pulp and Paper Industry
- Union Camp Corporation
- U.S. Treasury Dept., Kingdom of Saudi Arabia

Specialists offer MAIN's clients new services

by Pauline Ouellette

Looking over the faces behind the desks, it's easy to tell that Economics and Regional Planning is one of the most recently formed and rapidly growing disciplines at MAIN. To date, there are about 20 specialists in this group, gathered over a seven-year period. These specialists include not only economists, but city planners, demographers, market specialists and MAIN's first sociologist.

While several people were influential in getting the economics group started, it basically came about through the efforts of one man, **John Perkins,** who is now head of the group.

Hired as an assistant to the head load forecaster in January, 1971, John was one of the few economists working for MAIN at the time. For his first assignment, he was sent as part of an 11-man team to do an electricity demand study in Indonesia.

"They wanted to see if I could survive there for three months," he said laughing reminiscently. But with his background, John had no trouble "surviving." He had just spent three years in Ecuador with a Construction Materials Co-op helping the Quechua Indians, direct descendants of the Incas. The Indians, John said, were being exploited in their work as brick makers so he was asked by an Ecuadorian agency to form a co-op. He then rented a truck to help them sell their bricks directly to the consumers. As a result, profits rapidly increased by 60%. The profits were divided among the members of the co-op which, after 2½ years, included 200 families.

It was during this time that John Perkins met **Einar Greve** (a former employee) who was working in the town of Paute, Ecuador, on a hydroelectric project for MAIN. The two became friendly and, through continual correspondence, John was offered a position with MAIN.

About a year later, John became the head load forecaster and, as the demands from clients and institutions such as the World Bank grew, he realized that more economists were needed at MAIN. "While MAIN is an engineering firm," he said, "the clients were telling us we had to be more than that." He hired more economists in 1973 to meet the clients' needs and, as a result, formed the discipline which brought him the title of Chief Economist.

Perkins

John's latest project involves agricultural development in Panama from where he recently returned after a month's stay. It was in Panama that MAIN conducted its first sociological study through **Martha Hayes,** MAIN's first sociologist. Marti spent 1½ months in Panama to determine the impact of the project on people's lives and cultures. Specialists in agriculture and other related fields were also hired in conjunction with this study.

The expansion of Economics and Regional Planning has been fast paced, yet John feels he has been lucky in that each individual hired has been a hard working professional. As he spoke to me from across his desk, the interest and support he holds for his staff was evident and admirable.

Frank Fullerton participant in MIT program for executives

Frank M. Fullerton, Vice President and Division Manager of the Power Systems Division, is attending the MIT Sloan School of Management Program for Senior Executives.

The program is designed for senior level management and it seeks to develop in them a broad understanding of the major forces which will influence the future of a firm. Areas of study such as policy formulation, management information and decision systems, organization behavior and the business environment form the basic content of the program. Also included are specific seminars in marketing, finance, human resources management, system dynamics and corporate strategy.

The program is attended by 28 participants selected from applications received from all over the world. The group is staying at the MIT Endicott House in Dedham, Mass., and, except for one four-day weekend break, participants are expected to remain in residence.

During Mr. Fullerton's nine-week absence (Sept. 17 – Nov. 17), **Edward J. Fitzsimmons,** Chief Discipline Engineer of the Structural Department in the Pulp and Paper Division, is Acting Division Manager of the Power Systems Division.

بعدما ألقيت نظرة أولية، بدت سيرتي الذاتية بريئة جدا. تحت بند الخبرات، ورد أني مسؤول عن جملة مشروعات كبرى في الولايات المتحدة، وآسيا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط، فضلا عن شمولها قائمة مطولة لأنواع المشاريع: التخطيط التنموي، والتنبؤ الاقتصادي، وتقديرات نمو الطلب على الطاقة، وغيرها. ثم يصل هذا البند في نهايته إلى تجربة عملي مع فيالق السلام في الإكوادور، إلا أنه يحذف الإشارة إلى فيالق السلام نفسها، الأمر الذي يترك انطباعا كما لو أني كنت المدير المتخصص لشركة مواد الإنشاءات عِوَضا عن وصف متطوع لمساعدة تعاونيات صناعة الطابوق الصغيرة في القرى النائية ضمن مناطق مرتفعات جبال الأنديز.

لم يكن أي مما ورد في كلتا الوثيقتين كذبا صريحا، لكنهما كلتاهما نقلت تصوُّرًا أجده الآن ملتويا ومعدلا. وضمن ثقافة تقدس الوثائق الرسمية، بدا أنهما ارتكبتا أمرًا أكثر شرًّا. يمكن دحض الأكاذيب المباشرة. في واقع الحال، لم يكن ممكنا دحض الوثيقتين لا لمجرد احتوائهما على بصيص من الحقيقة وحسب، وإنما لصدروهما عن شركة كبيرة حازت ثقة كبريات الشركات الأخرى إلى جانب البنوك الدولية والحكومات.

بقيت أراجع الزبون الأخير ضمن القائمة الواردة في سيرتي الذاتية. ربما يتساءل العديد من القراء: ما هي الصلة بين وزارة الخزانة الأميركية والعربية السعودية؟ لن يخمن أولئك القراء بأن تضمين هذا السطر جاء لإفهام أولئك الموجودين ضمن الحلقة الداخلية للعالم الذي أعمل فيه أني كنت جزءًا من الفريق الذي صاغ الصفقة وغير مجرى تاريخ العالم، وإن لم يَرِد هذا الكلام في أي جريدة قط، ذلك الميثاق الذي ضمن استمرار تدفق النفط إلى أميركا، وحفظ مكانة الدولار الأميركي كعملة عالمية إلى جانب بقاء حكم آل سعود، وأفاد الشركات الأميركية، عدا عن المساعدة بدعم أسامة بن لادن ماليًّا. لقد قال هذا السطر ما مفاده إن كبير الاقتصاديين في شركة ماين ليس سوى رجل قادر على الإنجاز وحسب.

بقيت هاتان الوثيقتان فوق أوراق أخرى في درج مكتبي الأعلى، ولطالما عدت إليهما مرارا وتكرارا. لاحقا، وفيما كنت أجد نفسي خارج المكتب أتجول ما بين مكاتب الكادر بمعيتي، شعرت بالذنب يملؤني للدور الذي لعبته في توسيع الفجوة ما بين الأغنياء والفقراء. وفكرت بأولئك الناس الذين تضوروا جوعا يوما بعد يوم في حين كنت والكادر بمعيتي ننام في فنادق الدرجة الأولى، ونأكل في أفخم المطاعم، ونبني محافظنا المالية الضخمة.

تعيّن على الإقرار بأن الناس الذين دربتهم انخرطوا الآن في صفوف قتلة الاقتصاد. غير أن الأمر عاد لا يكون كما كان عند اقتحامي هذا العالم. لقد تغير العالم، وتغير معه فهمي لسلطة الشركات لاحقا. تحسنت طريقة عملنا، وباتت منهجيتنا أكثر ضررا. انتمى الناس الذين عملوا معي إلى سلالة جديدة ومختلفة. عاد لا يوجد جهاز كشف كذب تابع إلى وكالة الأمن القومي لتحري مصداقية المنفذين، ولا يوجد أمثال لكلودين في حياتهم. لم يوضح أحد لهم شيئا مما كان متوقعا منهم فعله في سبيل إعلاء شأن الامبراطورية العالمية. في واقع الحال، لم يسمع أي منهم بمصطلح القاتل الاقتصادي من قبل. لقد تعلموا ببساطة عبر أمثلتي ومن خلال نظام الثواب والعقاب الذي اعتمدته. كانوا يفهمون ما هو المتوقع منهم بغية إنتاج أنواع الدراسات والنتائج التي أريدها. في واقع الحال، اعتمدت مرتباتهم، وهدايا أعياد الميلاد، وكل ما يتعلق بوظائفهم، على إرضائي.

من المؤكد أني قمت بكل ما بوسعي لخداعهم. كتبت الأوراق البحثية، وقدمت المحاضرات، وانتهزت كل الفرص الممكنة بغية إقناعهم بأهمية التنبؤات المتفائلة، والقروض الضخمة، وضخ رؤوس الأموال التي من شأنها تحفيز نمو الناتج القومي الإجمالي وجعل الأثرياء أكثر ثراءً. والآن، انطلق هؤلاء الرجال والنساء الذين يشغلون الطاولات في الغرف المطلة على خليج باك باي في بوسطن خارج مكتبي، انطلقوا لتعزيز قضية الامبراطورية العالمية. لكن على النقيض مني، بقي أفراد هذه السلالة متوارين في الظلام.

عانيت الأرق ليالٍ كثيرة، أفكر بقلق في هذه الأشياء. لقد فتحت إشارة باولا لسيرتي الذاتية صندوق الشر، وغالبا ما شعرت بالغيرة من العاملين بمعيتي لسذاجتهم، فقد خدعتهم عمدا. وبممارسة هذه الخديعة، أمكن لي حمايتهم من وثبة ضمائرهم. لم يكن عليهم معاناة الأزمات الأخلاقية التي طاردتني.

وفكرت كثيرا في أمر نزاهة العمل، وصورتي المعاكسة لحقيقتي. غير أني فهمت الآن أني وصلت إلى مستوى جديد من الخداع، مستوى أقنعنا بفعل كل ما يلزم لتعزيز منظومة فاسدة توسع الفجوة ما بين الأغنياء والفقراء عبر الدعائم الأربعة ممثلة في: الخوف، والدَّين، والقلق من عدم الكفاية، فضلا عن سياسة فرق تسد. لقد شكلت تلك الدعائم الأربعة الأسس التي بنيت عليها ستراتيجية القتل الاقتصادي، تلك الستراتيجية التي يبدو أنها تقودنا نحو الدمار أكثر فأكثر، دمار يتجاوز المستوى الأخلاقي إلى المستويات المادية والثقافية ما لم نقم بتغيير جوهري قريب.

لقد أدركت أن كل ذلك يمثل جزءًا من منظومة تهدف إلى تعزيز صورة معينة من الإمبريالية، وأن كل وأحدة من الشركات العالمية لديها قتلة اقتصاد أو ما يعادلهم. إنهم ينتشرون من مقرات شركاتهم الواقعة في نيويورك، وسان فرانسيسكو، ولندن، وبكين، وطوكيو، نحو جميع القارات بغية إقناع السياسيين الفاسدين بالسماح بوقوع دولهم في شَرَك شبكة الشركات العالمية، ودفع الأشخاص اليائسين إلى الرضوخ وبيع أنفسهم لصالح معامل وخطوط إنتاج تستغل العاملين.

لكم كان مزعجا فهم التفاصيل غير المعلنة من وراء الكلمات المكتوبة في سيرتي الذاتية ومقالة مجلة شركة ماين، ذلك الفهم الذي حدد عالما من الدخان والمرايا التي يراد منها إبقاءنا جميعا محاصرين في نظام بغيض أخلاقيا ومدمر ذاتيا في خاتمة المطاف. عبر دفعها لي كي أقرأ ما بين السطور، جعلتني باولا أتخذ خطوة أخرى على طريق تغيير حياتي.

26

الرئيس الإكوادوري يخوض معركة النفط الكبرى

منحني عملي في بنما وكولومبيا العديد من الفرص للبقاء على تواصل مع الأخيرة وزيارتها لتصبح موطني الثاني بعيدًا عن الولايات المتحدة. عانت الإكوادور الكثير تحت حكم قائمة طويلة من الحكام الدكتاتوريين وعائلات اليمين الأوليغارشية، حيث تلاعبت بهم الولايات المتحدة جميعا وفقا لمصالحها السياسية والتجارية.

على نحو ما، كانت الإكوادور جمهورية موز مثالية، [68] حيث حققت شركات كبرى ـ كما هو الحال مع شركة دُول لصناعات المنتجات الغذائية ـ نجاحات كبيرة هناك.

بدأ الاستغلال الحقيقي للنفط في منطقة حوض الأمازون الإكوادوري نهاية ستينيات القرن العشرين، الأمر الذي أدى إلى «فورة شراء» لَعِب فيها نادٍ صغير من العائلات الثرية التي تدير الإكوادور دورا في وضع البلاد تحت رحمة البنوك الدولية. أرهقت تلك العائلات والحكام الدكتاتوريون البلاد تحت وطأة ديون ثقيلة، مدعومة بوعود عن إيرادات نفطية كبيرة.[69] انتشرت عبر أرجاء البلاد مشاريع الطريق والمدن الصناعية، والسدود الكهرومائية، وأنظمة النقل والتوزيع، فضلا عن مشاريع الطاقة الأخرى. وعادت الشركات الهندسية والإنشائية الدولية لتصيب الثراء من جديد.

لكن رجلا لمع نجمه الصاعد فوق دولة الأنديز مثّل استثناءً لقاعدة الفساد السياسي والتواطؤ مع سلطة الشركات. التقيت جايمي رولديوس الذي كان أستاذا جامعيا ومحاميا في أواخر ثلاثينياته في مناسبات عدّة. تمتع الرجل بجاذبية وسحر لافت. ذات مرة، وعلى نحو مندفع، قلت للرجل إني مستعد للطيران إلى كويتو وتقديم خدماتي الاستشارية في أي وقت يشاء. قلت له ذلك الكلام جزئيا بقصد المزاح، إلا أني كنت مستعدا للقيام بذلك فعلا في وقت إجازتي، فقد أحببت الرجل وأعربت عن مشاعري تجاهه بسرعة، ثم إني لطالما بحثت عن عذر جيد لأزور بلاده. ضحك رولديوس وعرض علي صفقة مشابهة، قائلا إنه سيتصل بي متى ما أراد مناقشة فاتورة النفط الخاصة به.

اكتسب رولديوس سمعة كزعيم شعبوي مؤيد للفقراء بشدة، كشخص يؤمن بمسؤولية السياسيين عن إدارة موارد البلاد الطبيعية لصالحهم. بدأ الرجل حملته الانتخابية عام 1978، ولفت نظر أبناء بلاده والمواطنين في كل بلد يعاني استغلال شركات النفط الأجنبية، أو حيث يتمنى الناس الاستقلال من نفوذ القوى الخارجية. كان رولديوس نموذجا نادرا للسياسي المعاصر الذيم لم يخش معارضة الوضع الراهن. لاحق الرجل شركات النفط الأجنبية والنظام البغيض الذي دعمها.

على سبيل المثال، سمعت أنه اتهم ما يعرف بـ«معهد اللغويات الصيفي»، وهي مجموعة تبشيرية إنجيلية من الولايات المتحدة، بالتواطؤ مع الشركات الأجنبية. كنت على معرفة بتبشيريات معهد اللغويات الصيفي منذ أيام تطوعي في فيالق السلام. دخلت هذه المنظمة الإكوادور إلى جانب العديد من الدول الأخرى، مع هدف معلن يتمثل في دراسة وتوثيق وترجمة اللغات المحلية لتلك البلاد.

عملت هذه التبشيريات على نحو مكثف مع قبائل شعب هواراني في منطقة حوض الأمازون، وذلك في الأيام الأولى لاستكشاف النفط هناك حينما ظهر نمط ما. على الرغم من أنها ربما كانت مصادفة (في حين لم يثبت وجود أي صلة على الإطلاق)، قيل الكثير في أوساط شعوب الأمازون عن أنه في الوقت الذي كتب فيه خبراء المسح الزلزالي تقارير لمقرات إدارة الشركات عن وجود خصائص جيولوجية لاحتياطات نفطية ضخمة في بعض المناطق تحت الأرض، عمد بعض أفراد تلك التبشيريات إلى حث السكان الأصليين على مغادرة مناطقهم والانتقال إلى أماكن أخرى حيث يتوفر طعام مجاني، وسكن، وملابس، ورعاية صحية، فضلا عن تعليم على الطراز التبشيري. وبحسب تلك الأقاويل، لم يكن شرط الحصول على كل تلك الامتيازات سوى السماح للشركات النفطية بالعمل في أراضيهم وحسب.

في هذا السياق، وردت شائعات تفيد بأن تلك التبشيريات اعتمدت مجموعة متنوعة من الوسائل المخادعة بغية إقناع الناس بالتخلي عن مساكنهم والانتقال إلى مناطق التبشيريات. وتكررت قصص تفيد بتبرع ممثلي تلك التبشيريات بأغذية ملوثة بمليّنات معويّة قوية، ومن ثم هب أولئك المبشرون لتقديم العلاج للمصابين بالإسهال الحاد. عبر مناطق شعب هواراني، قيل كلام عن تلقي التبشيريات سلال شحنات غذائية مزيفة أُلقيت عبر الطائرات من الجو تضم أجهزة إرسال راديوي متقدمة، وأفادت الشائعات أن تلك الأجهزة كانت مُوَلّفة مع محطات استلام خاصة بالجيش الأميركي

ضمن موقع شركة شِلْ النفطية. حينما يتعرض أحد السكان المحليين للدغة أفعى سامة أو يعاني من مرض خطير، يصل ممثل عن التبشيريات حاملا معه الترياق أو العلاج المناسب، الأمر الذي عادة ما يتم بمروحيات تابعة للشركات النفطية. وعلى الرغم من أني لم أتمكن من إثبات تلك الشائعات مطلقا، تواردت القصص الأخرى من جانب ممثلي التبشيريات.

من جملة تلك القصص التي وردت إبان الأيام الأولى لاستكشاف النفط، ورد كلام عن اكتشاف جثث خمسة مبشرين مقتولين برماح تقليدية نتأت من أجسادهم من النوع الذي يستخدمه أفراد شعب هواراني. وقد أخذ البعض في الإكوادور هذا الكلام رسالة على وجوب إبعاد الإرساليات خارج البلاد. غير أن القتل جاء بتأثير معاكس. جابت راتشيل ساينت، وهي شقيقة أحد الرجال المقتولين أرجاء الولايات المتحدة ضمن حملة ظهرت فيها على شاشة التلفاز الوطني بغية جمع التبرعات لصالح معهد اللغويات الصيفي الذي زعمت أنه يساعد شعوب «الهمجيين» ليصبحوا «متمدنين ومتعلمين».

بحسب بعض المصادر، تلقى معهد اللغويات الصيفي تبرعات من مؤسسة روكفلر للأعمال الخيرية. ومن الجدير بالذكر أن نجل عائلة جون دي. روكفلر أسس شركة ستاندراد أويل التي انقسمت لاحقا إلى مجموعة شركات كبرى أخرى تضمنت شيفرون وأيكسون وموبيل.[70]

صدمني رولديوس كرجل خاض في درب النيران التي أشعلها توريخوس. وقف الاثنان في وجه القوة الأقوى في العالم. أراد توريخوس استعادة القناة، في حين هددت مواقف رولديوس الوطنية القوية مصالح معظم الشركات العالمية المتنفذة. كما هو الحال مع توريخوس، لم يكن رولديوس شيوعيا، وإنما وقف مع حقوق بلاده في تقرير مصيرها. وكما هو الحال مع توريخوس كذلك، توقع جهابذة المحليين عدم تسامح الشركات الكبيرة وواشنطن مع رولديوس كرئيس مطلقا، وأنه سيلقى المصير ذاته إذا ما فاز في الانتخابات كما حصل مع آربينز في غواتيمالا وإليندي في تشيلي من قبل.

بدا لي مقدرة كلا الرجلين على ترأس موجة جديدة في سياسات أميركا اللاتينية، موجة حركة قد تشكل الأساس لتغييرات قادرة على التأثير في كل الأمم على سطح الكوكب. لم يكن هذان الرجلان كاسترو أو القذافي، ولم تكن لهما صلة مع روسيا والصين، كما في صلة إليندي مع الحركة

الاشتراكية العالمية. كان توريخوس ورولديوس رجلين شعبيين، وذكيين، وذَوَيْ شخصية قيادية جذابة، يتبنيان منهج البراغماتية عوضا عن العقائدية. لقد كانا وطنيين، إلا أنهما ما كانا مناهضين للولايات المتحدة. ولو بُنِيت سلطة الشركات على ثلاث دعائم تتمثل في: الشركات الكبرى، والبنوك الدولية، والحكومات المتواطئة، لمثّل رولديوس وتوريخوس كلاهما إمكانية وفرصة إزالة دعامة الحكومات المتواطئة من معادلة السلطة تلك.

مثلت ما تعرف بسياسة الهايدروكاربونات المحور الرئيس ضمن برنامج رولديوس. وقد استندت هذه السياسة إلى فرضية مفادها أن النفط يمثل أكبر موارد البلاد الكامنة، وأن جميع أعمال الاستكشاف المستقبلية لهذا المورد لا بد من تنفيذها بطريقة تعود بأكبر العوائد المالية على الشريحة الأكبر من أبناء الشعب. كان رولديوس مؤمنا حقيقيا بالتزام الدولة تجاه دعم الفقراء والمحرومين. وأعرب عن أمل بإمكانية استخدام سياسة الهايدروكاربونات وسيلة لتحقيق الإصلاح الاجتماعي. كان عليه المشي على الحبل، إلا أنه علم مسبقا أنه في الإكوادور ـ كما هو الحال مع العديد من الدول الأخرى ـ لن يكون ممكنا انتخابه من دون دعم بعض أكثر العائلات المتنفذة على أقل تقدير. وحتى إذا ما أمكنه الفوز من دون دعمهم، لن يرى برنامجه النور من دون دعم تلك العائلات.

شعرت بشيء من الارتياح لوجود كارتر على رأس البيت الأبيض إبان تلك الأوقات العصيبة. فعلى الرغم من الضغوط التي مارستها تكساسكو ومصالح باقي الشركات النفطية الأخرى، بقيت واشنطن خارج الصورة إلى حد بعيد. لكني أدركت أن الحال لن يكون كذلك في ظل معظم الإدارات الجمهورية أو الديمقراطية.

أكثر من أي قضية أخرى، أقنعت سياسة الهايدروكاربونات الإكوادوريين بإرسال جايمي رولديوس إلى القصر الرئاسي في كويتو، ليكون الرجل أول رئيس منتخب ديمقراطيا بعد سلسلة طويلة من الحكام الدكتاتوريين. حدد رولديوس الأسس العامة لسياسته ضمن حفل تدشين ولايته الرئاسية في آب العام 1970، قائلا:

لا بد لنا من اتخاذ جميع التدابير الفعالة بغية الدفاع عن موارد الطاقة الطبيعية للأمة. ويتوجب على الدولة إدامة تنويع صادراتها من دون المخاطرة بخسارة استقلالها الاقتصادي.

ولسوف تنبع قراراتنا من عمق مصالحنا الوطنية البحتة إلى جانب إصرارنا على حماية حقوقنا السيادية دون أي تنازل أو قيود.[71]

بمجرد وصوله إلى القصر الرئاسي، توجب على رولديوس التركيز على تكساسكو التي باتت اللاعب الأكبر في لعبة النفط آنذاك. كانت علاقة بالغة الاضطراب. لم تكن شركة النفط العملاقة واثقة بالرئيس الجديد، ثم إنها لم ترغب في أن تكون جزءًا من أي سياسة تفتح الباب بإزاء سوابق جديدة. من جانبي، أدرَكتُ إمكانية تحول تلك السياسات إلى نماذج تحتذي بها دول أخرى. وبحسب حديث لخوسيه كارفاخال، وهو أحد كبار مستشاري رولديوس، أوجز به مواقف الإدارة الجديدة قائلا:

إذا ما كان الشريك (تكساسكو) غير راغب في تحمل المخاطر أو القيام باستثمارات بهدف التنقيب، أو استغلال المناطق ضمن رقعة الامتياز النفطي، عندها يحق للشريك الآخر القيام بتلك الاستثمارات وتولي منصب المالك.

نحن نؤمن بضرورة عدالة علاقاتنا مع الشركات الأجنبية، ولا بد لنا من العمل والتصرف بصرامة في هذا الصراع، وأن نكون مستعدين لكل أنواع الضغوط، مع وجوب عدم إظهار أي مظهر من مظاهر الخوف أو عقدة النقص في المفاوضات مع أولئك الأجانب».[72]

عشية أول يوم من السنة الميلادية الجديدة للعام 1980، حسمت أمري واتخذت قراري. كان تاريخ ذلك اليوم إيذانا ببدء عقد جديد. كنت على وشك إتمام عامي الخامس والثلاثين في غضون ثمانية وعشرين يوما. قررت إجراء تغييرات كبرى في حياتي خلال السنة الجديدة، وسأحاول إعادة تصميم نفسي مستقبلا على غرار نماذج أبطال معاصرين من عينة جايمي رولديوس وعمر توريخوس.

ووقع أمر صادم خلال الأشهر الماضية. من منظور ربحي بحت، كان برونو واحدًا من أنجح رؤساء شركة ماين عبر تاريخها. لكن على الرغم من لغة الأرقام، وعلى نحو مفاجئ ودونما إنذار، قرر ماك هول طرد برونو.

27

استقالتي

كان لقرار ماك هول طرد برونز أَثَرٌ مزلزل على شركة ماين. تسبب ذلك الحدث بالفوضى والاضطراب عبر أرجاء الشركة. وعلى الرغم من أن برونو كان له نصيبه من الأعداء، شعر بعضهم بالفزع جراء ما حصل. بدا الأمر مدفوعا بالغيرة في نظر العديد من العاملين. عبر الحوارات على طاولات الغداء أو حول عربات القهوة، غالبا ما تهامس الناس بأن هول شعر بتهديد برونو الذي يصغره بأكثر من خمسة عشر عاما، والذي نقل الشركة إلى مستويات ربحية جديدة وغير مسبوقة. قال أحد الموظفين: «ما كان بوسع هول ترك برونو يبرز إلى هذا الحد الجيد»، وأضاف الرجل: «كان عليه استيعاب أن الأمر كان مسألة وقت وحسب قبل صعود برونو إلى موقع القيادة لينتهي الحال بالرجل العجوز هائما يسرح في المراعي».

وكما لو أنه أراد إثبات صحة تلك النظريات، قرر هول تعيين بول بريدي بمنصب الرئيس الجديد. شغل بول منصب نائب رئيس شركة ماين لسنوات، وكان شخصا ودودا ومهندسا تقليديا. برأيي الشخصي، كان بريدي رجلا باهتا، وميالا إلى الخضوع لرغبات وأهواء رئيس مجلس الإدارة، فضلا عن أنه ما كان ليهدده عبر تحقيق الأرباح العالية. شاركني العديد من الموظفين الآخرين رأيي. لكني رأيت رحيل برونو أمرا مدمرا، فقد كان راعيا شخصيا لي وعاملا حاسما في دفع عملنا الدولي إلى الأمام. من جانب آخر، ركز بريدي على الأعمال المحلية، ولم يكن يعلم شيئا ـ إن كان يعلم أي شيء أصلا ـ عن الطبيعة الحقيقية لأدوارنا الخارجية. تساءلت عن الوجهة التي ستأخذها الشركة من الآن فصاعدا. اتصلت ببرونو في منزله حيث وجدته يفكر على نحو فلسفي.

قال برونو عن هول: «حسنا يا جون، أنت تعلم أن ليس من سبب لديه لفعل ذلك»، وأضاف: «لذلك، طلبت حزمة تعويض نهاية خدمة ممتازة، وحصلت عليها. يحكم هول سيطرته على أصوات كتلة ضخمة من أصوات أعضاء المجلس، وما إن اتخذ قراره حتى عجزت عن فعل أي شيء». قال

برونو إنه يفكر في جملة عروض جديدة لمناصب رفيعة ضمن بعض البنوك الدولية التي عملنا معها.

سألته عما يعتقد بوجوب فعله.

نصحني قائلا: «أبْقِ عينيك مفتوحتين»، وأضاف: «فقد ماك هول صلته بالواقع، غير أن أحدا لن يجرؤ على مصارحته بذلك، لا سيما في الوقت الراهن وبعد ما فعله معي».

نهاية شهر آذار من العام 1980، وإذ اعتراني الألم جراء طرد برونو، أخذت إجازة بحرية للسفر إلى جزر العذراء. وعلى الرغم من أني لم أحدد المكان حينما فكرت بالسفر، أدركت بأن تاريخ المنطقة مثّل عاملا ساعد في قرار العام الجديد الذي سأشرع بتنفيذه.

بينما أبحرت عبر قناة السير فرانسيس دريك، متأثرا باتجاه الريح يمنة ويسرة، تهادى مركب خشبي يحمل علما بألوان قوس قزح باتجاهي، وتصاعدت أشرعته من الجانبين حيث يتهادى باتجاه الريح عبر مياه القناة. على متن المركب، وُجِدَ نصف دزينة من الشباب «الهيبيين» بملابسهم الملونة حيث كانوا يلوحون ويغنون. بدا واضحا أنهم يعيشون على متن المركب كمجتمع مشاعي، قراصنة معاصرين، أحرارًا وغير مقيدين.

شعرت بموجة من الغيرة سرت في نفسي. أردت الحرية ذاتها. ثم فهمت بعد ذلك أن غضبي لم يكن بسبب والديَّ وما لم يقدمانه لي من امتيازات مقارنة بتلك التي حظي بها أصدقائي في المدرسة الإعدادية. لقد أدركت لحظتها أن حياتي لم تكن إلا هبة منهما، هبة قابلتها بالاستخفاف. إني أدين لأمي وأبي بالكثير عن كل ما قاما به لتنشئتي وإلهامي حتى مشيت الطريق وصولا إلى اللحظة الراهنة. وتعيَّن عليَّ قبول المسؤولية الشخصية المباشرة عن كل الأخطاء التي اقترفت. لم يكن اللوم الذي وجهته إليهم لمرات عدّة سوى منطق أحمق ومجحف، بل إنه لم يكن إلا تعبيرا عن هزيمة للذات وحسب.

بعد ذلك بوقت قصير، دخلت خليج لينستر الذي يقع في جزيرة سانت جون حيث اعتادت سفن القراصنة القديمة انتظار أساطيل الذهب. أنزلت مرساتي جانبا، في حين لمع منظر السلسلة وهي تهبط إلى أعماق الماء الصافي حتى توقف المركب عن الحركة.

بعد استقرار المركب، جدَّفت بالزورق الصغير نحو الساحل حتى وصلت أطلال مزرعة لإنتاج السكر. جلست إلى جوار الماء محاولا عدم التفكير والتركيز على إخلاء نفسي من كل أنواع المشاعر. لم ينجح الأمر.

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، بذلت جهدا كبيرا في سبيل التسلق إلى أعلى التل لأجد نفسي واقفا فوق ركام حائط عائد إلى مزرعة سكر قديمة، ونظرت إلى الأسفل حيث تركت مرساتي. شاهدت الشمس تغرق في المياه البعيدة للبحر الكاريبي. بدا كل شيء شاعريا للغاية، لكني أدركت أن حطام المزرعة من حولي لم يكن إلا مشهدا لقصة بؤس لا توصف. لقد قضى المئات من الأفارقة المستعبدين هنا، وأُجبِروا على بناء القصر تحت فوهات البنادق، وزراعة المحصول وحصاده، عدا عن تشغيل المكنات التي تستخلص السكر الخام وتحوله إلى أحد المكونات الأساسية لمشروب الرم. أخفى هدوء المكان تاريخه المفعم بالوحشية.

اختفى قرص الشمس خلف جبال الجزيرة الصخرية، وانتثر قوس أرجواني عبر أرجاء السماء. أخذ البحر يدخل في ظلمته الحالكة، في حين وقفتُ وجها لوجه أمام الحقيقة الصادمة، حقيقة أني مارست الاستعباد، وأن عملي في شركة ماين تجاوز مجرد استخدام القروض بغية إغراق الدول الفقيرة في بحر الامبراطورية العالمية. لم تكن تنبؤاتي الاقتصادية مجرد وسائل لضمان حصولنا على «رطل اللحم»* *()[73] بمجرد احتياجنا إلى النفط، وأن منصبي كشريك لم يكن مجرد وظيفة لتحسين ربحية الشركة وحسب. لقد كان عملي متعلقا بالناس وعائلاتهم، الناس المنحدرين من أولئك الذين ماتوا جراء بناء الجدار الذي جلست عليه، الناس الذي عملت على استغلالهم.

لعقد من الزمن، كنت وريثا لأولئك المُستَعبِدِين الأوائل، غير أن العبودية التي مارستها تميزت بالحداثة والمعاصرة والمنهج الدقيق. لم أضطر يوما إلى رؤية أجساد المحتَضَرين، أو شم روائح لحومهم المتعفنة، أو سماع صرخات غضبهم وأنينهم الأليم. لكنني اقترفت الخطيئة كذلك. ولمقدرتي على إخراج نفسي منها وقطع ارتباطي بجوانبها الشخصية، وأجساد ضحاياها، ولحومهم، وصرخات غضبهم، ربما كنتُ المذنب الأكبر في خاتمة المطاف.

شحت ببصري عن البحر والخليج والسماء الأرجوانية. أغلقت عيني عن ذلك الجدار الذي بناه أولئك الرقيق الممزقون المأخوذون قسرا من أوطانهم الإفريقية. حاولت طرد كل تلك الأفكار

من رأسي. وحينما فتحت عيني، وجدت نفسي أحدق إلى الفراغ لتقع عيني على عصًا خشبية غليظة تشبه عصا مضرب كرة البيسبول، لكن بضعف طولها. قفزت من مكاني وتناولت العصا وأخذت أضرب بقايا الجدران الصخرية. ضربت وضربت حتى خارت قواي، ووقعت منهارا من التعب على العشب. بقيت مستلقيا أشاهد الغيوم تشق السماء ببطء.

في خاتمة المطاف، عدت صوب الزورق. بقيت على الشاطئ أنظر إلى المركب الراسي في تلك المياه اللازوردية، وأدركت ما يتوجب عليّ فعله. لا بد من تحمل المسؤولية. عرفت أني إذا ما عدت أدراجي إلى حياتي السابقة، إلى شركة ماين وما تمثله، فإني سأضيع إلى الأبد. وستظل العلاوات، والمعاشات التقاعدية، والتأمين، والامتيازات، وحقوق الملكية ـ تظلّ كلها تسحبني دون رجعة.

كلما بقيت أكثر، زادت صعوبة الخروج من تلك الدوامة أكثر. كان بوسعي ترك كل تلك الأشياء تضربني كما ضربت الجدران الحجرية، أو أن أعمد إلى الهروب.

عدت إلى بوسطن بعد يومين من ذلك. بحلول الأول من نيسان العام 1980، دخلت إلى مكتب بول بريدي وقدمت استقالتي.

القسم الخامس

1981-2004

28

مصرع الرئيس الإكوادوري

لم تكن مغادرة شركة ماين بالأمر الهين. رفض بول بريدي تصديقي، وغمز بعينه وقال «كذبة نيسان، أليس كذلك؟».

أكدت له جدية كلامي. استرجعت نصيحة باولا عن ضرورة عدم القيام بأي شيء يستفز أيًّا كان أو يثير حفيظة أو شكوكاً عن احتمال كشف عملي كقاتل اقتصادي، وشددت على تقديري لكل شيء قدمته وقامت به شركة ماين لأجلي، إلا أني كنت في حاجة إلى المضي قدما. لطالما أردت الكتابة عن الناس الذين عرفتني بهم شركة ماين عبر أنحاء العالم، لكن من دون التطرق إلى السياسة. قلت إني أريد العمل بصفة مراسل حر لمجلة ناشيونال جيوغرافيك ومجلات أخرى، مع الاستمرار بالسفر عبر أنحاء العالم. وشددت على إخلاصي لشركة ماين وأقسمت على التغني بمدائحها في كل محفل. في ذلك الوقت، صدقت كل شيء قلته بلساني. أردت الخروج بكل بساطة وحسب. أردت الإقلاع عن الاستعباد. استسلم بول في خاتمة المطاف.

بعد ذلك، حاول الجميع إقناعي بالعدول عن قرار الاستقالة. ذكرني الجميع مرارا وتكرارا بجودة عملي، وحتى إن البعض اتهمني بالجنون. فهمت من كل ذلك رفض الجميع قبول فكرة استقالتي الطوعية، الأمر الذي دفعهم ـ جزئيا ـ إلى التفكير بأنفسهم في ضوء قراري. وما لم يكن قرار مغادرتي جنونيا، فلا بد لهم من النظر في سلامة عقولهم لرغبتهم في البقاء. كان من الأسهل عليهم رؤيتي كشخص غادر بملء جوارحه وعقله.

بدت ردود أفعال الكادر بمعيتي مزعجة على نحو خاص. في عيونهم، بدا الأمر كأني أتخلى عنهم، في حين لم يوجد خليفة قوي يلوح في الأفق. لكنني حسمت أمري. فبعد كل سنوات التردد التي عشتها، هأنذا مصمم على الشروع ببداية نظيفة.

لسوء الحظ، لم ينجح الأمر بهذه الطريقة. وصحيح أني أصبحت بلا عمل، إلا أني بخروجي من واقع الشريك الكامل فقدت الموارد المالية، وما بقي لدي من أموال ليس كافيا للتقاعد. ولو بقيت في شركة ماين لبضعة أشهر أخرى، فلربما حققت هدف المليونير بعمر الأربعين الذي تخيلته يوما، إلا أني كنت في الخامسة والثلاثين ولا يزال أمامي الكثير حتى الوصول إلى ذلك الهدف. كان الجو باردا وكئيبا في شهر نيسان في بوسطن.

في أحد الأيام، اتصل بي يول بريدي وطلب مقابلتي في مكتبه. قال الرجل: «يهدد أحد عملائنا بتركنا»، وأضاف: «لقد وظّفونا لأنهم يريدون منك تمثيلهم على منصة الشهود الخبراء».

فكرت كثيرا بعرض بريدي. حسمت قراري بحلول موعد لقائنا معًا. وضعت الرقم الذي أريد، وكان مبلغ أتعاب بقيمة ثلاثة أضعاف المرتب الذي تقاضيته من شركة ماين. فاجأتني موافقة بريدي، وبدأتُ عملا جديدا.

إبان السنوات القليلة التالية، عملت كخبير شاهد بأجر مرتفع لصالح شركات المرافق الكهربائية الأميركية بوجه خاص، لا سيما تلك الشركات الرامية إلى استحصال موافقات إنشاء محطات طاقة كهربائية من جانب الهيئات الحكومية العامة ذات الاختصاص. كانت شركة نيو هامبشاير لمرافق الخدمات العامة من جملة زبائني. تمثل عملي، تحت القسم، بتبرير الجدوى الاقتصادية لمحطة سيبروك النووية الكهربائية المثيرة للجدل. صدقت الأمر في بداية المطاف.

على الرغم من أني عدتُ لا أكون منخرطا في العمل في أميركا اللاتينية على نحو مباشر، فإني بقي أتابع الحوادث هناك. كخبير شاهد، توفر لدي وقت كثير ما بين جلسات الشهادة على المنصة، وبقيت على تواصل مع باولا وجددت صداقاتي القديمة من أيام فيالق السلام في الإكوادور، هذا البلد الذي قفز إلى مركز الحوادث العالمي لسياسات النفط الدولية.

استمر جايمي رولديوس بالمضي قدما. أخذ الرجل وعود حملته الانتخابية على محمل الجد وشن هجوما شاملا ضد الشركات النفطية. بدا أنه يرى بوضوح من خلال الأشياء التي فاتت الآخرين عبر جانبي قناة بنما، أو تجاهلوها بمحض إرادتهم. فهم رولديوس التيارات الخفية التي تهدد بتحويل العالم إلى امبراطورية عالمية مع تقليص دور مواطني بلاده إلى مستوًى ضئيل جدا، دور يقترب من العبودية. عبر قراءتي لمقالات الصحف عنه، أثار رولديوس إعجابي لا لمجرد

التزامه، وإنما لمقدرته على فهم واستيعاب القضايا الأعمق. وقد أشارت القضايا الأعمق إلى حقيقة دخولنا حقبة سياسية عالمية جديدة ولا شك.

شهر تشرين الثاني من العام 1980، خسر كارتر في الانتخابات الرئاسية لصالح رونالد ريغان. جاءت تلك الخسارة لجملة من العوامل الرئيسية شملت معاهدة قناة بنما التي فاوض عليها توريخوس، والموقف في إيران، لا سيما قضية الرهائن المحتجزين في السفارة الأميركية ومحاولة إنقاذهم الفاشلة. إلا أن شيئا أدق كان في طور التبلور. غادر رئيس كرّس نفسه لتعزيز السلام العالمي وتقليل اعتماد أميركا على النفط، ليحل محله رئيس يؤمن بأن مكان الولايات المتحدة الصحيح لا يكون إلا من خلال اعتلائها قمة الهرم العالمي اعتمادا على عضلاتها العسكرية، وأن السيطرة على حقول النفط أينما كانت تمثل جزءًا محوريًّا من إعلان «مصيرنا الواضح». رحل رئيس نصب ألواح الطاقة الشمسية على سطح البيت الأبيض ليحل محله آخر قرر إزالة تلك الألواح بمجرد دخوله إليه.

ربما كان كارتر سياسيًّا ضعيفًا، إلا أنه توفر على رؤية لأميركا تتوافق مع الرؤية الواردة في إعلان الاستقلال الأميركي. بالعودة إلى الماضي، بدا كارتر ساذجا وباليا، رئيسا عاد إلى تلك المُثُل التي رسمت شكل أمته وجذبت العديد من أجداده إلى شواطئ هذه البلاد. وحينما نقارنه بأسلافه وخلفائه المباشرين، بدا كارتر بمثابة حالة شاذة. في واقع الحال، لم تكن رؤيته إلى العالم متسقة مع رؤية قتلة الاقتصاد.

في مقابل ذلك، كان ريغان، وبلا شك، أحد بُناة الامبراطورية العالمية الأشداء، وخادما وفيا لسلطة الشركات. إبان وقت انتخابه، وجدت شخصيته متناسبة وكونه ممثلا من هوليوود، رجلا اتبع التعليمات الصادرة من أقطاب المال والصناعة الأميركيين، رجلا يعرف كيفية تنفيذ التعليمات. كانت تلك بصمته. ولسوف يحابي أولئك الرجال المتنقلين جيئةً وإيابا ما بين مكاتب رؤساء مجالس إدارات الشركات وهيئات البنوك من جهة ومؤسسات الحكومة من جهة أخرى. لقد خدم ريغان أولئك الرجال الذين بدا أنهم يخدمونه، إلا أنهم كانوا من يديرون الحكومة في واقع الحال، رجال كنائب الرئيس جورج بوش الأب، ووزير الخارجية جورج شولتز، ووزير الدفاع كاسبر واينبيرغر، وريتشارد تشيني، وريتشارد هيلمز، وروبرت مكنمارا. ولسوف يكرس ما يريده أولئك الرجال ويدافع عنه، متمثلا في فرض السيطرة الأميركية على العالم وموارده، عالم ينصاع

لتعليمات ورغبات أميركا، عالم ينفذ بحكم القوة العسكرية الساحقة تلك القوانين المكتوبة بيد أميركا، فضلا عن تكريس نظام تجارة وبنوك دولي يدعم أميركا كرئيس مجلس إدارة للامبراطورية العالمية.

بينما جلست أستشرف المستقبل، بدا أننا كنا بصدد دخول حقبة ممتازة لعمل قتلة الاقتصاد. كان ذلك انحرافا آخر في مسار القدر حينما اخترت تلك اللحظة من التاريخ للرحيل عن هذا العالم. إلا أني كلما تفكرت في هذا الكلام أكثر، شعرتُ أنه أفضل. أدركت صحة توقيتي فعلا.

فيما يتعلق بمغزى هذا الكلام للمستقبل، لم يكن لدي من بلورة سحرية لقراءة الطالع، إلا أني عرفت من خلال التاريخ أن الامبراطوريات لا تدوم وأن البندول يتَرَجَّح في كلا الاتجاهين. من منظور شخصي، كان الأمل موجودا بوجود رجال مثل رولديوس. كنت واثقا من فهم الرئيس الإكوادوري للكثير من التفاصيل الدقيقة حول الموقف الراهن. وعرفت أنه من المعجبين بتوريخوس وهلل لشجاعة موقف كارتر فيما يخص قضية قناة بنما. كنت واثقا بأن رولديوس لن يتعثر. ولم يسعني إلا الأمل في أن يضيء ثباته شمعة أمل للزعماء في الدول الأخرى ممن يحتاجون إلى هذا النوع من الإلهام الذي يمثله توريخوس ورولديوس.

بداية العام 1981، رفعت إدارة رولديوس رسميا مشروع قانون الهايدروكاربونات الجديد لمجلس الشيوخ الإكوادوري. وفي حال تطبيقه، يصلح هذا القانون الجديد علاقة البلاد مع الشركات النفطية. في نظر الكثيرين، بدا القانون الجديد ثوريا وحتى راديكاليا، ومن المؤكد أنه استهدف تغيير طريقة العمل القائمة، ولسوف يكون له تأثير كبير يمتد إلى خارج حدود الإكوادور، وصولا إلى معظم دول أميركا اللاتينية وباقي أرجاء العالم.[74]

ردّت الشركات النفطية كما كان متوقعا لها، وقامت بكل ما في وسعها لإفشال الموضوع. تحرك موظفو العلاقات العامة في تلك الشركات بهدف شيطنة وتشويه صورة جايمي رولديوس، في حين انتشرت جماعات الضغط التابعة إلى تلك الشركات عبر أرجاء كويتو وواشنطن، حاملة حقائب مِلْئها التهديدات والأموال. أرادت تلك الشركات تلطيخ صورة أول رئيس منتخب ديمقراطيا في تاريخ الإكوادور المعاصر لإظهاره كما لو كان كاسترو آخر. لكن رولديوس ما كان من نوعية الرجال الذين يخضعون للترويع. رد الرجل باستنكار واستهجان المؤامرة ما بين السياسة والنفط

والدين. وعلى الرغم من أنه لم يقدم أي دليل ملموس، وجه الرئيس الإكوادوري الاتهام علنا للمعهد الصيفي للغويات بالتواطؤ مع الشركات النفطية، ومن ثم خطى خطوة جريئة جدا حينما قرر طرد المعهد من البلاد.[75]

في غضون أسابيع من إرسال حزمته التشريعية إلى مجلس الشيوخ الإكوادوري، وبعد أيام من طرد إرساليات معهد اللغويات التبشيرية، أطلق روليديوس تحذيرا لجميع المصالح الأجنبية في البلاد، بما فيها الشركات النفطية وغيرها، قائلا إنها ستتعرض للطرد خارج البلاد ما لم تطبق الخطط الرامية إلى مساعدة الشعب الإكوادوري. وألقى الرجل خطابا كبيرا في ملعب آتاهوالبا الأولمبي في كويتو ومن ثم توجه إلى إحدى مناطق المجتمعات المحلية جنوبي الإكوادور.

لقي روليديوس حتفه في حادث تحطم طائرة مريع بتاريخ الرابع والعشرين من آيار، 1981.[76]

صُدِم العالم لذلك الحادث، في حين عم الغضب أرجاء أميركا اللاتينية. اشتعلت الصحف عبر أرجاء نصف الكرة الأرضية الغربي بعناوين من نوعية «اغتيال تنفذه وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية!». إلى جانب حقيقة كره واشنطن والشركات النفطية لروليديوس، كان هنالك الكثير مما يدعم هذه المزاعم على ما يبدو، وإن تلك الشكوك تصاعدت مع تكشف الحقائق أكثر. لم يثبت شيء قط، إلا أن شهود العيان زعموا أن روليديوس ـ الذي تلقى تحذيرا مسبقا من محاولة اغتيال تستهدف حياته ـ اتخذ احتياطاته، بما في ذلك السفر بطائرتين. وفي اللحظة الأخيرة، قيل إن أحد ضباط الحماية أقنع الرئيس بصعود الطائرة المُعَدَّة للتمويه. انفجرت تلك الطائرة.

وعلى الرغم من الصدمة العالمية، بالكاد وصلت الأخبار إلى الصحف الأميركية.

تولى أوزفالدو هورتادو رئاسة الإكوادور. تحت ولايته الرئاسية، عاد معهد اللغويات إلى مزاولة نشاطاته والعمل في الإكوادور، في حين حصل أفراد إرسالياته على سمات دخول خاصة. وبحلول نهاية العام، دشن الرئيس الجديد برنامجا طموحا لزيادة عمليات حفر الآبار بتنفيذ من جانب شركة تكساسكو وشركات أجنبية أخرى في خليج غواياكويل وحوض الأمازون.[77]

من جانبه، أبّن عمر توريخوس الراحل روليديوس واصفا إياه بـ«الأخ»، واعترف برؤيته كوابيس حول اغتياله، حيث رأى نفسه يسقط ككرة نارية من السماء. وكانت تلك نبوءة بحق.

29

بنما: مصرع رئيس آخر

صدمني مصرع رولديوس، لكن ما كان لي أن أتفاجأ. لم أكن شخصًا ساذجًا قط. عرفت كل شيء حول آربينز، ومصدق، وإلينيدي، وحول الكثيرين ممن لم تصل أسماؤهم قط إلى صفحات الجرائد وكتب التاريخ ممن دمرت حياتهم أو أُنهيت لا لشيء إلا لأنهم وقفوا في وجه سلطة الشركات. لكنني شعرت بالصدمة مع كل ذلك. شعرت بالصدمة بعد أربعة أشهر من تنصيب ريغان رئيسا للولايات المتحدة. كان أمرا صارخا بحق.

بعد النجاح الباهر الذي حققناه في العربية السعودية، تصوَّرت أن الأعمال العلنية الطائشة من هذا النوع باتت ضربا من ضروب الماضي. تصورت أن أبناء آوى أُعيدوا إلى أقفاصهم في حدائق الحيوانات. لكنني أدركت الآن خطأ تصوري. لم يكن لدي من شك في أن مصرع رولديوس كان أمرا مدبرا. حمل ذلك الحدث كل علامات وإشارات الاغتيال المنظم على طريقة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

استوعبت أن ما حصل كان إعداما صارخا بطريقة ترسل رسالة قوية ومقصودة. مثلت إدارة ريغان الجديدة مع صورة راعي بقر هوليوود السريعة أداةً ممتازة لنقل رسائل من هذا النوع. عاد أبناء آوى من جديد، وأرادوا عمر توريخوس وكل من يفكر في الانخراط ضمن الحملة المناهضة لسلطة الشركات.

لكن توريخوس لم يكن من النوع الذي يرتدع. وكما هو الحال مع رولديوس، رفض توريخوس ترويعه. ثم إنه، وعلى غرار رفيقه، قرر طرد إرساليات معهد اللغويات، ورفض بشدة محاولات إدارة ريغان إعادة التفاوض حول معاهدة القناة.

لم يمْضِ سوى شهرين على مصرع رولديوس حتى تحقق كابوس توريخوس وقضى بحادث سقوط طائرة. كان ذلك في الحادي والثلاثين من تموز العام 1981.

اضطربت أميركا اللاتينية والعالم. عُرِف توريخوس عبر جميع أرجاء العالم، وكان رجلا محترما أجبر الولايات المتحدة على إعادة قناة بنما إلى أصحابها الشرعيين، والذي استمر بوقوفه في وجه إدارة رونالد ريغان. وقف توريخوس إلى جانب حقوق الإنسان وفتح ذراعيه لاستقبال اللاجئين من جميع ألوان الطيف السياسي المتنوع، بمن فيهم شاه إيران، فضلا عن كونه صوتًا جذابًا وعاليا في سبيل العدالة الاجتماعية، ورجلًا اعتقد الكثيرون أنه سَيُرَشّح لنيل جائزة نوبل للسلام. لكنه الآن ميت وحسب. ومن جديد، عادت مقالات وافتتاحيات الصحف تقول: «اغتيال تنفذه وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية!».

صدحت أصوات الناس في كل مكان تطالب واشنطن بفتح تحقيقات في أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. إلا أن ذلك ما كان ليحصل في أي وقت قريب. كان هنالك الكثير ممن يكرهون توريخوس، كثيرون ضمن قائمة أناس أقوياء للغاية. قبل مصرعه، عبّر بعض أولئك عن مشاعر كرههم للرجل علانية. ومن بين أولئك، كان الرئيس ريغان، ونائب الرئيس بوش، ووزير الدفاع واينبيرغر، فضلا عن رئيس هيئة الأركان الأميركية المشتركة وعدد من رؤساء مجالس إدارات العديد من كبريات الشركات القوية.

مثلت شركة باكتل نموذجا بارزا على العلاقة الدافئة ما بين الشركات الخاصة والحكومة الأميركية. عرفت شركة باكتل على نحو جيد، حيث عادةً ما عملنا ــ ضمن شركة ماين ــ مع باكتل، وكان كبير مهندسيها المعماريين صديقا مقربا لنا. تعد باكتل واحدة من أكثر الشركات الهندسية والإنشائية نفوذا في الولايات المتحدة. تضمنت قائمة رؤسائها وكبار موظفيها شخصيات مثل جورج شولتز وكاسبر واينبيرغر، وكلاهما كره توريخوس لمساعي الأخير تنفيذ خطة يابانية لاستبدال قناة بنما الحالية بأخرى جديدة أكثر كفاية.[78] ولم يكن من شأن خطوة كهذه نقل عائدية القناة من الولايات المتحدة إلى بنما وحسب، وإنما ستستثني شركة باكتل من المشاركة في أكثر المشاريع الهندسية إثارة وربحية في القرن العشرين.

وقف توريخوس بالضد من أولئك الرجال. والآن بات الرجل ميتاً، وسيحل محله متدرب يدعى مانويل نوريغا، وهو رجل يفتقر إلى ذكاء توريخوس وجاذبيته وحنكته، رجل شك الكثيرون عبر العالم بقدرته على الوقوف ضد رجالات ريغان وبوش وباكتل.

لو قدّر للرجل البقاء على قيد الحياة، فإن كان ليعمل على كبح جماح العنف المتزايد الذي اكتسح العديد من دول أميركا الوسطى والجنوبية، ودول البحر الكاريبي. وبناءً على تاريخه، يمكننا افتراض أنه سيسعى إلى العمل على إيجاد ترتيبات بهدف تلطيف صورة الدمار التي أحدثتها شركات النفط العالمية في مناطق الأمازون، والإكوادور، والبرازيل، وكولومبيا، وبيرو. ومن نتائج هذا الكلام تخفيف حدة الصراعات الرهيبة التي تشير إليها الولايات المتحدة ـ ومعها السياسيون مسؤولو إنفاذ القانون الأميركيون الفاسدون، ومعهم دول أخرى ـ بحروب الإرهابيين والمخدرات، تلك الأعمال التي كان توريخوس ليرى فيها أفعالا صادرة عن أناس يائسين وغاضبين. والأهم من ذلك أني شعرت يقينا بأن توريخوس كان ليؤدي دورا نموذجيا يلهم الجيل الجديد من الزعماء في الأميركيتين، وإفريقيا، وآسيا، الأمر الذي ما كان ممكنا لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، ووكالة الأمن القومي الأميركية، ومعهما قتلة الاقتصاد السماح به بكل تأكيد.

30

شركتي المختصة في مجال الطاقة وجورج بوش الابن

مضت أشهر عدّة على آخر لقاء جمعني وباولا حينما لقي توريخوس مصرعه. واعَدْتُ نساءً أخريات بمن فيهن وينفريد غرانت، وكانت مخططة بيئية شابة التقيتها في شركة ماين، وتصادف عمل والدها بمنصب كبير المهندسين المعماريين في شركة باكتل. أما باولا فقد واعدت صحفيا كولومبيا، إلا أننا بقينا صديقين.

عانيت في عملي كخبير شاهد، لا سيما في تبرير محطة سيبروك النووية للطاقة الكهربائية. غالبا ما بدا الأمر كما لو أني عدت إلى الدور ذاته وبعت روحي في سبيل المال من جديد. دعمتني وينفريد بقوة في تلك الفترة. كانت المرأة ناشطة بيئية صريحة، إلا أنها فهمت الضرورات العملية لإنتاج مقادير متزايدة من الكهرباء. نشأت وينفريد في منطقة بيركلي من ساحل سان فرانسسكو الشرقي وتخرجت في جامعة بيركلي. تمتعت الفتاة بتفكير حر ورؤًى عن الحياة تتعارض مع رؤى والديَّ وآن المتشددة.

تطورت علاقتنا بمرور الوقت. حصلت وينفريد على إجازة من شركة ماين وقضتها معي في رحلة بحرية على متن مركبي. توجهنا جنوبا نحو ساحل فلوريدا الأطلسي. أخذنا وقتنا، وغادرنا المركب في موانئ مختلفة كي أتمكن من حضور جلسات الشهادة كخبير. في خاتمة المطاف، أبحرنا نحو خليج بالم بيتش الغربي في فلوريدا، واستأجرنا شقة هناك. تزوجت بوينفريد ورزقنا بابنتنا جيسيكا شهر أيار من العام 1982. لم نرزق أنا وآن بأطفال من قبل. كنتُ في سنّ السادسة والثلاثين، وأكبر من معظم الرجال الذين يحضرون دروس تدريب «الأبوة» في مركز لاماز.

كجزء من عملي على قضية سيبروك، توجب علي إقناع هيئة خدمات نيوهامبشاير العامة بأن محطة طاقة نووية تمثل الخيار الاقتصادي الأمثل لتوليد الكهرباء في الولاية. ومن المفارقات أني كلما درست القضية أكثر، شعرت بشكوك أعمق إزاء صحة جدلياتي عن الموضوع. تتغير

الآراء طول الوقت، وتشير إلى توسع الدراسات والأبحاث التي تؤكد على نحو متزايد بأن العديد من البدائل المتوفرة أفضل تقنيًّا واقتصاديًّا، وآمَنُ من الطاقة النووية.

قررت في أحد الأيام إبلاغ رؤسائي في شركة نيوهامبشاير للطاقة الكهربائية عجزي عن الشهادة لصالحهم. تخليت عن مهنة مربحة جدا وقررت تأسيس شركتي الخاصة ونقل بعض التكنولوجيا من لوحات العرض ومعها النظريات المكتوبة بالأوراق إلى التطبيق العملي.

بعد أشهر قليلة من ولادة جيسيكا، أسست شركة خاصة أطلقت عليها اسم Independent Power Systems (آي بي أس)، وتضطلع بمهمة تطوير محطات الطاقة الكهربائية الصديقة للبيئة، مع تأسيس نماذج تلهم الآخرين باتباعها. كان عملا عالي المخاطر، إذ فشل معظم منافسينا بنهاية المطاف. لكن «المصادفات» أنجدتنا. في واقع الحال، كنت واثقا في العديد من المرات بوجود من يتحرك لمساعدتي مقابل خدماتي السابقة والتزامي الصمت.

قبل برونو زامبوتي منصبا رفيعا في بنك التنمية للبلدان الأميركية، وقد وافق على العمل ضمن مجلس إدارة (آي بي أس) والمساعدة على تمويل الشركة الناشئة. تلقينا دعما من مؤسسة بانكرز ترست، وإي أس آي للطاقة، وشركة بروديشيال للتأمين، فضلا عن شركتي تشادبورد، وبارك (وهي من كبريات شركات وول ستريت للمحاماة التي كان عضو مجلس الشيوخ الأميركي الأسبق، والمرشح الرئاسي، ووزير الخارجية إد موسكي، شريكا فيها)، فضلا عن شركة رايلي ستوكر (وهي شركة هندسية مملوكة لشركة آشلاند النفطية التي صممت وبنت مراجل محطة طاقة متطورة ومبتكرة للغاية). وتلقينا دعما من مجلس الشيوخ الأميركي الذي منحنا استثناءً ضريبيًّا خاصًّا دعمنا على نحو خاص في مواجهة منافسينا.

عام 1986، بدأت شركتا (آي بي أس) وباكتل في آن واحد ـ وعلى نحو مستقل بعضهما عن بعض ـ ببناء محطات طاقة تستخدم تكنولوجيا حديثة جدا لحرق مخلفات الفحم من دون التسبب بهطول مطر حامضي. في ذلك الوقت، كان الناس أكثر قلقا إزاء المطر الحامضي (ثاني أوكسيد الكبريت، وأكاسيد النيتروجين والجسيمات العالقة بالهواء) مقارنة بالانبعاثات الكربونية. بحلول نهاية العقد، أحدثت المحطتان ثورة في صناعة المعدات، وأسهمتا على نحو مباشر في تشريع القوانين الوطنية لمنع التلوث، وذلك عبر إثبات إمكانية تحويل الكثير مما تسمى بمنتجات المخلفات

إلى طاقة كهربائية، مع إمكانية حرق الفحم من دون إنتاج مطر حامضي، وبالتالي تفنيد مزاعم شركات إنتاج الكهرباء الأخرى القائلة بعكس ذلك. وأثبتت المحطة التي نفذناها أن التكنولوجيات الحديثة غير المثبتة سابقا، يمكن تمويلها عبر شركات مستقلة صغيرة ومن خلال مؤسسات وول ستريت فضلا عن باقي الوسائل التقليدية الأخرى.[79] وكمنفعة مضافة، ضخت المحطة هواءً حارًّا إلى بيوت زجاجية زراعية بمساحة ثلاثة هكتارات ونصف تعمل بالتقطير، وذلك عوضًا عن برك أو أبراج التبريد.

منحني دوري كرئيس لشركة آي بي أس رؤية لصناعة الطاقة من الداخل. في خضم هذا العمل، تعاملت مع بعض أكثر الناس نفوذا في مجال الأعمال، بمن فيهم محامون، وجماعات ضغط، ومصرفيون استثماريون، فضلا عن بعض كبار المديرين التنفيذيين في بعض الشركات الكبرى. وتمتعت بميزة أخرى تمثلت في والد زوجتي الذي قضى أكثر من ثلاثين عاما في شركة باكتل، وارتقى إلى منصب كبير المهندسين المعماريين فيها، والذي يتولى الآن مسؤولية بناء مدينة جديدة في العربية السعودية ـ الأمر الذي كان نتيجة مباشرة للعمل الذي قمت به بداية سبعينيات القرن الماضي ـ إبان عملية تبييض الأموال السعودية.

عاشت صناعة الطاقة نموًّا كبيرًا. سعت الشركات الهندسية الكبرى إلى الاستحواذ على شركات صناعة مرافق الطاقة ـ أو إنها تنافست معها في الأقل ـ التي تمتعت بميدان عمل احتكاري محلي إلى حد بعيد فيما سبق. بات إلغاء القيود شعار اليوم، وتغيرت القوانين بين ليلة وضحاها. ازدحمت الفرص أمام الناس الطموحين بغية الإفادة من الوضع الذي حير المحاكم ولجان مجلس الشيوخ. ومن اللافت إطلاق بعض المنتقدين على تلك الحقبة تسمية «غرب الطاقة المتوحش».

وقعت شركة ماين من بين ضحايا هذا التيار. وكما توقع برونو، فقَدَ ماك هول صلته بالواقع ولم يجرؤ أحد على مكاشفته بذلك، وعجز بول بريدي عن تحقيق أي سيطرة مطلقا، عدا عن أن فشل شركة ماين لم يقتصر على إضاعة فرص الاستفادة من التغييرات التي اكتسحت الصناعة وإنما تعداها إلى ارتكاب سلسلة من الأخطاء القاتلة كذلك. ولم تمضِ سوى سنوات قليلة على معدلات الأرباح القياسية التي حققها برونو حتى وجدت شركة ماين نفسها تتخلى عن دور القاتل الاقتصادي لتدخل منحدرا ماليا خطيرا. عمد الشركاء إلى بيع شركة ماين لواحدة من كبريات الشركات الهندسية والإنشائية التي لعبت اللعبة على نحو صحيح.

إبان خروجي من الشركة، وبينما تلقيت ما يقارب ثلاثين دولارا عن السهم الواحد حسب أسعار العام 1980، لم يتحصّل الشركاء المتبقون إلا على أقل من نصف هذا الرقم بعد أقل من أربع سنوات لاحقا. وهكذا، انتهت مئة عام من الخدمة «العالية» إلى إذلال وحضيض. شعرت بالحزن على زملائي الذين بقوا، إلا أن ذلك ترافق وشعوراً بالتبرير الذاتي لما قمت به حين خرجت من الشركة بالمقام الأول. استمر اسم شركة ماين تحت ملكية جديدة لبعض الوقت قبل إلغائه. وها هو الشعار الذي كان له وزنه ما بين الدول عبر أرجاء المعمورة يطويه النسيان. أما فيما يخصنا نحن المهتمين بالنفط والمسرح الدولي، فقد كان هنالك موضوع نوقش على نحو متكرر تمثل في: نجل نائب الرئيس جورج بوش. فشلت شركة بوش الابن النفطية الأولى التي حملت اسم Arbusto (وهو اللفظ الإسباني لكلمة بوش) فشلا ذريعا، الأمر الذي لم يحسم إلا عبر إنقاذها من خلال إدماجها في شركة «سبكترم 7» عام 1984. بعد ذلك، وجدت شركة سبكترم 7 نفسها على حافة الإفلاس قبل شرائها من جانب شركة هاركين للطاقة عام 1986. وقد بقي جورج بوش الابن ضمن مجلس إدارة الشركة براتب سنوي مقداره 120000 دولار (أي ما يعادل 315000 دولار بأسعار العام 2022).[80]

افترضنا جميعا أن وجود أب بمنصب نائب الرئيس الأميركي لا بد من أخذه في نظر الاعتبار أثناء قرار التعيين، لا سيما مع سجل منجزات بوش الابن السيئ كمدير تنفيذي في مجال النفط. ولم يبد الأمر من قبيل المصادفة انتهاز شركة هاركين الفرصة للخروج إلى عالم العمل الدولي للمرة الأولى في تاريخها، وشروعها البحث بنشاط عن استثمارات نفطية في الشرق الأوسط. في هذا السياق، أوردت مجلة فانيتي فير قائلة: «بمجرد تولي جورج بوش الابن منصبه ضمن مجلس الإدارة، أخذت الأشياء الرائعة تحصل لشركة هاركين، أشياء ما بين استثمارات جديدة، ومصادر تمويل غير متوقعة، فضلا عن حقوق تنقيب اكتُسِبت بالمصادفة».[81]

عام 1989، خاضت آموكو مفاوضات مع الحكومة البحرينية حول حقوق أعمال حفر بحرية. انتخبت أميركا نائب الرئيس الأميركي جورج بوش الأب رئيسا لها. بعد وقت قصير، رتب مستشار وزارة الخارجية الأميركية، مايكل أمين، المكلف بإيجاز السفير الأميركي المعين للتو في البحرين، تشارلز هوستلر، رتب للقاء جمع الحكومة البحرينية مع شركة هاركين. فجأة، وعلى نحو غير متوقع، أخذت هاركين مكان أموكو. وعلى الرغم من أنها لم يسبق لها العمل بالحفر خارج

الجنوب الشرقي للولايات المتحدة، ولم تعمل في الحفريات البحرية من قبل قط، فازت هاركين بحقوق حفر حصرية في البحرين، الأمر الذي لم يسبق له مثيل في العالم العربي. في غضون أسابيع قليلة، ارتفع سعر سهم هاركين في البورصة بمقدار 20%، من 4.5 دولار إلى 5.5 دولار للسهم الواحد.[82]

شملت الصدمة حتى رجالات النفط المخضرمين إزاء صفقة البحرين. في هذا السياق، قال لي صديق محامٍ تخصص في شؤون صناعة الطاقة وكان داعما قويا للحزب الجمهوري، قال لي معلقًا: «آمل أن لا يقوم الابن بشيء يدفع ثمنه الأب». دار حديثنا على طاولة لشرب الكوكتيل في حانة تواجه شارع وول ستريت من أعلى قمة برج التجارة العالمي. أعرب صديقي عن الحزن وأضاف: «أتساءل حقا عما إذا كان الأمر يستحق كل هذا»، وأضاف وهو يهز رأسه بقدر من الانزعاج قائلا: «هل تستحق وظيفة الابن المخاطرة بالرئاسة يا ترى؟».

من جانبي، لم أكن مصدوما بقدر صديقي، إلا أني توفرت على منظور فريد من نوعه. لقد عملت لصالح حكومات الكويت، والعربية السعودية، ومصر، وإيران، وكنت على اطلاع عميق بسياسات الشرق الأوسط، وعلمت بأن بوش لم يكن إلا جزءًا من شبكة خلقتها أنا وزملائي من قتلة الاقتصاد الآخرين، زملائي من أمراء الإقطاعيات وأسياد المزارع الجدد.[83]

31

حينما تلقيت الرشوة

إبان ذلك الوقت من حياتي، أدركت أننا دخلنا مرحلة جديدة من الاقتصاد العالمي فعلا. بدأت تلك الحوادث مع تولي روبرت مكنمارا ـ وهو أحد الرجال الذين اتخذتهم مثلا أعلى ـ ولايته كوزير للدفاع ورئيسا للبنك الدولي، لتتصاعد الأمور إلى ما هو أبعد من مجرد مخاوفي. ساد منهج مكنمارا المستوحى من «مدرسة الاقتصاد الكنزية» إلى جانب دفاعه المستميت عن أسلوب القيادة العدواني الذي شاع آنذاك. توسعت موجة قتلة الاقتصاد الأولى ما بعد الحرب العالمية الثانية لتشمل جميع أنواع المديرين التنفيذيين ضمن جملة واسعة ومتنوعة من الشركات والأعمال. ربما لم تعين وكالة الأمن القومي أولئك الرجال أو تحدد ملامحهم، إلا أنهم أدوا وظائف مشابهة.

تمثل الاختلاف الوحيد في عدم حاجة قتلة الاقتصاد من مديري الشركات التنفيذيين إلى استخدام أموال مجتمع البنوك الدولية. ففي الوقت الذي استمر الإصدار القديم بالازدهار، اتخذ الإصدار الجديد من قتلة الاقتصاد مناحِيَ أكثر خطورة بكثير. إبان ثمانينيات القرن الماضي، ارتقى أناس شبان في صفوف الإدارة الوسطى معتقدين ببراغماتية تبرير الوسائل بالنتائج المتمثلة في تحسين المحصلة النهائية. بكل بساطة، لم تكن الامبراطورية العالمية سوى طريق لتعظيم الأرباح وحسب. اكتسبت الموجة الثانية من قتلة الاقتصاد زخما بكل تأكيد.

تجسدت التيارات الجديدة بصناعة الطاقة حيث عملت أنا. أَقَرَّ مجلس الشيوخ قانون تنظيم سياسات المرافق العامة الذي يرمز إليه اختصارا (PURPA) عام 1978، والذي واجه سلسلة من التحديات القانونية، ليتحول في نهاية المطاف إلى قانون نافذ بحلول العام 1982. بدايةً، تخيل مجلس الشيوخ القانون وسيلة لتشجيع الشركات الصغيرة والمستقلة ـ كشركتي ـ بغية دفعها إلى تطوير بدائل للوقود إلى جانب استحداث مناهج جديدة ومبتكرة لإنتاج الطاقة الكهربائية. بموجب ذلك القانون، تلتزم شركات المرافق العامة بشراء الطاقة الكهربائية التي تنتجها شركات صغيرة (التي شُجِّع تأسيسها بموجب القانون الجديد)، بأسعار عادلة ومعقولة (ما يعرف بـ«التكلفة المُتَجَنّبَة»).

جاء هذا الكلام نتيجة لسياسة كارتر الرامية إلى تقليص اعتماد الولايات المتحدة على النفط، كل النفط وليس المستورد وحسب. تمثل هدف القانون الواضح في تشجيع مصادر الطاقة البديلة من جهة وتطوير الشركات المستقلة التي تعكس الروح الريادية لأميركا. لكن الحقيقة كانت شيئا آخر مختلفا تماما كما تبين لاحقا.

إبان فترة الثمانينيات وحتى تسعينيات القرن الماضي، تحول التركيز من الريادة إلى حالة التحرر من القوانين والضوابط. في هذا السياق، قال ميلتون فريدمان من مدرسة شيكاغو للاقتصاد، والذي نال جائزة نوبل في الاقتصاد، إن الهدف النهائي والوحيد للعمل يتمحور على تعظيم الأرباح بصرف النظر عن التكاليف الاجتماعية أو البيئية، وإن إشراف الحكومة ليس ضروريا وغير مفيد بوجه عام. ألهم هذا الكلام، إلى جانب منهج مكنمارا المبني على القيادة العدوانية، رؤساء مجالس الإدارات استخدام عضلات شركاتهم في سبيل التركيز على المحصلة النهائية للعمل. في هذا السياق، ترجمت شركات الطاقة الثرية هذا الكلام إلى أفكار ترخص فعل كل ما يمكن فعله بهدف إحكام سيطرة أكبر على حصص السوق وزيادة الأرباح، وذلك عوضا عن الالتزام بروح قانون تنظيم المرافق العامة الرامي إلى تطوير الأساليب المبتكرة ومصادر الطاقة الجديدة.

تملكني الرعب لمشاهدة كبريات الشركات الهندسية والإنشائية تبتلع العديد من الشركات الصغيرة المستقلة الأخرى، وحتى شركات المرافق العامة ذاتها. لقد وجدت تلك الشركات الهندسية والإنشائية الكبيرة ثغرات سمحت لها بخلق شركات قابضة قادرة على امتلاك شركات المرافق العامة المنظمة بالقوانين السابقة إلى جانب تلك الشركات المستقلة غير المنظمة بقوانين إنتاج الطاقة السابقة (التي شُجِّع تأسيسها بموجب قانون تنظيم سياسات المرافق العامة الجديد). وشرعت بعض كبريات تلك الشركة ببرامج عدائية استهدفت إفلاس الشركات الصغيرة المستقلة بغية تسهيل إجراءات شرائها لاحقا. لكن شركات أخرى نهضت من الصفر وطورت نموذجها ومُكَافِئها الخاص من الاستقلال مرة أخرى.

تلاشت فكرة تقليل اعتمادنا على النفط. في واقع الحال، كان ريغان مَدِينًا بشدة لشركات النفط، في حين بنى جورج بوش الأب ثروته كرجل نفط. وكان العديد من كبار اللاعبين في تينك الإدارتين إما جزءًا من صناعة النفط أو من الشركات الهندسية والإنشائية القريبة منهما بشدة. فضلًا

عن ذلك، وبالمحصلة النهائية، لم يكن مجال النفط والإعمار حزبيا باتجاه واحد، فالعديد من الديمقراطيين أفادوا منه وكانوا مدينين له كذلك.

استمرت شركة آي بي أس بإدامة صورة الطاقة المفيدة بيئيا. التزمنا بأهداف قانون تنظيم سياسات المرافق العامة، وبدا أننا نوجه دفة النجاح نحو حياة رغيدة. كنا واحدة من الشركات القلائل التي تمكنت من البقاء والازدهار. ولا شك لدي في أن سبب ذلك يعود إلى خدماتي السابقة التي أسديتها إلى سلطة الشركات.

رَمَزَ ما يحدث ضمن قطاع الطاقة إلى توجه أثَّر في العالم أجمع. وجدت عقيدة ميلتون فريدمان عن «تعظيم الأرباح» رواجا في صفوف الحكومة وقادة الشركات في كل قارات المعمورة. قضى الجشع على الاعتبارات الأخرى المتعلقة بالرفاه الاجتماعي العام والبيئة ونوعية الحياة. وفي هذا السياق، جرى التركيز بشدة على الترويج للأعمال الخاصة. بدايةً، توفرت المبررات على أسس نظرية، أسس تتضمن فكرة تفوق الرأسمالية التي ستردع الشيوعية. لكن الحاجة إلى هذا التبرير انتفت في خاتمة المطاف. كان من البديهي قبول ملكية المشاريع للمستثمرين الأغنياء عوضا عن الحكومات. من جانبها، دخلت المنظمات الدولية مثل البنك الدولي على خط هذا المفهوم، داعية إلى رفع القيود القانونية وخصخصة أنظمة المياه والصرف الصحي، وشبكات الاتصالات، وشبكات نقل الطاقة الكهربائية، وباقي المرافق والمنشآت التي كانت تحت إدارة الدولة حتى ذلك الوقت.

نتيجة لذلك، بدا سهلا توسعة مفهوم القتل الاقتصادي لمجتمع أكبر، وذلك عبر إيفاد مسؤولين تنفيذيين ضمن طيف واسع من الشركات في مهمات عادة ما كانت من صميم مسؤوليات نخبة قليلة منا نحن أفراد هذا النادي الحصري. انطلق أولئك المديرون التنفيذيون في رحلات إلى جميع أرجاء المعمورة بحثا عن أرخص العمالة، وأكثر الموارد التي يمكن الحصول عليها، عدا عن بعض أكبر الأسواق. كان منهجهم في غاية الشراسة. وكما هو الحال مع قتلة الاقتصاد الذين سبقوهم ــ من أمثالي في إندونيسيا وبنما وكولومبيا ــ وجد هؤلاء وسائل لتبرير أعمالهم السيئة. وكما فعلنا من قبل، أوقع هؤلاء البلاد والعباد في شِرَاكهم، حيث وعدوهم بالثراء عبر اعتماد القطاع الخاص وسيلة لإخراجهم من الديون. لقد بَنَوْا المدارس والطرق السريعة، وتبرعوا بأجهزة الهواتف والتلفاز والخدمات الطبية، ثم إنهم اعتادوا الرحيل بمجرد اكتشاف وجود عمالة أرخص وموارد أفضل في أي مكان آخر. وحينما يتخلى هؤلاء عن مجتمع أو بلد ارتفعت آماله بوعودهم، تنتهي الأمور إلى

عواقب مدمرة، على الرغم من أنهم لا يتورعون عن فعل ذلك دون أي تفكير أو تردد أو وخز ضمير. تضخمت موجة القتل الاقتصادي الثانية بشدة.

لطالما تساءلت ـ على الرغم من كل ما سبق ـ في نفسي كيف يشعر هؤلاء القتلة، وهل تنتابهم لحظات من الشك والحيرة كتلك التي انتابتني. هل سبق لهم الوقوف إلى جوار قناة مائية آسنة لمشاهدة نساء شابات ينزلن الماء بهدف الاستحمام في حين يقف رجل عجوز للتغوط على مقربة يا ترى؟ وهل بقي هناك من أمثال هوارد باركر ليقدم الإجابات عن الأسئلة الصعبة؟

على الرغم من أني تمتعت بنجاحات شركتي وحياتي العائلية كزوج، فإنني عجزت عن مواجهة لحظات خيبة الأمل الشديدة التي عانيت بالمقابل. لقد أصبحت والدا لطفلة صغيرة، وبدأت أخشى عليها من المستقبل الذي سترثه. أثقلني الدور الذي لعبته شعورا بالذنب.

وأمكنني العودة إلى الماضي لأرى نمطا تاريخيا مقلقا للغاية. كان هناك ذلك النظام المالي العالمي الذي أُسس قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية أثناء لقاء زعماء من دول عدة في بريتون وودز، في مسقط رأسي، ولاية نيوهامبشاير. أُسس البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لإعادة بناء أوروبا المدمرة إثر الحرب، الأمر الذي انتهى إلى نجاح باهر. توسع النظام بسرعة، والتزم به جميع حلفاء الولايات المتحدة الكبار باعتباره الدواء الشافي لقمع الشعوب. وقِيلَ لنا إن هذا النهج سيحمينا من براثن الشيوعية الشريرة.

لكنني وقفت عاجزا عن أدراك نهاية ما قد يؤدي إليه هذا الكلام. بحلول نهاية ثمانينيات القرن الماضي، ومع الانهيار الحتمي للاتحاد السوفييتي ومعه الحركة الشيوعية العالمية، بدا جليا أن ردع الشيوعية لم يكن الهدف وحسب، وبقدر ما اتضح أنه ترسيخ وتعزيز الامبراطورية العالمية على الأرض، تلك الامبراطورية التي تضرب جذورها عميقا في الرأسمالية، تلك الامبراطورية التي سيطلق لها العنان.

بينما اعترتني تلك الأفكار وشغلتني قضاياها، قررت عام 1987 أن الوقت حان لتأليف كتاب «ضمير قاتل اقتصادي»، إلا أني أحجمت عن العمل بصمت. لم أكن من نوعية الكتاب الذين يكتبون معزولين، فقد احتجت إلى مناقشة العمل الذي أقوم به. ألهمني أناس آخرون، وطلبت منهم مد

يد العون عبر تذكيري بحوادث الماضي ووضعها في منظورها الصحيح. وفي هذا السياق، أردت تضمين قصص عن قتلة اقتصاد ومعهم «أبناء آوى» آخرين، لأبدأ الاتصال بالناس الذين أعرفهم.

بعد ذلك، تلقيت اتصالا هاتفيا من مجهول هدد فيه حياتي وحياة ابنتي جيسيكا. جاءني اتصال تهديد آخر. شعرت بالرعب يسري في أوصالي، فلقد رأيت ما يستطيع أبناء آوى فعله. لكنني كنت ضائعا بحق. دهمت ذاكرتي كلمات كلودين عن دخول هذا العالم ببطاقة سفر باتجاه واحد دون عودة. وما هي خياراتي على أي حال؟

في اليوم التالي بعد اتصال التهديد الثاني، اتصل بي شريك سابق من شركة ماين وعرض علي عقدا استشاريا مربحا للغاية مع شركة ستون آند ويبستر الهندسية. في حينها، كانت شركة ستون آند ويبستر في مقدَّمة شركات الهندسة والبناء في العالم، وتسعى لتأكيد وترسيخ مكانتها ضمن بيئة صناعة الطاقة المتغيرة. أوضح شريكي أني سأرفع تقاريري إلى شركتهم الفرعية الجديدة، وهي فرع مستقل يُعنى بتطوير الطاقة على غرار شركتي الخاصة. شعرت بالراحة لمعرفة أني لن أشارك في أي أنشطة دولية أو مشاريع من عينة أنشطة القتل الاقتصادي.

وفي واقع الحال، أخبرني أنه لا يُتوقع مني فعل الكثير عمليا. كنت واحدا من أناس قلائل أسسوا وأداروا شركة طاقة مستقلة ناجحة، فضلا عن سمعتي الممتازة في مجال صناعة الطاقة. تَمَثَّل اهتمام شركة ستون آند ويبستر الأساس باستخدام سيرتي الذاتية وتضمينها ضمن قائمة مستشاريها، الأمر الذي كان قانونيا ومتسقا مع ممارسات الصناعة القياسية. بدا العرض جذابا لي بوجه خاص، لا سيما أني فكرت في بيع شركة آي بي أس لجملة من الظروف. رحبت بفكرة الانضمام إلى حظيرة شركة ستون آند ويبستر وتلقي مقدم أتعاب كبير.

في اليوم الذي تقرر فيه تعييني، أخذني رئيس مجلس إدارة شركة ستون آند ويبستر لغداء خاص. تحدثنا على نحو غير رسمي في بعض المواضيع. وفيما كنا نخوض الحديث، أدركت أن جزءًا مني يرغب في العودة إلى عالم الاستشارات وترك التزامات إدارة شركة طاقة معقدة، شركة توظف أكثر من مئة شخص إبان عملنا على إنشاء أحد المرافق، والتعامل مع الالتزامات والمسؤوليات المتعلقة ببناء وتشغيل محطات الطاقة الكهربائية. وتقاذفتني الأفكار عن كيفية إنفاق

مقدم الأجر الذي عرفت أنه سيعرضه علي. في واقع الحال، قررت إنفاق جزء من ذلك المقدم بهدف إنشاء منظمة غير ربحية، إلى جانب أشياء أخرى.

أثناء تناول الحلوى، أخرج مضيفي كتابا من ضمن مجموعة الكتب التي أصدرتها، وكان كتاب «العادات الخالية من الإجهاد». قال لي إنه سمع أشياء جميلة عن كتابي. وجه الرجل نظراته إلى عيني مباشرة وسألني قائلا: «هل تنوي كتابة أي كتب أخرى؟».

تقلصت معدتي فجأة. لقد فهمت كل شيء على نحو مفاجئ. وتذكرت التهديدات كذلك. لم أتردد في الجواب. قلت: «لست أنوي نشر أي كتب جديدة في الوقت الراهن».

قال: «أنا سعيد لسماع هذا». وأضاف: «كما تعلم، فنحن نقدر الخصوصية في شركتنا كما هو الحال مع شركة ماين».

قلت: «أتفهم ذلك».

عاد الرجل لينحني إلى الوراء، وابتسم وبدا مسترخيا، ثم قال: «من المؤكد أن كتبا ككتابك الأخير حول التعامل مع التوتر والإجهاد وأمور كهذه مقبولة تماما. ثم إنها قد تدفع مهنة الإنسان إلى الأمام. وكمستشار لصالح شركة ستون آند ويبستر، فإن لك كل الحرية في نشر هذا النوع من الأشياء». نظر الرجل ناحيتي كما لو كان ينتظر مني ردًّا.

قلت: «من الخير معرفة ذلك».

قال: «هذا مقبول تماما. لكن هذا الكلام يعني عدم الإشارة إلى اسم شركتنا في كتبك مطلقا، وإنك لن تكتب أي شيء يمس طبيعة عملنا هنا أو عملك الذي قمت به لصالح شركة ماين. ثم إنه يعني كذلك تجنب أي مواضيع سياسية أو تعاملات مع البنوك الدولية ومشاريع التنمية». ثم حدق إلى وجهي وقال: «إنها مسألة السرية بكل بساطة».

أكدت له قائلا: «لا داعي إلى ذكر ذلك». للحظة، شعرت بقلبي يتوقف عن الخفقان. عاودني شعور قديم، شعور سبق واختبرته قريبا من هوارد باركر في إندونيسيا، وحينما كنت في السيارة ببنما إلى جوار فيديل، وحينما جلست في المقهى الكولومبي إلى جانب باولا. شعرت بالاستسلام والخيانة من جديد. لم تكن تلك رشوة بالمعنى القانوني الدقيق، فقد كان من البديهي والطبيعي دفع

شركة مقابل تضمين اسمي في قائمتهم، واتصالها بي بهدف المشورة أو الحضور ضمن الاجتماعات من وقت إلى آخر، إلا أني أدركت السبب الحقيقي من وراء توظيفي.

عرض علي الرجل مقدَّمًا رقمًا كبيرًا يوازي مرتب كبار المديرين التنفيذين السنوي.

في وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، جلست في المطار بانتظار رحلتي العائدة من فلوريدا. شعرت بالذهول. في واقع الحال، شعرت كما لو أني كنت عاهرة تبيع نفسها. والأسوأ من ذلك أني شعرت بخيانتي لابنتي وأسرتي وبلادي. لكن مرة أخرى، قلت لنفسي إني لا أملك خيارا. عرفت أني ما لم أقبل تلك الرشوة، سيأتي أبناء آوى لقتل ابنتي دون تردد، قتلي وقتل كل من يتجرأ على كشف القصص والحقائق من وراء نظام القتل الاقتصادي. هأنذا أُعَرَّض للـ«استهداف» بالطريقة ذاتها التي اعتدت استخدامها مع رؤساء الدول وغيرهم إبان عملي كقاتل اقتصادي.

32

الولايات المتحدة تغزو بنما

على الرغم من موت توريخوس، بقيت بنما تحتل مكانة خاصة في قلبي. بحكم سكني جنوب فلوريدا، توفر لدي الكثير من مصادر المعلومات عن الحوادث الجارية في أميركا الوسطى. بقيت تَرِكة توريخوس حية في الأذهان، وحتى مع تعرضها للتشويه على يد أناس لم تزدهر أحوالهم بفعل شخصيته المتعاطفة أو قوته الواضحة. استمرت المساعي الرامية إلى إحداث الفرق عبر نصف الكرة الأرضية الغربي بعد موت الرجل، واستمرَّ كذلك تصميم بنما على إجبار الولايات المتحدة على الالتزام بشروط معاهدة القناة.

بات مانويل نوريغا خليفة توريخوس بحكم الأمر الواقع. بدايةً، أظهر الرجل التزاما بالسير على خطى معلمه. لم يسبق لي مقابلة نوريغا شخصيا، لكن كل المؤشرات دلت على مضي الزعيم البنمي الجديد في طريق قضية فقراء ومعدَمي أميركا اللاتينية. كان الاستمرار باستكشاف آفاق وفرص بناء قناة مائية جديدة بتمويل من اليابانيين من جملة أهم مشاريع نوريغا. وكما كان متوقعا، واجه المشروع معارضة شديدة من جانب واشنطن والشركات الأميركية الخاصة. كما كتب نوريغا شخصيا عن هذا الموضوع يقول:

كان وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز مديرا تنفيذيا سابقا في شركة باكتل الإنشائية متعددة الجنسيات، في حين شغل وزير الدفاع كاسبر واينبيرغر منصب نائب رئيسها. لم يكن هنالك من شيء يعجب باكتل أكثر من كسب المليارات من الدولارات من العوائد التي سيدرها مشروع إنشاء القناة. خشيت إدارات ريغان وبوش الأب إمكانية هيمنة اليابان النهائية على مشروع إنشاء القناة، حيث لم يكن هنالك من قلق غير مبرر إزاء موضوع الأمن بقدر ما كان هنالك التنافس التجاري مع الأميركيين. كان هنالك ذلك الاحتمال الواضح لخسارة شركات الإنشاءات الأميركية صفقة بمليارات الدولارات.[84]

لكن نوريغا لم يكن توريخوس، ولم يتوفر على جاذبية واستقامة الأخير. بمرور الوقت، تطورت سمعة نوريغا السيئة كرجل فاسد وتاجر مخدرات، فضلا عن شكوك بتواطئه مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في موضوع اغتيال توريخوس نفسه، عدا عن الإسهام في ترتيبات اغتيال خصم سياسي آخر يتمثل في هوغو سبادافورا.

بنى نوريغا سمعته عبر الصعود كعقيد ترأس قوات الدفاع البنمية المعروفة باسم الوحدة (جي – 2)، والتي تمثل قيادة الاستخبارات العسكرية التي تعمل كوحدة ارتباط وطنية مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. بهذه الصفة، طور نوريغا علاقة مع مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وِلْيَم جي. كيسي. وقد استخدمت الوكالة هذه الصلة بغية دفع أجندتها عبر منطقة الكاريبي وأميركا الجنوبية. على سبيل المثال، حينما أرادت إدارة ريغان توجيه تحذير مسبق لكاسترو حول غزوها لغرينادا عام 1980، الْتَفَتَ كيسي إلى نوريغا طالبا منه الاضطلاع بدور الرسول. وساعد العقيد وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية على اختراق «كارتيلات» المخدرات الكولومبية الأخرى.

بحلول العام 1984، ارتقى نوريغا إلى رتبة جنرال وقائد عام للقوات المسلحة البنمية. ويُذكر أن كيسي عند وصوله إلى مدينة بنما ذلك العام ولقائه مدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية المحلي في المطار هناك، سأل قائلا: «أين ولدنا؟ أين هو نوريغا؟»، وحينما توجه الجنرال لزيارة واشنطن، التقى الرجلان على انفراد في منزل كيسي. وفي غضون سنوات لاحقا، أقر نوريغا بالروابط العميقة التي تجمعه مع كيسي، وأن تلك الروابط أشعرته بقوة لا تقهر. اعتقد نوريغا بأن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، وكما هو الحال مع الوحدة جي – 2، كانت أقوى مفاصل حكومة البلاد، وأن كيسي سيهب لحمايته على الرغم من موقف نوريغا من معاهدة القناة ومنطقة القواعد العسكرية الأميركية فيها.[85]

لذلك، وفي الوقت الذي برز فيه توريخوس كأيقونة عالمية للعدالة والمساواة، برز نوريغا كرمز للفساد والتفسخ. تأكدت سمعة الرجل السيئة حينما نشرت جريدة نيويورك تايمز في الثاني عشر من حَزِيران العام 1986 مقالا على صدر صفحتها الأولى حمل عنوان: «رجل بنما القوي يتاجر بالمخدرات والأموال غير المشروعة». حسب المقال الذي كتبه سيمور هارش الحاصل على جائزة بولتزر الصحفية الرفيعة، اتهم الكاتب الجنرال بمشاركة سرية وغير قانونية في العديد من

أنشطة العمل في أميركا اللاتينية، وأنه تجسس لصالح الولايات المتحدة وكوبا، أي إنه مارس دور العميل المزدوج. وكانت وحدة جي ـ 2 بإمرته حينما اغتالت هيوغو سبادافورا، وإن نوريغا أدار شخصيا «أعمال المخدرات المهمة في بنما». وقد رافقت ذلك المقال المثير صورة غير مبهجة للجنرال البنمي، فضلا عن نشر مقال ثانٍ صدر في اليوم التالي يحمل تفاصيل أكثر عن الموضوع.[86]

ومما عقّد من مشكلات نوريغا الأخرى أنه كان مثقلا برئيس أميركي عانى مشكلة في صورته السياسية، الأمر الذي يشير إليه الصحفيون بمصطلح «عامل ضعف جورج بوش الأب».[87] اكتسب هذا الأمر أهمية خاصة حينما رفض نوريغا بشدة بحث موضوع تمديد وجود «مدرسة الأميركيتين» لخمسة عشر عامًا أخرى. في هذا السياق، تُقدم مذكرات الجنرال نظرة ثاقبة ومثيرة للاهتمام بهذا الخصوص، حيث تقول:

على قدر تصميمنا وفخرنا بالمضي قدما على خطى توريخوس، لم تشأ الولايات المتحدة حصول أيٍّ من ذلك. لقد أرادوا التمديد أو إعادة التفاوض بخصوص تثبيت «مدرسة الأميركيتين»، قائلين إن حاجتهم إلى المدرسة مستمرة مع توسع حربهم في منطقة أميركا الوسطى. لكن «مدرسة الأميركيتين» كانت بمثابة إحراج لنا، فلم نكن نرغب في تدريب فرق الموت وميليشيات القمع اليمينية المتطرفة على أراضينا.[88]

لذلك، ربما لم يشعر العالم بالصدمة حينما عمدت الولايات المتحدة في العشرين من كانون الأول العام 1989 إلى مهاجمة بنما ضمن ما وصفت بكونها أكبر عملية عسكرية منفذة ومحمولة جوًّا ضد مدينة منذ الحرب العالمية الثانية.[89] لم تكن تلك العملية إلا هجوما غير مبرر ضد شعب مدني. في واقع الحال، لم تشكل بنما وشعبها أي خطر أو تهديد ضد الولايات المتحدة أو أي بلد آخر مطلقا. وقد استنكر السياسيون والحكومات والصحافة عبر أرجاء العالم ذلك الفعل الأميركي الأُحَادي باعتباره انتهاكا صارخا للقانون الدولي.

ربما كان العالم ليتفهم لو وُجهت تلك العملية ضد بلد اقترف جرائم قتل جماعي أو فظائع أخرى ضد الإنسانية كما في بينوشيه بتشيلي، أو ستروييزنر بالبارغواي، أو سوموزا بنيكاراغوا، أو داوبيوسون بالسلفادور، أو صدام بالعراق. لكن بنما لم تقم بأي شيء من هذا القبيل، ولم تقم إلا

بتحدي رغبات حفنة من السياسيين المتنفذين ومديري الشركات الأقوياء. لقد أصرت بنما على احترام معاهدة القناة، وعقدت مباحثات ونقاشات مع مصلحين اجتماعيين، واستكشفت إمكانية بناء قناة ملاحية جديدة بتمويل من اليابانيين وتنفيذ شركاتهم. نتيجة لذلك، عانت بنما عواقب مدمرة، كما يصفها نوريغا قائلا:

أود توضيح الأمور إلى أبعد حد. انتهت حملة تقويض الاستقرار التي شرعت بها الولايات المتحدة عام 1986 بغزو بنما في العام 1989، والتي كانت نتيجة لرفض الولايات المتحدة أيَّ سيناريو مستقبلي يضمن خضوع القناة لسيطرة دولة بنما المستقلة ذات السيادة، والمدعومة من جانب اليابان. وفي هذه الأثناء، كان شولتز وواينبيرغر متنكرين بزي المسؤولين الرسميين ويعملان لأجل الصالح العام ويستمتعان بالجهل الشعبي بحقيقة المصالح الاقتصادية الأميركية القوية التي يمثلانها، ونفذا حملة دعائية مُغْتَرِضة للقضاء علي.[90]

استند تبرير واشنطن للهجوم إلى رجل واحد. كان رجلا واحدا مثّل السبب العقلاني لإرسال الولايات المتحدة شبابها والمخاطرة بحياتهم وضمائرهم لقتل الناس الأبرياء، بمن فيهم عدد غير محدد من الأطفال إلى جانب إشعال النيران بمقطع كبير من قناة بنما، وكان اسمه نوريغا. وُصف الرجل بالشرير، عدو الشعب ووحش تهريب المخدرات، وبالتالي توفر لدى الإدارة الذريعة لتنفيذ غزو كبير ضد بلد لا يتجاوز عدد نفوسه مليوني إنسان، شعب تصادف جلوسه على واحدة من أثمن المنشآت في العالم.

من جانبي، وجدت الغزو مزعجا ومثيرا للقلق إلى حد بعيد. عرفت أن لنوريغا حراسا شخصيين، لكن لم يسعني إلا اليقين بمقدرة أبناء آوى على التخلص منه، كما فعلوا مع روليديوس وتوريخوس. شككت بتلقي معظم حراسه الشخصيين تدريبهم على يد القوات الأميركية، وتلقيهم مرتبات منها على الأرجح. كان بوسع أولئك الحراس الشخصيين غض النظر عما يجري لزعيمهم أو تنفيذ الاغتيال بأنفسهم وحسب.

لذلك، كلما فكرت وقرأت أكثر عن الغزو، تعمقت قناعتي بأن ذلك الغزو أشَّرَ لحالة تحول في السياسة الأميركية نحو اعتماد الأساليب القديمة لبناء الامبراطوريات، وأن إدارة الرئيس بوش الأب بدت مصممة على المضي إلى الأمام على نحو أفضل من إدارة ريغان التي سبقتها عبر

استخدام القوة العسكرية الهائلة بغية تحقيق الهدف الامبراطوري. بدا الهدف من وراء عملية بنما ـ إلى جانب استبدال تركة توريخوس بنظام دمية يحابي الولايات المتحدة ـ تخويف دول مثل العراق كي تخضع على ما يبدو.

في هذا السياق، عبر ديفيد هاريس، وهو محرر في ملحق نيويورك تايمز الأسبوعي ومؤلف العديد من الكتب، عن وجهة نظر مثيرة في كتابه المعنون «إصابة القمر» الصادر عام 2001، حيث قال:

من بين الآلاف من الحكام، والملوك، والرجال الأقوياء، ورؤساء المجالس العسكرية، وأمراء الحروب الذين تعاملت معهم أميركا في جميع أصقاع الأرض، مثّل الجنرال مانويل أنطونيو نوريغا الحالة الوحيدة التي تصرف بها الأميركيون بهذه الطريقة. فلمرة واحدة خلال مئتين وخمسة وعشرين عاما من وجودها القومي، لم تغْزُ الولايات المتحدة مطلقا بلدًا ونقلت حاكمه إلى الأراضي الأميركية بغرض محاكمته وسجنه جراء انتهاكاته للقانون الأميركي التي ارتكبت في البلد الأجنبي الأصلي لذلك الحاكم.[91]

بعد الشروع بالقصف، وجدت الولايات المتحدة نفسها في موقف حساس على نحو غير متوقع. لبرهة، بدا كأن الأمر بمجمله سيرتد عكسيا على واشنطن. ربما نقضت إدارة بوش شائعات الجبناء، إلا أنها تواجه الآن معضلة الشرعية بعد ظهورها بمظهر المتنمر الذي أُمسِكَ به متلبسا بالإرهاب. كُشف النقاب عن منع القوات الأميركية الصحافة، والصليب الأحمر، وباقي المراقبين الخارجيين من دخول المناطق المقصوفة بشدة لثلاث أيام ريثما حرق الجنود ودفنوا جثث الضحايا. من جانبها، تساءلت الصحافة عن حجم الجرائم والممارسات غير المقبولة والأدلة التي دُمّرت، وعدد الذين قضوا جراء حرمانهم الحصول على المساعدة الطبية العاجلة في الوقت المناسب. بقيت تلك الأسئلة دون جواب.

لن نعرف الكثير من الحقائق حول الغزو، ولن نعرف المدى الحقيقي للمذابح التي حصلت. حسب زعم ريتشارد تشيني، وزير الدفاع آنذاك، تراوحت حصيلة الضحايا بين 500 و600 شخص، إلا أن جماعات حقوق الإنسان المستقلة قدرت الرقم بحدود 3000 إلى 5000 بالمقابل، إلى جانب ما يقرب من 25000 آخرين فقدوا المأوى.[92] أُلقي القبض على نوريغا، ثم نُقل جَوًّا إلى

ميامي وحكم عليه بالسجن لمدة أربعين عاما، وكان أسير الحرب غير الأميركي الوحيد المسجون رسميًّا في الولايات المتحدة.[93]

انفجر العالم غضبًا جَرَّاء هذا الخرق الفاضح للقانون الدولي والدمار غير المبرر الذي لَحِق بشعب أعزل على يد أقوى قوة عسكرية على وجه الأرض. إلا أن قِلَّةً قليلة في الولايات المتحدة أدركت ذلك الغضب والجرائم التي اقترفتها واشنطن. كانت التغطية الصحفية محدودة جدا. أسهمت جملة من العوامل في هذا الوضع، بما في ذلك السياسة الحكومية، واتصالات البيت الأبيض الهاتفية بالناشرين ومديري التلفزة التنفيذيون، ورجالات مجلس الشيوخ الذين لم يتجرؤوا على الاعتراض (خشية اتهامات بالجبن والتخاذل)، فضلا عن الصحفيين الذين تصوروا حاجة الرأي العام إلى أبطال عوضا عن الموضوعية والحقيقة.

برز استثناء واحد لهذا الكلام، استثناء تمثل في بيتر إزنر، وكان محررا في جريدة نيوزداي ومراسلا صحفيا لوكالة أسوشييتيد برس، حيث غطى حوادث غزو بنما وحلل قضيتها لسنوات طويلة. ضمن كتابه المعنون «مذكرات مانويل نوريغا: سجين أميركا» الصادر عام 1997، كتب إزنر يقول:

مثّل الموت، والدمار، والظلم الذي اقتُرِفَ باسم قتال نوريغا ـ والأكاذيب المحيطة بهذا الحدث ـ مثَّلت كلها تهديدا للقيم الأميركية الأساسية عن الديمقراطية. تلقى الجنود الأوامر بالقتل في بنما، وقاموا بذلك بعدما قيل لهم إن عليهم إنقاذ بلد من مخالب دكتاتور وحشي، وقاسٍ، وفاسد. وبمجرد قيامهم بذلك، سار شعبهم (شعب الولايات المتحدة) خلفهم فيما قاموا به.[94]

بعد بحث مطول شمل لقاءات مع نوريغا في زنزانة سجنه بفلوريدا، كتب إزنر يقول:

فيما يخص النقاط الأساسية، لا أتصور الأدلة ضد نوريغا تبرر الإدانة بأي من الاتهامات الموجهة إليه. ولا أتصور أن أفعاله كقائد عسكري أجنبي ورئيس لدولة ذات سيادة يمكنها تبرير غزو بنما، أو أنه مثّل تهديدا للأمن القومي الأميركي.[95]

ويخلص إزنر قائلا:

أوصلتني تحليلاتي حول الوضع السياسي وتقاريري الصحفية في بنما قبل وفي أثناء وبعد الغزو إلى استنتاج مفاده أن غزو الولايات المتحدة لبنما لم يكن سوى استخدام بغيض للقوة وحسب. على نحو أساسي، خدم هذا الغزو أغراض السياسيين الأميركيين المتعجرفين وحلفائهم البنميين، على حساب إراقة غير معقولة للدماء.[96]

أعيد تنصيب أسرة آرياس، وهي أسرة أوليغارشية تعود إلى حقبة ما قبل توريخوس، والتي خدمت كدمية لدعم المصالح الأميركية منذ وقت فَصلِ بنما عن كولومبيا وحتى تولي توريخوس السلطة، أعيد تنصيبها واندفعت إلى الواجهة من جديد. تحولت معاهدة القناة إلى نقطة خلافية. ومن حيث الجوهر، استعادت واشنطن سيطرتها على الممر المائي، بصرف النظر عن كل ما تقوله الوثائق الرسمية.

فيما استرجعت أفكاري عن تلك الحوادث وكل التجارب التي مررت بها إبان عملي في شركة ماين، وجدت نفسي أتساءل السؤال ذاته مرة تلو الأخرى: كم من القرارات ـ بما فيها ذات الأهمية التاريخية التي تؤثر في حياة ملايين الناس ـ اتخذها أفراد مدفوعون بدوافع شخصية عوضا عن الرغبة في فعل الشيء الصحيح يا ترى؟ وكم من كبار مسؤولي حكومتنا تصرفوا مدفوعين بجشعهم الشخصي عوضا عن الولاء الوطني يا ترى؟ وكم من الحروب قاتلنا فيها لمجرد رغبة الرئيس تجنب اتهام ناخبيه له بالجبن والتقاعس يا ترى؟

بصرف النظر عن وعودي لرئيس شركة ستون آند ويبستر، دفعني الإحباط والشعور بالعجز جراء غزو بنما إلى استئناف العمل على كتابي، فيما عدا أني قررت التركيز على توريخوس. لقد رأيت في تاريخ الرجل وسيلة للكشف عن الكثير من صور الظلم التي تعصف بعالمنا، ومخرجا لأخلص نفسي من الشعور بالذنب. إلا أني قررت هذه المرة التزام جانب الصمت حول ما أقوم به عوضا عن طلب النصيحة والمشورة من الأصدقاء والأقران.

مع عملي على الكتاب، شعرت بثقل الصدمة الكبير لضخامة ما قام به قتلة الاقتصاد في الكثير من الأماكن. حاولت التركيز على دول محدودة وبارزة، لكن قائمة الأماكن التي عملت فيها ـ وانتهت إلى حال أسوأ لاحقا ـ بدت مذهلة بحق. وشعرت بالصدمة لمدى فسادي. بحثت كثيرا في أعماقي، إلا أني أدركت أني في وسط هذا ركزت على أنشطتي اليومية إلى حد عجزت معه عن

رؤية المنظور الأكبر. لذلك، وحينما كنت في إندونيسيا، شعرت بالقلق جراء الأشياء التي ناقشتها مع هوارد باركر، أو تلك الأمور التي أثارها أصدقاء راسي، ذلك الشاب الإندونيسي الذي تعرفت إليه. وبينما عملت في بنما، تأثرت عميقا بمدلولات ما رأيته أثناء زيارتي للأحياء الفقيرة، منطقة القناة. وارتبكت لذكريات حديثي مع يامن والدكتور في إيران. أما الان، فإن كتابة هذا الكتاب منحتني تلك الرؤية، واستوعبت سهولة عدم رؤية الصورة الأكبر، وبالتالي ضياع فرصة إدراك الأهمية الحقيقية لأفعالي.

لكم بدت الأمور بسيطة وبديهية، إلا أن طبيعة التجارب برهنت على خبث ما فيها. استحضر المشهد صورة الجنود في ذهني. بداية الأمر، يتصرف الجنود بسذاجة، وربما يشككون في الأخلاقيات من وراء قتل الناس، إلا أنهم مضطرون غالبا إلى التعامل مع مخاوفهم والتركيز على بقائهم على قيد الحياة. وما إن يقتلوا أول أعدائهم، حتى تغمرهم المشاعر. ربما يتذكرون عائلات القتلى وينتابهم شيء من الندم، لكن مع مضي الوقت يتلاشى هذا الشعور وينهمكون في معارك أكثر ويقتلون أناسا أكثر حتى تزداد صلابتهم. عندها، يتحول هؤلاء إلى جنود محترفين.

لقد تحولت إلى جندي محترف على نحو ما. فتح الإقرار بتلك الحقيقة الباب أمام فهم أفضل للمنهجية التي اقترفت بها جرائمي، والامبراطوريات التي بنيتها. أمكن لي الآن استيعاب الكيفية التي اقترف بها الكثير من الناس فظائعهم، وكيف ـ على سبيل المثال ـ عملت عائلة إيرانية متحابة لصالح شرطة الشاه السرية المتوحشة، وكيف اتبع الألمان الطيبون أوامر هتلر، وكيف قصف الأميركيون الطيبون مدينة بنما.

بصفتي قاتل اقتصاد، لم أجْنِ مباشرة أي شيء من وكالة الأمن القومي أو أي وكالة حكومية أخرى. دفعت لي شركة ماين مرتبي. كنت مواطنا خاصا وعملت لصالح شركة خاصة. ساعدني فهم هذا على رؤية الدور المتنامي لمديري الشركات التنفيذيين بوضوح أكبر. لقد برزت طبقة جديدة متنامية من الجنود على المسرح العالمي، وبات هؤلاء غير حساسين تجاه أفعالهم ونتائجها. وفي هذا السياق كتبت:

يذهب الرجال والنساء اليوم إلى تايلاند، والفلبين، وبوتسوانا، وبوليفيا وأي بلد آخر في العالم يأملون فيه إيجاد أناس يائسين يحتاجون إلى العمل بشدة. إنهم يذهبون إلى تلك الأماكن معربين عن

رغبتهم في استغلال أناس يعاني أطفالهم سوء التغذية، وحتى المجاعة، أناس يعيشون في مدن الصفيح فاقدين الأمل بحياة أفضل، أناس توقفوا عن الأحلام بيوم قادم. يشغل أولئك الرجال والنساء مكاتب فاخرة في مانهاتن أو سان فرانسيسكو أو شيكاغو، ويطيرون إلى قارات العالم بطائراتهم الفخمة، وينزلون في فنادق الدرجة الأولى، ويأكلون في أغلى المطاعم التي توجد في تلك البلدان. ثم يذهبون بعد ذلك للبحث عن أناس يائسين.

عادَ المستعبِدون المعاصرون لا يجوبون أحراش إفريقيا مستخدمين البنادق والأغلال، وقاعات حبس العبيد الحصينة على متن السفن، بهدف بيعهم بالجملة في مزادات العبيد في تشارلستون، وكارتاخينا، وهافانا. عوضا عن ذلك، يستغل هؤلاء الناس اليائسين ويبنون المصانع المنتجة للسترات، وسراويل الجينز الزرق، وأحذية التنس، وقطع السيارات، ومكونات الحواسيب، فضلا عن آلاف السلع الأخرى التي تباع في أسواق يختارونها هم. وربما يقررون عدم امتلاك المعمل بأنفسهم، وإنما يوظفون رجل أعمال محلي للقيام بالعمل القذر نيابة عنهم.

ربما يرى هؤلاء الرجال والنساء في أنفسهم أفرادا مستقيمين. إنهم يعودون إلى منازلهم حاملين معهم صورا لمواقع قديمة وأطلال آثار متهدمة كي يراها أطفالهم. إنهم يحضرون الندوات ويربتون على ظهور بعضهم بعضًا وهم يتبادلون النصائح حول كيفية التعامل مع العادات الغريبة والأطوار غير المعروفة لسكان الأراضي البعيدة. ويوظف رؤساؤهم محامين يؤكدون لهم قانونية ما يقومون به تماما. إنهم يتوفرون على كادر من المعالجين النفسيين وخبراء الموارد البشرية في خدمتهم بغية إقناعهم بأن ما يقومون به ليس سوى مساعدة أولئك الناس اليائسين وحسب.

أقنع تجار الرقيق القدامى أنفسهم بمفهوم أنهم تعاملوا مع كائنات غير بشرية تماما، وأنهم منحوا العبيد فرصة للحصول على الخلاص الأبدي عبر اعتناق المسيحية. وفهم أولئك التجار أهمية العبيد لبقاء مجتمعاتهم، وديمومة اقتصادهم. لكن تجار الرقيق اليوم يقنعون أنفسهم بأن مكسب أولئك الناس اليائسين لدولار أو اثنين في اليوم أفضل من لا شيء، وأنهم بهذا يحصلون على فرصة للاندماج في المجتمع الدولي الأكبر. ويفهم تجار الرقيق الآن كذلك أهمية الناس اليائسين لبقاء واستمرار شركاتهم، وأنهم يمثلون أساس نمط حياة تجار الرقيق أنفسهم. إنهم لا يتوقفون للحظة ولا يتجشمون عناء إعادة التفكير في التداعيات الأكبر لهذا النظام الاقتصادي من وراء هذه العملية، أو

الكيفية التي سيؤثر بها في مستقبل أطفال العالم. لذلك، لا بد لي من الاعتراف بألم بالغ أني كنت واحدا من تجار الرقيق المعاصرين هؤلاء.

33

فشل قاتل اقتصادي في العراق

منحني عملي كرئيس لشركة آي بي أس في ثمانينيات القرن الماضي، وكمستشار لشركة ستون آند ويبستر بحلول نهاية ذلك العقد ولسنوات طويلة إبان التسعينيات منه، منحني فرصة الوصول إلى معلومات عن العراق لم تكن متاحة لمعظم الناس. في واقع الحال، وخلال ثمانينيات القرن الماضي، لم تعرف غالبية الأميركيين شيئا عن العراق. لم يكن العراق على رادار اهتمامات الأميركيين، إلا أني كنت مفتونا بما يجري هناك.

بقيت على تواصل مع أصدقاء قدامى عملوا في البنك الدولي، والوكالة الأميركية للتنمية الدولية، وصندوق النقد الدولي، ومؤسسات مالية دولية أخرى، فضلا عن استمرار علاقتي بأناس يعملون في باكتل، وهاليبورتن، وشركات هندسية وإنشائية أميركية كبرى، وبما فيها شركة والد زوجتي كذلك. عمل الكثير من المهندسين العاملين ضمن مقاولات شركة آي بي أس الثانوية وباقي شركات الطاقة المستقلة الأخرى ضمن مشاريع في الشرق الأوسط. كنت على دراية كاملة بأن ستراتيجية القتل الاقتصادي طُبِّقَت على العراق.

صممت إدارات ريغان وبوش الأب على تحويل العراق إلى عربية سعودية أخرى. كان لدى صدام العديد من الأسباب الملزمة ليتبع مثال آل سعود. ولم يكن عليه سوى مشاهدة وإدراك المنافع التي جنتها العائلة السعودية المالكة من قضية غسيل الأموال. منذ عقد تلك الصفقة، ارتفعت المدن الحديثة من قلب الصحراء السعودية، وتحولت قطعان الماعز التي تجمع القمامة إلى شاحنات أنيقة متخصصة، في حين يجني السعوديون منافع بعض أفضل التكنولوجيات في العالم مثل محطات تحلية المياه الحديثة، وأنظمة معالجة مياه الصرف الصحي، وشبكات الاتصالات، وشبكات ومرافق الطاقة الكهربائية.

أدرك صدام حسين، بلا شك، ما تمتع به السعوديون من معاملة خاصة حينما يتعلق الأمر بقضايا القانون الدولي. غض أصدقاء السعودية الطيبون في واشنطن أنظارهم عن الكثير من

الأنشطة السعودية، بما في ذلك تمويل الجماعات المتطرفة التي عُدّت بعضًا من أكثر الجماعات المتطرفة قربًا من الإرهاب، عدا عن إيوائها المطلوبين دوليا. في واقع الحال، سعت الولايات المتحدة بقوة لتسهيل وتمكين وصول الدعم السعودي المالي الموجه إلى حرب أسامة بن لادن في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي. ولم تشجع إدارات ريغان وبوش السعوديين على السير قدما في هذا المضمار وحسب، وإنما ضغطت على العديد من الدول الأخرى لتقوم بالأمر ذاته، أو لتغض النظر عما يجري على أقل تقدير.

بدا وجود قتلة الاقتصاد في بغداد قويًّا ومحسوسًا جدًّا في ثمانينيات القرن الماضي. اعتقد أولئك القتلة أن صداما سيفتح عينيه ليرى من خلال النور شيئا في نهاية المطاف، وقد توجب قبول هذه الفرضية. وعلى أي حال، فإذا ما توصل العراق إلى اتفاق يشبه ما أنجزه السعوديون مع واشنطن، يكون بوسع صدام ضمان حكم قوي لبلاده، مع دائرة نفوذ قد تتوسع إلى خارج ذلك الجزء من العالم.

لم يكن هناك من اكتراث يذكر لحقيقة صدام كطاغية مريض، وأن يديه ملوثتان بدماء جرائم قتل جماعي، أو أن سلوكياته وأعماله الوحشية تستحضر صورة أدولف هتلر. تسامحت الولايات المتحدة، وحتى دعمت رجالا من عينة صدام لمرات عديدة من قبل. ولسوف نكون سعيدين ببيعه سندات الحكومة الأميركية في مقابل أموال البترودولار، مع وعود بإمدادات نفط مستمرة، وتسمح الصفقة باستخدام فوائد تلك السندات بهدف توظيف شركات أميركية لتحسين أنظمة البنية التحتية عبر أرجاء العراق، وإنشاء مدن جديدة، فضلا عن تحويل الصحراء إلى واحات تنبض بالحياة. ولسوف نكون راغبين أكثر في بيعه الدبابات والطائرات المقاتلة، ونبني له المعامل الكيمياوية والمحطات النووية كما فعلناها لدول أخرى كثيرة، وحتى مع تصور إمكانية استخدام كل تلك التكنولوجيا بهدف إنتاج أسلحة متقدمة.

كان العراق مهمًّا جدًّا بالنسبة إلينا، وأهم من ما تبدو عليه الأمور على السطح. على النقيض مما كانت عليه تصورات الرأي العام، لا يتعلق موضوع العراق بالنفط، ثم إنه لا يتعلق بالمياه أو الجغرافيا السياسية وحسب. يمر كلا نهري دجلة والفرات عبر العراق. ومن بين جميع الدول في ذلك الجزء من العالم، يتحكم العراق بهذا المورد المائي متزايد الأهمية. خلال فترة ثمانينيات القرن الماضي، تعاظمت أهمية المياه ـ سياسيا واقتصاديا على حد سواء ـ على نحو واضح لنا نحن

العاملين في قطاعات الطاقة والأعمال الهندسية. وعبر موجة الاندفاع نحو الخصخصة التي دفعت الكثير من الشركات الكبرى إلى الاهتمام بالاستحواذ على شركات الطاقة الصغيرة المستقلة، تحولت الوجهة الآن نحو خصخصة أنظمة المياه سواء في إفريقيا وأميركا اللاتينية والشرق الأوسط.

إلى جانب النفط والمياه، يشغل العراق موقعا جغرافيا ستراتيجيًّا بالغ الأهمية، حيث يحاذي إيران، والكويت، والعربية السعودية، والأردن، وسوريا، وتركيا، فضلا عن توفره على شريط ساحلي على الخليج. ويقع العراق في مرمى صواريخ كل من إسرائيل وروسيا. يشبّه منظرو الستراتيجيات العسكرية العراق المعاصر بوادي نهر هدسون إبان الحرب الفرنسية الهندية والثورة الأميركية. لقد أدرك الفرنسيون والبريطانيون والأميركان خلال القرن الثامن عشر أن من يسيطر على نهر هدسون يسيطر على القارة. ومن المعروف اليوم أن من يسيطر على العراق يملك الورقة الرابحة في الشرق الأوسط.

فضلا عن ذلك، مثّل العراق سوقا كبيرة للتكنولوجيا والخبرات الهندسية الأميركية. ضمنت حقيقة وجود العراق فوق بعض أكبر حقول النفط الضخمة في العالم (والتي تشير بعض التقديرات إلى أنها أكثر من تلك الموجودة في العربية السعودية) مقدرة هذا البلد على تمويل مشاريع بنية تحتية ضخمة وبرامج صناعية كبيرة. لذلك، ركز جميع اللاعبين الكبار ـ الشركات الهندسية والإنشائية، ومجهزو أنظمة الحواسيب، ومصنِّعو الطائرات والصواريخ والدبابات، فضلا عن شركات الصناعات الكيمياوية ـ على العراق.

لكن بحلول نهاية الثمانينيات، بدا واضحا عدم اقتناع صدام بسيناريوهات قتلة الاقتصاد. بات هذا الوضع سببا لإحباط كبير وإحراج أعظم لإدارة الرئيس بوش الاب. فكما هو الحال مع بنما، أسهم العراق في تعزيز صورة بوش الأب كرئيس ضعيف. إذ بحث الرئيس عن وسيلة لحل هذه المشكلة، وضع صدام الحل بين يديه. في شهر آب من العام 1990، غزا دكتاتور العراق مَشْيَخة الكويت الغنية بالنفط. رد بوش باستنكار صدام لخرقه القانون الدولي، على الرغم من مضي أقل من عام على شروع بوش الأب نفسه بغزو غير شرعي وأحادي الجانب ضد بنما.

لم يكن مفاجئا قرار الرئيس تنفيذ عملية عسكرية شاملة في خاتمة المطاف. أُرسل ما يقارب نصف مليون جندي لتنفيذ العملية كجزء من قوة دولية متعددة. بداية العام 1991، دشنت القوة

الدولية عملية عسكرية جوية متفوقة ضد أهداف عسكرية ومدنية عراقية، تلتها عملية برية استمرت لمئة ساعة طردت فيها قوات الجيش العراقي الأضعف والأسوأ تسليحًا وتجهيزًا. باتت الكويت بأمان. عوقب طاغية حقيقي، إلا أنه لم يقدم إلى العدالة. حلّقت شعبية بوش الابن إلى نسبة 90% بين أفراد الشعب الأميركي.

وقت حصول حرب العراق، كنت في بوسطن أحضر بعض الاجتماعات لصالح شركة ستون آند ويبستر. لا زلت أذكر الحماسة التي قوبل بها قرار بوش. بديهيا، شعر الناس ضمن مؤسسة ستون آند ويبستر بالحماسة، لكنها كانت حماسةً لا علاقة لها بالموقف الأخلاقي من دكتاتور قاتل. بالنسبة إليهم، فتح النصر الأميركي ضد العراق الأبواب أمام فرص الربح الوفير، والترقيات، والعلاوات. رحب المهندسون، ومصنعو الأسلحة وباقي الصناعات العسكرية الأخرى، إلى جانب مؤسسات وول ستريت وشركات التأمين التي دعمتهم ـ رحبوا جميعهم بفرصة العودة إلى الستراتيجية العسكرية التي تعطلت عن العمل منذ نهاية حرب فيتنام.

لم تقتصر الحماسة علينا ضمن حلقة الشركات التي كانت لتحقق منافع مباشرة جراء الحرب، بل تعدتنا إلى أناس عبر أرجاء الأمة ممن شعروا بحاجة ماسة إلى رؤية أميركا تعيد تأكيد نفسها عسكريا من جديد. من جانبي، أعتقد بوجود جملة أسباب من وراء هذا الموقف، أسباب تشتمل على التغيير الفلسفي الذي طرأ بعد هزيمة كارتر على يد ريغان، وإطلاق سراح الرهائن المحتجزين في إيران، وإعلان ريغان نيته إعادة التفاوض حول معاهدة القناة. حرك غزو بوش لبنما جمر النيران المشتعلة أصلا.

لكن تحت ذلك الخطاب الوطني ومعه الدعوات إلى التحرك والعمل، أتصور حصول تحول أعمق وأدق على الطريقة التي تنظر بها المصالح التجارية الأميركية إلى العالم، وبالتالي طريقة رؤية معظم الناس العاملين في الشركات الأميركية للعالم. بات المسير نحو الامبراطورية العالمية حقيقة واقعة، وشارك فيه معظم الناس في البلاد. وأخذت الأفكار عن ثنائية العولمة والخصخصة تحرز تقدُّمًا في حياتنا النفسية.

في المحصلة النهائية، لم يكن الأمر متعلقا بالولايات المتحدة وحدها وحسب. لقد أصبحت الامبراطورية العالمية على هذا النحو، ووصلت عبر جميع الحدود. فما كنا نعده شركات أميركية

في الماضي، بات اليوم شركاتٍ متعددة الجنسيات بحق، وهي كذلك حتى من وجهة النظر القانونية. وأُدمِجَ العديد من هذه الشركات في عدد كبير من الدول، وبوسعها الاختيار ما بين جملة متنوعة من القوانين والأنظمة التي تنفذ بها أنشطتها، مع جملة من اتفاقات تجارية ومنظمات عولمة تسهل هذا الأمر. باتت مفردات من عينة الديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية مجرد عبارات عتيقة وحسب. لذلك، أصبحت سلطة الشركات حقيقة واقعة وأكدت نفسها ووجودها على نحو متزايد كمصدر النفوذ الأكبر والأوحد في ميادين السياسة والاقتصاد العالميين. ولسوف يقوم أفراد هذه السلطة بكل ما يلزم لتعزيز قوتهم داخل الامبراطورية العالمية.

ضمن انعطافة غريبة في مسار الحوادث، رضختُ لسلطة الشركات من جديد حينما وافقت على بيع شركة آي بي أس شهر تشرين الثاني من العام 1990. كانت صفقة مربحة جدا لي ولشركائي، إلا أننا قررنا البيع جراء الضغوط الهائلة التي سلطتها علينا شركة آشلاند النفطية. بحكم تجربتي، عرفت الكلفة الباهظة لمحاربة شركة كهذه من عدة نواحٍ، في حين سيكون البيع مربحًا جدًّا لنا بالمقابل. إلا أن سخرية الموقف صدمتني لاستيعاب تحول شركة نفطية إلى المالك الجديد لشركتي المتخصصة في مجال الطاقة البديلة. من جديد، شعر جزء مني بأني لست سوى خائن وحسب.

استهلكت شركة ستون آند ويبستر شيئا قليلا من وقتي. طلبت مني الشركة السفر إلى بوسطن لعقد اجتماعات أو المساعدة في إعداد بعض العروض التقديمية أحيانا. وسافرت في بعض الأحيان إلى مناطق مثل ريو دي جانيرو للاختلاط مع بعض أصحاب السلطة والنفوذ. سافرت ذات مرة إلى غواتيمالا بطائرة الشركة الخاصة. وعادة ما استدعيت مديري المشاريع لتذكيرهم باستمرار بوجودي ودفع مرتبي. لكن تلقي كل تلك الأموال في مقابل فعل القليل أرّق ضميري. عرفت العمل من كثب وأمَّلت في الإسهام بشيء مفيد. إلا أن «الإسهام بشيء مفيد» لم يكن على أجندتي.

طاردتني صورة الرجل الواقف في المنتصف. أردت القيام بشيء يبرر وجودي ويحول كل سلبيات الماضي إلى إيجابيات. واصلت العمل خلسة ـ وعلى نحو غير منتظم جدا ـ بغية إنجاز كتاب «ضمير قاتل اقتصادي»، إلا أني لم أخدع نفسي بتصور إمكانية نشره يوما.

عام 1991، أسست منظمة غير ربحية أطلقت عليها اسم «تغيير الحلم» بناءً على فلسفة شعب شوار القائلة «حياتك والعالم كما تحلم بهما، وإن بوسعك القيام بكل ما تؤمن به».[97] بدأت قيادة مجموعات صغيرة من الناس إلى منطقة الأمازون لقضاء بعض الوقت والتعلم من شعب شوار الذي كان متحمسا لمشاركة معرفته حول رعاية البيئة وتقنيات الاستشفاء المحلية. ارتفعت وتيرة الطلب على هذه الرحلات بسرعة خلال السنوات القليلة اللاحقة، في حين توسعت منظمة «تغيير الحلم» كذلك. طورت المنظمة التي كرست نفسها لتغيير رؤية الناس من الدول الصناعية للأرض وعلاقتنا بها، طورت قاعدة من المتابعين عبر أرجاء العالم وشجعت الناس على تأسيس منظمات ذات أهداف مشابهة في العديد من البلدان.

إبان تسعينيات القرن الماضي، تعمقت ارتباطاتي مع عالم المنظمات غير الربحية على نحو متزايد، وساعدت في تأسيس بعض المنظمات والعمل ضمن إدارات منظمات أخرى. توسع العديد من تلك المنظمات جراء الجهود الكبيرة التي بذلها بعض المخلصين من منظمة «تغيير الحلم» ممن عملوا مع الشعوب المحلية في أميركا اللاتينية ـ كما في شعب شوار وأكوارس في منطقة الأمازون، كويتشاوي في مرتفعات الأنديز، فضلا عن المايا في غواتيمالا ـ أو تعريف الناس في الولايات المتحدة وأوروبا بتلك الثقافات. نجح «تحالف باشاماما» الذي تخيله دانيل كوبرمان وشارك بتأسيسه بيل ولين تويست وأنا، نجح بوجه خاص في جمع الأموال اللازمة بغية إبقاء الشركات النفطية بعيدا عن أراضي تلك الشعوب المحلية بهدف حماية الغابات المطيرة من زحف الصناعة، وتطوير برامج لرفع الوعي حول أهمية مثل هذه الأنشطة في دول عبر أرجاء العالم.

وافقت شركة ستون آند ويبستر على هذه الأعمال الخيرية، والتي كانت متسقة مع التزام الشركة وأعمال مؤسسة ذي يونايتيد واي[98]. كتبت كتبا أكثر، إلا أني حصرت اهتمامي دوما في التركيز على تقنيات الشعوب المحلية بغية تجنب الإشارة إلى أنشطة القتل الاقتصادي. إلى جانب التخلص من الملل، ساعدتني تلك الأنشطة على استمرار التواصل مع أميركا اللاتينية إلى جانب القضايا السياسية التي تُهمني.

لكن على قدر ما أشعرتني أنشطتي غير الربحية وكتبي بقدر من التوازن، وأني أقوم بنوع من التعويض عن أفعالي التي اقترفتها في الماضي، بدا الأمر صعبا على نحو متزايد. أدركت من الأعماق أني تعمدت التملص من مسؤولياتي تجاه ابنتي. ها هي جيسيكا ترث عالما يولد فيه ملايين

الأطفال مثقلين بديون كبيرة لن يكون بوسعهم سدادها أبدا. لذلك، لا بد لي من تحمل المسؤولية عن هذا.

زادت شعبية كتبي، لا سيما كتاب «العالم كما تحلم». قاد نجاح هذا الكتاب إلى زيادة الطلب عليّ كي أقدم ورش عمل ومحاضرات. أدهشتني المفارقة في بعض الأحيان حينما وقفت أمام جمهور في بوسطن أو نيويورك أو ميلانو. فإذا كان «العالم كما تحلم»، فلم حَلمتُ بعالم كهذا يا ترى؟ وكيف أمكن لي لعب دور فعال في إظهار كابوس كهذا؟

عام 1997، كُلّفت بعقد ورشة عمل لصالح معهد أوميغا في منطقة الكاريبي، وذلك ضمن منتجع في جزيرة سانت جونز. وصلت في وقت متأخر من الليل. حينما استيقظت صباح اليوم التالي، مشيت إلى شرفة الغرفة الصغيرة لأجدها مطلة على الخليج ذاته الذي رسوت فيه قبل سبعة عشر عاما حينما قررت الاستقالة والخروج من شركة ماين. وقعت على الكرسي غارقا في مشاعر عميقة اكتسحتني على حين غرة.

طيلة ذلك الأسبوع، قضيت معظم وقت فراغي في تلك الشرفة أراقب خليج لينستر، وأحاول فهم أفكاري. أدركت في حينها، على الرغم من استقالتي، أني تقاعست عن اتخاذ الخطوة التالية، وأن قرار بقائي في المنتصف لم يجلب عليّ إلا خسائر فادحة. بحلول نهاية ذلك الأسبوع، خلصت إلى أن العالم من حولي لم يكن العالم الذي أردته حلماً، وأني علي القيام بما أوجّه به طَلَبَتي بالضبط، القيام بكل ما يلزم لأجل تغيير الحلم على نحو يعكس ما أردته لحياتي بالفعل.

حينما عدت أدراجي صوب الديار، تخليت عن عملي الاستشاري في الشركة. في حينها، كان رئيس شركة ستون آند ويبستر الذي وظفني متقاعدا، وحل محله رجل آخر في مجلس الإدارة، رجل شاب أصغر مني سنًّا، وبدا غير مكترث إزاء رواية قصتي. شرع ذلك المدير الجديد ببرنامج لتقليص الإنفاق وشعر بسعادة غامرة لعدم اضطراره إلى دفع مرتبي الباهظ. قررت إكمال كتابي الذي بدأت العمل عليه منذ وقت طويل جدا، ولا أخفي حقيقة الإحساس الرائع من الراحة الذي أحسست به. شاركت أفكاري حول الكتابة مع بعض الأصدقاء المقربين، لا سيما من عالم العمل غير الربحي الذين انخرطوا في أنشطة مع ثقافات الشعوب الأصلية والحفاظ على الغابات المطيرة. فاجأني شعورهم بالرعب. خشي هؤلاء من أن خروجي إلى العلن وكشف الحقائق سيقوض من

عملي في التدريس ويعرّض المنظمات غير الربحية التي أدعمها للخطر. عمل الكثير منا في سبيل مساعدة أمم الأمازون على حماية أراضيها من شرور شركات النفط، في حين قال لي هؤلاء إن كشف الحقائق يمكنه تقويض مصداقيتي وإعاقة الحركة بمجملها. وهدد بعضهم بسحب دعمهم كذلك.

بحلول نهاية حرب العراق عام 1991، تراجعت العمليات العسكرية الأميركية من جديد. شهدت تلك الفترة إطلاق الموجة الثانية من قتلة الاقتصاد. تميزت فترتا إدارة الرئيس بيل كلينتون (الممتدة من 1993 إلى 2001) بأطول مرحلة توسع اقتصادي في وقت السلم ضمن التاريخ الأميركي، إلى جانب تزايد عولمة الشركات الأميركية. ارتقى قتلة الاقتصاد الأميركيين إلى مستوى الفرصة. من بين تكتيكاتهم المتعددة، ضغط أولئك القتلة باتجاه صياغة اتفاقات تجارة حرة تتضمن اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية التي تعرف اختصارا بـ(NAFTA)، والتي تحولت إلى قانون في عام 1994. وقد منحت هذه الاتفاقية الشركات الأميركية مزايا كبيرة عبر حصولها على دعم من أموال دافعي الضرائب الأميركيين، وفي الوقت ذاته منعت المكسيك وكندا من فرض تعرفة جمركية أو قيود على وارداتها من السلع الأميركية، ما يعني استحالة منافسة الكثير من المزارعين في هاتين الدولتين مع الشركات الأميركية. على الرغم من أني رأيت أنشطة قتلة الاقتصاد تتصاعد، لم أتصور إبداء أي شخص اهتماما بقصتي على وجه الخصوص.

توقفت عن الكتابة من جديد. عوضا عن ذلك، ركزت على أخذ الناس إلى مجاهيل الأمازون كي يشاهدوا تلك الأماكن التي لم يتعرض لها العالم المعاصر حتى الآن، وعرفتهم على أناس لا يزالون يعيشون بتناغم مع الطبيعة. في واقع الحال، كنت هناك بحلول الحادي عشر من أيلول عام 2001.

بمجرد عودتي إلى الولايات المتحدة، طرت إلى مدينة نيويورك وتوجهت إلى موقع برج التجارة العالمي. وقفت أشاهد المكان حيث لقي الكثير من الناس حتفهم، وعرفت أن عليَّ الكتابة عن حياتي كقاتل اقتصادي. وكلما درست الموقف أكثر، أدركت استمرار تصاعد قوة قتلة الاقتصاد الأميركيين تحت رئاسة جورج بوش الابن. إلى جانب الصناعات الحربية التي توسعت بقوة بعد حوادث الحادي عشر من أيلول، توسعت اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية لتشمل ملحقا يخص اتفاقية التجارة الحرة مع دول أميركا الوسطى التي أُقِرَّت عام 2005 (لتفاصيل أكثر عن الاتفاقيتين، يمكن الرجوع إلى الفصل الحادي والأربعين من هذا الكتاب). وصل ما بدأ يتشكل في ثمانينيات

وتسعينيات القرن العشرين إلى ذروته المتمثلة في موجة قتلة الاقتصاد الثانية بداية القرن الحادي والعشرين. واشتملت هذه الموجة على أناس عملوا في خدمة مصالح شركات معينة، كما سيرد ذكره في القسم السادس من الكتاب.

منذ نهاية تعاقدي مع شركة ستون آند ويبستر، عاد لا يكون أمامي أي التزام يعترض مشاركة قصتي مع الآخرين. لكن التهديدات المحدقة بحياتي وحياة عائلتي بقيت ماثلة أمامي. عوضا عن تضمين قصص عن أناس آخرين، قررت التركيز على اعترافي الشخصي. وقررت عدم الاتصال بأي شخص، وعمدت إلى كتابة كامل مخطوطتي بسرية. فكرت أني بمجرد وضعها في يد وكيل أدبي وإرسالها إلى الناشرين، ستصبح المخطوطة بمثابة بوليصة تأمين لي. وبالتالي، فإن أي شخص يحاول قتلي سيعلم أن موتي المفاجئ سيزيد من مبيعات الكتاب، وهذا آخر ما يريدونه.

القسم السادس

2016 -2004

34

المؤامرة: هل كنت مسموما؟

توقعت لـ«اعترافات قاتل اقتصادي» أن توقظ الناس وتلهمهم لتغيير الأمور. كانت الحقائق واضحة. خلقت أنا مع أناس آخرين مثلي منظومة قتل اقتصادي دعمت سلطة الشركات وخذلت كل ما عداها. صدّق معظمنا ذلك إلى حد بعيد، والآن حان وقت التغيير. لقد أمَّلت أن كشف هذه الحقائق سيجعل الناس واعين ويلهم انطلاق حركة تنتج رؤية جديدة.

إلا أني لم أتوقع قوة منظومة القتل الاقتصادي أو درجة تصميمها على الدفاع عن كيانها والترويج لاقتصاد الموت. ثم إنني عجزت عن توقع صعود طبقة جديدة من قتلة الاقتصاد ومن خلفهم أبناء آوى جدد.

حقق الكتاب نجاحا باهرا، ولم يمضِ سوى وقت قصير حتى وصل الكتاب إلى قائمة جريدة نيويورك تايمز لأفضل الكتب مبيعا، فضلا عن دخوله قائمة أفضل الكتب مبيعا ضمن عدد كبير من اللغات الأخرى كذلك. أوضحت في الكتاب أني لست مؤمنا بخضوع منظومة القتل الاقتصادي لمخطط سري شائن وغير قانوني وضعته حلقة صغيرة من الأشخاص المصممين على السيطرة على العالم، وبعبارة أخرى لم أكن مؤمنا بشيء اسمه «مؤامرة موحدة كبرى» من هذا النوع.

ثم وقع شيء غريب بعد ذلك.

نهاية شهر آذار من العام 2005، وبعد مضي أقل من خمسة شهور على صدور كتابي، سافرت إلى مدينة نيويورك في أحد أيام الاثنين. تضمن برنامجي الحديث في اليوم التالي أمام الأمم المتحدة. كنت بصحة ممتازة وعلى أحسن حال حسب علمي. لهث رجل عرّف عن نفسه كصحفي مستقل وراء الناشرة التي أصدرت كتابي متوسِّلا إجراء مقابلة معي. وبما أنَّ مؤهلات ذلك الصحفي كانت سطحية، ولأني حظيت بقدر كبير من التغطية الصحفية آنذاك، لم تُعِرِ الناشرةُ ذلك الصحفي

اهتماما يذكر. لكن حينما اقترح الرجل المجيء ليُقِلَّني من مطار لاغورديا، ويصحبني إلى الغداء قبل الذهاب بعدها إلى شقة صديقي حيث كنت سأقيم، تناقشت مع الناشرة وقبلت لقاءه.

وقف الرجل بانتظاري حينما خرجت من المطار. توجهنا بعد ذلك إلى مقهًى صغير، وتحدث إليَّ مُعرِبًا عن إعجابه الكبير بكتابي، وسألني بعض ما باتت لاحقا أسئلة قياسية عن حياتي كقاتل اقتصادي، ومن ثَمَّ أقلني إلى شقة صديقي في أَبَر ويست سايد.

لم أرَ ذلك الرجل بعدها قط، إلا أن لقاءه تحول إلى حدث هامشي فيما عدا إصابتي بنزيف داخلي حاد في غضون ساعتين من ذلك. أصبت بالصدمة لفقداني ما يقرب من نصف الدم في جسمي، وذلك قبل نقلي سريعا إلى مستشفى لينوكس هيل. انتهى بي الحال إلى الرقود بالمستشفى لأسبوعين بعد إزالة ما يقرب من 70% من أمعائي الغليظة.

أخبرني مختصّ الأمعاء من نيويورك بأن المضاعفات التي تعرضت لها تسببت بحالة شديدة مما يعرف بداء الرتوج[99]. شعرت بصدمة بالغة لسماع هذا الكلام لا سيما أني أجريت مسْحًا ناظوريًّا للقولون مؤخرا. طمأنني طبيبي في فلوريدا عن عدم وجود أي أعراض للسرطان، الأمر الذي كان مصدر قلقي الأكبر. أشار علي الطبيب بزيارته في غضون خمس سنوات، مؤكدا وجود حالة التكيسات والبروزات لدي.

أُلغي حديثي في الأمم المتحدة بلا شك، فضلا عن الكثير من أنشطتي الإعلامية الأخرى. انتشر الحديث عن العملية الجراحية التي خضعت لها بسرعة بالغة، وتلقيت الكثير من الرسائل عبر البريد الإلكتروني. أعربت معظم تلك الرسائل عن قلق وتعاطف مع حالتي الصحية. وقد جاءتني بعض تلك الرسائل من أفراد اعتبروني خائنا لوطني. لكن بعضهم أكدوا أني عُرِّضت لعملية تسميم.

حينما عدت لسؤال طبيب الأمعاء، قال إنه لا يتصور عُرضتي للتسميم، لكنه تعلم أن لا يقول «أبدا». في سياق آخر، فشلت جميع محاولاتنا الاتصال بالصحفي الغامض الذي أخذني إلى الغداء. لم يكن لدينا سوى رسائل البريد الإلكتروني التي تبادلها معنا، في حين لم يكن عنوانه فعالا. ومهما يكن من أمر الحقيقة، دفعني كل ما حصل إلى التفكير والقراءة أكثر حول المؤامرات.

لا زلت غير مؤمن بمؤامرة كبرى. بحسب تجربتي، ليس هناك من نادٍ سري مكون من أفراد يضعون الخطط السرية والستراتيجيات غير القانونية بهدف الهيمنة على العالم. مع ذلك،

أعرف الآن بأن جزءًا من قوة منظومة القتل الاقتصادي يدور حول إثارة العديد من المؤامرات الصغيرة. وبعبارة «الصغيرة» أقصد التركيز على أهداف محددة. حققت مؤامرات وأعمال سرية كهذه بعض الأهداف غير القانونية حينما كنت في بداية حياتي الدراسية، كما في انقلاب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية الذي أطاح برئيس الوزراء الإيراني المنتخب ديمقراطيا آنذاك، محمد مصدّق، والذي أعاد الشاه إلى السلطة عام 1953. وقد استمرت تلك المؤامرات والأعمال في أثناء سنوات دراستي الثانوية حينما دعمت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية عملية غزو خليج الخنازير في كوبا عام 1963. إلا أني أصبحت على دراية أكبر بها حينما اغتيل اثنان من زبائن القتل الاقتصادي لدي، وهما الرئيس الإكوادوري رولديوس والرئيس البنمي توريخوس عام 1981. لاحقا، قادت الولايات المتحدة عام 2002 مؤامرة للإطاحة بالرئيس الفنزويلي هيوغو شافيز. بعد ذلك جاءت الأكاذيب حول أسلحة الدمار الشامل في العراق. ولسوء الحظ، تدفع هذه الأحابيل نحو أكاذيب خطيرة تتعارض مع الأدلة العلمية، كما في الدعاوى القائلة بأكذوبة الاحتباس الحراري.

حينما كنت جزءا من منظومة القتل الاقتصادي، تمحور هدف معظم التكتيكات حول تعزيز وترسيخ ودفع مصالح الولايات المتحدة وكبريات الشركات في الدول الأقل تنمية، مع القيام بكل ما يلزم ـ كما في الإطاحة بالحكومات أو قتل الزعماء ـ بغية تمكين شركاتنا من استغلال موارد تلك الدول. بعد خضوعي لعملية القولون الجراحية، وإذ كنت أسترخي في المنزل لقراءة التقارير المتعددة، بدا واضحا أن الأدوات التي استخدمتها في الإكوادور، وإندونيسيا، وبنما، ومصر، وإيران، وكولومبيا، والعربية السعودية ودول أخرى بدأ تطبيقها الآن في أوروبا والولايات المتحدة. مدعومة بما تسمى تهديدات الحادي عشر من أيلول عن الإرهاب الدولي، منحت تلك المؤامرات قوة بالغة لعدد محدود جدا من الأفراد بالغي الثراء ممن يسيطرون على الشركات العالمية. من بين أوضح المنجزات الصادمة التي تحققت في هذا المضمار، برز نفوذ وتأثير السياسيين في تمرير قوانين تسمح للأثرياء بتجنب دفع الضرائب، وإحكام السيطرة على الإعلام، واستخدام هذا الإعلام لتعزيز النفوذ السياسي وحملات العلاقات العامة التي أرعبت المواطنين الأميركيين ودفعتهم إلى خوض حروب لا نهاية لها، إلى جانب اتفاقات التجارة الحرة لأميركا الشمالية والوسطى التي عززت من قوة الشركات كي تتمكن من ممارسة النفوذ على الكثير من جوانب الحكومات الأخرى.

أخذت هذه التكتيكات وكثير غيرها بمنظومة القتل الاقتصادي نحو أمداء أبعد بكثير مما كانت عليه في سبعينيات القرن الماضي. وبصرف النظر عن كل ما كتبته، يتوجب عليّ الإقرار بأني لم أنتبه للكثير مما جرى تحت السطح. في واقع الحال، تطورت الأدوات القديمة وباتت أكثر حدة وقوة، إلى جانب ابتكار أخريات جديدة. لكن روح المنظومة بقيت على حالها متمثلة في إيديولوجية اقتصادية وسياسية ترتكز على أربع دعائم، لا سيما الاستعباد من خلال الديون، والتي تتعزز عبر شلّ الشعوب بالخوف. في أيامي، أقنعت تلك الإيديولوجية غالبية الأميركيين ومعظم العالم بمشروعية إجراءاتها الرامية إلى حمايتنا من التخريب الشيوعي. أما اليوم، فانتقلت صورة الشر إلى الإرهابيين المسلمين، والمهاجرين، وأي شخص يهدد بكبح جماح الشركات الكبرى. بات التأثير الآن أكبر بكثير على الرغم من تشابه العقيدة.

تركني التعافي من آثار العملية غارقا في غياهب الشعور بالذنب. كنت أستيقظ في منتصف الليل مسكونا بذكريات الزعماء الذين رشوتهم وهددتهم. لم أتصالح مع ماضي القتل الاقتصادي الذي عشته بعد.

سألت نفسي: «لم بقيت في تلك الوظيفة لعشر سنوات؟»، ثم تذكرت مدى صعوبة الهروب من كل ذلك. لم يكن الأمر مقصورا على إغراء المال، والطيران على متن الدرجة الأولى، والنزول في أفخم الفنادق، وجميع الامتيازات الأخرى، أو الضغوط التي مارسها عليَّ المديرون والزملاء في شركة ماين، فضلا عن الهالة المحيطة بوظيفتي، وعنواني الوظيفي، وقصة ثقافتي. كنت أقوم بما درسته وتعلمته، ما قيل لي إنه الخير الذي لا بد من فعله. لقد تعلمت ودرست بأن عملي كأميركي يتمحور على البيع لصالح أميركا، مع الاعتقاد وإقناع الجميع بأن الأنظمة الشيوعية موجودة لتدميرنا.

بعد إطلاق الاتحاد السوفييتي قمره الاصطناعي الأول سبوتنيك، أصبحنا مقتنعين جميعا بأن الرؤوس النووية باتت على الطريق. دفعنا صوت صفارات الإنذار التحذيرية إلى النزول تحت مكاتبنا في أثناء التدريبات الأسبوعية على مواجهة هجمات الصواريخ السوفييتية المتخيلة. وعلمتنا الأفلام السينمائية والأعمال التلفزيونية مثل مسلسل «I Led 3 Lives ـ عشت ثلاث حيوات» الذي كان عملا دراميا مستوحًى من حياة عميل لمكتب التحقيقات الفيدرالي اخترق خلية شيوعية ـ علمتنا وجوب توخي الحذر، والانتباه للمحرضين الشيوعيين كما تبدو صورهم في الملصقات التي

تصور الشر البلشفي. قيل لنا إن هؤلاء المحرضين كامنون بيننا، ولا بد لنا من الاستعداد الدائم للانقضاض.

بحلول وقت دخولي صفوف قتلة الاقتصاد، بدا واضحا مسير أميركا على طرق خسارة حرب فيتنام، تلك الأمة التي صُوِّرَت كدمية صين ـ سوفييتية. قيل لنا إننا نواجه تأثير «أحجار الدومينو»، وإن إندونيسيا ستسقط لاحقا، ومن ثم تايلاند وكوريا الجنوبية، والفلبين، واحدة تلو الأخرى. قيل لنا كذلك إن الأمر لن يطول قبل اكتساح المد الأحمر أوروبا وإحاطته بالديمقراطية والرأسمالية الأميركية التي ستنهار ما لم نَهبّ لوقفها. ويعني هذا الكلام القيام بكل ما يلزم بهدف تكريس الشركات والترويج لها في صورة حصون قوية في وجه الشيوعية البغيضة.

ساعدني الغوص في أعماق الشعور بالذنب على رؤية مدى السهولة التي خدعت بها نفسي طيلة تلك السنين. لقد فتح ذلك ذهني أمام فهم حقيقة وجود الملايين من الناس في مواقع مثل موقعي. عاد لا يكون هناك مَن يثقِّفهم عن الخوف من الشيوعية، إلا أنهم لا يزالون خائفين من شعوب تنتمي إلى دول وثقافات يعرفونها بالخطيرة والمخيفة.[100] قد لا يسافر هؤلاء إلى دول أجنبية ولا يرون عواقب أعمال شركاتهم وجها لوجه. ثم إنهم قد لا يضطرون إلى الوقوف إلى جوار البقع النفطية في مناطق الأمازون أو رؤية الأكواخ حيث ينام البشر العاملون في المعامل التي تستغلهم. عوضا عن ذلك، يخدر هؤلاء الناس أنفسهم بمشاهدة التلفاز. إنهم يستغرقون في اعتناق تأكيدات الجامعات التي درسوا فيها، ومعها البنوك، وخبراء العلاقات العامة والمسؤولين الحكوميين، تأكيدات أنهم يعملون ويسهمون في إحداث التقدم. إلا أنهم في الأعماق مدركون للعكس. إنهم ـ ونحن ـ مدركون أن تلك القصص لا تمثل الحقيقة وتحرف الواقع. لا بد لنا الآن من الاعتراف بالتواطؤ.

أدركت في الأيام التي أعقبت عمليتي الجراحية بأن الدرس الأهم الذي تعلمته منذ إصداري كتاب «اعترافات قاتل اقتصادي» يتمثل في أن استمرار نظام القتل الاقتصادي مرهون بموافقة المتبقين منا على بقائه. إننا مؤمنون بالأكاذيب التي قيلت لنا، أو إننا تعمدنا غض النظر لنشيح بأبصارنا إلى الناحية الأخرى، وهو دعم للنظام في كلتا الحالتين. لكن من بين الأشياء التي آذتني كثيرا كان وجوب الإقرار بأني لم أشِحْ ببصري إلى الناحية الأخرى وحسب، وإنما أقنعت الكثير من الناس بدعم النظام بقوة وفعالية. لذلك، قطعت على نفسي عهدا بأن أكون أكثر اجتهادا، وأراقب ما يحصل من كثب في مجتمعي وبلدي والعالم.

إسطنبول: اقتصاد الموت ضد اقتصاد الحياة

سافرت كثيرا بعد التعافي من العملية. تركز نشاطي على الحديث عن كتابي والإجابة عن الأسئلة. استوعبت ضرورة التعمق في ما قد يقوله الآخرون، وأدركت بأن قتلة الاقتصاد حينما شغلوا مناصب مديرين تنفيذيين ومستشارين ضمن عدد محدود من الشركات متعددة الجنسيات وشركات الاستشارات في سبعينيات القرن الماضي، أخذت سلالة جديدة من هؤلاء القتلة بالانتشار وتولي إدارة الأمور. تتضمن قائمة قتلة الاقتصاد اليوم مديرين تنفيذيين ومستشارين ضمن الآلاف من الشركات متعددة الجنسيات، والشركات الاستشارية، وصناديق الاستثمار، والمجموعات الصناعية، وبعض الجمعيات، فضلا عن جيش من جماعات الضغط التي تمثل جميع هؤلاء. تسبب هؤلاء بخلق ما يطلق عليه الكثير من الاقتصاديين «اقتصاد الموت».

ازدهر عمل قتلة الاقتصاد خلال السنوات الأولى من الألفية الجديدة. وقد أسهمت جملة من العوامل في تحقيق هذا الازدهار توزعت ما بين حربي العراق وأفغانستان، وكساد العام 2008، والإعفاءات الضريبية، وسياسات الليبرالية الجديدة، فضلا عن انتشار العولمة والشركات متعددة الجنسيات. عام 2013، وإذ جلست أشاهد المنظر من شباك نافذة الفندق في إسطنبول حيث تبرز الأبنية القديمة ومنائر المدينة التي كانت موطنا وضحيَّة للامبراطوريات عبر القرون، شغلني كثيرا تنامي نظام الاقتصاد الهدام والفاشل، إلى جانب أوجه الشبه والاختلاف ما بين قتلة اقتصاد الماضي والحاضر. بعد صدور كتاب اعترافات قاتل اقتصادي، دُعيت إلى إسطنبول عدة مرات بغية الحديث ضمن مؤتمرات لمديري الشركات التنفيذيين. كنت على وشك تقديم محاضرة في تلك المدينة التاريخية التي باتت اليوم مركزا للمؤتمرات العالمية.

فكرت في طبيعة الأدوات الجوهرية التي استخدمها قتلة الاقتصاد في أيامي، أدوات تتضمن معلومات اقتصادية مزيفة كما في التحليلات المالية المشوهة، والمشاريع المتضخمة، وسجلات محاسبية مزورة، إلى جانب السرية، والخداع، والتهديدات، والرُّشى، والابتزاز، والوعود الزائفة

التي لم يقصد الإيفاء بها أبدا، عدا عن الاستعباد عبر القروض والمخاوف. ولا تزال هذه الأدوات مستخدمة حتى يومنا هذا. وكما كان الحال سابقا، يتضح وجود هذه الأدوات الآن لدى كل «قتلة الاقتصاد الحاليين»، على الرغم من وضوحها المعتمد على رغبة الطرف المقابل في تحليل «القصة من وراء القصة». وكما كان الحال سابقا كذلك، فإن الصمغ الذي يلصق كل القطع معًا يتمثل في الإيمان بأن أي وسيلة مستخدمة تجد ما يبررها من خلال تحقيق النهايات المرجوة. وفكرت في الفترة التي أمضيتها أحاضر ضمن أحد برامج دراسات الماجستير في الصين عام 2009، والحماسة التي أبداها الطلبة الصينيون إزاء تعلم ستراتيجية القتل الاقتصادي، كما وصفتها لاحقا.

يبرز التغيير الأكبر الآن في نظام عمل القتل الاقتصادي حاليا في الولايات المتحدة وباقي الدول الأخرى مرتفعة الدخل، وفي الصين وكل مكان كذلك. وكان يوجد الكثير من التنويعات على كل الأدوات المستخدمة لهذا الغرض. يمكن القول بأن هنالك الآن آلاف من قتلة الاقتصاد المنتشرين عبر أرجاء العالم. وقد خلق هؤلاء امبراطورية حقيقية ومنظومة اقتصادية تهدد بإنهاء الحياة كما نعرفها اليوم. إنهم يعملون بالعلن كما يعملون بالخفاء على حد سواء. لقد توسع هذا النظام بشدة إلى درجة تجذُّره عميقا بطريقة عمل طبيعية لا تثير مخاوف معظم الناس.

تقنع السلالة الجديدة من قتلة الاقتصاد مسؤولي الحكومات بفكرة منح الشركات «القاتلة» معاملة ضريبية وقانونية تفضيلية. إنهم يجبرون الدول على التنافس في ما بينها بهدف الحصول على فرصة استضافة منشآتها. لذلك، تمنحهم مقدرتهم على اختيار مواقع معاملهم في بلد ما أولاً، وأنظمتهم المصرفية الحصينة أمام الضرائب ثانيا، ومراكز اتصالاتهم ثالثا، ومقرات إدارتهم رابعا ـ تمنحهم جميعها مصادر قوة ونفوذ هائلة. وتتنافس الدول فيما بينها بغية تقديم العرض الأفضل والبيئة الأنسب مع القوانين والضوابط الاجتماعية الأحسن إلى جانب معدلات الأجور والضرائب الأقل. ضمن العديد من الحالات، تحملت حكوماتٌ أعباءَ ديونٍ ثقيلة بهدف توفير امتيازات لدعم هذه الشركات. خلال السنوات الأخيرة، شاهدنا هذا الكلام يحصل في دول مثل آيسلندا، وإسبانيا، وإيرلندا، واليونان، فضلا عن دول أخرى في إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط، حيث حصلت هناك منذ وقت أطول. وحينما تفشل بعض الأساليب الماكرة في تحقيق أهدافها، يدرك مسؤولو الحكومات احتمال كشف بعض الجوانب السرية السيئة من حياتهم على الملأ، أو أن ذلك سيُلَفّق عنهم في بعض الأحيان.

وطرأ تغيير آخر على مبررات التكتيكات التي اعتمدها قتلة الاقتصاد الأميركيين في الماضي، مبررات قديمة مثل حماية العالم من براثن الشيوعية، ومقاتلي الفيتكونغ، وباقي الجماعات الثورية الأخرى، فضلا عن الحماية ضد التهديدات التي تستهدف نمط الحياة الأميركية الغني، لتتحول إلى مبررات حديثة من عينة وقف الإرهابيين والمهاجرين، ومحاربة الإسلاميين المتطرفين، وتعزيز النمو الاقتصادي، إلى جانب حماية نمط حياتنا الغني. وكلما فكرت في تلك الأشياء أكثر، أدركت حاجتي إلى التصدي لها بقوة أكبر عبر كتاباتي وأحاديثي. فتحت جهاز حاسوبي وطبعت بعض التفاصيل لعرض تقديمي مستقبلي على برنامج الباوربوينت.

شريحة رقم 1:

اقتصاد الموت المدفوع بفكرة عالم الاقتصاد الحائز جائزة نوبل عام 1976 ميلتون فريدمان التي تقول:

تتمثل المسؤولية الوحيدة للعمل في زيادة وتوسيع الأرباح قصيرة الأمد إلى حدها الأقصى بصرف النظر عن التكاليف الاجتماعية أو البيئية، إلى جانب الفكرة القائلة بأن «كسب أحدهم يستوجب خسارة غيره».

شريحة رقم 2:

ترتكز ستراتيجية القتل الاقتصادي على أربعة دعائم تتمحور حول:

ـ الخوف

ـ القروض

ـ القلق من عدم الكفاية

ـ سياسة فرق تسد

شريحة رقم 3:

يتوجب على المديرين التنفيذيين في الشركات فعل كل ما بوسعهم لزيادة الأرباح، بما في ذلك «إفساد» المسؤولين عبر حملات تستخدم المال والوعود بوظائف لما بعد انتهاء أعمالهم الحكومية، واستغلال العاملين، واستنفاد الموارد.

شريحة رقم 4:

الخصائص الأساسية لاقتصاد الموت:

ـ يكافئ الوظائف غير المنتجة (التلاعب بالأوراق المالية، هيمنة القطاع المالي).

ـ يهمل الجوانب الخارجية (التكاليف البيئية والاجتماعية).

ـ يفشل في تعريف الضرائب كاستثمارات في مجالات الخدمات الاجتماعية، البنية التحتية، إلخ.

ـ يشجع الأنشطة الاحتكارية.

ـ يصنف الطبيعة كمورد قابل للنضوب.

ـ يحيل مليارات الناس إلى فقراء.

ـ يتسبب بالاحتباس الحراري، وانقراض المخلوقات، عدا عن أزمات أخرى.

شريحة رقم 5:

اقتصاد الحياة المدفوع بهدف تحقيق ما يلي:

توسيع المنافع بعيدة الأمد للناس والطبيعة وخلق معادلة الكسب للجميع.

شريحة رقم 6:

الخصائص الأساسية لاقتصاد الحياة.

ـ يكافئ الوظائف المنتجة (التعليم، الصحة، الفنون، إلخ).

ـ يعيد حساب الجوانب الخارجية في قياساته الاقتصادية والمالية.

ـ يعرف الضرائب كاستثمارات في قطاعات الرعاية الصحية، والتعليم، والبنية التحتية المستدامة، إلخ.

ـ يشجع الأعمال المحلية والمملوكة للعاملين فيها (كتعاونيات العمال والشركات الصغيرة).

ـ يدفع للناس مقابل تنظيف التلوث، وإعادة التدوير، وتطوير التكنولوجيا الخضراء، فضلا عن إعادة تجديد وإحياء البيئة.

ـ يخلق الفرص الاقتصادية لجميع الناس في كل مكان.

ـ يعكس ظاهرة الاحتباس الحراري وباقي الأزمات الأخرى مع حماية المخلوقات المهددة بالانقراض.[101]

* * *

أثناء تجوالي في شوارع مدينة إسطنبول الجميلة، وتجاذب أطراف الحديث مع الناس من مختلف الدول ومناحي الحياة، ولقاء مديرين تنفيذيين لبعض الشركات وأفراد من الحكومة التركية، وركوب العبارة في مياه البوسفور الرائع الذي يفصل أوروبا عن آسيا، بقيت أفكر ببقاء دوافع بناة الامبراطوريات الذين أرادوا السيطرة على العالم دون تغيير على الرغم من مرور آلاف السنين. في واقع الحال، لم يتغير إلا إدراكنا للعالم، حيث توسع ليطوق كل أنحاء الأرض. في الوقت ذاته، ازدادت كفاية الأدوات المستخدمة على نحو متزايد، وخلقت نظام تدمير ذاتي في خاتمة المطاف.

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، وقفت على الجانب الأوربي للبوسفور أنظر عبر الماء إلى آسيا ومِلْء عقلي ذكريات الأشياء التي قمت بها كقاتل اقتصادي عبر السنين. بدايةً، حاولت تبرير تلك الأشياء، وقلت لنفسي إني لم أكن سوى ضحية لنظام تعليمي دربني على تمحور الحلم الأميركي حول ما أصبحت عليه. وتفكرت في الكيفية التي مثّلت بها هذه المدينة محاولات تبرير الأفعال الاستعمارية والاستغلالية التي قام بها الأوربيون، والآسيويون، والمسيحيون، والمسلمون، إلى جانب عدد لا يحصى من الجماعات الأخرى، إلا أني لم أجد شيئا من التبرير سوى النهم للسلطة والثروة. مرة أخرى وجدت نفسي وجها لوجه مع الدور الذي لعبته في تكريس اقتصاد الموت.

في اليوم التالي، وأثناء رحلة عودتي بالطائرة من إسطنبول إلى الديار، نظرت إلى الأسفل نحو البحر المتوسط لأجد نفسي محاصرا بشعور آخر إلى جانب الشعور بالذنب، كان إحساسا متناميا من الغضب. لقد أخذت شركاتنا وقادة حكوماتنا نظام القتل الاقتصادي إلى أقصى أمْدَائِه الممكنة، أقصى ما يتخيله العقل في زمني، وأقصى مما وصل إليه أباطرة الإقطاع الذين حكموا الأراضي أسفل طائرتي فيما عرفت بعصور الظلام.

في واقع الحال، لم يسعني التشكيك في رؤية مؤرخي المستقبل في حقبة ما بعد الحادي عشر من أيلول التي أعيشها عصرا أكثر ظلمة من كل ما مضى.

تعاظم غضبي حينما أدركت مغزى ما قيل لنا في الولايات المتحدة عن ضرورة الخوف من الشح، ووجوب الشراء أكثر، والعمل بجد، والاستمرار بالمراكمة، ودفن أنفسنا في ديون أكثر فأكثر. لقد تجاوزت هذه العقلية نطاق الشخصية الفردية لتتحول إلى سمة وطنية، حيث يتوجب على بلادنا مراكمة وجمع موارد العالم.[102] نحن على يقين من أن استخدام الدين لتمويل القوة العسكرية ضروري لصالحنا، وأن الجدلية ذاتها استخدمت في الماضي مع رعايا أباطرة الإقطاع.

كان من المثير للغضب على وجه خاص أننا حينما نشير إلى فداحة الإنفاق العسكري الذي يستهلك منافعنا، يقال لنا إن البرامج الاجتماعية تشجع على التراخي، في حين يقود الإنفاق الداعم للجيوش، ودعم الأرباح، وتشجيع أباطرة الشركات على المضاربة بدولارات ضرائبنا ـ يقود إلى تشغيل مَكِنة النمو الاقتصادي، وإن الاقتصادات المبنية من الأعلى إلى الأسفل تعمل بهذه الطريقة على الرغم من عقود من الأدلة الدامغة على نقيض ذلك.

إذ ألقيت نظرة على القناة الإنكليزية، تلك القناة التي فصلت يوما ما بين ألد الأعداء من بروتستانت إنجلترا وكاثوليك فرنسا، صدمني مقدار القوة البالغة التي حققها هذا النظام منذ أيامي الماضية، وكيف عادت فلسفة القتل الاقتصادي هذه بعد حوادث الحادي عشر من أيلول لتبقى وتستمر. لقد عزز استخدام القروض، وقانون مكافحة الإرهاب، وعسكرة قوات الشرطة، إلى جانب طيف واسع من تكنولوجيا المراقبة، اختراق وتخريب الحركات الاجتماعية كما في حركة «احتلّوا»، إلى جانب التوسع الدراماتيكي للسجون «المخصخصة» ـ عزز من مقدرة الحكومة على تهميش أولئك المعارضين لها. في واقع الحال، تخرب لجان العمل السياسي الممولة من جانب

الشركات الكبرى ـ والمعززة بتأييد منظمة ستزن يونايتيد وقرارات قضائية أخرى ـ ومليارديرات مثل «الإخوة كوك» الذين يمولون جماعات من عينة منظمة مجلس التبادل التشريعي الأميركي ـ تخرب العملية الديمقراطية وتسهم في تحقيق الفوز في الانتخابات عبر إغراق وسائل الإعلام بالحملات المضللة. إنهم يوظفون كوادر من المحامين، وجماعات الضغط، فضلا عن المنظرين الستراتيجيين بهدف شرعنة الفساد والتأثير في جميع مستويات الحكومة.

لكنني حينما وصلت إلى الولايات المتحدة، اكتشفت حصول شيء برر غضبي أكثر.

36

فضيحة مصرفية أخرى لقتلة الاقتصاد

صُدِم العالم المالي جراء فضيحة أخرى وقعت في العام 2014. ارتبط الأمر باسم اثنين من البنوك المتورطة في ما تعرف بفضيحة ليبور،[103] إلى جانب فضائح أخرى تلتها. اعترفت بنوك سيتيكورب، وجي بي مورغان شايس آند كو، وباركلاي بي إل سي، وكذلك البنك الملكي في إسكتلندا بالتزوير والتلاعب بأسعار العملات الأجنبية، وغُرِّمَت أكثر من خمسة مليارات دولار. وفي غضون عام من ذلك، غُرِّمَت هذه البنوك الأربعة مع بنك آخر هو بنك يو بي أس مبلغ 1.6 مليار دولار إلى جانب غرامة بقيمة 1.3 مليار دولار في قضية باركلاي، وذلك بهدف تسوية دعاوى المطالبات المتعلقة بهذا الموضوع.

أدارت تلك البنوك ما يصفه بعض مسؤوليها بعبارة «الكارتيل» أو التكتل منذ العام 2007. وما بين رسائل البريد الإلكتروني ومحادثات غرف الدردشة التي ضمت الأفراد المتورطين بأسمائهم وجماعاتهم، يتضح وجود نادٍ للعصابات والمافيات.[104]

وصفت المدعي الأميركي العام لوريتا لينج مخطط البنوك للعملات الأجنبية بأنه «عرض وقح للتواطؤ والتلاعب بأسعار صرف العملات الأجنبية»، وقالت كذلك: «لقد كانت مؤامرة تقطع الأنفاس».[105]

بدت كلمتا التواطؤ والمؤامرة التي استخدمتهما المدعي العام الأميركي معبرتين بوجه خاص، وذلك بالنظر إلى استخدامها للإشارة إلى تعاون البنوك السري، تلك المؤسسات التي لطالما كانت من أكثر الشركات الموثوقة في العالم. لقد برهنت أعمال البنوك على كل شيء، سواء المؤامرة، والتواطؤ، والاحتيال، وممارسات المنافسة غير العادلة، ووجدت ما يبررها من جانب سلطة الشركات ما دامت تساهم في تحقيق الأرباح الكبيرة.

أعادتني المقالات حول تلك الفضيحة إلى مربع الشعور بالذنب من جديد. لم يكن بوسعي تجاهل الشعور بالمسؤولية عما يحصل، حيث أسهم العمل الذي قمت به قبل أربع عقود بفسح المجال أمام موجات المد الفاسد من هذا النوع. لكن مشاعري تغيرت مع القراءة من الذنب إلى الغضب من جديد. ففي الوقت الذي يتوجب علي الإقرار بأن ما فعلت هيأ المسرح لقابل الحوادث لاحقا، انتابني شعور عميق بالصدمة للتفاوت بين الأساليب التي اتبعناها في الماضي من جهة، وتكتيكات المصرفيين المعاصرين الشرسة من جهة أخرى. في أيامي، عملنا بكل جد بغية تبرير القروض. لقد اختلقنا نماذج اقتصادية قياسية لبرهنة جدوى القروض ومقدرتها على خلق نمو اقتصادي في الدول المستهدفة. وإلى جانب اقناع المواطنين في تلك الدول، تعيّن علينا إقناع أنفسنا كذلك. أما قتلة اقتصاد اليوم، فعاد لا يكون لديهم من وازع أو دافع إلى تبرير أفعالهم. كانوا صارخين، مفعمين بالتحدي، وبلا رحمة على الإطلاق. لقد استمتعوا بأدوارهم كقطاع طرق ورجال مافيات، وتفاخروا بأدوارهم كجزء فعال من ذلك الكارتيل. شعرت بالصدمة والغضب الشديد لرؤية هذه السلالة الجديدة تتفاخر باستغلال أي شخص آخر.

شيئا فشيئا، أدركت أن غضبي لم يكن مقصورا على المصرفيين، وإنما تعداه إلى المنظّمين. في واقع الحال، أفلتت هذه المؤامرة من العقاب لما لا يقل عن خمس سنوات. ومن كان يراقب يا ترى؟ بدا «الإغفال» شاهدا على موقف «لا أرى الشر، ولا أسمعه، ولا أتحدث به» الذي ساد بين الوكالات الحكومية. لم يكن ذلك إلا وجها آخر من وجوه موجة القتل الاقتصادي الثانية. اعتقد أولئك المسؤولون بأحقية قيامهم بكل ما يلزم بغية مساعدة البنوك ـ وكبريات الشركات الأخرى ـ لتحقيق هدف تعظيم الأرباح بصرف النظر عن العواقب والتداعيات الاجتماعية والبيئية.

وسلط حجم العقوبات ضوءًا قويا على طبيعة العلاقات الحميمة ما بين الشركات والحكومات. على الرغم من ضخامة الحجم الإجمالي للغرامة المفروضة على مؤامرات ليبور والتلاعب بالعملات الأجنبية ـ والبالغ بحدود عشر مليارات دولار ـ الذي بدا رقما كبيرا للوهلة الأولى، فإن تمحيصا أكبر أظهر لي أنها قليلة نسبيا مقارنة بحجم أصول تلك البنوك. ثم إن الأسوأ من ذلك أن أيًّا من المصرفيين المتورطين لم يواجه أي اتهامات بانتهاكات إجرامية.

تملكتني الدهشة لعدم اكتراث الجمهور الأميركي واستسلامه للاستغلال. بدت رغبتنا في إعماء بصيرتنا مشابهة لمواقف الدول التي استغللتها إبان سبعينيات القرن الماضي. إلى جانب

مخططات المصرفيين السرية نسبيا، تعرضنا كأميركيين للاستغلال عبر إجراءات علنية تقبلناها بسهولة كمعايير قياسية. تضمنت تلك الإجراءات قروض الدراسة المرتفعة جراء تقليص تخصيصات الحكومات المحلية والفيدرالية لقطاع التعليم، والارتفاع المستمر بالديون الطبية جراء القصور في تخصيصات الرعاية الصحية وسياسات التأمين الصحي في البلاد، وفوائد القروض قصيرة الأجل المجحفة، وقوانين الضرائب التي تحابي أقلية من الأغنياء على حساب الكثيرين، والاستعانة بمصادر خارجية بهدف التوظيف في بلدان أخرى. ولكم ترددت مقولة «سنقوم بكل ما يلزم..». ما بين غرف مجالس إدارات البنوك وقاعات مجلس الشيوخ.

عاد هذا الكلام إلى الوطن عبر فضيحة كرة القدم لمنظمة الفيفا عام 2015. انتشرت الموجة الثانية من قتلة الاقتصاد إلى حد مهاجمتها جميع مفاصل المجتمع، بما في ذلك الرياضة. بحسب الاتهامات التي وجهتها وزارة العدل الأميركية لكبار المسؤولين في المنظمة الرياضية الدولية، استخدم المنظمون العديد من الأدوات التي كان بعضها في جعبتي ما بين الرُّشى، والاحتيال، وتبييض الأموال، وقاموا بذلك بالتواطؤ مع مصارف كبيرة. مر الفساد دون حساب لما يقرب من عقدين وكلف المجتمعات ودافعي الضرائب ضمن العديد من الدول ثروات كبيرة في حين جعل حفنة قليلة من النخب ثرية.[106]

بدايةً، شعرت بشيء من الارتياح لتدخل وزارة العدل الأميركية. بدا الأمر خطوة في الاتجاه الصحيح. عاد المنظمون إلى التنظيم في نهاية المطاف، ثم رأيت وجها آخر للموضوع.

لم تكن فضيحة كرة الخدم إلا خدعة لحرف الأنظار. ركزت وسائل الإعلام على جانب غير أساسي من الحياة، جانب يتمثل في الرياضة في وقت كانت الجريمة الحقيقية فيه سرقة الاقتصاد العالمي. سيق مسؤولو الفيفا مقيدين بالأصفاد، في حين حصل مديرو المصارف التنفيذيون على مكافئات بمئات الملايين من الدولارات. لكن، لِمَ لَمْ توجه الاتهامات إلى المصرفيين الذين أقروا بجرائم أثرت فينا جميعا يا ترى؟

يكمن الجواب الواضح في عضوية أولئك المصرفيين ضمن دوائر سلطة الشركات، في حين لم يكن مسؤولو الفيفا كذلك. حرفت القصة التي كشفت عنها وزارة العدل الأميركية عن الإساءات داخل الفيفا وتبعتها لوائح اتهامات شديدة ــ حرفت الأنظار عن القصة الكبرى. في واقع الحال، لم

تكن وزارة العدل الأميركية الا ضمن دائرة النفوذ البنكية. تمتعت البنوك بثروات هائلة وقوة كبيرة إلى الحد الذي مكنها من شراء مسؤولين منتخبين، منظمين «نظموهم»، عدا عن وسائل الإعلام التي يفترض بها إبقاؤنا على اطلاع بالأحداث على الحوادث.

وجدت نفسي افكر في هوارد زين من جديد. ناقشت وزين تنامي قوة جماعات الضغط. قال زين: «نحن ننتخب، لكن أولئك الذين ننتخبهم لا يسمعوننا على ما يبدو. إنهم يطيعون أوامر الناس الذين يمولون حملاتهم الانتخابية فضلا عن الانقياد لجماعات ضغط الشركات». وأشار زين إلى أني قمت بشيء مشابه. قال: «أنت أطعت البنك الدولي». توقف زين عن الكلام لبرهة، ثم استأنف قائلا: «هل اعتقدت حقا برغبة البنك الدولي في إنهاء الفقر في العالم؟».

* * *

شاهدت صورة قديمة لي حينما كنت طالبا في كلية الأعمال عند مدخل البنك الدولي ضمن ـول زيارة قمت بها إلى هناك عام 1967، وقرأت شعار «نعمل من أجل عالم خالٍ من الفقر». آمنت بتلك الكلمات، إلا أن إيماني لم يدم طويلا. ففي غضون بضعة سنوات، اكتشفت أن ذلك الشعار لم يكن إلا رمزا للخداع الذي يميز عمل البنك الدولي.

ما بين صدور كتاب «اعترافات قاتل اقتصادي» بطبعته الأولى عام 2004 والطبعة الثانية عام 2016، انتشرت موجة قتلة الاقتصاد الثانية عبر أرجاء العالم. خلال تلك الفترة، شاركت في جملة الحلقات النقاشية والحوارات مع متخصصين في مجالات التنمية حاولوا الدفاع عن البنك الدولي. جادل أولئك المتخصصون بأن العمل الذي قمت به والعمل الذي أنجزه البنك الدولي منذ ذلك الحين قطع شوطا طويلا في سبيل إنهاء الفقر. لكن الحقائق تروي قصة أخرى وحسب.[107]

كشف تقرير صدر عن منظمة أوكسفام عن أن ما يصل إلى نصف ثروة العالم يملكها 1% من الناس، في حين يعيش سبعة من أصل كل عشرة في دول تعاني من التفاوت الاقتصادي الذي ازداد خلال السنوات الثلاثين الأخيرة.[108] ربما تتوفر الهواتف المحمولة في الأحياء الفقيرة ضمن الدول التي روجت فيها لمشاريع البنك الدولي كما في إندونيسيا، وكولومبيا، والأرجنتين، ومصر، لكن تلك الأحياء لم تغادر الفقر قطعا. وبات العديد منها ـ بمنظور المقارنة ـ أسوأ مما كان عليه أيام عملي كقاتل اقتصادي. بحسب إحصاءات البنك الدولي للعام 2011، لا يزال 2.2 مليار إنسان

يعيشون عند مستوى خط الفقر بدخل يومي لا يتجاوز دولارين في اليوم، وبالتالي فإن مليارات الفقراء الضخمة لا تتناسب مطلقا ومليارات الدولارات التي دُفعت لصالح الشركات العالمية بهدف «تخليص العالم من الفقر».[109] لم تكن تلك الأرقام إلا غيضا من فيض الكثير من الإحصاءات التي تكشف الخداع عن البنك الدولي وباقي سياسات التنمية الأخرى.

في الوقت الذي دفعت ستين دولة من بين أفقر الدول ما يعادل 550 مليار دولار خلال فترة ثلاثة عقود على شكل أصول وفوائدها عن قروض بقيمة 540 مليار دولار، لا تزال هذه الدول مَدِينة بـ523 مليار دولار أخرى عن تلك القروض ذاتها. وكانت تكلفة فوائد تلك القروض أكبر على تلك الدول من كل ما أنفقته على التعليم أو الصحة، وأكثر من عشرين ضعف المبالغ التي تلقتها على شكل مساعدات أجنبية سنويا.[110] عدا عن ذلك، جلبت تلك القروض معاناة غير مسبوقة لبعض أفقر الشعوب على سطح الكوكب. في غضون عقد واحد، أجبرت تلك القروض ما يقدر بـ3.4 مليار إنسان على ترك منازلهم، في حين عمدت حكومات تلك الدول إلى تعذيب، وضرب، وقتل معارضي مشاريع البنك الدولي على أراضيها.[111]

لقد قمنا، أنا وزملائي، بكل ما تصورناه ضروريا بغية توسيع امبراطورية الشركات الرأسمالية الكبيرة. كان ذلك الهدف الحقيقي، في حين لم يكن شعار البنك الدولي سوى حيلة وحسب. لقد أقنعنا زعماء الحكومات بأن رفضهم قروضنا والدفع مقابل تدريبنا جيوشهم وإنشاء بنيتهم التحتية سيقود إلى سقوط مواطنيهم بين مخالب دكتاتوريين من عينة ستالين. وأقنعناهم بأن رأسمالية الشركات ستخرجهم من عصور الإقطاع المظلمة نحو حقبة جديدة من الازدهار برعاية أميركية.

تضخم النظام منذ صدور الطبعة الأولى من «اعترافات قاتل اقتصادي». بحلول العام 2016، وإلى جانب البنك الدولي، روجت البنوك الخاصة لهذا النظام، إلى جانب أفراد اعترفوا بتنفيذ أنشطة إجرامية في الشركات التي قادوها، أفراد حققوا منافع بمئات الملايين من الدولارات عوضا عن إيداعهم غياهب السجن حيث يستحقون. لقد أقنع أولئك القتلة وزملاؤهم في الشركات الناس حول العالم بأن النجاح يتحدد بمقدار نمو الأرصدة الشخصية عوضا عن الإسهامات في مجتمع أكبر، وأن الخصخصة وإلغاء القيود والمحددات القانونية تحمي الناس، وأنّ دعم الحكومة للمحتاجين لم يكن إلا هدرا للموارد وسلوكا غير منتج، وأن القرض الشخصي أفضل من استثمار

الحكومة بالخدمات الاجتماعية، وأن الناس الذين يعيشون في القصور ويسافرون بالطائرات النفاثة الخاصة واليخوت الفخمة كانوا أيقونات تستحق التقليد.

استوعب هوارد سبب قبول غالبيتنا بهذه التفاهات، وقال إن أولئك المحسوبين على الطبقة الوسطى الذين وقعوا في فخ الزخرفة المادية المسماة «الازدهار» راضون عن أنفسهم بما اكتسبوه من أشياء تعلموا الطمع بها، وبالتالي لا يرغبون في خسارتها. أما أولئك الذين يعيشون بالفقر، فيتوجب عليهم الشعور بالرضا عن أنفسهم لتكريس طاقاتهم لمجرد البقاء على قيد الحياة وحسب. أما من يريدون تغيير النظام، فسيشعرون بالعجز عن القيام بذلك.

لقد تحقق كل ذلك بطريقة احترافية نفذتها الموجة الثانية من قتلة الاقتصاد ومعهم أبناء آوى الذين انتشروا على نحو متزايد في الألفية الجديدة ما بعد حوادث الحادي عشر من أيلول.

قتلة الاقتصاد الجدد في الألفية الجديدة

بالعودة إلى سبعينيات القرن الماضي، بدت الدول ذات الدخل المنخفض بمثابة أعشاش للفساد. كنت ـ والناس الآخرين مثلي ـ نمارس تجارتنا بهدوء، إلا أننا جميعنا افترضنا سلفا أن مسؤولي الحكومات في أميركا اللاتينية، إفريقيا، وآسيا ما ازدهروا إلا من خلال الفساد. تأصلت، في الصحافة وهوليوود، صورة السياسي من «جمهورية الموز» وهو يتلقى مظروفا محشوًّا بالدولارات في مقابل خدمات ممنوحة. في مقابل ذلك، بدت صورة الولايات المتحدة مغايرة إلى حد بعيد، وفوق مستوى هذا الفساد الهائل.

في أثناء كتابة «كتاب الاعترافات الجديدة (الطبعة الثانية من هذا الكتاب)»، شعرت بصدمة عميقة إزاء التغييرات التي وقعت منذ صدور كتابي الأول عام 2004. بدت التغييرات جذرية ورمزت للتحول بالمواقف، والقوانين، والسياسات الأميركية التي تصاعدت منذ أيامي كقاتل اقتصادي. باتت الممارسات التي كانت غير أخلاقية، وغير مقبولة، وغير قانونية في الولايات المتحدة، باتت ممارسات قياسية بحلول العام 2016، وربما باتت هذه الممارسات مغطاة بخطاب منحرف جديد، لكن الأدوات القديمة ذاتها ظلّت موجودة تحت السطح ـ بما في ذلك استخدام التهديدات، والرشى، والتقارير الملفقة، والابتزاز، والجنس، والعنف في بعض الأحيان ـ حيث طُبِّقَت على أعلى مستويات الشركات والحكومات.

خلال هذه الفترة، قادتني الدعوات إلى الحديث حول «الاعترافات» إلى مؤتمرات وجامعات في آسيا، وأوروبا، والشرق الأوسط، وأميركا اللاتينية، فضلا عن الكثير من الأماكن عبر أرجاء الولايات المتحدة. وفتح التغيير في حياتي الشخصية الباب أمام رؤى جديدة.

قررنا أنا ووينفريد الطلاق على الرغم من أننا بقينا أصدقاء مقربين ونسكن كلانا على مبعدة عشر دقائق عن ابنتنا جيسيكا وحفيدنا غرانت. بدأت بمواعد كيمان لوكاس، وهي محامية وشغلت منصب رئيس مجلس إدارة منظمة غير ربحية تسعى لمساعدة ضحايا الحرب في فيتنام،

وأفغانستان، وكمبوديا، ولاوس، وميانامار، والتي عملت من كثب مع وزارة العدل الأميركية. وسعت رفقتي لكيمان من فهمي لتطور وتبلور تكتيكات القتل الاقتصادي في الوطن وخارجا.

اكتشفت انتشار موجة قتلة الاقتصاد الثانية في كل مكان من أميركا، حيث تجول خبراء إدارة المخاطر في أروقة البيت الأبيض، وعبر قاعات مجلس الشيوخ، وعلى طول شارع وول ستريت، فضلا عن غرف مجالس إدارة الشركات الكبرى. بات الفساد في القمة «مُشَرْعَنًا» لأن قتلة اقتصاد الشركات الكبرى وضعوا مسودات القوانين، ومررها السياسيون الذين يحصلون منهم على التمويل. لقد كانوا مخلصين لشركات محددة بعينها عوضا عن الولايات المتحدة. بحلول العام 2016، كان هنالك خمسة أمثلة صادمة عن قتلة الاقتصاد الجدد بوجه خاص.

سيناتورات الولايات المتحدة

في آخر مرة رأيته فيها، سألت هوارد زين: «إلى أين ستلجأ إذا ما أردت معرفة المزيد عن قتلة الاقتصاد المعاصرين؟»، نصحني زين قائلا: «حاول دراسة سياسيين من أمثال داشل ودود».

يجمع كل من توم داشل وكريس دود الكثير من المشتركات معًا. خدم كلاهما كأعضاء ديمقراطيين لفترات طويلة في مجلس الشيوخ الأميركي، حيث امتدت فترة داشل من 1987 – 2005، ودود من 1981 – 2011. بدا الاثنان نجمين صاعدين في صفوف الحزب الديمقراطي. كان داشل رئيسا للأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ، في حين شغل دود منصب رئيس اللجنة الديمقراطية الوطنية ولجنة المصارف التابعة لمجلس الشيوخ، فضلا عن ترشحه للرئاسة عام 2008. صور كل من داشل ودود نفسيهما كـ«رجال الشعب» وعلى النقيض من المطلعين في واشنطن. ظهر داشل في حملاته الأولى وهو يركب سيارة قديمة من نوع بونتياك، في حين وعد دود بأن لا يستسلم أبدا للانتهازية الجشعة لجماعات الضغط.

لكن الاثنين خانا صورتهما والوعود التي قطعاها لناخبيهما. في واقع الحال، يمثل كلا الرجلين موجة القتل الاقتصادي الجديدة بالغة القوة.

بعد مغادرته مجلس الشيوخ، التحق داشل بشركة للمحاماة تكسب الملايين من الدولارات عبر أنشطة الضغط السياسي المتعلقة بالرعاية الصحية وباقي الشركات الأخرى، وتلقى مرتبا يتجاوز مليوني دولار إلى جانب بضعة ملايين أخرى من شركة أسهم خاصة. عبر اتخاذه عناوين

وظيفية غامضة من عينة «مستشار سياسي»، حاول داشل تجنب تصنيفه كأحد أفراد جماعات الضغط، على الرغم من أن عمله لم يكن إلا فعل ذلك على وجه الدقة، عملا يتمثل في الضغط لصالح عقد الصفقات المربحة للمستفيدين من عملائه.

برز أحد الأمثلة الواضحة بعد انهيار معمل للملابس في بنغلادش عام 2013، ما أدى إلى سقوط أكثر من 1100 من الضحايا. على الرغم من عدم وجود أي شيء يدل على تورط داشل المباشر، فإن شركته المسماة دي أل أي بايبر حاربت ضد تطبيق الدولة في بنغلادش خطتها الرامية إلى تحقيق إصلاحات السلامة الملزمة قانونا والرامية إلى حماية العاملين من ذوي الدخل المنخفض. عوضا عن ذلك، ضغطت دي أل أي بايبر من أجل تشريع يحد بشكل كبير من مسؤولية تجار التجزئة الأميركيين الأثرياء. بمساعدة عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي المتقاعد جورج ميتشل والمساعد السابق في مجلس الشيوخ تشارلي سكيلر، سعت شركة دي أل أي بايبر إلى حماية مصالح أحد عملائها الجشعين، بمن فيهم أحد تجار التجزئة الذين تحددت مسؤوليتهم عن انهيار المصنع عام 2013، وذلك على حساب الناس الفقراء واقتصاد بنغلادش.[112]

وحينما ترشح عضو مجلس الشيوخ دود لرئاسة الولايات المتحدة، استقبلت حملته تمويلا من مؤسسات خدمات مالية، وهي الشركات ذاتها التي تخضع لضوابط تضعها لجنة المصارف التي يرأسها دود في مجلس الشيوخ. وبعد تقاعده من مجلس الشيوخ عام 2010، وعلى الرغم من وعوده المتكررة بعدم الخوض في ميدان الضغط السياسي، حل دود محل دان كليكمان كرئيس وكبير لمجموعة ضغط لصالح ما تعرف بـ«جمعية الفلم الأميركي».[113]

كان داشل ودود ديمقراطيين. لكن الأمر تجاوز الديمقراطيين ليشمل الجمهوريين على حد سواء، حيث قفز بعض الأشخاص من مجلس الشيوخ إلى نادي جماعات الضغط كما حصل مع جون آشكروفت، وبوب دول، ونيوت غينغريتش، وفيل غرام، وتشاك هاغل، وترينت لوت، ووارين رودمان، حيث بدت قائمة أعضاء الحزبين لا متناهية في هذا الخصوص. ثم إن هناك آخرين أكثر ممن حولوا أنفسهم إلى قتلة اقتصاد انطلاقا من مجلس النواب الأميركي.[114]

جماعات الضغط لصالح الشركات

لا يطلق معظم أولئك السياسيين ومعهم الآلاف من الناس الآخرين ممن مرّوا عبر «الباب الدوار»، لا يطلقون على أنفسهم تسمية جماعات ضغط، حيث يعمل جميعهم لصالح شركات محاماة وحملوا عناوين وظيفية ملطفة من عينة «مستشار أو مشاور» للشؤون الحكومية، وحملت أنا عنوانا رسميا مفاده «كبير الاقتصاديين» لصالح شركة استشارية مرموقة. إلا أن عملهم الحقيقي تمحور، كما كان الحال معي، حول دعم سلطة الشركات، وتوسيع امبراطورية الشركات، عدا عن نشر مخالب اقتصاد الموت في جميع أرجاء الكوكب. يختبئ هؤلاء الناس في الظل، إلا أنهم يتمتعون بنفوذ هائل لا يمكن تخيله. ومن اللافت أن الرابطة الأميركية لجماعات الضغط ـ وهي عبارة عن تجمع متخصص لهذا الغرض ـ عمدت إلى تغيير اسمها عام 2013 ليصبح رابطة المتخصصين بالعلاقات الحكومية. على الرغم من انخفاض عدد جماعات الضغط المسجلة إلى أدنى مستوياتها منذ عقد من الزمن في ذلك العام، بلغ ذلك العدد المتدني 12281، أي ما يعادل ثلاثًا وعشرين جماعة ضغط ضخمة لكل عضو من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب الأميركيين، فضلا عن بلوغه أضعاف ما كان عليه العدد أيام عملي كقاتل اقتصادي. لكن هذا العدد الصادم كان أقل من الحقيقة. فبحسب بحث أجراه البروفسور الجامعي جايمس ثوربر، افترض الأخير أن عدد جماعات الضغط العاملة فعليا يقترب من 100000، وأن معدل الإنفاق السنوي لحملات ضغط هذه الجماعات يقدر بتسعة مليارات دولار.[115]

يقود الغموض الذي يلف عمل جماعات الضغط إلى استحالة قياس تأثير أنشطتها الدقيق. غير أن كل واحدة من كبريات الشركات التي تعمل في الولايات المتحدة تتوفر على ما لا يقل عن 100 من جماعات الضغط. ومن الجدير بالذكر أن تلك الشركات ومن يساعدها أنفقت أكثر من ثلاثين دولارًا لأجل الضغط مقابل كل دولار استثمرته اتحادات العمال وجماعات المصالح الشعبية التي تمثل «الشعب» في أنشطة تعزز حقوق العمال، والبيئة، والرعاية الصحية، والتعليم، وباقي الخدمات الاجتماعية الأخرى.[116] وخشي المسؤولون المعنيون بإنفاذ القانون من تحدي جماعات الضغط والشركات التي يمثلونها. يتناول الاقتباس التالي من موقع كومون دريمز الإخباري عن صناعة الأسلحة، لكن الكلام يمثل الشركات العالمية بوجه عام، حيث أورد الموقع يقول:

في قائمة أكبر عشرة مصنعي أسلحة دوليين، ثمانية منهم أميركيون. تنفق صناعة الأسلحة ملايين الدولارات بهدف الضغط على مجلسي الشيوخ والنواب، وتدافع عن نفسها ومساحتها بقوة

وكفاية تتجاوز قوة وكفاية منتوجاتها على أرض المعركة. على سبيل المثال، سيكلف مشروع طائرة F - 35 - التي تعد السلاح الأكثر كلفة في التاريخ الأميركي ـ بحدود 1.5 تريليون دولار، ولن تعمل هذه الطائرة. ولا بد من الإشارة إلى ميزانية المشروع بالغة الضخامة، وخطورة طيرانها، عدا عن مقدار العيوب التي تعانيها. لكن برغم ذلك، لم يجرؤ إلا قِلَّة قليلة من المشرعين على تحدي الشركات القوية التي خنقتنا بقوة نفوذها.[117]

مستشارو المواقع

أعلنت بوينغ، وهي إحدى كبريات شركات إنتاج الأسلحة ـ وأحد أكبر مقاولي الدفاع المتعاقدين مع واشنطن، والتي توظف عمالة تقدر بثمانين ألفًا من الموظفين، إلى جانب مقاولَيْن أميركيين آخرين كبيرين هما لوكهيد مارتين ونورثروب غرومان ـ، عن أخبار مهمة في الولاية التي أقيم أنا فيها.[118] عملت جماعات الضغط التابعة لبوينغ ليل نهار بغية إقناع مسؤولي ولاية واشنطن منح الشركة سماحات ضريبية هائلة. وهددت الشركة بنقل منشآت إنتاجها الخاصة بالطائرةX 777 إلى ولاية أخرى ما لم يمتثل السياسيون لمطالبها.

في خاتمة المطاف، مرر مشرعو ولاية واشنطن قانونا تقرر بموجبه منح الخصم الضريبي الأكبر في تاريخ جميع الولايات الأميركية، وبقيمة تقديرية لبوينغ مدى الحياة تبلغ 8.7 مليار دولار.[119] وقد ضمن ذلك القانون لعملاق الصناعات الفضائية والجوية ارتقاءها لمستوى الشركة الأميركية الأولى في تلقي الدعم المحلي من جانب الولايات في حينها.[120]

تُصور الوسائل التي اعتمدتها بوينغ بهدف التلاعب بمسؤولي واشنطن تلك الطبقة الخاصة من قتلة الاقتصاد المعروفين بتسمية «مستشارو المواقع». تورط هؤلاء القتلة لسنوات في دول منخفضة الدخل. لكن، بمجرد ظهور قضية بوينغ، برز هؤلاء القتلة كعامل بالغ التأثير في الولايات المتحدة.

ربما تزعم كليات الأعمال والمخططون بأن قرارات الشركات إزاء مواقع المنشآت التي تخلق الوظائف مبنية على تحليلات منطقية تستند إلى عوامل موضوعية مثل القرب من مصادر التجهيز والزبائن، وسوق العمل، وظروف البنية التحتية الحالية، وشبكات النقل، فضلا عن كلفة الطاقة، لكن المحدد الأكبر في العديد من الحالات يتمحور حول الصفقة المعقودة مع الحكومات

المحلية. في هذا السياق، لعب مستشارو المواقع على وتر الخوف من رفض الشركات العمل في مواقعها ما لم تحصل على بعض أفضل اللوائح والضوابط البيئية والاجتماعية تساهلا، فضلا عن أدنى معدلات الضرائب إلى جانب حوافز أخرى يمكن تقديمها من خلال تغيير السياسات المحلية لصالحها. وفي الوقت الذي يرغب المسؤولون الحكوميون في عقد صفقات كهذه بالعادة، غالبا ما يغفل هؤلاء المسؤولين عن التداعيات والعواقب بعيدة الأمد المترتبة عن ذلك، كما في تدهور المدارس، والطرق، والمنشآت الترفيهية، والموارد الطبيعية (ومن المفارقة أنها المزايا التي تفيد المجتمع بكامله بمن فيهم موظفو الشركة أنفسهم).[121]

منظرو ستراتيجيات الضرائب والإعانات

ذكرتني صفقة بوينغ بأشياء قمت بها في إندونيسيا، وكولومبيا، والأرجنتين، والإكوادور، ومصر، وبنما. إلا أن الفرق الرئيس تمثل في استخدام موجة قتلة الاقتصاد الثانية في الولايات المتحدة سياسة الضرائب والإعانات عوضا عن استخدام قروض البنك الدولي.

كانت هذه الأحابيل أكثر فعالية من القروض. فبحسب هذا الكلام، تتجنب الشركات الحاجة إلى تسجيل الأموال أو توقيع العقود التي تلزمهم بإنشاء الأنظمة لضمان سداد المدين فعليا. ضمن هذه النسخة الأميركية، لم تكن توجد حاجة إلى أيٍّ كان كي يقدم التمويل. وعوضا عن ذلك، استُقطِعَ المال من قاعدة الضرائب وسُلِّم إلى الشركات، أي إن المال سرق من دافعي الضرائب عمليا. تحول المال المخصص لقطاعات الرعاية الصحية، والتعليم، وباقي الخدمات الاجتماعية إلى جهة خزائن الشركات الجشعة.

قادني بحثي نحو مركز «الوظائف الجيدة أولا»، وهو مركز وطني متخصص بمراجعة سياسات المِنح، والقروض، وباقي الإعانات الموزعة من جانب الحكومة الفيدرالية منذ العام 2000. بحسب تقارير المركز، وخلال فترة خمسة عشر عامًا، وزعت الحكومة الفيدرالية ما يقدر بثمانية وستين مليار دولار مع ائتمانات ضريبية خاصة للشركات. وقد تسلمت كبريات الشركات ثلثي ذلك المبلغ. وبحسب المركز ذاته، فإن قائمة الشركات التي تتوفر على أنجح جماعات الضغط التي ضمنت حصولها على أعلى مقادير الإعانات والدعم شملت كلا من: فورد للسيارات، وجنرال إلكتريك، وجي بي مورغان تشايس، وداو للكيماويات، ولوكهيد مارتن، ويوناتيد للتكنولوجيا،

وغولدمان ساكس، فضلا عما يقرب من نصف أكثر المقاولين الفيدراليين ربحا. وأشارت تقارير المركز إلى تلقي قائمة صادمة تضم 298 من الشركات إعانات ودعمًا لكل منها بقيمة ستين مليون دولار أو أكثر.[122] جنت تلك الشركات أرباحا من خلال الموانئ، والمطارات، والطرق السريعة، والمرافق الخدمية، والمدارس، ومراكز الدفاع المدني، وباقي الخدمات الأخرى، وحصلوا على المليارات من الدولارات، إلا أنهم لم يدفعوا نصيبهم العادل من الدعم الواجب تقديمه للمؤسسات التي خدمتهم وخدمت موظفيهم.

وكشف تحقيق استقصائي أجرته جريدة الغارديان البريطانية بأن صناعات الفحم، والنفط، والغاز أفادت من الإعانات والدعم بمقدار 550 مليار دولار، وهو ما يعادل أربعة أضعاف الدعم المقدم لمشاريع الطاقة المتجددة.[123]

ربما كان قتلة اقتصاد الشركات الزراعية الأشهر ـ والأسوأ سمعة ـ على الإطلاق. يعد تمرير ما يعرف بـ«قانون الظلام» (وهو اختصار لإنكار حق أميركا بالمعرفة، والذي يرمز إليه بـH.R. 1599) الذي شرعه مجلس النواب الأميركي في تموز العام 2015، مثالًا جيدا على أداء أولئك القتلة. أريد بذلك القرار منع الولايات من فرض وضع علامات تشير إلى خضوع المنتجات لتعديلات الهندسة الوراثية، وقد تمكنت رابطة مصنعي الخضار والفواكه ومعهم قتلة الاقتصاد التابعين لشركة مونساتو[124] من ضمان تمرير ذلك القانون. في هذا السياق، يقول أندرو كيمبريل الذي يشغل منصب المدير التنفيذي لمجموعة العمل البيئية المختصة بسلامة الغذاء معلقا: «يعد تمرير هذا القانون محاولة من جانب مونساتو وأقرانها في العمل الزراعي تهدف إلى سحق صناعة القرار الديمقراطي لعشرات الملايين من الأميركيين»، مشيرا إلى الدعم الشعبي الواسع لوضع تلك العلامات واشتراط وجودها. وقال سكوت فابر الذي يشغل منصب نائب رئيس مجموعة العمل البيئية للشؤون الحكومية معلقا «إنه لأمر شنيع تصويت بعض أعضاء مجلس النواب لتمرير قرار يهمل رغبات ثمانية من أصل كل عشرة أميركيين».[125]

بأي حال من الأحوال، لم تقتصر برامج سرقة الفقراء ومنح الأغنياء على شركات السلاح، والطاقة، والزراعة، وإنما انتشرت عبر ألوان الطيف الاقتصادي. من بين الأمثلة سلسلة متاجر وول مارت كذلك.

وصف تقرير صادر عن رابطة «أميركيون من أجل ضرائب عادلة» وسائل استحوذت بها شركة وول مارت على المليارات من أموال دافعي الضرائب الأميركيين. من بين الوسائل المتعددة التي اعتمدتها شركة وول مارت ما تمثل في شبكتها الواسعة من الملاذات الضريبية الآمنة عبر أرجاء العالم، وبأصول تتجاوز قيمتها ستة وسبعين مليار دولار. وفي هذا السياق، أنشأت شركة وول مارت ما لا يقل عن ثمانٍ وسبعين شركة تابعة لها في خمسة عشر ملاذًا ضريبيًّا خارجيًّا آمنًا، وكلها غير معلن عنها رسميًّا من قبل.[126]

حصل عاملو وول مارت على دعم من أموال دافعي الضرائب الأميركيين بقيمة ستة مليارات دولار، فضلا عن برامج تغذية عامة، ورعاية صحية، إلى جانب برامج دعم الإسكان. ومن الجدير بالذكر أن ما تعرف بعائلة والتون[127] تصنف بكونها واحدة من أغنى العائلات على وجه الأرض. وعلى الرغم من أنهم ـ كما هو الحال مع العديد من أقرانهم ـ ربما ينتقدون برامج الدعم الاجتماعي الموجهة لمنفعة أي شخص آخر، إلا أنهم كانوا من بين المستفيدين من أكبر برامج الدعم الاجتماعي في التاريخ.[128]

عقبان الرأسمالية الجشعة

تمول صناديق التمويل الشرهة عملية شراء دَيْن بلد ما بقيمة بضع سنتات لكل دولار بعد تخلف البلد عن السداد وسقوطه في هوة الفوضى الاقتصادية. بعد ذلك، وحينما يبدأ البلد بالتعافي اقتصاديا، تطالب تلك الصناديق بدفع الدين مع الفوائد إلى جانب مصاريف إضافية بالعادة. وتقوم العديد من تلك الصناديق بخطوات أخرى عبر مقاضاة الشركات التي تحاول العمل مع البلد المعني، الأمر الذي يفاقم من حجم الضرر الذي يعانيه البلد عبر تقلص وتراجع المستثمرين المحتملين وحيودهم عنه.

استحصل ستة وعشرون من أكبر الصناديق ديونا بقيمة مليار دولار من بعض أفقر البلدان في العالم، ولا يزال أمامها استحصال 1.3 مليار دولار أخرى. ولا بد من الإشارة إلى أن مبلغ مليار دولار يمثل أكثر من ضعف قيمة ميزانية منظمة الصليب الأحمر المخصصة للعمل في إفريقيا إبان العام 2011، فضلا عن كونها كافية لتمويل كامل طلبات الأمم المتحدة لمكافحة ودرء المجاعة في الصومال.

نتج معظم الكساد الاقتصادي العالمي عام 2008 والأزمات التي خلقها جراء تزايد استغلال الرأسماليين الجشعين. فإلى جانب الدول الأقل دخلا،[129] وتلك الدول التي لا تزال في طور النمو الاقتصادي في أوروبا، استهدفت تلك الصناديق أكثر من ثلث الدول التسع والثلاثين المرشحة لبرامج نيل مساعدات لتخفيف وطأة الديون من البنك الدولي، والتي تعد من أفقر الدول وأكثرها دَيْنًا، ولا سيما الإفريقية منها.[130]

كما هو الحال مع العديد من الأنشطة التي كرستها موجة قتلة الاقتصاد الثانية، لم تدمر صناديق التمويل الجشعة الدول المستهدفة وحسب، وإنما عمدت إلى عرقلة الاقتصاد العالمي وإحداث الضرر والاضطراب فيه. في هذا السياق، يقول جوزيف ستيغليتز، الحائز جائزة نوبل بالاقتصاد ونائب الرئيس السابق وكبير الاقتصاديين في البنك الدولي، معلِّقًا:

تسبب صراع السلطات في الأرجنتين مع عدد صغير من المستثمرين (أو ما يطلق عليهم تسمية صناديق التمويل الجشعة) بتعريض كامل عملية إعادة هيكلة الدين للخطر، والتي قُبِلَ بها طواعية من جانب الغالبية العظمى من دائني البلاد. أما في اليونان، فقد اضطرت البلاد إلى الشروع بجملة إجراءات تقشفية قاسية أسهمت في تقلص الناتج القومي الإجمالي بما نسبته 25% وتركت السكان في وضع أسوأ حالا. وفي أوكرانيا، بدت التداعيات السياسية المحتملة لأزمة الديون السيادية هائلة على البلاد.[131]

تؤشر الأمثلة الخمسة أعلاه إلى حقيقة تأثير الموجة الثانية من قتلة الاقتصاد في اقتصادات الولايات المتحدة والعالم، فضلا عن تداعيات عملها السياسية، البيئية، والاجتماعية. لقد تسببت السلالة الجديدة بتنصيب خمسة وثمانين شخصا كمالكين لموارد تزيد على موارد نصف شعوب الكرة الأرضية.[132]

وكان هناك شيء آخر مروع يتطور جنبا إلى جنب مع أبناء آوى على حد سواء.

38

أبناء آوى الجدد في الألفية الثالثة

ورد الاقتباس التالي في كتاب «الاعترافات الجديدة ـ الطبعة الثانية من هذا الكتاب»:

تحدث إلي جعفر، وكان طالبًا التقيته في أثناء وجودي للكلام ضمن أحد مؤتمرات الأعمال في إسطنبول، قائلا: «بينما سِرت وحيدا في شارع القرية حيث يعيش أجدادي (في باكستان)، وفجأة ودون سابق إنذار، انفجر المبنى إلى جواري بصاروخ أطلقته طائرة مسيرة من دون طيار. هُرع الناس يصرخون. من بين الناس، خرجت أم تحمل طفلا رضيعا بين يديها وقد التهمتها النار. هرعت إليها لآخذ الطفل منها، وقلت لها تدحرجي على الأرض». اغرورقت عينا جعفر بالدموع وأضاف قائلا: «نجت المرأة مما أصابها، لكن كثيرين قضوا في الهجوم. لقد كانوا كثيرين حقا».

قاد تلك الطائرة بعض أفراد سلالة جديدة من أبناء آوى، سلالة لا تخاطر بحياتها ولا تسمع صرخات الجرحى وأنين المصابين، ولا ترى معاناة الضحايا الأبرياء. يجلس هؤلاء المسيطرون أمام شاشات حواسيب، وليس في وظائفهم شيء بطولي، وما من شيء بطولي في أمة تسبب كل هذه المعاناة والألم لأناس شعوب أخرى.

على الرغم من تكرار التقارير الإخبارية حول عمليات اغتيال تستهدف زعماء القاعدة ومعهم زعماء إرهابيين آخرين من خلال الطائرات المسيرة، فمن الاستحالة الحصول على إرقام إحصائية دقيقة عن الأخطاء التي تقع أثناء تنفيذ تلك الهجمات، تلك الأخطاء التي تشير إليها وزارة الدفاع الأميركية بمصطلح «الدمار المصاحب»، ويعني المدنيين الأبرياء الذين يسقطون جراء تلك الهجمات. لذلك، لا يسعنا سوى اللجوء إلى التقديرات، وهي صادمة بكل تأكيد.[133]

في سياق متصل، أشار موقع كومون دريمز الإخباري قائلا: «لقي أكثر من 6000 شخص حتفهم دون وجه حق جراء هجمات الطائرات المسيرة الأميركية في باكستان، وأفغانستان، واليمن، والصومال، والعراق، والفلبين، وليبيا، وسوريا»، إذ كشفت عن هذا رسالة بعث بها العشرات من

العسكريين الأميركيين السابقين شهر حزيران من العام 2015. وبحسب هذه الرسالة، حث العسكريون السابقون الجنود المسيطرين على الطائرات المسيرة كي «يرفضوا تنفيذ المهام» أو دعم أنشطة كهذه بأي شكل من الأشكال. يفهم أولئك العسكريون السابقون أن الضربات العشوائية التي تنفذها الطائرات المسيرة ضد المدنيين ينظر إليها معظم الناس عبر العالم كعمل إرهابي.[134]

شهد الكثير من العسكريين السابقين أفعال مشغلي الطائرات المسيرة ومعهم الكثير من أبناء آوى الجدد وهم يملؤون جيوب أقطاب الشركات الكبرى بالأرباح الفاحشة جراء الحروب والدمار، وإعادة الإعمار، فضلا عن حقول النفط والموارد الأخرى الواقعة في قلب مناطق العديد من الصراعات. في الوقت ذاته، تقوض هذه الأفعال مصداقية الولايات المتحدة، وتتناقض مع المواطنين الأميركيين، وتعزز استمرار النظام الاقتصادي القائم على الخوف.

وصف الجنرال المتقاعد مايكل فلين الذي شغل منصبا عسكريا استخباريا رفيعا في إدارة الرئيس أوباما، وصف استخدام الطائرات المسيرة بعبارة «ستراتيجية فاشلة» لا تشجع إلا على العنف والإرهاب. ويقول فلين معلقا: «حينما تلقي قنبلة من طائرة مسيرة، ستسبب دمارا أكثر من الخير الذي ستحققه». ولا بد من الإشارة إلى تولي فلين رئاسة وكالة استخبارات وزارة الدفاع الأميركية حتى صيف العام 2014.[135]

تكشف الوثائق التي سربها موقع وكيليكس وإدوارد سنودن عن زيادة مقلقة باستخدام وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية التعذيب ومواقع الترحيل السري الاستثنائية، وتوظيف قوات شبه عسكرية من جانب حكومات وشركات عالمية، عدا عن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية والقوات الخاصة ـ استخدامها وتوظيفها لـ«برامج اغتيالات ضد أهداف عالية القيمة». على النقيض من نمط العملاء السريين المنعزلين الذي ساد في الماضي، ذلك النمط المعتمد على ذكاء أولئك العملاء وبراعتهم البدنية، تبرز «طبقة أبناء آوى» الجدد مدعومة بالضربات الجوية، والأقمار الاصطناعية، وباقي صور التكنولوجيات الحديثة. وعلى الرغم من بقاء الرأي العام الأميركي بعيدا عن معرفة ما يجري حول العمليات، لا سيما عمليات الفرق العسكرية المدربة مثل أفراد مجموعات وحدات دلتا وسيل البحرية بوجه خاص، لا يخفى الأمر على المجتمعات التي تتعرض لتلك الضربات أبدا.

من جانبها، أعربت جريدة نيويورك تايمز عن أسفها على حجاب السرية المحيط بعمل تلك الوحدات ضمن مقال حمل عنوان «وحدة سيل رقم 6: تاريخ سري للقتل السريع والخطوط الضبابية»، تقول فيه:

إنهم يديرون محطات تجسس تحت غطاء مراكب تجارية متحركة في جميع أرجاء العالم، ويظهرون كموظفين مدنيين لشركات واجهة، ويعملون متخفين ضمن السفارات على شكل أزواج من ذكر وأنثى يتتبعون الأهداف التي تريد الولايات المتحدة قتلها أو اعتقالها.

تمثل هذه العمليات بعضا من التاريخ الخفي لوحدة سيل رقم 6، تلك الوحدة التي تعد المنظمة العسكرية الأكثر أسطورية وسرية والأقل خضوعا للرقابة في البلاد. لقد تحولت تلك المجموعة الصغيرة المخصصة لأداء مهام خاصة وإن كانت نادرة، تلك الوحدة التي اشتهرت بعملية قتل أسامة بن لادن، تحولت إلى آلة عالمية للقتل والمطاردة عبر أكثر من عقد من القتال.

مضت مقالة النيويورك تايمز إلى استنكار حقيقة ممارسة وتطبيق الكثير من السياسات الأميركية الحاضرة بالخفاء. وفي هذا السياق، خلص فريق التحقيق الاستقصائي لجريدة نيويورك تايمز إلى:

كما هو الحال مع حملة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لتوجيه الضربات بالطائرات المسيرة، توفر مهمات العمليات الخاصة لصناع القرار بديلا مرغوبا لحروب الاحتلال باهظة الكلفة. لكن حصن السرية المحيط بوحدة سيل رقم 6 يجعل من الاستحالة بمكان تقييم سجلها وتداعيات أعمالها، بما في ذلك الخسائر في صفوف المدنيين أو الغضب العميق داخل الدول التي يعمل بها أفراد هذه الوحدة.[136]

في أيامي، كُلِّفَ أبناء آوى على وجه الخصوص بمهمات في أراضٍ أجنبية، مع استثناء أولئك المنخرطين في عمليات مكافحة التمرد واختراق الخلايا الشيوعية داخل الأراضي الأميركية. لكن هذا الكلام تغير كذلك بحلول وقت صدور كتاب الاعترافات الجديدة. ففي أعقاب حوادث الحادي عشر من أيلول، دفع الخوف أميركا إلى القبول بالتضحية بالخصوصية والحرية وإعطاء وكالة الأمن القومي، والاستخبارات المركزية الأميركية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي إلى جانب

وكالات أمنية أخرى ـ إلى إعطائها سلطات غير مسبوقة تضمنت أدوات متقنة للعمل بالتجسس في الخارج وفي داخل الولايات المتحدة باستخدام الطائرات المسيرة وطائرات المراقبة.

كشفت وثائق صدرت عن السلطات الفيدرالية الأميركية بعد معركة قضائية عن حرية المعلومات توجيه جنود أميركيين للطائرات الأميركية المسيرة من داخل قواعد عسكرية أميركية داخل الولايات الأميركية. وكشفت الوثائق ذاتها عمل بعض تلك الطائرات تحت سيطرة وتوجيه وكالات إنفاذ القانون ودوريات الحدود. وقد كان بعض تلك الطائرات، إن لم يكن جميعها، مصمما لاغتيال الناس.[137]

في السياق ذاته، أوردت وكالة أنباء أسوشييتيد برس توفر مكتب التحقيقات الفيدرالي على «سلاح جو صغير مكون من بضعة عشرات من الطائرات التي تحلق على ارتفاع منخفض عبر أرجاء الولايات المتحدة حاملة معها تكنولوجيا التصوير الفيديوي والاتصالات المحمولة، حيث أخفيت جميع تلك التكنولوجيا خلف شركات واجهة تمثل الحكومة». ومضى تقرير وكالة أسوشييتيد برس قائلا: «عادة ما جرت تلك العمليات دون موافقة قضائية، وإن الوكالة عمدت خلال الأيام الثلاثين الماضية إلى تنفيذ عمليات طيران فوق أكثر من ثلاثين مدينة ضمن إحدى عشرة ولاية عبر أرجاء البلاد».[138]

على الرغم من إثارة هجمات الحادي عشر من أيلول رعب الأمة إلى الحد الذي تخلت فيه عن حرياتها، قلبت التقارير المستمرة عن التعذيب في القواعد العسكرية ومراكز الترحيل التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، والهجمات على مسربي المعلومات، ووحشية الشرطة، فضلا عن التنصت على الاتصالات الشخصية للهواتف ـ قلبت جميعها موجة الرأي العام. وعلى نحو متزايد، أخذت وسائل الإعلام والمدونات تشير بقوة إلى تلك الأنشطة وعدم اتساقها مع القوانين الرامية لحماية خصوصيتنا، وأخذت تقول:

كشفت تقارير إخبارية صادرة في كانون الأول من العام 2005 عن اختراق وكالة الأمن القومي اتصالات الأميركيين الهاتفية وبيانات الإنترنت خاصتهم. وقد أكدت تلك التقارير الإخبارية التي ترافقت مع تقرير صدر عن جريدة يو أس أي توداي في أيار العام 2006 إلى جانب بيانات من بعض أعضاء مجلس الشيوخ، أكدت تلقي وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية نسخ كاملة عن

سجلات اتصالات الأميركيين الهاتفية وبياناتهم من شبكة الإنترنت. وتعد جميع أنشطة المراقبة تلك خرقا للخصوصية التي أسس لها وضمنها مجلس الشيوخ والدستور الأميركي.[139]

تحكي إجراءات أبناء آوى التي كشفت عنها تلك الوثائق قصة مروعة وحزينة عن الأدوات المستخدمة لدعم وتعزيز موجة القتل الاقتصادي الثانية. لقد توصل العديد من الأميركيين إلى تعرض ديمقراطيتهم للخيانة من حكومتهم التي يفترض بها حمايتها، وإن أسس حكم هذه البلاد المتمثلة في «حكم البلاد من أجل المواطنين، وبهم، ولأجلهم» دُفنت مع بقايا الرماد في موقع مبنى برج التجارة العالمي.

إبان وقت نشر كتاب «الاعترافات الجديدة»، كانت وكالة الأمن القومي تراقب بحدود 200 مليون رسالة نصية يوميا، وزرعت برمجيات تجسس خلسة في مئات الآلاف من الحواسيب، الأمر الذي مكنها من الوصول إلى المعلومات المخزنة عليها. إني لأتساءل عما إذا كان جهاز حاسوبي أحد تلك الأجهزة المخترقة أو لا؟[140]

جراء شعوري بالعار لما اقترفته وكالات أبناء آوى التابعة لنا من أفعال غير أخلاقية وإجرامية (وإن كانت قانونية من الناحية التقنية)، انتابني غضب شديد لاكتشاف تنصت وكالة الأمن القومي ـ التي جندتني في الماضي ـ على الاتصالات الهاتفية لخمسة وثلاثين من زعماء العالم، بما في ذلك الاستماع إلى محادثات سرية أجريت على أعلى المستويات لحكومات فرنسا، وألمانيا، والمملكة المتحدة، والبرازيل، والأرجنتين، عدا عن العديد من حلفائنا الآخرين.

بحسب جريدة الغارديان البريطانية: «تشجع وكالة الأمن القومي الأميركي كبار المسؤولين في أقسام العملاء، كما في البيت الأبيض، ووزارتي الخارجية والدفاع، على مشاركة دفاتر هواتفهم معها كي تتمكن من إضافة أرقام الهواتف الخاصة بكبار السياسيين الأجانب إلى منظومة مراقبتها الخاصة».[141]

ضمن العديد من بقاع العالم، لقي الكثير من أبناء آوى التابعين لموجة قتلة الاقتصاد الثانية الدعم من جانب طبقة متنامية من قوات المرتزقة التي لا تخضع للقوانين والمعايير ذاتها التي يخضع لها المقاتلون النظاميون.

بحلول العام 2012، وُجِد ما يقرب من 110000 مرتزق في أفغانستان وحدها، مقارنة بعديد القوات الأميركية النظامية البالغ ثمانية وستين ألف عسكري. وبغية وضع الأمور في نصابها، انتشر في فيتنام أثناء الحرب بحدود سبعين ألف مرتزق إلى جانب 395000 عسكري نظامي.[142]

على الرغم من غموض عدد المرتزقة الذين وُظِّفوا بأموال دافعي الضرائب الأميركيين، صنفت دراسة استقصائية صدرت في العام 2014 وجود ثلاثين شركة من أكثر شركات الأمن الخاصة قوة، والتي تصدرتها شركة G4S التي توظف أكثر من 620000 شخص، وحققت أرباحا بلغت أكثر من اثني عشر مليار دولار في العام 2012. إلى جانب جنودها، باعت شركة G4S بعض أفضل معدات وتكنولوجيا التجسس والمراقبة لصالح الحكومات والشركات المهتمة، ومن ثم تأتي شركة بلاك ووتر (التي تغير اسمها لاحقا إلى ACADEMI) بالمرتبة الثلاثين، تلك الشركة المعروفة للعموم بقتل مرتزقتها مدنيين عراقيين.[143]

سمح استخدام وتوظيف المرتزقة لواشنطن بالادعاء بتقلص عديد قواتها المنتشرة مع تقلص عدد ضحاياها، فضلا عن تجنيب الحكومة مسؤولية أعمال التعذيب وباقي الجرائم الأخرى التي تقع إبان الحروب. ومكّن استخدام المرتزقة من تجنب الحاجة إلى التجنيد الإلزامي المكروه شعبيا كما حصل في حرب فيتنام، ذلك التجنيد الذي استحث ظهور حركة وطنية كبيرة مناهضة للحرب. وقد دعم هؤلاء المرتزقة أعمال أبناء آوى غير القانونية من دون الرجوع إلى وزارة الدفاع، أو مجلس الشيوخ، أو الرئيس. في واقع الحال، لم يخضع أولئك جميعا لأي شكل من أشكال المسائلة.

إذ شرعتُ بالبحث عن المصادر والمعلومات لصالح كتاب «الاعترافات الجديدة»، لاحظت أن سلطة الشركات باتت بلا حدود عمليا وغير ديمقراطية بالمطلق في محضر قدرتها ورغبتها بالتجسس على جميع حركاتنا والتصرف إزاءها ـ بما في ذلك الاحتجاز دون أمر إحضار أصولي، عدا عن الاغتيال ـ حينما تستشعر التهديد إزاء قوتها المدفوعة بالجشع. ويملك أفراد جماعات الضغط العاملون لديها الكثير من مسؤولينا المنتخبين، عدا عن فرق عملياتهم الخاصة بتنفيذ مهام الاغتيالات غير القانونية. فضلا عن ذلك، تملك طائراتهم المسيرة التي تحلق على ارتفاعات منخفضة إلى جانب روبوتات أبناء آوى التي بحوزتهم مقدرة التنصت على اتصالاتنا الهاتفية وبيانات الإنترنت التي نستخدمها.

في واقع الحال، لم يكن كل ذلك إلا جزءا من تصميم سلطة الشركات على فعل كل ما يلزم لاستدامة واستمرار سيطرتها، ووجودها، وقوتها.

لم يطل الوقت كثيرا بعد صدور كتاب «الاعترافات الجديدة» حتى بدا واضحا فتح ستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية ومعها السياسة الأميركية الباب معا على مصراعيه لموجة قتلة الاقتصاد الصينيين، وبالتالي أذنت ببدء موجة القتل الاقتصادي الثالثة.

القسم السابع

ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية

39

الصين تتَرَجَّح في الميزان

بدأت مسيرة الصين للتحول نحو لاعب عالمي كبير مع بروز دينغ شياو بينغ كزعيم للصين بعد موت ماو تسي تونغ عام 1976. تحت إشراف دينغ، تخلت الصين عن عقود من ستراتيجيات التنمية الكارثية التي أنتجت مجاعة مميتة حصدت أرواح ما يقدر بعشرين مليونا من أبناء الشعب الصيني.[144] دافع دينغ عن إصلاحات روجت لما وصفها بأنها: «اقتصاد سوق بخصائص اشتراكية».

اختلف اقتصاد سوق دينغ جذريا عن النسخة الأميركية.

عرفت الكثير عن أفكار دينغ وكيف ركزت على أولوية أهداف المجتمع فوق الأهداف الفردية وصاغتها لما أصبحت عليه ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية في العام 2009، عرفتها حينما دُعيت إلى إعطاء محاضرات في كلية إدارة الأعمال الدولية الصينية الأوروبية. تدير تلك الكلية برنامجا لنيل شهادة الماجستير يرقى إلى مستوى أحد أفضل 10 برامج للدراسات المتخصصة من نوعه حسب تصنيف جريدة الفاينانشال تايمز، ويَقبَل في الغالب طلبة صينيين ممن يُختَارون كقادة مستقبليين للأمة الصينية. كان العديد من طلبة ذلك البرنامج على طريق الانخراط في صفوف قتلة الاقتصاد، سواء أدركوا ذلك أو لا. وقد تطلب مني الأمر بعض الوقت لفهم حقيقة رغبتهم في تعلم «أحابيل التجارة». وبمجرد قيامي بذلك، شعرت بالندم أني لم أفعل ما يلزم لثنيهم عن ذلك. إلا أني أدركت وجود اختلاف جوهري ما بين طريقة تفكيرنا وتفكيرهم.

في هذا السياق، تحدث إلي ماندي زانغ وهو أحد قادة الطلبة ضمن برنامج دراسة الماجستير في كلية الأعمال الدولية قائلا: «لا يزال الشعب الصيني متأثرا إلى اليوم بتعاليم كونفوشيوس عن ضرورة احترام الهرمية»، وأضاف قائلا: «لقد نشأنا هنا على فهم أن الفلسفة الكونفوشيوسية التي تخدم عائلاتنا تعد أفضل ما يمكن القيام به. تمتد وتتوسع عائلاتنا نحو المجتمع الأكبر، والأمة، ومن ثم إلى العالم. ولذلك، لا بد من فهم دينغ وفق هذا السياق».

حينما أشرت إلى أن أفكار دينغ عن اقتصاد السوق تعكس المفاهيم الرأسمالية التي دافع عنها ميلتون فريدمان، تلك المفاهيم التي تضع هدف العمل ضمن محور تعظيم الأرباح السريعة بصرف النظر عن الثمن البيئي والاجتماعي المترتب عليها، أشار بعض الطلبة إلى وجود استثناء.

فسر أولئك الطلبة بأن الصين ملتزمة باتباع «ستراتيجية ثلاثين العام التنموية المقسمة إلى ثلاث خطوات» التي اقترحها دينغ ابتداءً. أشار ماندي قائلا: «لا يتوجب قيام اقتصاد السوق بالضرورة على الجشع الفردي أو الأهداف قصيرة الأمد. هذا نموذجكم وليس نموذجنا».

أعانتني ملاحظات الطلبة على استيعاب اختلاف تفسير مفهوم الأسواق والأرباح عند تطبيقه على ثقافة أخرى ترى المجموعة أهم من الفرد. صِيغت أفكار البروفسور فريدمان في الولايات المتحدة، هذا البلد الذي يقدس حقوق الفرد من عينة الحرية التي تنفع مصلحة الفرد الشخصية. وضمن ثقافة كهذه، لا يتحقق خير المجموع العام إلا عبر فرضه بقوانين وضوابط تحكم فعله، أو إذا ما تصادف وأنها تخدم منافع الفرد مع المجموع في آن واحد. أما ضمن ثقافة تتبع التعاليم الكونفوشيوسية، يتبوأ الصالح العام للمجموع مكانة الهدف. بالنسبة إلى العديد من الطلبة، تعني خدمة الأسرة دعم ستراتيجية من شأنها جعل العالم مكانا ترغب الأجيال القادمة في وراثته. ربما درس أولئك الطلاب طرقا لإضفاء وسائل وأساليب جديدة على نموذج القتل الاقتصادي، إلا أنهم خبروا كذلك حياة مدنٍ يلفها الضباب الدخاني وتشقها الأنهار الملوثة، وبالتالي يريدون عالما أفضل لأطفالهم. في واقع الحال، لم يكن الأمر متمحورًا حول مساعدة أطفالهم وحسب، وإنما مساعدة جميع الأطفال. وعلى أقل قدير، كانت تلك الرسالة التي ينقلونها.

لم تكن سياسات دينغ الجديدة سوى البداية وحسب. وعلى مدى العقود التالية، تفوق الاقتصاد الصيني على كل ما سجلته الاقتصادات الأخرى عبر التاريخ الحديث. ترك دينغ المنصب في عام 1989 ليشرع بعده خلفه بخطط طموحة لتحويل الصين إلى لاعب عالمي رئيسي. برز ذلك الكلام من خلال زيارة الرئيس هو جين تاو لأميركا اللاتينية عام 2005، حيث التقى زعماء الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وكوبا، والمكسيك، وبيرو. إبان تلك الزيارة، شق الرئيس الصيني طريقا سرعان ما سلكه قتلة اقتصاد بلاده من بعده. نتيجة لذلك، تغلبت الشركات الصينية على الكثير من نظيراتها الأميركية في باحة واشنطن الخلفية. وهيأت رحلة جين تاو المسرح للزعيم الصيني القادم تشي جين بينغ. بحلول عام 2015، زار بينغ ثلاثين بلدا في إفريقيا، وآسيا، وأوروبا، والشرق

الأوسط، إلى جانب الدول الأميركية.[145] بات واضحا أن الصين عادت لا تكون مجرد لاعب عالمي وحسب، وإنما أخذت تتحول إلى لاعب عالمي مهيمن بسرعة. وتمتع قتلة اقتصاد بكين بحق التفاخر بنجاحات الصين الاقتصادية الباهرة.

من اللافت اضطرار مدير البنك الدولي المعين من جانب أميركا إلى الإقرار عام 2018 بـ«أن الصين تمكنت من مضاعفة دخل الفرد الصيني خمسة وعشرين ضعفا، ورفعت أكثر من 800 مليون مواطن من مستوى الفقر، الأمر الذي قلص نسبة الفقر في العالم بمقدار 70% إجمالا».[146] من جانب آخر، بدت الولايات المتحدة سائرة في اتجاه معاكس. فحينما أرادت الاستجابة للتضخم، بقي معدل الأجور في الساعة ثابتا منذ العام 1973، وبالتالي، تقلصت الطبقة الوسطى من 60% إلى 50% من مجموع السكان في مقابل استيلاء طبقة جديدة من المليارديرات على الشركات، والإعلام، والإنترنت، وحتى السياسة.[147]

في سياق متصل، لم تقتصر مشاكل أميركا على الاقتصاد وحسب، فلقد شاهد العالم أجمع برعب بالغ أميركا وهي تشن حربا وحشية في فيتنام. وبعد حوادث الحادي عشر من أيلول، وفي تحدٍّ واضح لاعتراضات معظم حلفائها، هاجمت الولايات المتحدة العراق، ذلك البلد الذي بدا غير ذي صلة بالهجمات. لقد تعارض هوس أميركا بالقوة العسكرية، والجشع الفردي، ومراكمة الثروة من جانب أقلية صغيرة على حساب الكثيرين ـ تعارض بقوة مع المنهج الذي روجت له الصين.

استغلت الصين الموقف. انطلق قتلة الاقتصاد الصينيون نحو جميع أرجاء المعمورة. استبدل هؤلاء القتلة عبارة واشنطن القائلة: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا القروض من إجماع واشنطن، ووظفوا شركاتنا، وطبقوا سياسات الليبرالية الجديدة»، بعبارة جديدة مفادها: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا الصين شريكا في التجارة الدولية، شريكا لن يتدخل في عمل حكوماتكم، واستخدموا القروض الصينية لتوظيف شركاتنا لإنشاء بنيتكم التحتية التي تجعل هذا الكلام ممكنا». كانت تلك لحظة فاصلة أذنت ببدء انطلاق الموجة الثالثة من قتلة الاقتصاد. تضمنت سلالة قتلة الاقتصاد الصينيين الجدد مفكرين يتحلون بإمكانات فكرية متقدمة وتمكنوا من تعديل الدعائم الأربع التي سيرد تفصيلها في الفصل التالي. لقد تعلم هؤلاء القتلة في الجامعات وألفوا الكتب التي صنعت للصين سجلا مختلفا عن سجل ليبرالية أميركا الجديدة.

التقيت بعض أفراد فريق قتلة الاقتصاد الصينيين عام 2017 حينما دُعيت للحديث ضمن اثنين من المؤتمرات التي ورد ذكرهما في بداية هذا الكتاب. حضر منتدى سان بطرسبرغ (روسيا) للاقتصاد الدولي عام 2017 أكثر من 12000 شخص من مئة وعشرين دولة، فضلا عن مشاركة متكلمين بارزين ما بين الرئيس الروسي فلاديمير بوتين والأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش إلى جانب عدد من رؤساء مجالس إدارات بعض من أكثر الشركات العالمية نفوذا وقوة. وحضر مؤتمر الأستانة (كازاخستان)، وهو منتدًى اقتصادي من مستوًى رفيع، بحدود 4000 من الحضور، بمن فيهم زعماء دول شكلت في الماضي جزءا من طريق الحرير الأصلي وتعمل الآن من كثب مع قتلة الاقتصاد الصينيين بهدف تطوير طريق الحرير الجديد. ضمن ذينك المؤتمرين، واتتني الفرصة لمعرفة ومعاشرة بعض رؤساء الدول الحاليين والسابقين، ومسؤولين حكوميين رفيعين ومستشاريهم، وحملة جائزة نوبل، ومصرفيين، عدا عن بعض أصحاب القوة والنفوذ.

عرفتُ ضمن مؤتمر سانت بطرسبرغ بأن «الحزام» الذي يمثل جزءًا من العنوان الرسمي لطريق الحرير الجديد، مبادرة الحزام والطريق، يشير إلى شبكة خطوط النقل الأرضية ومنظومات الاتصالات التي بنيت بهدف ربط الصين مع باقي جهات آسيا، والهند، وروسيا، وأوروبا، وإفريقيا، فيما يشير الطريق إلى الطرق البحرية عبر المحيطات، والموانئ، إلى جانب البنية التحتية الممتدة لربط دول أميركا اللاتينية، والكاريبي، وأستراليا، ونيوزيلاندا، وباقي دول الجزر البحرية الأخرى. بعبارة أخرى، يمتد طريق الحرير عبر جميع أرجاء الكرة الأرضية.

وعرفت كذلك عن مبادرات الصين لخلق تحالفات مصرفية جديدة. برزت هذه المؤسسات المالية بسرعة وهي تتنافس الآن منافسة الند للند مع مؤسسات إجماع واشنطن الذي هيمن على العالم منذ الحرب العالمية الثانية، والذي كان جزءا مكملا لحياتي وستراتيجياتي للقتل الاقتصادي.

تشمل عضوية ما يعرف ببنك «بريكس» الذي أُسس في تموز العام 2014 دول البرازيل، وروسيا، والهند، والصين، وجنوب إفريقيا. بالمجموع، تشكل شعوب هذه الدول ما يعادل 40% من سكان العالم، وتنتج ما يقرب من 25% من الناتج القومي الإجمالي لكل الدول، فضلا عن كونها تمتد عبر مساحة تشكل 30% من مساحة الكرة الأرضية إلى جانب سيطرتها على 20% من التجارة العالمية. وعلى نحو لافت، تقرر وضع موقع إدارة البنك العامة في شانغهاي، الأمر الذي يعكس حقيقة الصين باعتبارها الدولة الأقوى بين الدول الخمسة.

وأُعلن عن تأسيس البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية ضمن احتفالية أقيمت في بكين شهر تشرين الأول العام 2014. بحلول بداية العام 2015، تضمن البنك عضوية خمس وسبعين دولة أغلبيتها من آسيا. وبحلول العام 2017، التحقت دول من جميع قارات العالم بالبنك. وعلى الرغم من ممارسة واشنطن ضغوطا شديدة على أستراليا، وكوريا الجنوبية، والمملكة المتحدة بهدف ثنيها عن الدخول فيه، تقدمت الدول الثلاث بطلبات عضوية للبنك بحلول بداية العام 2015. ويصح القول بأن كلا البنكين مرحب بهما في العديد من البلدان كبديل مفضل عن البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، فضلا عن باقي المؤسسات المالية التي تهيمن عليها الولايات المتحدة.

أظهرت الكلمات والحوارات على هامش مؤتمر سانت بطرسبرغ عمل كلا البنكين على تشكيل نظام جديد في القطاع المالي العالمي. واجه إجماع واشنطن تحديا خطيرا بحق. فضلا عن ذلك، فإن اقتصاديات التنمية التي درستها في كلية الأعمال والتدريب الذي حظيت به أثناء العمل، والتي شكلت كلها الأساس لممارسات القتل الاقتصادي الأميركية، باتت موضع نزاع شديد.

بعد مؤتمر الأستانة، دعاني رئيس الوزراء الكازاخستاني باخيتزهان ساجينتاييف إلى لقاء خاص في مكتبه. سألت الرئيس عما إذا زاره أي صينيين ممن يزاولون عملا كعملي.

ضحك الرجل وقال: «قتلة اقتصاد؟»، وأضاف: «بالتأكيد، إنهم يحملون عنوانا وظيفيا ساحرا كعنوانك، ثم إنهم يأتون إلينا كثيرا، وأكثر مما يأتي زملاؤك الأميركيون. وإنهم مختلفون كذلك، ويحبون الحديث بالنظريات والفلسفة».

قلت: «وماذا عن التجارة وطريق الحرير الجديد؟».

رد الرجل: «آه، ذلك الموضوع، نعم. إلا أنهم غالبا ما يتحدثون عن الدور المهم الذي لعبته كازاخستان في طريق الحرير الأصلي. والآن حان الوقت لفعل الشيء ذاته لطريق الحرير الجديد».

كان ذلك نموذجا للعبارات التي اعتدت سماعها. أدرك فريق الموجة الثالثة من قتلة الاقتصاد الصينيين ضرورة اعتمادهم خطة لعب مختلفة. خطر لي أني ورفاقي من الموجة الأولى لقتلة الاقتصاد الأميركيين، ومعنا قتلة الموجة الثانية، شعرنا بثقة مفرطة في رغبة العالم فينا، وأنه يريد شركاتنا وجيشنا. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي، بات هذا المستوى العالي من الثقة نوعا من الغطرسة. لكن قتلة الاقتصاد الصينيين ما كانوا بصدد الوقوع في الخطأ ذاته. لقد لعبوا على وتر

مشاعر الفخر لدى الدول الأخرى وروجوا للازدهار الذي سيصاحب طرق التجارة المتشعبة والمتشابكة.

وصف رئيس وزراء كازاخستان الكثير من الأزمات التي تواجهنا جميعا وأهمية تعزيز التعاون ما بين الأمم بغية التخفيف من حدتها. وأضاف الرجل: «نحن بحاجة إلى ضبط التغييرات العالمية فيما يتعلق بالصناعات التي تستعيد المناخ، والنقل، والاتصالات، والتكنولوجيات الأخرى. يشجع طريق الحرير الجديد الدول على التعاون كي تتمكن كل منها من استخدام مزاياها المقارنة في مساعدة الأخريات».

بإلحاح منه، شرحت أفكاري عن الحاجة إلى تغيير المفاهيم العالمية التي تركز على تعظيم الأرباح قصيرة الأجل التي نتج عنها اقتصاد الموت، وذلك نحو مفاهيم جديدة تعزز المنافع بعيدة الأمد وتخلق اقتصاد حياة بالمقابل.

امسك الرجل يديه بعضهما ببعض وقال: «أتفق وهذا الكلام بشدة»، وأضاف مبتهجا: «هذا هو عمل طريق الحرير الجديد». وتطرق الرجل إلى تموجات العلاقة، صعودا ونزولا، ما بين الصين وكازاخستان، وأضاف: «لكن منذ استقلال كازاخستان عن الاتحاد السوفييتي، أمكن لنا تطوير علاقات قوية. إننا نتمتع بتأثير في بكين». وشدد الرجل على موقع كازاخستان المركزي ـ ما بين الصين وروسيا، والصين والشرق الأوسط، وأوروبا ـ ومساحتها الكبيرة، الذي جعل منها لاعبا محوريا. وذكرني بأن الرئيس تشي أعلن عن طريق الحرير الجديد رسميا في الأستانة أثناء خطاب أدلى به في جامعة ناظربايف. وأضاف: «كان ذلك رمزيا جدا. لقد أرسل تشي رسالة عن أهمية كازاخستان لمستقبل كوكبنا».

والتقيت في كازاخستان بالدكتور سييرغي غلاسييف الذي أعرب عن رؤًى مثيرة للاهتمام. يشغل غلاسييف منصب كبير مستشاري الرئيس بوتين للشؤون الاقتصادية. سبق لغلاسييف قراءة كتاب «الاعترافات» فضلا عن عملنا معًا ضمن بعض الهيئات. قال لي الرجل في أثناء تناول القهوة إن جزءا من عمله يتمثل في مساعدة زعماء روسيا على فهم ستراتيجيات الصين، وأضاف: «لقد استنتجت تعلم الصين من ستراتيجيات قتلة الاقتصاد الأميركيين، قتلة مثلك، وقتلة اقتصاد روس مثلي أنا». استمر غلاسييف في حديثه حول التكتيكات الصحيحة وغير الصحيحة التي اعتمدتها

دولتانا، والتي باتت الآن بمثابة وسائل لتعليم قتلة الاقتصاد الصينيين. ثم تحدث بعد ذلك عن الغضب جراء استخدام دولتينا للـ«مساعدات» بهدف التحكم بسياسات أمم ذات سيادة. استمر الرجل بالحديث قائلا: «يكمن جواب الصين في طريق الحرير الجديد»، وأضاف: «إنه مبني على التعاون والتعاضد ـ والتجارة ـ عوضا عن القوة. يزعم هذا الجواب بأن الهدف يتمثل في توزيع أكثر عدلا للثروة. ترفض الدول استغلال الأجانب لها، وتدخل جنودهم في حكوماتها ووجودهم على أراضيها. لكن من يعترض على زيادة التجارة والازدهار يا ترى؟».[148]

بعد مناقشاتي مع غلاسييف، فكرت في الفرق ما بين الحرب الباردة مع الاتحاد السوڤييتي والمنافسة الحالية مع الصين. بالعودة إلى ذلك الوقت، أدركت توفر السوڤييت على سلاح نووي وتهديدهم الولايات المتحدة عسكريًّا، إلا أنهم عجزوا عن المنافسة اقتصاديا. بدت مساعيهم لتوسيع الاستثمارات الأجنبية ضئيلة للغاية مقارنة مع مساعي إجماع واشنطن في حينها أو الصين اليوم. ولم يكن نموذج الاقتصاد المحلي السوڤييتي شيئا يستحق المحاكاة. وحتى المفاهيم الماركسية الشيوعية تشوهت إلى حد كبير جراء الماضي الستاليني العنيف للبلاد. إبان أيامي في فيالق السلام، تعرفت إلى أحد الإيديولوجيين الأميركيين اللاتينيين ممن دافعوا عن الماركسية على الرغم من رفضهم تقليد النموذج السوڤييتي الحكومي في بلدهم. وعلى الرغم من دراسة بعضهم في جامعات روسية، فإنهم كانوا منتقدين للنموذج الاقتصادي السوڤييتي. لكنني سمعت قصة مختلفة تماما عن الصين حينما زرت أميركا اللاتينية مؤخرا.

توجهت إلى الإكوادور بعد أشهر قليلة من مغادرتي كازاخستان. تحدث إلي أحد وزراء الحكومة الذي طلب مني عدم ذكر اسمه قائلا: «تملك دول أميركا اللاتينية الكثير من الموارد الطبيعية، إلا أننا نفتقر إلى التكنولوجيا أو المقدرة المالية لاستغلالها. لكن الصين تقدم لنا الأمل في ذلك. إننا نفضل قَبُول المساعدة من الصين على مساعدة الولايات المتحدة. وعلى أي حال، لم يسبق للصين غزو أي دولة لاتينية في الماضي ولا دبرت انقلابات أو اغتيالات ضد مسؤولينا المنتخبين، في حين أن سِجِلَّ الولايات المتحدة حافل بالكثير من هذه الأعمال». وذكرني برد الرئيس الإكوادوري رافاييل كوريا عام 2007 على طلب الرئيس بوش الابن تمديد استئجار الولايات المتحدة قاعدة عسكرية كبيرة على الأرض الإكوادورية قائلا: «إذا ما أرادت الولايات المتحدة الإبقاء على قاعدتها في الإكوادور، يتوجب عليها بالمقابل منحنا موافقة لبناء قاعدة عسكرية في

فلوريدا». أغلق البنتاغون القاعدة في الإكوادور. أضاف الوزير: «ربما يحلوا للمواطنين الأميركيين تخيلهم الآخرين يرحبون بالجنود الأجانب على ترابهم، إلا أن الغالبية من الناس تكره هذا الشيء، كما حصل مع الأميركيين عام 1775». وقال إن الرئيس كوريا تحول من الولايات المتحدة نحو الصين جراء مخاوفه من سيطرة اقتصادات إجماع واشنطن الجديدة على الحكومات والموارد.

حينما سألت الوزير عن اعتداءات الصين في منطقة بحر الصين الجنوبي، وهونغ كونغ، وتايوان، والتبيت، وعلى الحدود الهندية، هز الرجل كتفيه وقال: «لست أبررها، غير أن للصين تاريخا طويلا في تلك المناطق التي ذكرت وحيث تدعي السيادة فيها». رمقني الرجل بابتسامة وفرك ذقنه بيده ثم قال: «يبدو الأمر شبيها بالغزو الأميركي حيث ضمَّت واشنطن ما يعادل نصف المكسيك إبان القرن السابع عشر وكل الأنشطة البوليسية التي قمتم بها في هذا النصف من الكرة الأرضية منذ ذلك الحين، بما في ذلك تلك الأنشطة التي شاركت أنت بها وكتبت عنها في كتابك»، وأضاف: «ثم إن مناطق الصين بعيدة عنا. أما المناطق التي هاجمتها الولايات المتحدة، كما في بنما وبعدها الهندوراس، فهي جيراننا».

لم يكن الوزير مؤمنا بتلك الآراء وحده على أي حال، وإنما يمثل كلامه رأي الناس في العديد من الدول. تكمن الحقيقة المؤسفة في استخدام الولايات المتحدة وضعها كقوة عظمى وحيدة، مرارا وتكرارا، مع مزيج الإخضاع، والفساد، والتهديد، والعنف بغية إقناع الدول كي تمنح مواردها بأسعار رخيصة للشركات الأميركية، مع خصخصة وبيع قطاعاتها العامة لصالح الشركات والمستثمرين الأميركيين، إلى جانب تطبيق برامج التقشف وفرض شروط مرهقة أخرى.

من جانبهم، يروج قتلة الاقتصاد الصينيون لبديل مختلف. لقد تحولت قصصهم عن النجاحات المحلية وأفكار طريق الحرير الجديد حول التنمية العالمية إلى محور الأحاديث في الدوائر العالمية. تمثل رسالة الصين القائمة على عرض الشراكة التجارية ومنح القروض بغية زيادة مشاركة الدول في أنشطة التجارة العالمية ـ عوضا عن العمل كدائن يوظف القروض التي يمنحها بهدف التلاعب بموارد البلاد، واقتصادها، وسياساتها ـ رسالةً جذابة للدول التي واجهت فقرا شديدا واقتصادات منهارة. عاشت الصين ظروفا مشابهة حينما بدأ زعماء الدول المنخفضة الدخل حياتهم المهنية. من السهل نسبيا على موجة قتلة الاقتصاد الصينية الثالثة إقناع هؤلاء الزعماء بتبني بلدانهم

النموذج الصيني الذي سيكون قادرا على إنشاء بنيتهم التحتية التي تربطهم بدورها بشبكة تجارية واسعة وكبيرة.

رأيت ضمن ذينك المؤتمرين طريق الحرير الجديد يتحول من مجرد مفهوم إلى واقع فعلي. ففي الوقت الذي تورطت به الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان، بنت الصين تحالفاتها التي مكنتها من تبوُّؤ مكانة القوة العالمية العظمى البديلة. أطلق العديد من المتحدثين على هذا القرن لقب «القرن الصيني»، في حين لقيت هذه الحقبة الجديدة الإشادة بنموذج بكين باعتباره نموذجا تحتذي به البلدان التي أمَّلت السير على خطى دينغ وتطبيق ستراتيجياته التنموية التي شرع بها عام 1978.

على النقيض من هذه الأفكار، لطالما سمعت من أناس في الولايات المتحدة أن الصين تعيش حالة تقهقر وأفول، وأن هيمنة الولايات المتحدة ما بعد الحرب العالمية الثانية ستستمر. ويشير هؤلاء الناس إلى شيخوخة الشعب الصيني والتحديات التي يخلقها هذا الوضع أمام الأجيال الأكثر شبابا ممن يضطرون إلى إعالتهم، إلى جانب معدلات النمو التي تقل كثيرا عما كانت عليه في العقود الماضية، عدا عن تلوث الهواء، والماء، والتربة، والسلطة الاستبدادية التي تحد من المسائلة، وحرية الإعلام، وباقي صورة التواصل والتعبير الأخرى، ومشكلات الدَّين الكبيرة ما بين بعض كبريات شركاتها، ومشكلات بعض مجتمعاتها المحلية، وتراجع الطلب ضمن قطاع الإسكان المهم، والخلاف الذي زرعته سياساتها في دول أخرى، لا سيما هونغ كونغ، وتايوان، إلى جانب أقلياتها السكانية.

لكن للعديد من مراقبي الشأن الصيني وجهة نظر مغايرة، كما تعبر عنها مقالة صدرت في مجلس السياسة الخارجية عام 2022 تقول:

منذ انطلاقها بمسيرة الإصلاحات الاقتصادية في سبعينيات القرن الماضي، لطالما تحدت الصين التوقعات بسقوطها أو تعثرها... ومن بعض النواحي، لا تزال الصين تحلق عاليا، في حين لا تزال قوة جيشها تزداد على نحو هائل عاما بعد عام.

ستكون الصين في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين دولة ذات قدرات قسرية أكثر ترويعا من ذي قبل مع تلاشي ديناميكيتها الاقتصادية، الأمر الذي قد ينتج أسوأ مزيج ممكن في العالم.

ضمن فترة العقود الأخيرة، أربكت الصين مرارا وتكرارا كل أولئك الذين توقعوا اصطدامها بحائط الفشل.[149]

وشاهد العالم الولايات المتحدة ترتكب الأخطاء التي تتصادم بكل قوة مع المبادئ الأميركية البراقة. لطالما سمعت الكثيرين يقولون: «إذا ما كانت الولايات المتحدة مثالا للديمقراطية، فنحن لا نريد أن نكون جزءًا منها». يشعر الناس في الدول الأخرى بصدمة بالغة لرؤية التحالفات والالتزامات الموقعة من جانب إدارة أميركية وهي تُنقَض من جانب إدارة أميركية أخرى، إلى جانب عجز مجلسي الشيوخ والنواب الأميركيين عن الوصول إلى تسويات تترك الحكومة دونها في حال شلل كبير.

في الوقت الذي قاوم فيه عدد متزايد من الدول مساعي واشنطن لعقد اتفاقات تجارية تصب في صالح الشركات الأميركية، استقبلت تلك الدول الفتوحات الصينية بمشاعر مرحبة.

إلى حد بعيد، يعود هذا الكلام إلى العمل الجاد والخلَّاق الذي قام به قتلة الاقتصاد الصينيون ضمن الموجة الثالثة. ولا تقتصر فرق القتلة الصينيين على المهندسين، ورجال الاقتصاد، والممولين كما كانت الأمور في وقتي أو كما جرى مع الموجة الثانية من قتلة الاقتصاد التابعين لكبريات الشركات الأميركية التي برزت في العقود الأخيرة وحسب. فكما هو الحال مع فرق الألعاب الرياضية الصينية المنظمة جيدا، تتمتع فرق قتلة الاقتصاد الصينية بقدر كبير من العمق. لكن الفرق الصينية تأثرت بالتحدي المتمثل في غزو روسيا لأوكرانيا، فالصين لا تريد الظهور بمظهر من لا يدعم حقوق الأمم ذات السيادة. في الوقت ذاته، ترحب الصين بمساعي روسيا كسر الهيمنة الأميركية وإجبار واشنطن وحلفائها على تكريس قدر كبير من مواردهم المالية وطاقتهم لأوكرانيا (انظر الفصل رقم 45). ومن اللافت أن رحلة تشي الأولى ما بعد الجائحة خارج الصين وهونغ كونغ أخذته إلى كازاخستان وأوزبكستان، حيث روج الزعيم الصيني لعلاقات بلاده مع وسط آسيا. بعد لقاء الزعيمين، أقر بوتين بـ«تساؤلات ومخاوف» تشي جراء الغزو الروسي، حيث أمطر تشي مسامعه عن ضرورة وأهمية الاستقرار العالمي. ولم يدع إقرار بوتين بذلك مجالا للشك بعدم رضا بكين عن أفعال موسكو.

قتلة الاقتصاد الصينيون

تتشابه الأدوات، والحيل التجارية، والمؤسسات التي تعتمدها الصين في تحقيق ستراتيجية القتل الاقتصادي اليوم إلى حد كبير مع تلك التي استخدمت من جانب قتلة الاقتصاد الأميركيين في السابق، ثم إنها مبنية على الدعائم الأربعة الموصوفة أدناه وفي الفصول القادمة.

إلى جانب التجسس، تؤجج وزارة أمن الدولة الصينية، كما هو الحال مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ووكالة الأمن القومي الأميركي، الحملة الدعائية إزاء أسباب الخوف من الولايات المتحدة. وبالعادة تعمل هذه الوزارة جنبا إلى جنب مع نظيرتها العسكرية ممثلة في مكتب استخبارات الأركان المشتركة، وتتعاون وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ووكالة الأمن القومي الأميركي مع الوكالات التابعة لوزارة الدفاع. وتوفر المؤسسات الأمنية الصينية معلومات قيمة لقتلة اقتصاد الدولة الشيوعية، معلومات عن الحوادث الحالية، والموارد، والفرص عبر أرجاء المعمورة.

تبث الوكالة الصينية للتعاون الدولي الإنمائي المخاوف حول عدم الكفاية وتشجع القروض. أشّر تأسيس هذه الوكالة عام 2018 إلى مطامح الصين تصعيد ستراتيجية القتل الاقتصادي التي تعتمدها مع تفويض الإدارة العامة لتكون ضمن وكالة قوية واحدة. على نحو مكافئ لأداء الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، تبحث الوكالة الصينية للتعاون الدولي الإنمائي عن دعم الوزارات الحكومية الأخرى. تتولى وزارة الشؤون الخارجية الصينية مهمة التقييم، والتوصية، ومراقبة البرامج التي توصف بكونها مصدرا لتحقيق رخاء وازدهار الدول الأخرى، في حين تضطلع وزارة التجارة الصينية بمسؤولية تنفيذ تلك البرامج.

يقدم بنك بريكس والبنك الآسيوي للاستثمارات في البنية التحتية مِنَحًا وقروضا للدول التي يستهدفها قتلة الاقتصاد الصينيون. وتقليدًا لنموذَجَيِ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، يتضمن البنكان الكثير من الدول كأعضاء، ومساهمين ماليين، ومتلقين للقروض. تدير بكين بنكَيْ بريكس

والآسيوي للاستثمارات في البنية التحتية إلى حد كبير (على غرار إدارة واشنطن للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي)، وغالبا ما تستقطب مشاركة بنك التنمية الصيني، وبنك الصين للاستيراد والتصدير، وشركة الصين للاستثمار، فضلا عن البنك الصناعي والتجاري الصيني (كما هو الحال مع إشراك البنك الدولي للبنك الأميركي للاستيراد والتصدير ومؤسسات وول ستريت كذلك).

بات قتلة الاقتصاد الصينيون محترفين جدا في الإفادة من دعم وزارة أمن الدولة، والوكالة الصينية للتنمية والتعاون الدولي، وبنك بريكس، فضلا عن بنك آسيا للاستثمار في البنية التحتية، كما يتضح بجلاء عبر العديد من المشاريع التي سيرد تفصيلها عبر الفصول القادمة. وتسهم معظم البرامج التي تنفذها واحدة أو أكثر من تلك المؤسسات في توسيع منظومات الاتصالات، والنقل، والطاقة ضمن طريق الحرير الجديد.

كلما عرفت عن ستراتيجية الصين للقتل الاقتصادي وتحدثت إلى بعض منظريها أكثر، فهمت حقيقة نجاحها في إدماج العناصر الأكثر فعالية ضمن المنهج الأميركي أكثر. ثم إنني أرى الاختلافات ما بين اللاعبين في كل فريق. فحسب ما وصفت سابقا، ركز فريق الولايات المتحدة لقتلة الاقتصاد ضمن الموجة الثانية على تعزيز شركات بعينها، عوضا عن المصالح القومية الأميركية. أما فريق الموجة الثالثة الصيني فقد ركز بالدرجة الأساس على المصالح القومية، الأمر الذي يسلط الضوء على العدد الكبير للمؤسسات المملوكة للدولة التي تدير هذه الأنشطة.

إبان حقبة القرن العشرين، ركزت أنشطة القتل الاقتصادي على قطاعات النفط، والتعدين، والأصول الأخرى المرتكزة على الموارد. كانت الدول التي تتوفر على تلك الموجودات معرضة بقدر أكبر لتأثيرات دعائم فلسفة القتل الاقتصادي، لا سيما الدَّين والخوف من عدم الكفاية. ومع انتقالنا المتسارع نحو عصر التكنولوجيا العالية، والتحكم الإلكتروني، فضلا عن المسؤولية البيئية والاجتماعية الأكبر (اقتصاد المعرفة)، سارعت الصين إلى تبني هذه السلالة الجديدة من قتلة الاقتصاد. يتحرك قتلة الاقتصاد الصينيون على وفق فلسفة تختلف عن تلك التي تحرك بها نظراؤهم الأميركيون بحسب ما سمعت أثناء حوارات أجريتها نهاية العام 2021 وبداية العام 2022 مع ثلاثة من المفكرين الصينيين البارزين الذين يمثلون ستراتيجيات الصين الحديثة.

يحمل الدكتور وين تايجون العديد من الألقاب، وتعرفه مجلة تشاينا بزنس ويكلي بكونه «واحدا من بين أكثر الشخصيات الصينية نفوذا وتأثيرا في اقتصاد البلاد». أما الدكتور زيهي وانغ فيرأس معهد ما بعد التنمية الصيني ويتمتع بعلاقات شخصية وثيقة مع العديد من كبار الزعماء الصينيين. ويتولى الدكتور ميجون فان منصب رئيس تحرير صحيفة التواصل الثقافي التي تعد إحدى الصحف الصينية المؤثرة.

حينما سألت عن الاختلافات ما بين المنهجين الأميركي والصيني، أجاب الدكتور وين قائلا: «لطالما اطلعت على أفكار البنك الدولي حول الليبرالية الجديدة، والخصخصة، والتحول نحو اقتصاد السوق والعولمة منذ بداية ثمانينيات القرن الماضي. لقد سافرت إلى إفريقيا، والهند، وروسيا، ودول أخرى». ولاحظ وين أن الصين، وعلى النقيض من الولايات المتحدة، «تنظر إلى الاحتياجات»، وأضاف: «إننا نقول إن شعبكم بحاجة إلى التعليم. حسناً، بوسعنا المساعدة وبناء المدارس. أو إن شعبكم بحاجة إلى الخدمات الصحية والطرق. حسناً، بوسعنا المساعدة في بناء المستشفيات وشق الطرق».

ذكرني كلامه بحادثة شهدتها في جبال الأنديز الإكوادورية نهاية تسعينيات القرن الماضي. في ذلك الوقت، طلب الناس العاملون في مزارع البطاطا مساعدة حكومة كويتو لشراء معاول ومحاريث معدنية بسيطة بهدف استعمالها عوضا عن المعاول والمحاريث الخشبية البدائية التي تجرها الخيول. توجهت الحكومة عندها إلى الوكالة الأميركية للتنمية الدولية التي أرسلت بدورها خبيرًا أوصى بدوره بتوقف المزارعين عن إنتاج أكثر من عشرة أصناف من البطاطا التي استمر إنتاجها في البلاد تقليديا منذ مئات السنين. ثم قال لهم الخبير أن يعمدوا إلى التركيز على زراعة الأصناف الأربعة الأكثر ربحا من بينها. وفي حال قبولهم بمقترحه، عرض تجهيزهم بجَرَّار زراعي وأداة ميكانيكية لغرس البطاطا في التربة إلى جانب حصاد الإنتاج. وقال لهم إنه سيسعى إلى ترتيب منحهم قروضًا لتمويل شراء مبيدات «الغلايفوستات» وباقي «الكيماويات المعجزة» التي ستدخل المزارعين حقبة العلم الحديث. بدا عرض منحة الجرار الزراعي خياليا بالنظر إلى قيمته التي تعادل قيمة كامل إنتاج مزارعهم لعشر سنوات. كان عرضا لا يمكنهم رفضه. زرع الفلاحون الأصناف الأربعة، وفي غضون سنوات قليلة، قتلت الآفات الزراعية محصولهم بالكامل. وقفتُ فوق

تل جرفه الجرار بالكامل. سمعت قصصا مؤلمة عن عائلات أجبرت على ترك منازلها، وانتهى الحال بالعديد منها مضطرين إلى التسول في شوارع كويتو.

قلت للدكتور وين: «نعم. أخشى أننا في الولايات المتحدة لسنا مستمعين جيدين دوما». ثم سألت: «ما العقبات التي تمنع عمل الصينيين والأميركيين معًا؟».

رد الدكتور فان قائلا: «توجد عقبتان كبريان. أولاً، عادت الولايات المتحدة لا تكون بلدًا متَّحدًا كما في السابق. إنها دولة مقسمة على مستوى الحكومة والشعب. ثانيا، يوجد ذلك الموقف الحكومي العدائي تجاه الصين. كيف يسعك التعاون مع من ترى فيه عدوك الأول يا ترى؟».

أضاف الدكتور وانغ: «بعبارة موجزة، إذا ما اتحدت الولايات المتحدة وصممت على التعاون مع الصين، يمكن لكلا البلدين العمل معًا بكل تأكيد. لكن انقسامكم السياسي واحتكاكم الداخلي دمر مقدرة أميركا على العمل من أجل الصالح العام لسوء الحظ، كما هو الحال مع قضية التغير المناخي». ثم مضى الرجل بحديثه حول أهمية طريق الحرير الجديد وكيف يأمل انخراط الولايات المتحدة فيه. قال وانغ: «يهدف هذا المشروع الذي يعد الأكبر عالميا إلى خلق شبكة سكك حديد، وطرق، وخطوط أنابيب، وشبكات مرافق كهربائية تربط الصين بآسيا الوسطى، وغرب آسيا، وأجزاء من جنوب آسيا وأميركا اللاتينية. ويهدف هذا المشروع إلى خلق منصة التعاون الاقتصادي الأكبر في العالم، إلى جانب الربط والتعاون السياسي، والتجارة والتعاون المالي، إلى جانب التعاون الاجتماعي والثقافي».

عبر حوارات كهذه، خرجتُ بإدراك مفاده أن منظري بكين الستراتيجيين يرون في جمع الناس عبر أرجاء العالم ما يصب في مصلحة الصين الوطنية. وقادني هذا الإدراك إلى التساؤل عن سبب فشلي أنا وباقي قتلة الاقتصاد الأميركيين في فهم هذا الكلام آنذاك.

يحلل الفصل التالي ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية وكيفية استخدامها بهدف إقناع الناس عبر خمس قارات إلى جانب الشرق الأوسط بمنهجها التنموي، ومنجزاتها ما بعد الحقبة الماوية، فضلا عن طريق الحرير الجديد الذي يمكنه قيادة العالم نحو حقبة جديدة من التعاون الدولي. وسوف يوضح الفصل ذاته كذلك كيف تنتج ستراتيجية الصين اقتصاد الموت كما هو الحال مع ما أنتجته ستراتيجية الولايات المتحدة من قبل. ولربما تكون ستراتيجية الصين أكثر خطورة

بحكم خضوعها لسيطرة حكومة استبدادية تقيد المعلومات والنقد الذاتي، عدا عن كونها عرضة للإدارة والهندسة السيئة والفساد مع نجاحها الكبير في استقطاب الدول منخفضة الدخل. ولسوف يستكشف الفصل الأخير وسائل يمكن لكل منا الإسهام بها في سبيل تغيير هذا النمط وخلق اقتصاد حياة متجدد.

41

أميركا اللاتينية

مر الرئيس الإكوادوري رافايل كوريا على بالي شهر آب من العام 2019 حينما اقترب باص يحمل مجموعة من مؤيدي «تحالف باشاماما» قريبا من سد الإكوادور الكهرومائي. بقيت أفكر في الاتفاقات التي عقدها كوريا مع الصين ومواطن النجاح والفشل في الموجة الثالثة من قتلة الاقتصاد الصينيين.

وقفت وشغَّلت الحَاكِيَة. توقف الباص. أشرت بيدي قائلا: «هذا واحد من المشاريع العديدة التي ساعدت في تمويلها أيام كنت قاتلا اقتصاديا». استعادت ذاكرتي لقاءً جمعني بالرئيس روليديوس حينما حاولنا إقناعه بقبول قرض آخر من البنك الدولي. قلت: «لم يكتمل بناء سد آغويان حتى ثمانينيات القرن الماضي على الرغم من بَدء التخطيط لإنشائه في السبعينيات منه». شعرت بانقباضة ألَمَّت بقلبي، إلا أني أجبرت نفسي على المضي بالكلام. قلت: «استخدمت الولايات المتحدة ستراتيجيتها للقتل الاقتصادي بهدف بناء امبراطورية». أخذت نفسا عميقا كي أسيطر على مشاعري. في لحظات كتلك، كانت مشاعر الذنب لا تزال تتملكني. أضفت: «كان هذا السد أحد المشاريع التي أوقعت الإكوادور في غياهب القروض وخدمة الحكومة والشركات الأميركية». حدقت طويلا من النافذة تجاه حائط كبير اصطبغ بلون رمادي. عرفت أن علي المضي قدما. لم يأت هؤلاء الناس إلى هذه الرحلة لمشاهدتي أغرق في مشاعر الندم جراء الماضي الذي عشت. قلت «تتغير الأشياء».

عدت إلى أفكاري بخصوص كوريا. تذكرت صورته التي نشرتها الجريدة وهو يشع تفاؤلا بتحية ولقاء الرئيس الصيني تشي وقرينته إبان توقف طائرتهما في مطار كويتو. قلت: «والآن، حان دور الصين». بدأ الباص يتحرك إلى الأمام. قلت: «لكن يوجد اختلاف مهم. فعلى الرغم من تسبب السد بإفقار البلاد جراء الدين، فإنه لا يزال يعمل على الأقل». كان ذلك الكلام الذي لطالما رددته

على نفسي، وأفترض تكراري له لتهدئة مشاعر الذنب التي تقتلني. أضفت: «لكن الصين ليست كذلك».

وصفت المشكلات المرتبطة بمشروع شركة كوكا كودو سنكلير الصينية الخاصة ببناء السد الكهرومائي إلى جوار بركان نشط ضمن منطقة معروفة بالنشاط الزلزالي، والذي كان يفترض به تجهيز الطاقة الكهربائية لمعظم أرجاء البلاد، إلا أنه تسبب بمشكلات وانقطاعات في الشبكة الوطنية ولا يزال يعمل دون مستوى طاقته الكلية جراء تصدع غرفة المولدات فيه. قلت: «لكن على الرغم من ذلك، تفضل معظم دول أميركا اللاتينية الصين على الولايات المتحدة هذه الأيام، فستراتيجية القتل التي تعتمدها بكين أكثر كفاية منا».

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام 1991، تبنت القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم «اتفاقات التجارة الحرة» كما في اتفاقيتي شمال ووسط أميركا للتجارة الحرة، لتتبعها اتفاقية الولايات المتحدة ـ المكسيك ـ كندا التي وُقّعَت عام 2019. باعتبارها جزءا من ستراتيجية قتلة الاقتصاد الأميركيين، تصدت تلك الاتفاقات لدعامة الخوف من عدم الكفاية. هُلّلَ لتلك الاتفاقات كصفقات تسمح بتوفير غذاء بأسعار معقولة لسكان الدول الموقعة. لكن الكثير من شعوب أميركا اللاتينية ودول الكاريبي لا ترى في تلك الاتفاقات إلا حيلة تساعد الشركات الأميركية على تحقيق أكبر المنافع المادية إلى جانب منفعة المسؤولين الفاسدين في دولهم. ولا ترفع الاتفاقات التعرفة عن الواردات من المنتجات الزراعية الأميركية التي تتنافس مع منتجات مزارعي دول أميركا اللاتينية وحسب، وإنما تسمح للولايات المتحدة بدعم شركاتها الزراعية. لذلك، بوسع الشركات الأميركية بيع الذرة، والرز، والقطن وباقي المنتجات الزراعية الأميركية إلى دول أميركا اللاتينية بأقل من قيمة إنتاجها من جانب مزارعي تلك الدول. وإلى جانب تدمير المزارعين ماديا، ألقت آثار الكارثة بظلال قاتمة على الملايين من الناس الذين يملكون أعمالا وشركات صغيرة تتخصص بمعالجة، ونقل، وتسويق، واستهلاك تلك السلع. في ضوء هذا الكلام، شعر الناس الذي عجزوا عن إعالة أسرهم بأن لا خيار أمامهم سوى الهجرة إلى الولايات المتحدة، في حين خلق الدمار الاقتصادي حرب عصابات، وفسادًا، وجريمة، عدا عن اضطراب سياسي.[150]

قال لي أحد المهاجرين: «آلَمَ قلبي قرار الرحيل عن البلد الذي أحب وترك زوجتي وأطفالي، فقد كان أمرا خطيرا، إلا أننا نتضور جوعا. أما هنا في بلدكم (الولايات المتحدة)، فأنا أجزّ الحدائق

وأزيل الأعشاب الضارة وأرسل المال إلى وطني كي يستطيع أطفالي العيش».

قال مهاجر آخر: «يستسلم سياسيونا للفساد، إلا أن مسبب الفساد يتمثل في الشركات الأميركية».

وتوجد تجارة المخدرات المربحة جدا، وهي تجارة تنغمس في عمق الفساد، والتي تشتمل ـ بحسب الكثير من الروايات في الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية ـ على مسؤولين حكوميين ومعهم مسؤولون في أجهزة إنفاذ القانون، على الرغم من وقوع اللوم على «الكارتيلات» وأمراء المخدرات الذين يزدهرون جراء شيوعها.[151] يشير الخبراء إلى أن تهريب المخدرات المدفوع بالطلب في الولايات المتحدة يعزز ثقافة الرشوة عبر أرجاء نصف الكرة الأرضية الغربي. يرى مواطنو أميركا اللاتينية في هذا مشكلات فاقمتها الولايات المتحدة وسببًا للتحول ناحية الصين.

في غضون سنوات قليلة، تمكنت الصين من إنجاز ما بدا مستحيلا، وما لم يتمكن الاتحاد السوفييتي من مجرد الاقتراب منه خلال أكثر من أربع عقود من الحرب الباردة، حيث تجاوزت بكين واشنطن لتكون أكبر مستثمر أجنبي في باحة أميركا الخلفية.

بعد وقت قصير من توليه منصب الرئيس الصيني عام 2013، أوضح تشي جين بينغ نية الصين إحداث تحول في الدول الأميركية. في هذا السياق، نشر موقع مجلة ذي ديبلومات الإخباري يقول:

يعد الاستثمار أحد سمات ستراتيجية الصين الجديدة الخاصة بدول أميركا اللاتينية. في هذا السياق، وضع تشي هدفا طموحا تمثل في إنفاق مئتين وخمسين مليار دولار على شكل استثمارات أعلن عنها في المؤتمر الوزاري الافتتاحي لمنتدى الصين ودول أميركا اللاتينية والبحر الكاريبي عام 2015. توجه الصين استثمارات لدول أميركا اللاتينية التي تعاني نقصا في بنيتها التحتية، وذلك بهدف المساعدة في تلبية متطلبات تلك البنية. وإلى جانب التجارة، تستثمر الصين بكثافة في مجالات الطاقة واستخلاص الموارد الطبيعية.[152]

زار الرئيس الصيني ترينيداد، وتوباغو، وكوستاريكا، والمكسيك قبل زيارته الولايات المتحدة. بالنسبة إلى بلد مثل الصين حيث الرمزية ضرورة من ضرورات الدبلوماسية، بدا تقديم دول أميركا اللاتينية على الولايات المتحدة أمرا بالغ الأهمية.

لكن الرمزية لم تتوقف عند هذا الكلام. وبحلول الوقت الذي التقى به الرئيس ترامب بنهاية المطاف عام 2017، أضاف تشي كلًّا من الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وكوبا، والإكوادور، وبنما، وبيرو، وفنزويلا إلى قائمة زياراته التي سبقت الولايات المتحدة. في واقع الحال، عملت الصين على توسيع طريق الحرير الجديد وصولا إلى الدول الأميركية، الأمر الذي يشكل تحديا علنيا لتفوق الولايات المتحدة. وقد قامت الصين بذلك على نحو مالي وبالغ الرمزية، وعبر وعودها بعدم تكرار المتطلبات الصعبة التي تريدها الحكومة الأميركية، وشركاتها، وقتلتها الاقتصاديون.

شدد تشي على تعامل الصين مع الدول الأخرى على نحو مختلف تماما عن طريقة معاملة الولايات المتحدة لها. بناءً على دعامة الخوف، وعد تشي بعدم تدخل الصين في شؤون الدولة العميلة الداخلية أو فرض إرادته على سياساتها الوطنية والخارجية. يكتنف هذا الكلام اقتراحا خفيا من الصين مفاده أن الشراكة معها ستقدم حماية ضد التدخلات الأميركية. وبالتحول إلى دعامتي الدين وعدم الكفاية، ضَمِن الرئيس الصيني أنه لن يفرض عبر مساعدته في ازدهار تلك الدول دون أي أجندات سياسية في مقابل برامج الدعم ولن يسعى لتحقيق أي مكاسب ستراتيجية من خلال الاستثمارات الصينية. لقد حلت الدعوة للتوحد عبر طريق الحرير الجديد محل ستراتيجية فرق تسد القديمة.

لكن الحقائق عادة ما تختلف عن المفاهيم التي تروج لها الصين. غالبا ما تصر بكين على الدول العميلة كي تدعم سياساتها الخارجية، لا سيما تلك المتعلقة بالتبيت، وهونغ كونغ، وتايوان، عدا عن سياساتها الداخلية مع الإيغور وباقي الأقليات الأخرى. وعلى الرغم من هذا، كان مفهوم عدم التدخل مهمًّا للمنطقة التي تعبت من تنمر واشنطن ومؤسسات وول ستريت.

شجعت زيارة تشي زعماء دول أميركا اللاتينية على استذكار تلك الأيام التي استخدمت فيها دولهم مفاوضاتها مع الاتحاد السوفيتي بهدف الضغط على الولايات المتحدة للتخفيف من مطالبها بالمقابل. وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي، بات قتلة الاقتصاد الأميركيون مطلقي اليد وفي وضع يسمح لهم بإخضاع زعماء دول أميركا اللاتينية للقبول بأشياء من عينة ما يؤكد الرئيس تشي الآن بالضبط أن الصين لن تطلبها منهم. وفوق كل ذلك، ستستخدم القروض الصينية بهدف بناء البنية التي ستدمج الدول المستفيدة مع كل العالم. هُلّلَ لأفعال بكين على أنها تمثل إشارات لنهاية الهيمنة

الأميركية في حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتي. ثم إنها أشعلت الغضب الذي التهب ضد الولايات المتحدة لعقود منذ أيام وجودي في فيالق السلام.

بحلول وقت نهاية خدمتي في فيالق السلام عام 1971 وانخراطي في صفوف قتلة الاقتصاد، بدا واضحا خسارة الولايات المتحدة لفيتنام. احتفل الإكوادوريون وغيرهم في أميركا اللاتينية بتلك الخسارة باعتبارها هزيمة أميركية مخزية. لكن المكنة الدعائية لواشنطن صورت تلك المواقف المناوئة للولايات المتحدة كدليل يثبت صعود الشيوعية. في هذا السياق، قيل لنا إن السوفييت استخدموا كوبا لشن هجمات إرهابية عبر هذه المناطق من غرب العالم. في واقع الحال، لم تكن كوبا في وضع يسمح لها بالقيام بأفعال كهذه. ولو كان للسوفييت خطة كبرى كهذه، فإنها انتهت مع نهاية أزمة الصواريخ الكوبية وإعدام جيفارا. لكن بالنظر إلى الرعب النووي الذي عم العالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وجلسات استماع السيناتور مكارثي النارية، والبرامج التلفزيونية والأفلام عن الجواسيس الشيوعيين، استمرت موجة الخوف من المد الأحمر بالصعود.

اعتمدت إدارة ريغان دعامة الخوف بهدف إقناع الرأي العام أن الأميركيين في خطر. في هذه الأثناء، أُوفدنا، أنا وخبراء تنمية آخرون مع عملاء تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، بغية تقوية أجنحة الحركات اليمينية. في سبيل تحقيق هذا الغرض، استعانت الولايات المتحدة بتشيلي والأرجنتين، وهما دولتان معروفتان بتاريخ طويل من دعم الفاشية. بدعم من واشنطن، تمكن الجنرال التشيلي أوغستو بينوشيه والمجلس العسكري الأرجنتيني من الإطاحة بالرئيس التشيلي المنتخب ديمقراطيا سلفادور إليندي عام 1973 ورئيسة الأرجنتين المنتخبة ديمقراطيا إيزابيل بيرون عام 1976. وقد عمدت حكومتا الدكتاتوريين إلى تعذيب واغتيال عشرات الآلاف من الناس. ربما استنكرت أميركا ألمانيا النازية، إلا أنها دعمت أناسا قلدوا هتلر.

قاد أولئك الزعماء الدكتاتوريون ما يُعرف بـ«خطة الكوندور» التي وضعتها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. وقد وَحَّدت تلك الخطة معظم زعماء دول أميركا اللاتينية ضمن تحالف سعى إلى سحق الحركات الديمقراطية (التي صُوِّرَت كحركات اشتراكية) واستخدم موارد البلدان الطبيعية لغرض إثراء الشركات الأميركية. في هذا السياق، كتبت جريدة الغارديان عن وزير الخارجية الأميركي تقول:

دعم كيسنجر بينوشيه في الوقت الذي قبع المئات من السجناء السياسيين في أقبية التعذيب والاحتجاز.

ثم عمد وزير الخارجية الأميركي إلى طمأنة بينوشيه بأن إدارة الرئيس جيرالد فورد لن تعاقبه على إساءته لحقوق الإنسان. وقال له إنه كان ضحية للحملة الدعائية الشيوعية ويتوجب عليه دفع الكثير بغية جلب انتباه المنتقدين الأميركيين.[153]

بحلول العام 1975، تطورت خطة الكوندور إلى عملية عسكرية متعددة الجنسيات عرفت باسم «عملية الكوندور»، وقد تعهد ستة من الدكتاتوريين اللاتينيين، وهم زعماء كل من بوليفيا، والبرازيل، والأرجنتين، وتشيلي، والبارغواي، والأورغواي، بالتعاون مع واشنطن في هذا السياق.[154] واتخذت دعامة «فرق تسد» منحًى جديدا كذلك. أباد الزعماء الدكتاتوريون الحركات المدافعة عن الخدمات الاجتماعية، والأجور العادلة، وحقوق الإنسان، وأولئك الزعماء الذين دفعوا الأغلبية ضد المؤسسات التي يحتاجون إليها بالدرجة الأساس، وجَرَّموا زعماء الأغلبية تحت ذريعة الاتهام بالتجسس لصالح السوفييت.

كنت أحد قتلة الاقتصاد الذين أُرسلوا لدعم الحكومات الستة بغية تنفيذ دعائم القتل الاقتصادي الأربعة. وقد التحق بنا عملاء تابعون لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إلى جانب وحدات تابعة للقوات الخاصة الأميركية التي قدمت التدريب، والسلاح، عدا عن باقي المعدات الأخرى اللازمة لتنفيذ أعمال الخطف، والقتل، و«الإخفاء القسري» لأي شخص يشتبه به كتهديد للهيمنة الأميركية. ولم يكن مركز تدريب عمليات المناطق الحارة (ما تعرف بمدرسة الأميركيتين) سيئ الصيت، والذي تواجد في المنطقة الأميركية من قناة بنما وكان مبعث كره وازدراء غالبية المواطنين الأميركيين اللاتينيين، لم يكن إلا مركز تدريب لصناعة المليشيات اليمينية، في حين خدم المجلس العسكري الأرجنتيني كمركز قيادة ميداني للعمليات.

نشرت عملية الكوندور الخوف عبر أرجاء القارة الجنوبية وتسببت بمصرع ما يقدر بستين ألف شخص، في حين أمكن للولايات المتحدة إبقاء يديها نظيفتين وحسب. بالدرجة الأساس، نفذ زعماء الأرجنتين وتشيلي الدكتاتوريون أعمال الاغتيالات وأنشطة أبناء آوى، وعادةً ما تم ذلك بتوجيهات من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. فضلا عن ذلك، رأت وكالة الاستخبارات

المركزية الأميركية في هذا فرصة لزيادة ما تعرف بـ«الموازنة السوداء»، وهي عبارة عن بند تمويل متسلسل صدَّق عليه مجلس الشيوخ دون إدراك التفاصيل الخاصة به. ولأن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية رأت في ذلك التمويل مقدارًا غير كافٍ لتنفيذ عملياتها الدولية، وفرت الأنشطة الخفية كعملية الكوندور فرصا ثمينة لزيادة التمويل عبر عمليات بيع السلاح، والأدوية، وتهريب المخدرات، فضلا عن توفير النقل السري، والحماية، وخدمات الاتصال لكل من يدفع سعرا أعلى.

على الرغم من الكفاية البالغة للمكنة الدعائية التي غطت كل تلك التفاصيل (أو استعرضت نسقا مؤيدا للديمقراطية أو مناهضا للشيوعية عبرها على حد سواء) إبان السنوات الأخيرة من عملي كقاتل اقتصادي نهاية سبعينيات القرن الماضي، زادت شكوكي بحقيقة ما يجري يوما بعد يوم. لذلك، تراكمت مشاعر العار والغضب والذنب في داخلي جراء الدور الذي لعبته كقاتل اقتصادي، حتى تحولت جميعها إلى عوامل حاسمة في إقناعي بوجوب الاستقالة.

لم تتكشف الحقيقة للعيان إلا لاحقا عبر جلسات الاستماع التي قام بها مجلس الشيوخ بعد الكشف عن فضيحة إيران ـ كونترا في الأعوام 1985 ـ 1987، وذلك حينما قامت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في فترة إدارة ريغان ببيع أسلحة إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي خضعت لعقوبات أميركية تحظر بيع السلاح إلى طهران آنذاك. وبحسب ما كشف النقاب عنه، فإن الأموال التي تحصلت عليها وكالة الاستخبارات من بيع السلاح إلى إيران ذهبت لتمويل جماعات الكونترا المعارضة للحركات الاشتراكية في نيكاراغوا. وعلى الرغم من أنها أنشطة غير شرعية وتتعارض مع خطاب ريغان، فإن ما حصل لم يكن إلا مثالا كلاسيكيا على تعاون قتلة الاقتصاد مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بهذا الخصوص. فتحت جلسات الاستماع تلك نافذة على عملية الكوندور ومعها العديد من الأنشطة الأميركية السرية الأخرى. ولن تسامح شعوب أميركا اللاتينية الولايات المتحدة على تلك الأفعال القمعية غير الديمقراطية التي تسببت بها واشنطن لها أبدا.

انتصرت الولايات المتحدة وحلفاؤها في الحرب الباردة، وسقط جدار برلين، في حين انهار الاتحاد السوفييتي عام 1991. جراء الفراغ الذي أحدثه فقدان نفوذ قوة عظمى بديلة، بات زعماء دول أميركا اللاتينية أكثر عرضة لتكتيكات قتلة الاقتصاد. انتشرت في هذه الأثناء مفاهيم الليبرالية

الجديدة، في حين توسعت مساحة الغضب ما بين شعوب أميركا اللاتينية التي شعرت باستغلال صقور سياسة واشنطن وجشع الشركات في مقابل عجز تلك الشعوب عن مواجهة ذلك.

كنت في الإكوادور عام 2002 حينما تصاعدت ردود الأفعال العنيفة جراء الانقلاب الفاشل الذي دعمته وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ضد الرئيس الفنزويلي هيوغو شافيز. كان فشل ذلك الانقلاب بمثابة سبب فتح عيني وعيون آخرين. لقد أقنع ما حصل الكثير من الدول الأخرى بأن الولايات المتحدة ليست سوى نمر من ورق، وأن بوسعهم استبدال أتباع واشنطن اليمينيين بزعماء أكثر ليبرالية.

ووُصِفَت في الولايات المتحدة بعبارة «المد الوردي» الذي امتد ما بين الأعوام 2002 و2018 في أميركا اللاتينية، انتخبت دول القارة الجنوبية ـ الأرجنتين، والبرازيل، وبوليفا، وتشيلي، وكوستاريكا، والإكوادور، والسلفادور، والمكسيك، ونيكاراغوا، والبارغواي، وبيرو، والأورغواي ـ رؤساء دول يساريين. كُشفت حقيقة الجرائم التي ارتكبتها الحكومات اليمينية المدعومة من الولايات المتحدة في نهاية المطاف. ركَّز في هذه الأثناء رؤساء الدول اللاتينية الجدد على تقرير المصير، وأنظمة اجتماعية أكثر مساواة وعدلا، فضلا عن الاستقلال الاقتصادي. لذلك، تحول هؤلاء الزعماء ناحية بكين بهدف ضمان حصولهم على قوة نفوذ معادلة لواشنطن.

كانت استجابة تشي السريعة بوعود عن عدم التدخل في شؤون السياسة الداخلية وربط دول أميركا اللاتينية بعضها مع بعض عبارة عن ستراتيجية ناجحة. قفزت التجارة ما بين الصين ودول أميركا اللاتينية من سبعة عشر مليار دولار في العام 2002 إلى ما يقرب من 315 مليارًا بحلول العام 2019. وفي غضون أقل من عقدين من الزمن، قفزت الصين لتصبح الشريك التجاري الأول للبرازيل، وتشيلي، وبيرو، والأورغواي، والشريك التجاري الثاني للعديد من الدول الأخرى.[155]

استمرت الإكوادور بالعيش في ظل رئيسها الأسبق رافاييل كوريا الذي بقي بدوره مقيما في بلجيكا. في أثناء انتخابات العام 2021، دافع اليميني والمصرفي ووزير المالية الأسبق المؤيد للشركات، غوليرمو لاسو، عن تقليص الضرائب والبرامج الاجتماعية وخاض غمار السباق الرئاسي ضد سياسات كوريا الاشتراكية. وعلى الرغم من فوزه بالرئاسة ضد المرشح المؤيد لكوريا

آندرياس آرواز، جاء ذلك الفوز مرتبطا بصورة لاسو الشخصية أكثر من ميوله الفلسفية. في هذا السياق، أوردت مجلة السياسة الخارجية تقول:

ترشح آرواز كخليفة مختار بعناية للزعيم الشعبوي الأسبق كوريا، والذي وعد بإعادة الإكوادور إلى حقبة «ثورة المواطنين» التي أسس لها كوريا، تلك الفترة الممتدة ما بين الأعوام 2007 ـ 2017 التي اتسمت بنمو كبير وبروز واضح للطبقة المتوسطة.

أما لاسو فسوف يدخل القصر الرئاسي كزعيم معزول مع تفويض ضعيف بالنظر إلى أوزان الأحزاب التي فازت بالانتخابات التشريعية الأخيرة، حيث حصدت الأحزاب والتحالفات اليسارية الثلاثة الكبرى ما يقدر بـ70% من مقاعد البرلمان.[156]

لكن على الرغم من ميوله اليمينية، استمر لاسو يخطب ود الصين. سافر لاسو إلى بكين، وحضر دورة الألعاب الأولمبية الشتوية عام 2022، ونشر تغريدة قال فيها: «عقدنا لقاءً مثمرًا مع الرئيس تشي جين بينغ في الصين. لقد حققنا نتائج رائعة في مجالات الانفتاح التجاري والتعاون في مجالات الصحة والتفاوض حول إعادة جدولة الديون». في هذا السياق، وقعت البلدان اتفاقية للتجارة تزيد من صادرات الإكوادور من الروبيان، والموز، والكاكاو، فضلا عن الكثير من الفواكه والمعادن.[157]

وتقدم دولتان لاتينيتان أخريان عملتُ فيهما كقاتل اقتصادي رؤًى ثاقبة بخصوص ستراتيجية الصين الحالية.

الأرجنتين: قرض دون فوائد

وقَّع عام 2004 الرئيس الأرجنتيني نيستور كريشنر اتفاقية جعلت من بلده والصين «شريكين تجاريين ستراتيجيين» رسميا. وقد تفاخر كريشنر قائلا: «لقد أنجزت الأرجنتين اتفاقية التجارة الأهم في تاريخها».[158]

بحلول العام 2020، باتت الصين شريك الأرجنتين الرئيس. تحوَّل في هذه الأثناء البنك الصيني للتجارة والصناعة المملوك للدولة الصينية إلى واحد من أهم المؤسسات المالية في الأرجنتين. وبنت شركة الصناعات الغذائية الصينية الكبرى، كوفكو، معملا للصناعات الغذائية في

الأرجنتين وبذلك أصبحت المصدر الوطني الأول للحبوب التي تعد موردا أساسيا من موارد التجارة الخارجية. في سياق متصل، بات 85% من صادرات اللحوم، و63% من إجمالي النقد الأجنبي المتحصّل عليه من خلال التجارة الخارجية، إلى جانب 45% من احتياطيات البنك المركزي الأرجنتيني ـ باتت كلها معتمدة على الصين. وتحولت شركة سينوبيك النفطية الصينية إلى ثاني أكبر شركات هذا القطاع في الأرجنتين بعد شركة واي بي أف الأرجنتينية. أخذت الصين تستولي على قطاع الطاقة الأرجنتيني. وفي هذا السياق، طورت الشركات الصينية مُنْشَأتًا طاقة كهرومائية إلى جانب محطة للطاقة الشمسية في الأرجنتين تعد الأكبر من نوعها في أميركا اللاتينية.[159]

ومما زاد الطين بِلَّة للولايات المتحدة أن شبح ديون إجماع واشنطن بقي يطارد الأرجنتين. في هذا السياق، أوردت جريدة نيويورك تايمز شهر كانون الثاني من العام 2020 تقول:

ورث الرئيس ألبيرتو فيرنانديز كارثة اقتصادية بأبعاد هائلة. تبرز المشكلة الأكثر ضغطًا عبر ديون البلاد البالغة 57 مليار دولار لصالح صندوق النقد الدولي، تلك الكارثة التي توسعت على نحو غير مسؤول جراء سلوك البنك إلى جانب الاستخدام غير المسؤول لتلك الأموال من جانب سلف فيرنانديز الرئيس الأسبق موريسيو ماكري.[160]

واتتني الفرصة لمناقشة هذه القضايا مع لوكاس بيدرو، وهو بروفسور في علوم الاقتصاد من الجامعة الوطنية في بوينيس آيريس، وكذلك آنا آرجينتو ناصر، هي خبيرة متخصصة في شؤون التواصل الاجتماعي والبحث والتخطيط من الجامعة الوطنية في قرطبة، عام 2020. كان الاثنان مشاركين فيما يعرف باقتصاد فرانسيسكو، وهو برنامج ألهمه وعقده البابا فرنسيس، ويعد واحدا من أهم الحركات التي تجمع الاقتصاديين الشباب، ورجال الأعمال، وصناع التغيير («اقتصاديو الحياة» بحسب تعبيرهم)، حيث كنت أحد المحاضرين ضمن ذلك البرنامج الافتراضي.

قال لوكاس: «من الضروري الإشارة إلى استخدام دين الأرجنتين البالغ 57 مليار دولار لصندوق النقد الدولي عموما لغرض المضاربات المالية وليس التنمية الصناعية. لذلك، بات لدينا اليوم دين كبير جدا من دون أي منافع ترتّبَت عليه يمكن إظهارها».

من جانبها، أضافت آنا تقول: «لم يكن القرض علنيا ولم يؤخذ بإرادة أو موافقة شعبية. كانت وسائل الإعلام متواطئة في هذا الموضوع ودعمت رغبات السفارة الأميركية وسياسات الليبرالية

الجديدة».

علق لوكاس قائلا: «من الناحية الاقتصادية، أدى تدخل الولايات المتحدة في اقتصادنا عبر صندوق النقد الدولي إلى نتائج كارثية في كل مرة. فمنذ سبعينيات القرن الماضي وحتى الوقت الحاضر، وفي كل مرة ارتبطت حكومتنا مع سياسات الولايات المتحدة الاقتصادية، لم ينتفع إلا القلة من الناس في مقابل معاناة وأزمات ألمّت بالكثيرين»، وأضاف كذلك: «تاريخيا، تشترط الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي سياسات تفرض على شعبنا التكيف مع ظروف صعبة. لذلك، نحن نعتقد أن شروط القروض الصينية أقل قسوة».

بنما: بوابة نحو العالم

بعد غزو الولايات المتحدة لبنما عام 1989، عمل جميع الرؤساء الأميركيين من أجل ضمان علاقات أفضل مع هذا البلد. وكان هذا الكلام مهما بوجه خاص بالنظر إلى الدور الستراتيجي الذي تضطلع به القناة للبحرية الأميركية، مع حقيقة مرور أكثر من 70% من شحنات السفن بين المحيطين الهادي والأطلسي عبرها.

استمر موقف الرؤساء الأميركيين على هذا المنوال حتى العام 2017. في هذا السياق، أوردت صحيفة سانت لويس ديسباتش بوست مقالا افتتاحيا استنتجت فيه:

تحت أنظار الرئيس دونالد ترامب، وقفت واشنطن مكتوفة الأيدي في مقابل تمدد الصين عبر بنما حيث أنشأت لها موطئ قدم ستراتيجيًّا كبيرًا في نصف الكرة الأرضي الغربي على طول الممر المائي الحيوي للتجارة والأمن القومي الأميركي.

يمثل الوصول إلى القناة أمرًا حيويًّا للسفن الحربية الأميركية، بما فيها الغواصات النووية. ومن الجدير بالذكر تمتع قلة من الممرات المائية بالأهمية الستراتيجية البالغة للولايات المتحدة كما هو الحال مع قناة بنما، الأمر الذي يفسر احتلال واشنطن لهذا البلد لما يزيد على قرن من الزمان.[161]

أما موقع مجلة ذي ديبلومات الإخباري، فقد كتب يقول:

أخذ النفوذ المتزايد يتضح من خلال زيارة رسمية قام بها الرئيس الصيني تشي جين بينغ إلى بنما في كانون الأول 2018، الأمر الذي بلغ ذروته بتوقيع تسع عشرة اتفاقية للتعاون المشترك في العام التالي في مجالات التجارة، والبنية التحتية وغيرها.

من الناحية الاقتصادية، ضمنت الصين اتفاقات على بعض مشاريع البنية التحتية المهمة كما في بناء خط قطار عالي السرعة إلى جانب صفقات خدمة مالية ما بين مؤسسات بنكية يفترض بها تمويل تلك المشاريع.[162]

في اليوم التالي لزيارة الرئيس تشي عام 2018، استثمرت بكين مبلغ 1.4 مليار دولار لبناء جسر جديد يمتد عبر القناة. وبمشاعر من البهجة الغامرة، أعلن الرئيس البنمي خوان كارلوس فاريلا قائلا: «إن بنما تمضي قدما في علاقاتها مع الصين، ومما لا شك فيه أن المشروع الذي بدأ إنشاؤه اليوم يمثل جزءًا من رسالة الثقة ما بين البلدين».[163]

استمر النفوذ الصيني بالتصاعد بعد فوز لورينتينو نيتو كورتيزو بالانتخابات الرئاسية في بنما. في هذا السياق، وقعت الشركات الصينية صفقات منحتها سيطرة على معظم أنشطة الميناء من كلا جهتي القناة. وقد كتبت مجلة السياسة الخارجية بهذا الخصوص تقول:

توجد موجة من المد الاستثماري الصيني قيد الإعداد في بنما. سوف تسمح مشاريع البنية التحتية الكبرى واتفاقات التجارة الحرة الوشيكة لبنما، ذلك البلد الذي يقطنه أربع ملايين إنسان، توسيعه من إمكاناته كمَجمَع للتجارة الإقليمية، والصناعات، والدعم اللوجستي، وتخفيف الآثار التي ترتبت عما يُعرف بفضيحة كشف «وثائق بنما». وفي مقابل نفقات متواضعة نسبيا، تستعد الصين لتبوُّؤ موقع الشريك الاقتصادي الأهم في هذا البلد الذي يسيطر على أهم نقطة سيطرة تجارية في العالم.[164]

على نحو خاص، تقدم بنما مثالا مهمًّا على فشل ستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية في دول أميركا اللاتينية. حينما ننظر في كره الرئيس ريغان المعلن لرئيس بنما الراحل عمر توريخوس، وإصرار الولايات المتحدة على التمسك بالقناة، نرى في ذلك رمزا صارخا على الاستعمار. ومع حادث سقوط الطائرة المثير للشك الذي أودى بحياة توريخوس، والغزو الأميركي الذي حصد أرواح الآلاف من المدنيين الأبرياء، يبدو سهلا فهم كره بنما للسياسات الأميركية

وتحولها المتزايد نحو الصين. لكن الأصعب من ذلك يكمن في فهم إحجام واشنطن، والشعب الأميركي، ولا سيما فريق قتلة الاقتصاد الأميركي الحالي، عن الاعتراف بأخطائنا الفادحة واتخاذ الإجراءات اللازمة لتصحيحها.

رؤى ثاقبة

على الرغم من نفوذ الصين المتنامي، ارتكبت موجة قتلة الاقتصاد الثالثة العديد من الأخطاء. أسهمت الكثير من المشاريع الكهرومائية الضخمة ومرافق التعدين في الإكوادور، واستقدام العمالة الصينية، والإصرار على استخدام المعدات وقطع الغيار الصينية، فضلا عن تراكم الديون ـ أسهمت جميعها بتعاظم الشكوك في دوافع بكين الحقيقية. فضلا عن ذلك، لا تزال هناك تلك الروابط القوية ما بين مواطني دول أميركا اللاتينية وجارهم الشمالي، فللعديد منهم عائلات وأصدقاء في الولايات المتحدة. وضمن مناسبات لا تحصى، سمعت الكثيرين يعبرون عن احترامهم العميق وحتى المحبة لنا كشعب، وبصرف النظر عن آرائهم في الحكومة الأميركية وأفعال الشركات.

جمعني نقاش نموذجي مع مجموعة من طلبة جامعة كارتاخينا الكولومبية شهر كانون الأول 2019. شاهدنا غروب الشمس على البحر الكاريبي من داخل حانة ترتفع فوق جدار ضخم مبني منذ القرن السابع عشر يحيط بالمدينة الاستعمارية.

قال أحد الشبان: «حكومتنا تغازل الصين على الرغم من أنها تواعد الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة».

أضافت فتاة شابه: «إننا نحبكم كشعب وكمكانٍ نود زيارته وحتى العيش فيه. إلا أننا نكره الطريقة التي تعاملنا بها حكومتكم». توقفت الفتاة عن الكلام، ثم استأنفت: «لكن الأهم معرفتنا أننا ما لم نستطع العمل جميعا ومعًا، فلن يبقى هنالك من مستقبل للأطفال الذين أنوي إنجابهم يوما».

42

آسيا

على الرغم من صعود نجمها المفاجئ في أميركا اللاتينية، يعود الوجود الصيني في آسيا إلى ألفية مضت. لكن مسيرة الصين الأحدث للهيمنة على القارة تعود إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير.

بدت تكتيكات ماو مدفوعة بهدف نشر الثورة والأحزاب الشيوعية عبر أرجاء آسيا.

لم يكن هذا الكلام أوضح مما كان عليه في إندونيسيا والصعود السريع للحزب الشيوعي في هذا البلد. بمساعدة الولايات المتحدة، ضرب الجيش الإندونيسي في فترة العامين 1965 – 1966 من جديد. أدت موجة سحق الشيوعية إلى مذابحَ طالت ما بين نصف إلى ثلاثة ملايين من أبناء الشعب (انظر الفصل السابع). وقت وصولي إلى جاكارتا ضمن أولى مهامي التي كُلّفت بها كقاتل اقتصادي عام 1971، انتهى العنف الذي عصف بالبلاد إلى حد كبير، في حين يعود الفضل إلى الولايات المتحدة ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية على وجه الخصوص في اعتلاء الجنرال اليميني سوهارتو سدة الحكم.

لم تكن إندونيسيا إلا نموذجا واحدا على الاضطراب الإقليمي. نشرت سياسات ماو الوحشية والصارمة الخوف والغضب عبر جميع أرجاء المنطقة. وجد قتلة الاقتصاد الأميركيون فرصة لتمثيل أميركا دور الحامي. لكن حرب فيتنام عقّدت من مهمة تطبيق ستراتيجية القتل الاقتصادي في آسيا. فقدت أميركا، التي هزمت اليابان وأُشيد بها عبر آسيا كبطل للحرب العالمية الثانية، الثقة في عيون الآخرين بعد استخدامها قنابل النابالم الحارق لضرب المدنيين الأبرياء. وفيما باتت ملامح هزيمة القوة العسكرية العالمية الأعقد تكنولوجيًّا، والأفضل تمويلا تتضح أكثر فأكثر، ترسخت صورة الولايات المتحدة كبلد ضعيف وعاجز، ومقسم شعبيا، وكديمقراطية مختلة على نحو متزايد أكثر.

بعد موت ماو، فهم الزعيم الصيني الجديد دينغ مغالطات وعيوب الثورة الثقافية ورأى وسيلة في الاستفادة من أخطاء أميركا. تمحورت تكتيكاته على كسب ثقة الدول الأخرى إلى جانب الاستفادة من الموارد المالية للأعمال الصينية الخارجية. قطع دينغ الدعم عن الأحزاب الشيوعية الأجنبية وأوضح أنه يتوقع أن يكون إخلاص الشعب الصيني للدول التي يعيش فيها، وأن لا يتصرف أفراد هذا الشعب كوكلاء لبكين. عوضا عن ذلك، شجع الزعيم الصيني على التجارة مع الصين والاستثمار فيها.

بحلول بداية كتابتي لكتاب «الاعترافات» نهاية تسعينيات القرن الماضي، بدا واضحا أن ميراثنا في فيتنام مع ستراتيجية القتل الاقتصادي قوضا مصداقية أميركا إلى حد بعيد. ثم جاءت حوادث الحادي عشر من أيلول حيث اندلعت المظاهرات وأعمال العنف المناهضة للمسلمين عبر أرجاء الولايات المتحدة لتدمر صورة أمة روجت لنفسها كبوتقة تذوب بها القوميات. ضمن خطوة تحولت إلى كارثة ستراتيجية، أنهت واشنطن تورطها في آسيا ما عدى أفغانستان، وكرست موارد أكثر لحروبها في العراق، وسوريا، وباقي أرجاء الشرق الأوسط.

بحلول زيارتي إلى فيتنام، أمكن لي تطوير فهم أكبر للحجم الحقيقي لستراتيجياتنا الفاشلة في مقابل نجاحات الصين.

فيتنام: جروح عميقة

قبل وقت طويل من لقائي معها، سافرت كيمان مرارا إلى دول آسيوية حيث دعمت منظمتها غير الربحية المدارس، ومراكز التدريب المهني، والأعمال والشركات التي ساعدت الناس المصابين جراء الألغام الأرضية وغيرها من ذخائر الحرب. إثر التحاقي بهيئتها الاستشارية عام 2013، دعتني كيمان لمرافقتها وأفراد من الكادر بمعيتها إلى ميانامار، وتايلاند، وفيتنام. غير أن الأخيرة التي كافحتُ بغية الخلاص من سنوات الخدمة العسكرية فيها فتحت عيني على الكثير.

أثناء جلوسي في إحدى وكالات الحكومة الفيتنامية في هانوي، قُدِّمَ لي ألبوم صور. بدأ الألبوم بصورة للرئيس ريتشارد نيكسون وهو يلوح بيديه للكاميرا. ضمن الشرح المكتوب على الصورة باللغتين الفيتنامية والإنكليزية، وردت عبارة تقول: «قبيل جلاء القوات الأميركية من فيتنام، يعلن نيكسون عن توجيه حملة أخيرة للنصر ستعيدهم إلى العصر الحجري. ضمن تلك

الحملة، ألقت الطائرات الأميركية أكثر من 20000 طن من المتفجرات على فيتنام الشمالية، وقد قضى في تلك الحملة أكثر من 1000 فيتنامي».[165]

مع تقليب صفحات الألبوم، تحدثت إلى مسؤول حكومي جلس قبالتي. قال: «من المؤكد إدراك نيكسون أنه كان على وشك سحب القوات الأميركية، وأن واشنطن خسرت الحرب فعلا».

أومأ المسؤول بمهابة.

شعرت بغصة في حلقي وغضب جراء ذلك الدمار العبثي والوحشي، والأفعال الأميركية غير الإنسانية. ما الذي فكر به نيكسون وجنرالاته يا ترى؟ وحتى لو أنهم افتقروا إلى التعاطف مع الأطفال والمدنيين، ألم يدركوا أنهم بتلك الأفعال حولوا الناس ضدنا؟

تضمن الألبوم صورا أحدث لضحايا العامل البرتقالي والألغام الأرضية، مع صور تفطر القلب لرجال ونساء وأطفال بجذوع كان ينبغي أن يكون لها أذرع وسيقان. ثم جاءت الأرقام الإحصائية التي مثلتها تلك الصورة.

ـ ألقت القوات الأميركية ما يقرب من أربعة عشر مليون طن من الذخائر على فيتنام (1959 ـ 1975)، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف الذخيرة التي استخدمتها قوات الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية.

ـ بلغت نسبة الذخائر التي لم تنفلق بحدود 30%، والتي لا تزال تشكل تهديدا للمدنيين.

ـ حصدت القنابل المدفونة والألغام أرواح أكثر من مئة ألف من الفيتناميين منذ نهاية الحرب.

ـ لا يزال 80% من المنطقة منزوعة السلاح سابقا ما بين فيتنام الشمالية والجنوبية ملوثا بالذخائر غير المنفلقة منذ الحرب وحتى اليوم.[166]

ـ يعاني أكثر من 3 ملايين فيتنامي من آثار العامل البرتقالي.[167]

طاردتني الأسئلة. متى يتوقف كل هذا؟ وما الذي يتطلبه الاعتراف بأن هذه الأفعال تدمر الجناة كما الضحايا على حد سواء؟ ألسنا نهدد بتدمير الحياة على هذا الكوكب اليوم؟ ومن ثم يأتي

السؤال عن الصين في وقتنا الحالي.

على الرغم من دعم الصين فيتنام الشمالية أثناء الحرب، تدهورت العلاقات بين البلدين بعد توحيد فيتنام عام 1975. طردت فيتنام جماعة الخمير الحمر المدعومة من الصين خارج كمبوديا، الأمر الذي دفع بكين للرد عبر غزو فيتنام. استمر العداء بين الجانبين حتى العام 1990. ومنذ ذلك الوقت، نَشَطَ قتلة الاقتصاد الصينيون في فيتنام، فأنشؤوا المعامل والشركات وفاوضوا على الصفقات التجارية والاستثمارات. وسهلت الأوجه الاشتراكية لنمطهم الرأسمالي علاقات البلدين الدبلوماسية. عدا عن ذلك، عمل البلدان على تسوية خلافاتهما، لا سيما الأنشطة في بحر الصين الجنوبي. يسارع المسؤولون الصينيون إلى استغلال ذكريات الحرب عبر دعامتي الخوف وفرق تسد. ويقول هؤلاء المسؤولون إن الجيش الصيني يحمي فيتنام من أي غزو آخر.

نشطت موجة القتل الاقتصادي الصينية الثالثة بفعالية كبيرة. استمر النفوذ الصيني بالنمو المستمر في مقابل تقهقر النفوذ الأميركي. وبحلول العام 2021، باتت الفجوة كبيرة جدا.

في هذا السياق، كتب موقع مجلة ذي ديبلومات الإخباري يقول:

أشارت بيانات مؤسسة المسح البارومتري الآسيوي لفيتنام التي نشرها في 2 آذار، 2021، إلى أن أكثر من 50% ممن استطلعت آراؤهم من الفيتناميين اعتقدوا بتوفر الصين على النفوذ الأكبر في آسيا مقارنة بـ14.67% رجحوا نفوذ الولايات المتحدة هناك. كانت الصين ولا تزال الشريك التجاري الأكبر لفيتنام منذ خمسة عشر عاما، الأمر الذي أفادت منه فيتنام إلى حد كبير.[168]

كانت الصين أول بلد حقق تجارة ثنائية بقيمة مئة مليار دولار مع فيتنام، فيما كان العام 2020 الثالث الذي شهد تحقق هذا الإنجاز. بلغت صادرات فيتنام إلى الصين بحدود أربعين مليار دولار شملت أجهزة حواسيب، وهواتف نقالة، وملابس وأحذية، ومكائن. وتجاوزت الصين الاستثمارات الأميركية في هذا البلد.[169]

لكن بعض الخبراء حذروا من زيادة الواردات الصينية وما نتج عنها من تسارع في ميل الميزان التجاري، إلى جانب تضخم الاستثمارات الصينية، حيث تشكل كلها أعباءً على فيتنام. توجد تلك المشكلات الموجودة في أميركا اللاتينية كما في الإصرار على توظيف الشركات والعمالة الصينية، وظروف العمل السيئة، والهندسة والإدارة السيئتين، وقضايا حقوق الإنسان، فضلا عن

انتقاد الشركات الصينية التي تتلاعب بمنشأ العمل الفيتنامي بغية تجنب علامة «صنع في الصين». في هذا السياق، أوجز معهد دراسات جنوب شرق آسيا قضية سياسية مهمة مفادها:

للصين تاريخ باستخدام التجارة سلاحا لمعاقبة الدول التي تختلف معها. ويمثل عجز الميزان التجاري الفيتنامي مع الصين واعتمادها المكثف على السلع الرأسمالية والسلع الوسطية المستوردة من الصين ـ تمثل كلها نقاط ضعف اقتصادية لفيتنام. وبالنظر إلى التوترات المتصاعدة في بحر الصين الجنوبي، ارتقت هذه القضايا إلى مستوى الأمن القومي لفيتنام.[170]

فضلا عن ذلك، تقدم فيتنام مثالا صارخا على تدهور معايير ممارسات البناء التي اعترت مشاريع الصين في أماكن عديدة. في هذا السياق، قارنت مجلة «هذا الأسبوع في آسيا» بين نجاح المشاريع اليابانية في مقابل وضع المشاريع الصينية في مدينتين صينيتين، حيث تقول:

للمرة الأولى في تاريخيهما، تقع مدينتا هوشي منة وهانوي في قلب الحاجة الماسة إلى مشاريع قطارات سريعة كبرى تهدف إلى تحويل وجه المدينتين إلى شيء جديد. تواجه كلا المدينتين تأخيرات، إلا أن سلسلة من الحوادث البارزة ألقت بظلال قاتمة على الجهود الصينية في العاصمة.

على النقيض من العمل الصيني، خلا مشروع المترو الذي نفذته تكتلات يابانية في مدينة هوشي منة من أي حوادث. ولا شك في تعزيز هذا الوضع الفرضية القائمة في فيتنام حول تفوق الصناعة والهندسة اليابانية.[171]

رابطة دول جنوب شرق آسيا واتفاقية الشراكة الاقتصادية الإقليمية الشاملة: التكتل التجاري الأكبر على وجه الكرة الأرضية

اكتسب قتلة الاقتصاد الصينيون زخما مستمرا في تسع دول أخرى (إلى جانب فيتنام) ضمن ما تعرف برابطة دول جنوب شرق آسيا المكونة من: بروناي، وكمبوديا، ولاوس، وماليزيا، وميانمار، والفلبين، وإندونيسيا، وسنغافورة، وتايلاند.

وجعل قتلة الاقتصاد الصينيون من حضور اجتماعات رابطة دول جنوب شرق آسيا منطلقا للترويج لمنافع وفوائد طريق الحرير الجديد وما يرافقه من استثمارات في قطاعات البنية التحتية. في هذا السياق، ارتفعت التجارة بين الدول العشر والصين إلى مستويات قياسية وغير مسبوقة خلال

الفترة ما بين الأعوام 1991 و2020، وبمعدل يبلغ 17% على أساس سنوي. وبحسب تقرير معرض الصادرات الدولية الصينية لشهر أيلول العام 2021 أنه أورد يقول:

حافظت الصين على موقعها كأكبر شريك تجاري ضمن رابطة دول جنوب شرق آسيا لاثني عشر عاما متتالية. فخلال فترة الشهور الثمانية الأولى لهذا العام، بلغت قيمة صادرات وواردات الصين مع دول الرابطة ما مجموعه 553.92 مليار دولار، أي بزيادة تبلغ 33.3%.[172]

وشجع قتلة الاقتصاد الصينيون رابطة دول جنوب شرق آسيا على الاستثمار في الشركات الصينية. وقد أوجز السفير الصيني للفلبين، هوانغ زيليان، هذا الكلام عام 2021 قائلا:

ازدهرت استثماراتنا المتبادلة. بحلول شهر حزيران من هذا العام، تجاوز الاستثمار المتراكم والمتبادل بين الصين ورابطة دول جنوب شرق آسيا أكثر من 310 مليار دولار، مع ازدهار التعاون في قطاعات مثل التصنيع، والزراعة، والبنية التحتية، والتكنولوجيا العالية، والاقتصاد الرقمي، فضلا عن الاقتصاد الأخضر.[173]

لاحقا، صنعت بكين الكتلة التجارية الأكبر على وجه الأرض. وحدت اتفاقية الشراكة الاقتصادية الإقليمية الشاملة عام 2020 الصين ورابطة دول جنوب شرق آسيا مع أستراليا، واليابان، ونيوزيلندا، وكوريا الجنوبية. صاغ قتلة الاقتصاد الصينيون رابطا حيويا ضمن قسم الطريق من مبادرة الحزام والطريق. تشكل الدول الخمس عشر 30% من مجموع نفوس العام وناتجه القومي الإجمالي. وعبر توحد الدول التي عاشت تاريخا طويلا من العداء والصراعات، ترسل اتفاقية الشراكة الاقتصادية الإقليمية الشاملة رسالة أخرى مفادها إنهاء الصين العمل بستراتيجية فرق تسد.

في هذا السياق، تقدم إندونيسيا، ذلك البلد الذي نفذت فيه أولى مهمات القتل الاقتصادي التي كلفت بها، تقدم مثالا صارخا على حالة التحول في ميزان القوى.

إندونيسيا: بوابة دخول إلى رابطة دول جنوب شرق آسيا

قُبَيل إيفادي إلى إندونيسيا عام 1971، أوجزتني كلودين عن تاريخ الموجة الشيوعية في إندونيسيا والدور الأميركي في صعود سوهارتو إلى سدة الحكم. لكن على الرغم من دَيْنه لواشنطن،

غازل سوهارتو الصين علنا. قالت كلودين إن مهمتي تتمثل في ضمان تحول إندونيسيا إلى حليف أميركي.

عبر جملة رحلات قمت بها إلى إندونيسيا في سبعينيات القرن الماضي، زرت عددا من المعامل الصناعية الموجودة إلى جانب مواقع بعض المشاريع المحتملة التي توزعت ما بين جاكارتا وباندونغ وباقي المراكز الحضرية الأخرى، وصولا إلى جزر نائية مثل سولاويسي. التقيت مسؤولين وطنيين ومحليين، فضلا عن مديرين تنفيذيين ورجال أعمال. بناءً على دعائم القتل الاقتصادي الأربعة، فعلت كل ما بوسعي بهدف زرع الخوف من غزو شيوعي محتمل من جانب الصين، والاتحاد السوفيتي، فضلا عن استخدام دعامة فرق تسد للتخويف من حلفاء إندونيسيا الشيوعيين في كمبوديا، ولاوس، وفيتنام. وروجت لتوقعات كبيرة بازدهار متنامٍ عبر منح قروض كبيرة لإنشاء البنية التحتية في جزر الأرخبيل.

كانت إندونيسيا، في حينها ولا تزال، دولة بالغة الأهمية بحكم مواردها الكبيرة، ما بين نفط، وغاز، وقصدير، وذهب، وفحم، ونيكل، ونحاس، وفضة، وبوكسايت. وأصبح هذا البلد عاشرا في الإنتاج الصناعي في العالم بمنتجات مثل الأجهزة الكهربائية، والصناعات المطاطية، والملابس.[174] فضلا عن ذلك، يظل موقع إندونيسيا حيويا للنقل الدولي بحكم سيطرتها على الحركة ضمن مضيق مَلَقا المزدحم.

استمر نجاح ستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية التي بدأت في زمني لما يقرب من خمسين عاما. وعادة ما يشير السياسيون الإندونيسيون إلى أميركا بوصفها «صديق بلادهم الأفضل» حتى انتخاب الرئيس ترامب. تسبب خطاب ترامب القومي العنصري وعباراته التي اعتاد بها وصف تلك الدول بـ«القذرة»، بتسميم العلاقات، الأمر الذي خرق الاتفاقات السابقة، لا سيما محاولات وزير الخارجية الأميركية مايك بومبيو إجبار جاكارتا معارضة مطالبات بكين في بحر الصين الجنوبي.

يعد عدم الانحياز أمرا حيويا لسياسة إندونيسيا الخارجية بالنظر إلى تاريخها القديم الممتد لقرون من العداء مع الصين، إلى جانب تنامي قوة الصين العسكرية والاقتصادية. كان ضغط بومبيو

خطأً فادحًا، ولن ينجح أسلوب فرق تسد. جُوبِهَ إصرار الأميركيين بأن وجود بكين العسكري في بحر الصين الجنوبي يمثل تهديدا لإندونيسيا بوعود بِكِّين بالحماية ضد جميع الأعداء المحتملين.

استغلت موجة قتلة الاقتصاد الصينية الثالثة الأخطاء الفادحة التي وقعت بها واشنطن.

بحسب خدمة سيبتشاينا الإخبارية ومقرها نيويورك أنها أوردت في تقول:

تحدث الرئيس الإندونيسي جوكو ويدودو إلى الرئيس الصيني تشي جين بينغ شهر نيسان من العام 2021، مخاطبا إياه بـ«الصديق والأخ». ومنذ ذلك الوقت، ازدهر التعاون الصيني ـ الإندونيسي في مجالات التجارة، والمدن الصناعية عبر مبادرة الحزام والطريق، إلى جانب ازدياد رأس المال الاستثماري العامل بين البلدين. تقدم العلاقات الإندونيسية المتحسنة مع الصين، هذه العلاقات التي يمكن أن تشكل تحَدِّيًا جوهريًّا لزعامة أميركا في المنطقة الإندونيسية ـ الأطلسية، تقدم درسًا مهمًّا للسياسة الخارجية الأميركية مفاده: لا تريد الدول الأخرى استغلالها بهدف مواجهة الصين.[175]

ارتكزت ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية على الدعائم الأربع. في هذا السياق، شدد قتلة الاقتصاد الصينيون على تعزيز المخاوف من كوريا الشمالية و«الولايات المتحدة غير المستقرة»، وشددوا على حماية الجيش الصيني، ودافعوا عن منهجية منح القروض بهدف تمويل مشاريع من شأنها تخفيف الفقر المدقع والترويج للتحول من فلسفة فرق تسد التي روجت لها واشنطن حول تهديدات متخيلة من جانب كمبوديا، ولاوس، وفيتنام، والصين نفسها، نحو رؤية لعالم يوحده طريق الحرير الجديد. نجحت الصين في تحقيق ذلك.

عام 2020، بلغت القيمة الإجمالي لتجارة الصين مع إندونيسيا 78.5 مليار دولار، هذا الرقم الذي جعل الصين شريك إندونيسيا التجاري الأول لسبع سنوات على التوالي، والذي يزيد على تجارتها مع الولايات المتحدة التي لم تتجاوز 27.6 مليار دولار للعام نفسه. واستثمرت الشركات الصينية بكثافة في إندونيسيا ضمن مشاريع الحديد والصلب، والمدن الصناعية، ومنشآت معالجة سلفات النيكل والنحاس، ومعمل لمعالجة الليثيوم، ومجمع لصناعات التكنولوجيا الفائقة، وشركة غوتو القابضة التي تعد صفقتها الأكبر في تاريخ إندونيسيا بقيمة تقدر بـ28.5 مليار دولار. وبدفع

من استثمارات الصين المليارية، تتوفر إندونيسيا على العدد الأكبر من الشركات الناشئة بقيمة مليار دولار فأكثر ما بين دون جنوب شرق آسيا.[176]

وباتت الصين مطور البنية التحتية الأكبر في إندونيسيا. في هذا السياق، رتب قتلة الاقتصاد الصينيون أمر مَنْح قروض بهدف توظيف شركات صينية لغرض بناء طرق سريعة، وموانئ، ومحطات توليد كهرباء، إلى جانب مشاريع أخرى. لذلك، ارتفع الدَّين الإندونيسي للصين إلى أكثر من سبعة عشر مليار دولار في العام 2019، أي بزيادة تقدر بـ11% عن العام 2017.[177]

ربما كان الحدث الأبرز توقيع اتفاقية العملة بين جاكارتا وبكين التي توسع استخدام اليوان الصيني في المنطقة، الأمر الذي يمثل تهديدا لسيادة الدولار الأميركي كعملة مهيمنة على تعاملات الدول في العالم. يمكّن موقع الدولار المهيمن الولايات المتحدة من تخليص نفسها من الديون الخارجية عبر طباعة أوراق نقدية جديدة، ما يعني عاملًا أساسيًّا من وراء مقدرة واشنطن على فرض عقوبات اقتصادية ضد الدول الأخرى. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن جزءا من ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية طويلة الأجل يهدف إلى استبدال الدولار باليوان الصيني كعملة تداول عالمية مفضلة.

لم يمر الاستغراق الصيني السريع في إندونيسيا من دون انتقادات. فكما هو الحال مع دول أخرى، كان هناك ذلك الاستياء من متطلبات الشركات الصينية المتعلقة بتوظيف مديرين وعمالة وصينية، والاعتماد على القطع المصنعة في الصين، والتهاون بحقوق الإنسان، والسماح بالإنشاءات الرديئة، عدا عن الضغوط الصينية على جاكرتا بهدف دعم سياسات بكين. فضلا عن ذلك، اتهم زعماء المعارضة الإندونيسية بكين باعتماد «دبلوماسية فخ الديون». وأسرعوا بالإشارة إلى الأزمات التي تسبب بها المال الصيني للدول الأخرى، لا سيما سريلانكا.

في هذا السياق، كتب آشوك ساجانهار من مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث يقول:

لا بد لإندونيسيا من توخي الحذر وتجنب تجربة سريلانكا التي خسرت معظم سيطرتها على ميناء في كولومبو لصالح الصين جراء التخلف عن سداد الدين للأخيرة.

افتتح ميناء (هامبانتوتا) عام 2010، غير أن الحكومة السريلانكية عانت الكثير بغية سداد الدين عن مشروع الميناء الذي كابد خسائر فادحة. وفي هذا السياق، تدين كولومبو للصين بمبلغ

إجمالي يقدر بثمانية مليارات دولار.

وقد اضطر هذا الدين الضخم الحكومة السريلانكية إلى تسليم السيطرة على الميناء للصين.[178]

من جانب آخر، يمثل الدين مشكلة أخرى للصين. تعد إندونيسيا أكبر دولة مسلمة في العالم. ولا شك أن جرائم الصين بحق الإيغور وباقي الأقليات المسلمة الأخرى تثير غضب الطائفة الإسلامية القوية في إندونيسيا.

بقية آسيا

لا تقل أهمية ما حصل في جنوب شرق آسيا عما يحصل في باقي أرجائها، لا سيما دول الاتحاد السوڤييتي السابق التي تشكل رابطا حيويا ما بين الصين وأوراسيا. في هذا السياق، أوردت مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث تقول:

شهدت علاقات الصين مع خمس من دول آسيا الوسطى ـ كازاخستان، وقرغيزستان، وطاجيكستان، وتركمانستان، وأوزبكستان ـ نموًّا مثيرًا للاهتمام خلال السنوات الثلاثين الماضية منذ نيلها الاستقلال عن الاتحاد السوڤييتي السابق عام 1991. وحَسَّنت مبادرة الحزام والطريق من أهمية دول آسيا الوسطى في عين الصين عبر ربطها بأوروبا والشرق الأوسط.[179]

منحتني رحلتي إلى كازاخستان عام 2017 فرصة للتعرف من كثب إلى المنطقة التي نادرا ما شغلت عناوين الأنباء في الولايات المتحدة، بصرف النظر عن دورها في تشكيل صورة المستقبل. إلى جانب الاستمتاع إلى الخطب المفيدة ضمن منتدى الأستانة الاقتصادي ومقابلة مشاركين آخرين، دُعيت لعشاء مع رئيس كازخستان، نورسلطان ناضربايف، فضلا عن مجموعة مختارة من المتحدثين الآخرين. شعرت بالفخر لتلقي دعوة كهذه، غير أن ذلك الشعور تلاشى حينما علمت تفاصيل مزعجة عن مضيفي.

قبيل تفكك الاتحاد السوڤييتي، تولى ناضربايف مناصب رفيعة في الحزب الشيوعي السوڤييتي. وقد صورته الصحافة الأميركية كأحد أمراء الحرب الباردة الأشداء. بحسب الصحفي غريغ بالاست: «بعدما كان أحد مسؤولي جهاز الكي جي بي السوڤييتي الوحشيين، وجد ناضربايف

طريقه إلى الدين وتحول إلى زعيم إسلامي وحشي. واعتقتلت «جندرمته» كل من تجرأ على مجرد الهمس بصوت ضده.[180]

عارض ناضربايف كل ما قمت به كقاتل اقتصادي. أثار هذا سؤالا في مخيلتي: لم دعاني الرجل إلى قصره الرئاسي؟

حاولت كيمان تبديد قلقي. قالت: «من غير المحتمل له إيذاء متحدث أميركي في محفل دولي مهم كالذي يستضيفه الآن». توقفت كيمان عن الكلام، ثم ابتسمت بدفء وقالت: «من المؤكد أنه قد يسعى لإذلالك»، وأضافت: «بوسعك رفض الدعوة، أليس كذلك؟».

يوم مأدبة العشاء، احتشدت مجموعتنا في قصر آك أوردا الرئاسي. بمرافقة حراس صادروا أجهزة هواتفنا النقالة، وكاميراتنا، ومفاتيحنا، وأي شيء آخر أثار شكوكهم، سرنا بوتيرة تثير الصداع من قاعة عملاقة إلى أخرى. أذهلتنا مشاهد الزينة المذهبة اللامعة، والثريات الكرستالية المتلألئة، فضلا عن الأعمدة الرخامية والأرضيات المزينة بالرخام بتصاميم معقدة.

في خاتمة المطاف، أُوصِلنا إلى غرفة تضم منضدة طويلة وأنيقة مُعَدَّة للعشاء. وقف الرئيس ناضربايف في انتظارنا. صافحت الرئيس الذي وقف إلى جانبه رجل ببزة سوداء تمتم بكلمات بدت باللغة الكازخستانية.

ابتسم ناضربايف. قال: «القاتل الاقتصادي»، وحنى رأسه قليلا إلى الأمام.

شعرت بأصابع يد تلتف على ذراعي. عدت إلى الوراء ونظرت ناحية حارس أشار إليّ باتجاه علم صغير موضوع على الطاولة حمل اسمي. تحركت باتجاه المكان الذي أشَّر الحارس إليه.

اتخذ ناضربايف مكانه عند رأس المنضدة، وألقى نظرة سريعة على جميع الجالسين، ثم أومأ مرحِّبًا بنا. شرع ناضربايف بوصف موقع بلاده المتميز للعمل والشركات. وقال إن كازخستان البلد الوحيد الذي يحظى بعلاقات ممتازة مع روسيا، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوربي، فضلا عن كونه شريكا أساسيًّا مع الصين في طريق الحرير الجديد. إذ شرعت أكتب بالملاحظات، عرّف الرئيس بلاده بوصف: «مشبك الحزام وطريق الحرير الجديد»، الذي يربط الصين بالشرق الأوسط، وروسيا، وأوروبا، وإفريقيا. وأوجز منافع «مشروع تغيير العالم» التي ستتحقق «عبر

أرجاء الكوكب». دعانا الرجل لاحقًا للجلوس حول طاولته وتعريف أنفسنا، وشرح الأسباب من وراء وجودنا في المنتدى. توفر المتحدثون الذين سبقوني على صلات شخصية مع ناضربابيف الذي وصفهم بعبارات مثل «صديقي منذ...، رفيق السلاح القديم»، وعبارات من هذا القبيل. استباقا للإذلال المتوقع حينما يحين دوري، شعرت بانقباض في معدتي. حاولت صياغة رد مبهج ولكن مؤدب، رد بمفردات بهدف صرف النقد. بالكاد استمعت إلى المتكلمين ضيفا تلو الآخر وهم يمدحون الرئيس ويشيرون في كلماتهم إلى دوره في طريق الحرير الجديد.

توقف الرجل على يميني عن الكلام والتفت إلي. قال ناضربابيف: «الآن، ضيفنا من الولايات المتحدة»، ثم ابتسم وقال: «القاتل الاقتصادي».

حدقت إليه بانتظار المزيد. فتح الرئيس يديه باتجاهي في إشارة إلى دعوتي للكلام.

سحبت نفساً وقلت لنفسي: «أكان كذلك؟»، ثم قلت: «شكرا سيدي الرئيس»، ولا أتذكر شيئا من التفاصيل فيما خلا ذلك. شعرت بصدمة كبيرة. تشوشت أفكاري وأنا أتذكر تلك العبارات التي رددتها كبغاء عدة مرات، عبارات تصف الوسيلة التي خلقنا بها (نحن قتلة الاقتصاد) اقتصاد الموت إلى جانب أهمية التحول نحو اقتصاد الحياة المتجدد. أتصور أني استجمعت نفسي لأشيد بطريقة دبلوماسية تمتدح كازخستان لدورها المؤكد الذي ستعلبه بتسهيل هذا التحول.

بعدما شكرني ناضربابيف والتفت إلى الضيف بجواري، غرقت في الكرسي مع شعور عظيم بالارتياح.

عدت من تلك الزيارة التي قضيتها في كازخستان مع إحساس بتقديم الحكومة الأميركية ووسائل الاعلام صورة منقوصة ـ بل منحازة ـ لهذا البلد وجيرانه. في السنوات اللاحقة التي تلت ذلك العشاء الرئاسي، شاهدت كازخستان تستمر بالتحول إلى أكبر أسواق الصين نموا، حيث زادت قيمة الصادرات بنسبة 90% ما بين الأعوام 2016 و2019، إلى جانب زيادة قيمة الواردات بقيمة 55% للفترة ذاتها. في سياق متصل، برهنت مزاعم ناضربابيف عن أهمية بلاده لطريق الحرير على صحتها. كما أورد مركز أبحاث أوبزيرفر قائلا:

تمسكت كازخستان التي تملك أفضل اقتصاد بين دول وسط آسيا بكل حماسة بشراكتها مع الصين، وقدمت نفسها كـ«حزام» ضمن مشروع الحزام والطريق بغية الإفادة ماليا واقتصاديا من

الاستثمارات الجديدة وفرص الارتباط التي تقدمها بكين.[181]

باتت الصين الشريك الاقتصادي الأول لجميع جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق في المنطقة. خلال الفترة ما بين 2015 و2019، زادت صادرات السلع من وسط آسيا إلى الصين بنسبة 35%، في حين زادت السلع الواردة إلى تلك الدول من الصين بنسبة 49% بالمقابل.[182]

لكن الجانب المظلم ليس خافيا. في واقع الحال، عانت المنطقة المشكلات ذاتها التي عرفت بها المشاريع الصينية في المناطق الأخرى، بما في ذلك ظروف العمل القمعية، والتلوث، والمنشآت السيئة هندسيا، والضغوط بهدف دعم السياسات الصينية فيما يتعلق بمشكلات بحر الصين الجنوبي وأقلياتها. وكما هو الحال مع إندونيسيا، يمثل الدين مشكلة كذلك. بعديد نفوس يشكل المسلمون أكثر من 70% منهم، يخشى الكازخستانيون إزاء الإيغور الذين يعيشون في مقاطعة زينغيانغ المجاورة. في هذا السياق، كتبت جريدة واشنطن بوست تقول:

يؤشر المحللون لتصاعد المشاعر المناهضة للصينيين في أوساط المجتمعات وسط آسيا بعد دعوة الرئيس تشي عام 2017 إلى تأسيس ما أسماه «السور الحديدي العظيم» بغية الحماية ضد الاضطرابات في مقاطعة زينغيانغ التي تعد بوابة رئيسية لمشاريع مبادرة الحزام والطريق. ولا بد من الإشارة إلى تصاعد الحملة الصينية لترقى إلى مستوى القمع الديني والحجز في معسكرات احتجاز ضمّت أكثر من مليوني مسلم في مقاطعة زينغيانغ، بمن فيهم من أقليات من الكازاخ والقرغيز.[183]

حينما أقرأ عن معسكرات الاحتجاز هذه الأيام، لا بد لي من استعادة المشاعر عن زيارتي لفيتنام في العام 2013. إبان تلك الزيارة، قضيت بضعة ساعات ضمن ما اعتاد الأميركيون الإشارة إليه في أثناء الحرب بوصف «هيلتون هانوي». كان المبنى سجنا على شكل برج حصين استخدم لاحتجاز الأسرى من الجنود الأميركيين، والذي تحول الآن إلى متحف يذكر الناس بالمأساة المريرة للحرب، والموت، والدمار، والمعاناة، وتأثيراتها في فيتنام والولايات المتحدة، عدا عن باقي العالم.

شكلت حرب فيتنام بداية تغيير عظيم في ستراتيجية القتل الاقتصادي. هيمنت دعامة الخوف من الولايات المتحدة ما بعد بروز أميركا كأقوى قوة عسكرية في التاريخ بعيد نهاية الحرب العالمية الثانية. لعب الجيش الأميركي دورا حاسما في مساعدة كوريا الجنوبية إبقاء نظيرتها الشمالية فوق

خط العرض 38 (أو ما يعرف بخط الترسيم) في خمسينيات القرن الماضي. أمكن لواشنطن إبان حقبة الحرب الباردة زرع ما يكفي من الخوف بهدف منع بحرية الاتحاد السوفييتي من نصب صواريخها في كوبا بداية ستينيات القرن الماضي. لكن فيتنام أنهت كل ذلك. برهن البنتاغون بحلول سبعينيات القرن الماضي عن عجزه في مواجهة بلد أصغر بكثير وأقل تسليحا وتجهيزا إلى حد بعيد. وربما الأسوأ من ذلك تراجع معنويات الجنود الأميركيين، وانتشار تعاطي المخدرات في صفوفهم، عدا عن الانقسام العميق الذي عصف بالشعب الأميركي. مثلت الحرب عاملا قويا في إنهاء رئاسة ليندون جونسون مع إشعار الرؤساء الأميركيين اللاحقين لعقدين قابلين بأن الحرب ليست خيارا قابلا للتطبيق. نتيجة لذلك، حلت دعامة الدين محل دعامة الخوف، تلك الدعامة التي نجحت أول موجة من قتلة الاقتصاد المعاصرين في بنائها منذ نجاح كيرميت روزفلت في إيران العام 1953، واستمرت حتى سبعينيات القرن الماضي.

عبر تجوالي ما بين الزنزانات المظلمة في هيلتون هانوي، بقيت أفكر في الدور الذي لعبته في تشكيل ستراتيجية القتل الاقتصادي. سألت نفسي: هل سيكون العالم أفضل مكانا لو أني قاتلت في تلك الحرب، وانتهى بي الحال في ذلك السجن، أو إذا ما قضيت قتيلا في ميدان القتال يا ترى؟

43

إفريقيا

بدأت علاقتي المهنية مع إفريقيا عام 1972 حينما استدعاني ماك هول، رئيس مجلس إدارة شركة ماين، إلى مكتبه. تصورت أنه كان بصدد تهنأتي للترقية الأخيرة ككبير للاقتصاديين في الشركة.

لكنني كنت مخطئًا. لم يرد ذكر الترقية على لسان هول مطلقا. عوضا عن ذلك، وصف هول مغامراته كمهندس شاب سافر عبر نهر الكونغو بداية القرن العشرين. وقد ذهب هول هناك ليستكشف إمكانات التنمية الكهرومائية.

قوَّم هول فرص توليد الطاقة الضخمة هناك. قال: «لكننا لم نستمر. لم يكن هنالك ما يكفي من الطلب على الطاقة الكهربائية ولا شبكات بما يكفي لنقلها إلى مناطق أخرى ضمن القارة في تلك الأيام. أما الآن..»، مضى هول يفسر حاجة صناعات مثل الألمنيوم إلى مقادير كبيرة من الطاقة، وأن الطاقة الكهرومائية تمثل الوسيلة الوحيدة لتوفير الإمدادات اقتصاديا، وأن بوسعهم استخدام البوكسايت من غينيا المجاورة وبناء معامل معالجتها إلى جوار النهر. وأشار هول إلى زائير (والتي بات اسمها الآن جمهورية الكونغو الديمقراطية) باعتبارها «كنز المستقبل»، مشددا على أنها والدول المجاورة تتوفر على احتياطيات ضخمة من المعادن بما فيها النحاس، والكوبالت، واليورانيوم الذي قدر له ازدياد أهميته للعالم. وذكر المنطقة التي أنتجت اليورانيوم الذي استخدمته الولايات المتحدة في صناعة القنبلة النووية التي أنهت الحرب العالمية الثانية، وكيف وجهت واشنطن استثمارات ضخمة لحماية المناجم الأميركية هناك. ثم جاءت المهمة المراد تكليفي بها ممثلة في: إقناع البنك الدولي توظيف شركة ماين لإنشاء سد كهرومائي ضخم على نهر الكونغو.

جمعت معلومات إحصائية عن زائير ودول جوارها، لا سيما أنغولا الغنية بالمعادن، وكتبت تقريرا موسعا للبنك الدولي شددت فيه على منافع بناء سد ومحطة للطاقة الكهربائية على نهر

الكونغو مع خطوط نقل قدرة تمتد عبر أرجاء المنطقة. أنهيت التقرير بمقترح تولي شركة ماين زمام الأمور. ولن نصمم وننشئ المشروع كليا وحسب، وإنما سنروج له عبر شركات الألمنيوم والتعدين.

بعد وقت قصير من إنهاء التقرير، استدعيت إلى مكتب رئيس شركة ماين، جايك داوبر الذي كان الرجل الثاني في الشركة بعد هول. بعدما أبدا إعجابه وهول بتفاصيل التقرير حول الكونغو، كُلّفت بإعداد دراسة أخرى عن إفريقيا. كان الهدف من الدراسة الدفاع عن شركة ماين كَمُطَوّر لمنطقة صناعية ضخمة في ليبيريا تتضمن خطوط نقل قدرة فائقة ترتبط بسد الكونغو المقترح الذي يمكنه خدمة أكثر من عشر دول في غرب إفريقيا. خلصت الدراستان إلى أن زائير، وليبيريا، وأنغولا وجيرانها ستشهد نموا اقتصاديا كبيرا جراء المنشآت الهندسية التي ستنفذها شركة ماين، الأمر الذي يعني ستراتيجية قتل اقتصادي متقنة. أعرب كل من هول وداوبر عن ثقة بحصولنا على الضوء الأخضر للمضي قدما بالمشروع.

راوغ البنك الدولي على الرغم من التقارير المتقنة. في هذه الأثناء، وصلتنا معلومات تشير إلى تردد مديري البنك الدولي إزاء تمويل مشروعات في إفريقيا. بدت القارة السمراء غير مستقرة سياسيا على نحو متزايد، في حين صُنّفت الاستثمارات فيها بالخطيرة جدا. بعد ذلك، حضرت اجتماعات حينما ناقشت إدارة شركة ماين العليا خيارات الشركة عبر أرجاء العالم. في خاتمة المطاف، اتفق هول وصحة رأي البنك الدولي، وأن إفريقيا كانت أخطر من المجازفة بالاستثمار فيها. تلقيت التعليمات بالبحث عن تمويل البنك الدولي لمشاريع في أميركا اللاتينية، إلى جانب مشاريع أخرى في إيران والعربية السعودية الغنية بالنفط.

على الرغم من الفشل في المضي بالموضوع الإفريقي قدما، كشفت لي التقارير التي كتبتها عن زائير، وليبيريا، وأنغولا عن حقيقتين مهمتين تتمثلان في: غنى إفريقيا بثروة من الموارد الطبيعية الهائلة من جهة، ومعاناة شعوبها حالة فقر مدقع من جهة ثانية. وعلى وفق هذا الكلام، يتظافر كلا العامِلَين في تلك القارة معًا لوضعها في مرمى استغلال الحكومات والشركات.

إفريقيا تتحول من الغرب إلى الشرق

لطالما عانت إفريقيا ويلات الاستعمار، واستغلال الشركات، وفساد الزعماء المحليين الذين تعاونوا مع الأجانب لملء جيوبهم على حساب منفعة شعوبهم من ثروات معادنهم.

على الرغم من تجربة إفريقيا مع غزوات المصريين، والرومان، والعرب لقرون طويلة، تسببت الامبراطوريات الاستعمارية الأوربية التي غزت القارة السمراء منذ مطلع القرن الرابع عشر بتأثيرات غيرت الجغرافيا السياسية لكامل المنطقة إلى الأبد. مع استعبادها وتدميرها الثقافات الأصلية القديمة، وضعت القوى الأوربية حدودا اعتباطية، وخلقت كيانات اصطناعية، وقسمت الشعوب على وفق ما سمتها دولا، فرضت لغات، وأنظمة تعليمية، ومؤسسات دعمت مصالحها التجارية وسهلت استغلالها موارد إفريقيا.

مكنت الدعائم الأربعة للقتل الاقتصادي من دعم البنية الفوقية للهيمنة. تظافرت القوى العسكرية الأوربية مع صور متعددة من الديون والوعود بالازدهار. ارتقت فلسفة فرق تسد إلى مستويات جديدة وغذّت تجارة العبيد عبر الأطلسي. أدرك الزعماء المحليون بسرعة اعتماد بقائهم ومنفعتهم على التعاون مع الغزاة، وعادة ما دخلوا في حروب مع جيرانهم. استمر الاستغلال الأجنبي للقارة السمراء حتى نجاح حركات الاستقرار التي انطلقت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي بإنهاء الحكم الاستعماري المباشر. لكن الزعماء الأفارقة تعلموا دروسهم.

بنى أولك الزعماء على الاختلافات الثقافية والقبلية بغية إدامة حكومات وحشية واستبدادية. أدت العداوات القديمة حول حقوق التعدين والقضايا الأخرى إلى نشوء الخلافات والصراعات المسلحة، عدا عن حروب مباشرة عبر أرجاء القارة. استمر قتلة الاقتصاد الأميركيون بترديد شعار يقول: «نحن لسنا مستعمرين أوربيين»، ولكن ستراتيجياتهم استمرت بدعم قوة الزعماء الدكتاتوريين المحليين ما دام أولئك الزعماء متوافقين ومطالبات الشركات الأميركية.

كشفت منظمة «غلوبال جستس ناو» في تقرير لها كيف «أن الأموال التي يفترض أنها ذهبت بغية دعم تحسينات الزراعة وأمن الغذاء في إفريقيا، أُنفقت في سبيل مساعدة الشركات متعددة الجنسيات بغية الحصول على الموارد وتحقيق متغيرات سياسية تسهل توسع تلك الشركات في إفريقيا». وكشف التقرير أن «هذا النهج المؤيد لهذه الشركات قد يفاقم الجوع والفقر عبر الاستيلاء على المزيد من الأراضي، والوظائف غير المؤمنة ذات الأجور المنخفضة، وخصخصة البذور الزراعية مع التركيز على إنتاج أسواق صادرات عوضا عن إطعام الشعوب المحلية».[184]

زاد الوجود العسكري الأميركي وتدريب واشنطن لوحدات عسكرية إفريقية من مشاعر عدم الثقة ما بين الكثير من الأفارقة. وراجت تقارير تحدثت عن مصرع مدنيين جراء تورط الأميركيين في أكثر من أربعين دولة، عدا عن الدور الأميركي في تجهيز المعدات إلى دول مثل العربية السعودية التي قتلت مدنيين في اليمن، والسودان، وباقي الدول الإفريقية الأخرى. لطالما أعرب صحفيون أفارقة عن غضبهم إزاء قلة فهم واشنطن الواضحة لحقيقة أن الدكتاتوريين القساة وإنْ رحبوا بالدعم العسكري الأجنبي، يظل موقف الشعوب رافضا له.

سارعت بكين للإفادة من خيبة أمل معظم دول القارة السمراء المتنامية من الولايات المتحدة وأوروبا، الأمر الذي انتهى إلى زيادة التجارة الصينية الإفريقية بنسبة 700% خلال تسعينيات القرن الماضي.[185] فهم قتلة الاقتصاد الصينيون ما فات نظراءهم الأميركيين والأوربيين، وأن المكاسب تتجاوز المخاطر إلى حد بعيد. ارتفعت استثمارات الصين الأجنبية المباشرة في إفريقيا إلى مستويات استثنائية، كما أورد موقع ذي ديبلومات قائلا:

تضاعف الاستثماري الصيني الأجنبي المباشر في إفريقيا لما يقرب من مئة ضعف خلال فترة سبعة عشر عاما، لترتفع من 490 مليون دولار في العام 2003 إلى 43.4 مليار دولار في العام 2020، والذي وصل في ذروته إلى 46.1 مليار دولار في عام 2018، حيث تجاوزت استثمارات الولايات المتحدة منذ العام 2014.[186]

ضمن منتدى بكين 2018 للتعاون الصيني ـ الإفريقي، تعهدت الصين بتقديم دعم مالي لجميع «الأسواق الناشئة» ضمن القارة التي ستدخل طريق الحرير الجديد. وقعت الدول الإفريقية اتفاقا مع الصين للـ«عمل المشترك بهدف الدفاع عن روح المصالح الوطنية لكل منها إلى جانب تطوير مصالح الدول ككل». في هذا السياق، كتب يون سون، وهو زميل في معهد بروكنغز ومدير برنامج الصين في مركز ستمسون، يقول:

لطالما كان «نموذج العلاقات الدولية الجديد» أو «إضفاء الطابع الديمقراطي على العلاقات الدولية» محور جهود الصين لإصلاح النظام العالمي بغية منح الصين وحلفائها من الدول النامية صوتا وقوة أكبر. عبر ربط الدول الإفريقية بهذا الخطاب، تعزز الصين من أساس محاولاتها تشكيل نظام دولي جديد. تتمثل الرسالة السياسية الواضحة التي بعث بها منتدى بكين إلى الولايات المتحدة

عبر بيانه المشترك ما مفاده: من دون ذكر الأسماء، تعارض الصين وإفريقيا منهجية الحمائية والأحادية، وتتعهد بدعم اقتصاد عالمي مفتوح ونظام تجاري متعدد.

كُشف أمر ستراتيجية القتل الأميركي جراء أوجه المنفعة الأحادية التي تحققها، في حين تزعم الصين أن مشاريعها لإنشاء البنية التحتية ستربط الدول الإفريقية بعضها ببعض، وأن منافع طريق الحرير الجديد ستعم الجميع. حلّت فلسفة «وحّد وازدهر» محل «فرق تسد». مضى يون سون بشرح فلسفة الـ«لاءات الخمس» التي يعتمدها الرئيس تشي في سياسته الخارجية. إشارة إلى إفريقيا على وجه الخصوص، يلتزم تشي يما يلي:

«لا تدخل في مسارات التنمية للدول بعينها، لا تدخل بشؤون الدول الداخلية، لا فرض لإرادة الصين، لا فرض لشروط سياسية في مقابل الدعم، وأخيرا، لا محاولات لتحقيق مكاسب سياسية أنانية في مجالات الاستثمار والدعم المالي».[187]

عندما أسمع خطابا من هذا النوع، ينتابني شعور بالصدمة كيف أنه جاء من خلال دليل قواعد لعبة القتل الاقتصادي لموجتنا الأولى. في الوقت الذي لا أزعم فيه عدم بحثنا عن المكاسب الاقتصادية، فإننا ثقفنا بوعود من عينة «ستزدهر بلدانكم عبر تبني نظام حكمنا الديمقراطي». ينتابني شعور بالقشعريرة كلما تذكرت المرات التي قلت فيها أشياء كهذه، وكم كانت غير مخلصة وغير صادقة، لا سيما وأننا دعمنا الدكتاتوريات الوحشية إذا ما قبلت قروضنا وعرضت موارد بلدانها بأبخس الأثمان على شركاتنا.

لا يختلف خطاب الصين المخادع في شيء، فهي تتدخل في واقع الحال بشؤون الدول الأخرى الداخلية، لا سيما ما يتعلق بتشغيل العاملين وباقي ممارسات العمل، وفرض ضوابط بيئية معينة، عدا عن الإشراف على مشاريع الإنشاءات. وتُصِرّ الصين على دعم الدول المدينة لها سياسيا في مواقفها المتعلقة بتايوان، وهونغ كونغ، والتبيت، وجماعات الأقليات الأخرى. لكن على الرغم من ذلك، تظل كلمات موجة قتلة الاقتصاد الصينيين الثالثة مغرية للدول التي عانت إساءات وقسوة الاستعمار في الماضي. تبدو عبارة الصين القائلة: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا الصين شريكا في التجارة الدولية، شريكا لن يتدخل في عمل حكوماتكم، واستخدموا القروض الصينية لتوظيف شركاتنا لإنشاء بنيتكم التحتية التي تجعل هذا الكلام ممكنا» ـ تبدو أفضل كثيرا من عبارة أميركا

المقابلة التي تقول: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا القروض من إجماع واشنطن، ووظفوا شركاتنا، وطبقوا سياسات الليبرالية الجديدة». يدرك قتلة الاقتصاد الصينيون جيدا نجاعة العمل التجاري وفعاليته أكثر بكثير من إخضاع الدول في عالم اليوم.

بحلول العام 2021، باتت الصين قوة مهيمنة في إفريقيا، قوة تمثلت في: الشريك التجاري الثنائي الأكبر، والمقرض الثنائي الأكبر، فضلا عن تحولها إلى واحدة من أكبر المستثمرين الأجانب نفوذا. في هذا السياق، تقول مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث:

دخلت الشركات الصينية في معظم الأسواق الإفريقية. واليوم [2021] هنالك أكثر من 1000 شركة صينية تعمل في إفريقيا، إلى جانب ما يقرب من مليون صيني يقيمون في القارة السمراء. تعود ملكية الكثير من تلك الشركات إلى القطاع الخاص، فيما تملك الدولة بعض تلك الشركات كليا. في ضوء هذا الكلام، تتوفر الشركات الصينية على درجة كبيرة من الحرية للعمل في إفريقيا بشروط السوق، إلى جانب دعمها برأس المال الاستثماري الصيني بشروط تفضيلية.[188]

أنغولا: مؤشر الريادة

يشير العاملون في وزارة الخارجية الأميركية، ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، والبنك الدولي المتخصصون بالشأن الإفريقي، إلى أنغولا بوصفها مؤشرا للاتجاهات الحديثة السائدة.

كان البلد مهما بالنسبة إلى الدراسات التي أعددتها لهول وداوبر بداية سبعينيات القرن الماضي. تحاذي أنغولا زائير، وعرفت بكونها واحدة من أغنى دول العالم بالموارد الطبيعية، إلى جانب حاجتها إلى طاقة كهرومائية غير مكلفة بهدف تسهيل مهمة استغلال تلك الموارد. وكانت أنغولا واحدة من أفقر الدول بحسب معايير مستوى المعيشة. كان متوسط العمر فيها الأقل في العالم في مقابل مستوى وفيات المواليد الجدد الأعلى بالمقارنة. بالنظر إلى مخزوناتها الكبيرة من النفط، والماس، والمعادن الأساسية، تحولت أنغولا إلى ميدان للحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في سبعينيات القرن الماضي.

لكن الحقيقة التي قد تكون غائبة عن أذهان الكثيرين تشير إلى أن انغولا، على الرغم من موقعها في إفريقيا، أثرت بقوة في أميركا اللاتينية. ساعدت أنغولا في تبرير تنفيذ عملية الكوندور.

نهاية العام 1975، كسبت أنغولا استقلالها من البرتغال وأعلنت نفسها دولة ماركسية ـ لينينية. اندلعت حرب أهلية مدمرة ما بين الفصيل الحاكم المتمثل في حركة الشعب لتحرير أنغولا المدعومة من السوڤييت من جهة، والاتحاد الوطني لاستقلال أنغولا الشامل المدعوم أميركيا من جهة أخرى. انضَمَّت جنوب إفريقيا وزائير إلى الولايات المتحدة في جهودها لدعم الاتحاد الوطني لاستقلال أنغولا الشامل. بغية تجنب المواجهة الشاملة مع الولايات المتحدة، جند السوڤييت قوات كوبية الجنسية ودفعت لهم بهدف القتال إلى جانب قوات حركة الشعب. في واقع الحال، تعلم السوڤييت من منهجية استخدام البنتاغون للمليشيات الأجنبية (في حالة الولايات المتحدة، كانت المليشيات تابعة للدكتاتوريات اليمينية في الأرجنتين وتشيلي ضمن قيادة عمليات الكوندور التي تلت خطة الكوندور). بحلول العام 1976، تجاوز عديد «المستشارين» الكوبيين العاملين في أنغولا أكثر من ثلاثين ألفا.

نشرت واشنطن الكلام عن رغبة السوڤييت توظيف الكوبيين كوكلاء لهم في أنغولا كَبَالُون اختبار لستراتيجية شيوعية في أميركا اللاتينية. وأتذكر جيدا كيف حذّر رئيس البنك الدولي ووزير الدفاع الأميركي الأسبق، روبرت مكنمارا، مجموعة منَّا أثناء لقاء في واشنطن العاصمة عام 1976 من أن السوڤييت وإنْ فشلوا في نصب صواريخهم في كوبا أثناء مواجهة العام 1962 بين كينيدي وخروشوف، فإنهم صمموا على السيطرة على نصف الكرة الأرضية الغربي الجنوبي. حسب قول مكنمارا، درب الكوبيون القوات الأنغولية التي ستقوم بنشر الشيوعية في أرجاء القارة السمراء، في حين سيستخدم الكوبيون التجربة الأنغولية بغية إطلاق موجة شيوعية عبر أرجاء الأميركيتين. توسعت أنشطة قتلة الاقتصاد ومعهم أبناء آوى في كل من أنغولا وأميركا اللاتينية.

بالعودة إلى ذلك الوقت، يبدو من الصعب إدراك كيف أمكن لدولة على جزيرة مثل كوبا بعديد سكان بحدود تسعة ملايين نسمة التفكير في ستراتيجية كهذه. في واقع الحال، نحن نعلم الآن أن الرئيس فيديل كاسترو لم يفكر في أمر كهذا قط. كان كاسترو سعيدا باستقبال السوڤييت وبيع حمولات السفن من السكر الذي قاطعته الولايات المتحدة إلى الروس، إلا أنه لم يفكر في ستراتيجية لنصف الكرة الأرضية الغربي الجنوبي. على الرغم من هذا، وجد تحذير مكنمارا آذاناً صاغية. التحقتُ بكادر أبناء آوى، ووحدات القوات الخاصة، وعملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، فضلا عن قتلة اقتصاد آخرين أُوفدوا بغية وقف المد الأحمر المتخيّل. بحلول العام

1975، بثت عملية الكوندور الرعب في كل من يجرؤ على تحدي الجناح اليميني متمثلا في حكام أميركا اللاتينية الدكتاتوريين المناوئين للشيوعية. ولسوف تستمر عملية الكوندور على مستويات متنوعة من الشدة لما يقرب من خمسة عشر عاما.

يمكننا اليوم رؤية الكثير من أوجه التشابه ما بين مقارنة «الريادة» لأنغولا و«الكناري في القفص» للإكوادور. استُخدِم البَلَدان كمقاربة للتحذير من إصرار السوڤييت على ابتلاع القارتين. يتمتع كلا البلدين بثروة نفطية وموارد أخرى على الرغم من معاناة شعبيهما الفقر لعقود طويلة جراء استغلال القوى الأجنبية. وعانى كلا البلدين على حد سواء جراء الكثير من الاستغلال على يد شركات النفط الأميركية، حيث كانت شركة تكساسكو في الإكوادور، وكابيندا غولف للنفط (وكلاهما شركة فرعية تابعة لشيفرون). ضمن تقاطع مثير للاهتمام في ستراتيجيات القتل الاقتصادي، حَمَتِ المليشيات الكوبية عمليات شركة كابيندا كي تتمكن حركة الشعب لتحرير أنغولا الحاكمة من تبرير دعم السوڤييت، في حين حَمَى دكتاتور الإكوادور اليميني شركة تكساسكو بغية تبرير الدعم الأميركي لعملية الكوندور.

تحت حكم حركة الشعب لتحرير أنغولا، توسعت الصناعات في أنغولا إبان ثمانينيات القرن الماضي. في هذه الأثناء، تنافس قتلة الاقتصاد الأميركيون والسوڤييت، وأبناء آوى، ومرتَزِقة الشركات بهدف الوصول إلى الموارد، في حين تفشى الفساد والرشوة. ومع تفكك الاتحاد السوڤييتي بداية تسعينيات القرن الماضي، تمكن قتلة الاقتصاد الأميركيون من إقناع حركة الشعب لتحرير أنغولا بالتخلي عن الماركسية وإعلان البلاد ديمقراطية اجتماعية، والدخول في صندوق النقد الدولي.

على الرغم من التقارب مع الولايات المتحدة وأوروبا إلى جانب الكثير من إعلانات وقف إطلاق النار، اندلعت الحرب الأهلية مجددا مطلع القرن الحادي والعشرين. تشير التقديرات إلى تسبب الحرب بمصرع 1.5 مليون إنسان إلى جانب تهجير أربعة ملايين، عدا عن فرار أكثر من نصف مليون من البلاد. تعرضت البنية التحتية والزراعة في أنغولا للدمار، في حين غرقت قطاعات التعليم والصحة وباقي الخدمات الاجتماعية الأخرى بحال من الفوضى. لقد مثلت كل هذه الحوادث والتداعيات فرصة ممتازة لقتلة الاقتصاد الأميركيين.

بحلول نهاية الحرب الأهلية عام 2002، عرض إجماع واشنطن بعض الصفقات على أنغولا، إلى جانب مطالب اقتصادية ليبرالية جديدة نجحت على نحو كبير منذ سبعينيات القرن الماضي. لكن السلالة الجديدة من الزعماء الأنغوليين أعاقت عمل قتلة الاقتصاد الأميركيين. من بين أولئك القادة الأنغوليين، كان جواوو لورينشو، ذلك الرجل الذي يمتلك الكثير من القواسم المشتركة مع الرئيس الإكوادوري كوريا. فكما هو الحال مع كوريا، شهد لورينشو تعرض والده للسجن على يد قوة استعمارية أجنبية (كانت البرتغال في حالته). وكما هو الحال مع كوريا، حصل لورينشو على شهادة الماجستير من الخارج (روسيا)، وفهم الاقتصادات العالمية، وعارض متطلبات الليبرالية الجديدة.

فشلت المحادثات مع صندوق النقد الدولي ـ كما حصل مع كوريا ـ حيث لم يكن لورينشو وحركة الشعب لتحرير أنغولا التابعة له راغبين في قبول إجراءات التقشف، وإعادة هيكلة الضرائب، والمطالب السياسية، وباقي الشروط الأخرى. وكما هو الحال مع الإكوادور، تحولت أنغولا إلى الصين. هب قتلة الاقتصاد الصينيين لاقتناص الفرصة كما حصل مع الإكوادور من قبل. رَتَّب الصينيون عام 2004 منح أنغولا قرضا مدعوما بالنفط بقيمة ملياري دولار وفاوضوا على صفقات لتطوير البنية التحتية. استمرت القروض واحدا تلو الآخر. لم يستغرق الوقت طويلا حتى باتت الصين أكبر مقرضي أنغولا.[189]

لكن كما هو الحال مع الإكوادور، كانت توجد المساوئ كذلك. تقول مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث في هذا السياق:

أشار العديد من المحللين إلى توسع خط الصين الائتماني لغرض تطوير البنية التحتية في إفريقيا بوصف «دبلوماسية فخ الديون». فبحسب بعض التقديرات، تدين أنغولا بما يزيد على عشرين مليار دولار لثلاثة كيانات صينية تتمثل في بنك التنمية الصيني، وبنك الصين للاستيراد والتصدير، فضلا عن البنك التجاري الصيني.

أدى الانحدار الحاد الذي نتج عن توقع نهاية عدم الاكتفاء عبر استغلال النفط والمعادن إلى سقوط البلاد بين أنياب قتلة الاقتصاد الصينيين، ومن دون تحقيق منفعة لأغلبية المواطنين في البلاد.

ولم ينتفع الأنغوليون من هذه القروض إلا أولئك القلة القليلة الذين تعاونوا في توقيع المزيد من القروض، ونشروا الخوف والانقسامات ما بين الجماعات العرقية والسياسية.

على نحو نموذجي، استوردت الشركات الصينية عمالتها من الصين وأصرت على معدات وقطع مصنعة في الصين. وكما هو الحال مع كل الأماكن الأخرى، صممت ونفذت المشاريع الصينية بطريقة سيئة. في هذا السياق، تضيف مقالة مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث قائلة:

بالنظر إلى الفساد المستشري في أنغولا والغموض المحيط بالمشاريع الصينية، لم يكن هنالك من إشراف فعلي أو سيطرة نوعية على مشاريع البنية التحتية. كانت نوعية البنية التحتية التي أنشأها الصينيون سيئة، في حين انهارت بعض الإنشاءات في بعض الأحيان. في واقع الحال، يمكن القول بشيوع الأمثلة السيئة على العمل في المشاريع الصينية ضمن معظم الدول الإفريقية كما هو الحال مع جنوب السودان.[190]

تقدم أنغولا والإكوادور أمثلة بليغة على تماسك ستراتيجيات القتل الاقتصادي حول العالم مع أوجه التشابه في الأساليب التي اعتمدها قتلة الاقتصاد الأميركيون والصينيون على حد سواء.

الكونغو: «أسوأ حروب العالم»

اتضح أن رؤية ماك هول حول أهمية منطقة الكونغو كانت بصيرة بالفعل. بحلول نهاية الألفية الثانية، باتت الموارد المعدنية لجمهورية الكونغو الديمقراطية، بما فيها الليثيوم والكوبالت، ضرورية للتكنولوجيا الحديثة. اعتمدت القوات العسكرية الأميركية، والحواسيب، والإنترنت، والسيارات، والصناعات الطبية، ومعظم الشركات في كل مكان، على تلك الموارد بشكل أو بآخر. وكانت إدارة شركة ماين محقة كذلك، فالعمل في المنطقة كان بالغ الخطورة وسيكون أكثر خطورة كذلك. تميز تاريخ جمهورية الكونغو الديمقراطية الحديث بالعنف الذي عادةً ما عصف بالدول الغنية بالموارد.

كان رئيس أركان جيش زائير من جملة الأسباب التي دفعت زائير (التي تغير اسمها إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية) للتحالف مع الولايات المتحدة ضد الحركة الشيوعية في أنغولا، حيث كان الجنرال موبوتو سيسي سيكو مدينا لواشنطن. بعد استقلال بلاده عن بلجيكا عام 1960، طلب موبوتو المساعدة من الولايات المتحدة وبلجيكا بغية الإطاحة برئيس الوزراء المنتخب

ديمقراطيا، باتريس لومومبا (الذي اشتبه بكونه شيوعيا). في هذا السياق، عمدت المكنة الدعائية لواشنطن إلى تصوير لومومبا كعميل سوڤييتي. بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية والقوات البلجيكية، أطاح موبوتو بلومومبا الذي عُرِّض للاغتيال، وأعلن نفسه رئيسا للدولة. بات موبوتو «رئيس أميركا في زائير»، في حين دعم السوفييت معارضته. في هذه الأثناء، تنافس قتلة اقتصاد موسكو وواشنطن وأبناء آوى التابعين لهم بغية السيطرة على تلك الدولة ومواردها الحيوية. انتهت البلاد، جراء سياسة فرق تسد والخوف والحرب المستمرة والجوع، إلى فوضى مطولة.

قال رئيس إحدى الشركات الأمنية الخاصة «إن جمهورية الكونغو الديمقراطية أكثر وحشية ألف مرة من الغرب المتوحش». شعر رئيس تلك الشركة بالسعادة لحديثه معي بعد قراءته كتاب «الاعترافات»، إلا أنه أراد إبقاء اسمه سرًّا. وأضاف الرجل: «بوسعي القول إن الحياة رخيصة جدا هناك، إلا أن الثروات تنتظر أصحاب الشجاعة هناك كذلك. ربما تنجح ستراتيجية مراكمة الديون وبناء المشاريع الخيالية في العديد من الأماكن، لكن القوة الوحشية تحكم في الكونغو».

حينما شرع موبوتو بحركته «المناوئة للرأسمالية» إبان سبعينيات القرن الماضي، امتدحه الرئيس الصيني ماو واصفا إياه بالزعيم المؤيد للتحالف الإفريقي ـ الصيني. قبل موبوتو المساعدات الصينية ورفض صندوق النقد الدولي. من جانبهم، استنكر السياسيون الأميركيون تحالف الأخير مع ماو، وإساءاته لحقوق الإنسان، وفساده المستشري. رفضت واشنطن دعم موبوتو أثناء الحرب الأهلية مع رواندا عام 1994، تلك الحرب التي وصلت إلى زائير فضلا عن أوغندا والسودان، وتسببت بمصرع ما يقدر بمليون إنسان. بحلول العام 1997، كان ماو ميتًا، فيما كانت زائير تمر بأزمات اقتصادية طاحنة عدا عن إطاحة لوران ديزاير كابيلا بموبوتو. عصفت الحرب الشاملة بتسع دول إفريقية. بوصفها «الحرب الأسوأ في العالم منذ الحرب العالمية الثانية»، استمرت تلك الحرب حتى العام 2003 وحصدت أرواح أكثر من خمسة ملايين إنسان. اغتيل كابيلا وحل ابنه جوزيف محله. انبثقت حركة مؤيدة للديمقراطية بإلهام من الربيع العربي، الأمر الذي قاد إلى انتخاب فيلكس تشيسكيدي عام 2018. وعد تشيسكيدي بإحلال السلام، تشريع قوانين لحماية البيئة، فضلا عن استخدام موارد جمهورية الكونغو الديمقراطية بهدف خدمة أبناء شعبها. وشرع بمفاوضات مع شركات التعدين الصينية بهدف تسوية الخلافات المتعلقة بعملها.

كان ذلك ملخصا لسلسلة حوادث في غاية التعقيد. إلا أن هذا الملخص لا يقدم وصفا دقيقا للاضطراب السياسي والاجتماعي الشديد، والعنف، والمعاناة الإنسانية، عدا عن الخراب البيئي الذي اكتسح المنطقة إبان وقت عملي كقاتل اقتصادي وحتى الوقت الحاضر، إلا أنه يقدم لمحة عن بلد ممزق بدعائم ستراتيجية القتل الاقتصادي الأربعة، سواء كان ذلك على يد الأميركيين، أو الروس، أو الصينيين. عاش شعب جمهورية الكونغو الديمقراطية وجيرانها في خوف دائم من الموت، والتعذيب، والاغتصاب، وكل صور الوحشية التي لا يمكن تخيلها. وأضافت الديون جراء الحماية، والغذاء، والولاء، عبئا إلى الأعباء النقدية. بدا الشُّح واضحا في وجوه وأجساد الرجال، والنساء، والأطفال الجائعين، وأكداس الجثث المتناثرة والقرى المقصوفة. لم تكن فلسفة فرق تسد مجرد مفتاح لتكتيكات الحرب الباردة لبلد ضد آخر، وإنما لأولئك الزعماء المحليين الذين حرضوا الهوتو والتوتسي وباقي الجماعات الأخرى واحدة ضد الأخرى.

استنتجت شركة ماين أن المخاطر في الكونغو كانت أكبر مما يمكن قبوله. لكن الأمر ذاته لا ينطبق على شركات النفط والتعدين. ازدهرت شركات الاستخراج في ظل ظروف محفوفة بالمخاطر واحتمال توظيف «قتلة اقتصاد خاصّين» مع دعائم عملهم الأربعة. تفتح الديون الباب أمام استغلال النفط المضمون، إلى جانب المعادن المضمونة الأخرى كالنحاس والليثيوم وغيرها. مكّن الخوف، وعدم الاستقرار السياسي، والعنف المستشري، والفقر، الشركات من توظيف عمالة رخيصة، ومليشيات مسلحة بغية ترويع الخصوم، فضلا عن مرتزقة «الشركات الخاصة» بغية «حماية منشآتها» (الأمر الذي عادة ما يعني ترويع المجتمعات المحلية كي تتخلى عن حقوقها في الأرض). وأهملت القوانين الاجتماعية والبيئية، فيما باتت الرشوة قاعدة عامة ومقبولة.

ربما ينتقد الأميركيون الدول منخفضة الدخل جراء فسادها، إلا أنهم يتناسون وجود من يقوم بذلك هنالك، ألا وهم قتلة الاقتصاد. تمثل قصة جمهورية الكونغو الديمقراطية الحديثة مثالا على تفوق قتلة الاقتصاد الصينيين على نظرائهم الأميركيين، ذلك التفوق الذي لا يبدو أكثر جلاءً ووضوحا مما في قطاع التعدين.

عام 2016، باع تكتل التعدين الأميركي فريبورت ـ مكموران منجم كوبالت ضخم في جمهورية الكونغو الديمقراطية لصالح شركة موليبدينوم الصينية. في هذا السياق، أوردت جريدة نيويورك تايمز عن الموضوع تقول:

قرع السيد بيريلو الذي كان أحد كبار الدبلوماسيين الأميركيين في إفريقيا آنذاك نواقيس الخطر في وزارة الخارجية الأميركية. توسل السيد كابانغا الذي شغل منصب مدير عام المنجم في حينها بالسفير الأميركي في الكونغو للتوسط. يستذكر السيد كابانغا تحذيره للسفير قائلا «هذا خطأ»، مشيرا إلى تبديد الأميركيين، بهذه الخطوة، جيلا من العلاقة التي بنيت في الكونغو، في إشارة منه إلى مصدر ثلثي إنتاج العالم من الكوبالت.

استمرّ عام 2020 تكتل فريبورت ـ مكموران بما شرع به ابتداءً، وقام ببيع مشروع كوبالت أكبر إلى شركة موليبدينوم الصينية هذه المرة. في هذا السياق، استمرت جريدة نيويورك تايمز تقول:

يبدو سعي الصين للسيطرة على ثروة الكوبالت الكونغولية جزءًا من دليل لعب منضبط ومنظم منحها انطلاقة تفوق هائلة على الولايات المتحدة.

لقد تخلت الولايات المتحدة عمليا عن موارد طبيعية لصالح الصين، وفشلت في حماية عقود من الاستثمارات الدبلوماسية والمالية في الكونغو. ويسلط بيع منجمين متخمين بالنحاس الضوء على تحول جغرافي وسياسي لثورة الطاقة النظيفة، مع دول غنية بالكوبالت، والليثيوم، وباقي المواد المطلوبة لصناعة البطاريات التي باتت اليوم تأخذ دور شركات النفط العالمية.[191]

في سياق متصل، وُجِّهت للشركات الصينية تُهَمٌ بارتكاب إساءات خطيرة لحقوق الإنسان والحقوق المدنية في جمهورية الكونغو الديمقراطية. وقد وثقت منظمة العفو الدولية الكثير من «ظروف العمل الخطرة والاستغلالية للعاملين»، والتي تعد «غير مشروعة على وفق القوانين الدولية». ويضيف التقرير ذلك: «تمضي الشركات الصينية على طريق إلى التحول لتكون اللاعب الأجنبي الأكثر نفوذا وقوة في ميدان الاستخراج ضمن جمهورية الكونغو الديمقراطية، هذا البلد الذي يتوفر على أهم احتياطيات المعادن في العالم».[192]

وكما أشارت جريدة نيويورك تايمز، أنتجت جمهورية الكونغو الديمقراطية ما يقدر بثلثي إنتاج العالم من الكوبالت عام 2020. ضمن مناطق البلاد التي يعصف بها العنف، والجريمة، والحرب، تجري أعمال التعدين على يد عمال المناجم من الحرفيين صغار السن، صغار من فئة الأطفال عادةً. وقد خلص تحليل أعده موقع ماينينغ تكنولوجي عن هذا الموضوع يقول:

عوضا عن منفعة المجتمع الأنغولي، أدت احتياطيات الكوبالت إلى صراع اجتماعي عنيف وفساد كبير. يتم ذلك على يد عمال المناجم من الحرفيين صغار السن من دون أي إشراف حكومي أو مراعات لمعايير السلامة أو الصحة باستخدام أساليب خطيرة. ومن الجدير بالذكر وجود ما يقدر بـ150000 ـ 200000 من عمال المناجم من الحرفيين صغار السن العاملين في مناجم الكوبالت في الكونغو، مع أكثر من مليون آخرين يعتمدون اقتصاديا على نحو مباشر على نشاطات عمال المناجم.[193]

بحلول العام 2020، باتت معظم مناجم إنتاج الكوبالت الكبيرة في جمهورية الكونغو الديمقراطية مملوكة أو ممولة من جانب الصينيين. قدمت المؤسسات المدعومة من بكين ـ أو تعهدت ـ بتقديم التمويل من جانب الشركات الصينية. بداية العام 2021، التقى الرئيس تشيسكيدي مع عضو مجلس الدولة الصيني ووزير الخارجية، وانغ وي، وأعلن صيف العام 2022 اقتراب مفاوضات التعدين من اكتمالها. لكن على ما يبدو لم تُبذَل أي جهود أو مساعٍ حقيقية بهدف تحسين ظروف العمل أو التصدي لقضية عمالة الأطفال أو باقي قضايا حقوق الإنسان الأخرى.

قدمت جمهورية الكونغو الديمقراطية فرصة مثالية للحكومة الأميركية ومعها وسائل الإعلام للوقوف بشدة على أداء الصين وتصوير أميركا كبطل لحقوق الإنسان. لكن الولايات المتحدة فشلت من جديد وأدارت ظهرها لجمهورية الكونغو الديمقراطية.

لم يكن ما حصل في جمهورية الكونغو الديمقراطية وأنغولا إلا رمزا لكل القارة السمراء. ففي الوقت الذي غرقت فيه الولايات المتحدة في مستنقع الشرق الأوسط، خطب قتلة الاقتصاد الصينيون ود الكثير من دول إفريقيا الغنية بالموارد المعدنية، وفاوضوا على العقود، ومولوا بناء الموانئ، والطرق، وخطوط السكك الحديد، والملاعب الرياضية، عدا عن مراكز التسوق.

الشركات الصينية تأخذ زمام المبادرة

بعد النمو السريع الذي تحقق بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تراجعت وتيرة اقراض بكين للدول الافريقية عام 2018. في الوقت ذاته، عزز قتلة الاقتصاد استثمارات الشركات الصينية، لا سيما ما يخص الموارد المعدنية الحيوية والأزمة لإنهاء معضلة الاحتباس الحراري العالمي كما في: الكوبالت، والكولتان، والنحاس، والليثيوم، واليورانيوم، والبوكسايت، فضلا عن

المواد الأخرى المطلوبة في تصنيع البطاريات والتكنولوجيا الفائقة للمنتجات التي تحد من التلوث. كان ذلك جزءا من التزام الصين تحويل اقتصادها المركزي إلى اقتصاد سوق، إلى جانب ستراتيجيتها لتوسيع وجودها في القطاع الخاص بالعالم. على وفق هذا الكلام، ارتفعت استثمارات الصين بفعل الموجة الثالثة من قتلة الاقتصاد الصينيين من 100 مليون دولار عام 2003 إلى أكثر من أربعة مليارات دولار بحلول العام 2020، الأمر الذي ترك أميركا خلفها بكثير.[194]

وركز فرع آخر من قتلة الاقتصاد الصينيين على التجارة ونجح في ذلك. بحلول العام 2017، ارتفعت تجارة إفريقيا مع الصين إلى ما يقرب من أربعة أضعاف تجارة أميركا مع إفريقيا بالمقابل، لتصل إلى 148 مليار دولار مع الصين في مقابل 39 مليار دولار مع الولايات المتحدة. فضلا عن ذلك، وحدت اتفاقية «التجارة الحرة القارية» الإفريقية التاريخية دول الاتحاد الإفريقي الخمس والخمسين مع الصين لتشكل أكبر تكتل تجاري في العالم، تكتل يضم وفرة كبيرة من المعادن الضرورية لتحقيق اقتصاد الحياة.[195]

انضم قتلة الاقتصاد الصينيون إلى المفاوضين الحكوميين أثناء الاجتماعات مع الزعماء الأفارقة في داكار بالسنغال نهاية العام 2021 لحضور قمة منتدى التعاون الصيني الإفريقي. وضمن استعراض للموقف الموحد، حضر تلك القمة زعماء أفارقة تجاوز عددهم عدد الزعماء الحاضرين في قمة الجمعية العامة للأمم المتحدة. في هذا السياق، كتب معلق في مجلة السياسية الخارجية قائلا:

لفترة طويلة من الزمن، كانت الرسالة الأميركية الموجهة إلى الدول الإفريقية تتمحور حول «أننا لسنا أوروبا»، لكن منذ بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين على أقل تقدير، تمحورت رسالة الصين للدول الإفريقية حول «أننا لسنا الولايات المتحدة». في واقع الحال، نفذت الصين عملية مهمة في إفريقيا عبر التحدث بصوت عالٍ مع حمل عصًا صغيرة. تركز حملات الدبلوماسية الصينية العامة على بناء العلاقات مع النظراء الأفارقة إلى جانب تغطية إعلامية موسعة لكل صور التعاون، مع الحفاظ ـ في الوقت ذاته ـ على الحد الأدنى من العقوبات والالتزامات الأمنية.[196]

كان ماك هول محقا حينما وصف إفريقيا بكونها صندوق كنز المستقبل، إلا أن ما لم يتوقعه هول أو أي منا انتهاء الحال بالصين ممسكة مفاتيح ذلك الصندوق. ولم يحصل ذلك لمجرد تحرك الصين تجاه ما فهمه رئيس مجلس إدارة ماين حول قيمة موارد القارة وحسب، وإنما حصل كذلك لأن الأفعال الإرهابية الأميركية المناهضة للشيوعية والإسلام تسببت بخلق حالة من عدم الثقة، ولأن المؤسسات المالية الأميركية لم تستثمر في إفريقيا إلا في حال ضمان معدلات العائد العالية وحسب، وبسبب ستراتيجية أميركا ما بعد حوادث الحادي عشر من أيلول التي أهملت إفريقيا إلى حد كبير وركزت على الشرق الأوسط، وبسبب منح الصين فرصة التوحد (عوضا عن سياسة فرق تسد) والقروض التي لم تتضمن شروطا سياسية.

في واقع الحال، يمكن تلخيص الفرق ما بين ستراتيجيات الولايات المتحدة والصين عبر تقرير مجلة السياسة الخارجية الصادر في كانون الأول من العام 2021 حول منتدى التعاون الصيني الإفريقي للعام 2021 بما يلي:

تعهد الرئيس تشي بتشجيع الشركات الصينية على الاستثمار بما لا يقل عن عشرة مليارات دولار في إفريقيا خلال السنوات الثلاثة القادمة مع تأييد الصفقات الأكثر مراعاة للبيئة.

لطالما تأثرت علاقات الولايات المتحدة بالاعتبارات الأمنية بالدرجة الأساس عوضا عن الاعتبارات الاقتصادية. ربما يسع الولايات المتحدة تقديم المعدات والتجهيزات العسكرية والقوات على الأرض، لكن ضمن مفردات الحياة اليومية للأفارقة، تبدو الهواتف المحمولة المستخدمة، وأجهزة التلفاز التي تعرض كل شيء، والطرق التي تسير عليها السيارات كلها من بناء وإنتاج الصين.[197]

يبرز الاستنتاج الأهم في إفريقيا كما في أي مكان آخر في العالم أن ستراتيجية القتل الاقتصادي ضارة أينما تكون سواء طبقتها الولايات المتحدة أو الصين. وبحكم اكتساب الأخيرة موطئ قدم متوسعًا، عانى العمال، والبرامج الاجتماعية، والبيئة الكثير، في حين تزايدت الديون ومشاريع البنية التحتية المشيدة على نحو رديء، وتوسعت ممارسات الفساد، إلى جانب تبديد أكبر وأكثر للموارد.

لكنني أجد نفسي مضطرا إلى الإقرار بأن هذا النوع الجديد من الاستعمار جاء نتيجة ستراتيجية قتل اقتصادي وصلت إلى مستويات مرتفعة أمام ناظري. أتذكر أحيانا تلك الساعات التي قضيتها في كتابة التقارير لماك هول وداوبر بهدف اقناع البنك الدولي كي يدفع لشركة ماين مقابل تنفيذ مشاريع تنموية في إفريقيا. كان ذلك في وقت سبق توجهي فيه لتنفيذ أولى مهماتي. إني أتساءل: هل عرفت إلى أين يتجه كل هذا، سواء استمر عملي أو توقف بالرحيل عن شركة ماين وعالم قتلة الاقتصاد يا ترى؟

44

الشرق الأوسط

في أثناء سنوات عملي كقاتل اقتصادي، لم يكن بوسع أحد تخيل الشرق الأوسط كآخر مسمار تدقه موجة قتلة الاقتصاد الصينية الثالثة في نعش الإمبراطورية الأميركية.

كنا نعلم منذ قرون طويلة، ومنذ زمن طريق الحرير الأصلي أهمية المنطقة التي تمثل رابطا حيويا يربط إفريقيا وآسيا وأوروبا. بعد الحرب العالمية الثانية، وبالنظر إلى أهمية التجارة الدولية ودور النفط في العالم الحديث، بات الشرق الأوسط أكثر أهمية للتفوق العالمي. كنا نحن، قتلة الاقتصاد الأميركيين، واثقين بكون الشرق الأوسط منطقة نفوذ خاصة بنا، فقد كان شاه إيران صديقا وفيا لنا وبلاده منطقة عازلة بين الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط. وعقدنا صفقات مهمة مع العربية السعودية والكويت الغنيّتين بالنفط. عدا عن ذلك، حققت إسرائيل، وهي حليف أميركا، انتصارات كبرى ضد الدول التي هددت تفوق الولايات المتحدة ضمن فترة نهاية ستينيات وبداية سبعينيات القرن الماضي.

بالنسبة إلينا نحن الذين عشنا تلك الأيام، تمثل الخطر المحدق بهيمنة أميركا العالمية في الشيوعية والاتحاد السوفييتي، وكلاهما واجه معارضة الغالبية في الشرق الأوسط. لم يكن الملوك والدكتاتوريون الشرق الأوسطيون بصدد قبول الماركسية، وكان المسلمون ضد الإلحاد. شجع الغزو السوفييتي لأفغانستان زعماء الشرق الأوسط على الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة حينما هُزم الجيش السوفييتي على يد المجاهدين المدعومين أميركيًّا عام 1988، وكما لو أن وضع الولايات بات مؤمَّنا إلى الأبد.

جاءت الفتوحات السابقة في المنطقة من بلاد فارس، وتركيا، وأجزاء أخرى من المنطقة، عدا عن غزوات من آسيا، وأوروبا، وشمال إفريقيا. ارتكزت تلك الغزوات بالدرجة الأساس على اثنتين من دعائم القتل الاقتصادي، ممثلة في: الخوف من الغزو العسكري (أو أمره الواقع)، ومن ثم فلسفة فرق تسد. لكن هذا الكلام تغير أثناء الحرب العالمية الأولى حينما اعتمد البريطانيون على

رجال أذنوا بظهور قتلة اقتصاد اليوم من أمثال تي. إي. لورنس المعروف بلورنس العرب. تمثل عمل لورنس في مواجهة فلسفة فرق تسد التي اعتمدها العثمانيون عبر توحيد الفصائل المنشقة ما بين العرب.

لم يعمر ذلك التغيير طويلا. فبعد الحرب العالمية الأولى، عادت بريطانيا إلى التكتيكات القديمة من جديد. وبمساعدة فرنسا وباقي أعضاء عصبة الأمم، أمكن لخلفاء لورنس إعادة إنتاج فلسفة «فرق تسد» على نحو غيّر من الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط إلى الأبد. وحينما أُسست الجمهورية التركية عام 1923، قُسّمت الامبراطورية العثمانية السابقة إلى جملة من الدول دون أي اعتبار للثقافة، أو العرق، أو المعتقد الديني، أو التاريخ. لقد تم ذلك عن قصد بهدف خلق الصراع، والاضطراب، والفساد، وبالتالي فسح المجال أمام سيطرة البريطانيين والفرنسيين على المنطقة.[198]

تسبب صعود النازية الألمانية والفاشية واليابان الإمبريالية بتوترات جديدة لمنطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط. وبعد هزيمة قوى المحور في الحرب العالمية الثانية، هددت حاجة الاتحاد السوفييتي إلى النفط، مع سيطرة الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي على ممرات الشحن الحيوية كما في قناتي السويس وبنما وأنظمة النقل البري في إيران والهند ـ هددت كلها بتفجير حرب جديدة. ضمن الخوف من هولوكوست نووي مروع انطلاق ستراتيجية قتل اقتصادي جديدة.

«المستقبل يتطلع نحو الشرق»

حينما هدد رئيس وزراء إيران محمد مصدق بتأميم شركات النفط الأجنبية، دعا الرئيس الأميركي آيزنهاور إلى اتباع نهج تعود أصوله إلى لورنس العرب. فكما ورد في الفصل السادس، بعثت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية كيرميت روزفلت بهدف الإطاحة بمصدق واستبداله بالشاه الموالي لأميركا. تحول التركيز من الاستخدام العسكري للقوة إلى تكتيكات القتل الاقتصادي الأقل خطورة وكلفة، والتي تركز على الديون والخوف من عدم الكفاية.

نبهني أولوج أوزولكيش، وهو الممثل التركي السابق للاتحاد الأوربي ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، إلى أهمية ذلك التغيير. التقيت أوزولكيش عام 2013 ضمن واحدة من زياراتي إلى إسطنبول. طلبنا قهوة تركية ضمن مطعم صغير مطل على مشهد مذهل لمضيق البوسفور، ذلك الممر المائي الرابط بين البحرين المتوسط والأسود، والفاصل بين آسيا وأوروبا.

قال أوزولكيش «إنه الخوف والدين»، ثم ارتشف رشفة من قدح قهوته الثقيلة السوداء. وأضاف: «يمثلان أقوى أدوات الامبراطورية». ثم أنزل قدحه على الطاولة وقال: «يظن الجميع أن القوة العسكرية تحرك الامبراطوريات، غير أن الحرب ـ والتهديد بها ـ مهمة لأنها تزرع الخوف. يشعر الناس بالخوف من أنهم لن يجدوا ما يكفي للأكل أو رعاية عائلاتهم. لذلك، يدفعهم الخوف نحو الديون أكثر». ضحك الرجل ثم أضاف: «يدور الأمر حول شراء المزيد من الأشياء. فسواء كنا مدينين بالمال أو الخدمات، تظل الديون تقيدنا. وهذا الذي يفسر كفاية منهج القتل الاقتصادي الفائقة، وربما لمستوى يفوق الحرب».

أوردت دور تأليب الشعوب ضد جيرانهم.

قال: «نعم، إنها ستراتيجية أخرى بالغة الأهمية تأخذ شكل فلسفة: فرق تسد». وتحدث الرجل عن الحرب العراقية ـ الإيرانية، والانقسام ما بين الشيعة والسنة، وكيف تخلق الحروب الأهلية والفصائل القبلية فراغات السلطة التي تفتح الباب أمام الاستغلال. وأضاف: «يقترض كلا الطرفين المتحاربين، ويشتريان أسلحة أكثر، ويدمران الموارد والبنية التحتية، ومن ثم يقبلان ديونا جديدة بهدف تمويل إعادة الإعمار. إننا نرى هذا عبر أرجاء الشرق الأوسط، في سوريا، والعراق، ومصر، وأفغانستان». توقف الرجل عن الحديث وعبست ملامح وجه، وأضاف: «لسوء الحظ، اقترفت الولايات المتحدة خطأ قاتلا حينما غزت العراق وأفغانستان». وتساءل عن السبب من وراء عدم تعلمنا من دروس فشلنا في فيتنام وفشل الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. ثم عاد الرجل ليبتسم من جديد وأضاف: «كان من الأجدى بك الاستمرار بمنهج القتل الاقتصادي».

سألته: «كيف تتناسب الصين وكل هذا؟».

قال: «آه، الصين»، وأشار إلى سفينة محملة بشحنات صينية وحاويات شركة كوسكو (شركة الصين للشحن البحري). «هذا يفسر كل شيء». مضى الرجل في إيجاز الأهمية التاريخية للشرق الأوسط، وقال: «اندلعت الحروب هنا بهدف السيطرة على هذا الجزء من العالم، في إسطنبول على ما يبدو ظاهريا، والتي كان الكثير منها حول الدين. إلا أن المحرك الأساسي لتلك الحروب كان اقتصاديًّا وتجاريًّا». ألقى الرجل نظرة خاطفة على السفينة ثم قال: «كانت الصين قوة

اقتصادية عالمية آنذاك». التقت عينا الرجل بعيني وقال: «إنها الصين من جديد، كما يتطلع المستقبل للشرق».

ذكرني كلام الرجل بالاجتماعات التي حضرتها في إيران عام 1977 حينما عمد رئيس وزراء إيران، أمير عباس هويدا، إلى تعزيز علاقات بلاده المتنامية مع الصين بغية زيادة دعمها لرئيسه الشاه. كان حضور رئيس الوزراء الإيراني قياديا حينما دخل الغرفة آنذاك. وعلى الرغم من قصر قامته وبنيته التي تشبه بنية مقاتلي الحروب، فإنه كان بشوشا وعالميا وذكيا على نحو استثنائي. تلقى هويدا تعليمه في بروكسل ولندن وباريس، ودرس علوم الاقتصاد، وكان ميالا إلى الاقتباس من الآداب العظيمة، وتحدث الفرنسية، والإنكليزية، والإيطالية، والألمانية، إلى جانب لغته الفارسية الأم. كان الرجل دبلوماسيا مثاليا. ولطالما أشار الرجل إلى وفاة الرئيس الصيني ماو بأنها نذير متغيرات عالمية كبيرة قادمة. وتوقع عمل خليفة ماو على رفع الصين إلى مستويات عالية من النفوذ العالمي، ولعب إيران دورًا حيويًّا ومهمًّا. وأشار كذلك إلى دوران ألفية تاريخ الشرق الأوسط مع الصين حول طرق التجارة عبر طريق الحرير، وأن إيران كانت «الجسر الرابط».

شعرت بصدمة بالغة حينما وصلني نبأ إعدام هويدا في نيسان العام 1979 ما بعد الإطاحة بالشاه. اعتقل الرجل، وحوكم وأُعدم بإطلاق النار عليه بعد أشهر قليلة من خروجي من طهران رفقة فرهاد. أعادني كل هذا الكلام إلى حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التي تعتري حياتي. وشعرت بالمسؤولية، وكما لو أني فشلت في أداء عملي. كيف أمكن لي عدم توقع سقوط الشاه؟ لقد كان هويدا مجرد واحد من أناس كثر عملت معهم وشاركتهم القهوة ووجبات الطعام، أناس ممن لاقوا المصير نفسه. في واقع الحال، تطلب الأمر مني بعض الوقت لتقليل شعوري بالذنب عبر إدراك أننا جميعنا فشلنا. كيف لم يتوقع أي شخص في شركة ماين أو وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية حصول كل ذلك؟ لقد ألقى السقوط السريع والمذهل لحكومة تصورناها مؤمَّنة، ونظامًا صديقًا وحليفًا، بظلال قاتمة على ستراتيجية القتل الاقتصادي. فضلا عن ذلك، زاد كل هذا من شكوكي إزاء مهنتي. لطالما طاردتني كوابيس هويدا وهو مضرج بالدماء.

لكن إعدام هذا الدبلوماسي اللامع تحول إلى رمز للاضطراب الذي قُدِّر له العصفُ بإيران لاحقا.

إيران: بلد حاسم يتحول نحو الصين

بعد أقل من سبع شهور على مصرع هويدا، احتجز اثنان وخمسون مواطنا أميركيا رهائن على يد مليشيات طلبة إيرانيين مسلحين اقتحموا سفارة الولايات المتحدة في طهران. أشر ذلك اليوم المصادف للرابع من تشرين الثاني، 1979، لبداية الأعمال العدائية التي دقت إسفينا لا خلاص منه بين الولايات المتحدة وجمهورية إيران الإسلامية. وتزامن ذلك وبدء حدثين مهمين كان من شأنهما تغيير الشرق الأوسط على نحو جذري، حدثين تمثلا في: اندلاع الحرب العراقية ـ الإيرانية من جهة، وتطور سياسة دينغ شياو بينغ الخارجية.

لسنوات طويلة، استاء العراق من مكانة إيران كدولة مهيمنة في منطقة الخليج. الآن، ومخافة سعي الإيرانيين لنشر ثورتهم عبر العراق وإنهاء حكمه، قرر صدام شن غزو شامل ضد إيران.

كان ذلك موقفا مثاليا لتطبيق سيناريو «فرق تسد» من جانب الصين. في هذا السياق، صاغ دينغ ببراعة لافتة ستراتيجية لبيع السلاح مع الإبقاء على علاقات دبلوماسية مع كلا البلدين المتحاربين. بعد زيارة إلى الصين قام بها رئيس البرلمان الإيراني (الذي أصبح بعد وقت قصير رئيسا لإيران) هاشمي رفسنجاني، رأت الصين وسيلة لتنصيب نفسها كوسيط سلام. استضافت إدارة دينغ وفودا رفيعة المستوى من كلا الطرفين. قادت اللقاءات إلى اتفاق سلاح العام 1988 وزادت من مصداقية بكين عبر الشرق الأوسط. استخدم دينغ دعامة «فرق تسد» لصالحه عبر قلب الأمور راسا على عقب.

استمرت الصين بتطوير علاقاتها مع كلا البلدين إبان تسعينيات القرن الماضي وبداية الألفية الجديدة. وعارضت الصين صراحة وعلنا غزو أميركا للعراق عام 2003 ودعمت بغداد ماليا. عمل قتلة الاقتصاد الصينيين بكل جد في إيران. وعلى الرغم من العقوبات الأميركية، اشترت الصين نفطًا من إيران. بحلول العام 2010، استوردت الصين ما يعادل 10% من استهلاكها النفطي من إيران. بعد تولي تشي سدة الحكم في بكين، اقترح الرئيس الصيني الجديد تطوير خطة تنموية شاملة لإيران، حيث بقيت الخطة سرًّا حتى حصلت جريدة نيويورك تايمز على نسخة منها عام 2020. في هذا السياق، ذكرت جريدة نيويورك تايمز ما مفاده:

تنص الخطة على توسع كبير في الوجود الصيني ضمن الأنشطة المصرفية، والاتصالات، والموانئ، وسكك الحديد، إلى جانب العشرات من المشاريع الإيرانية الأخرى. في مقابل ذلك، تتلقى الصين شحنات منتظمة ـ بأسعار مخفضة بشدة حسب ما أكد مسؤول وتاجر نفط إيرانيين ـ من النفط الإيراني لفترة الخمس والعشرين العام التالية.

وتصف الوثيقة التعاون العسكري العميق والمتوسع، الأمر الذي يمنح الصين موطئ قدم محتمل في المنطقة التي لطالما كانت الشغل الشاغل للولايات المتحدة منذ عقود.[199]

على الرغم من تبَنِّي طهران فكرة طريق الحرير الجديد، حفز قرار الرئيس ترامب الانسحاب من المفاوضات النووية عام 2016، وتطبيقه عقوبات أكثر قسوة ضد إيران ـ حفز تنشيط العلاقات الإيرانية ـ الصينية. في هذه الأثناء، استمرت الشركات الصينية بتجاهل أمر العقوبات، في حين استمرت التجارة بين البلدين بالازدهار.

كانت الصفقة التي فاوضت عليها بكين بهدف السيطرة على مضيق هرمز أكثر ما أثار قلق البنتاغون وشارع وول ستريت. يعد هذا الممر الضيق أحد أهم الممرات المائية الدولية في العالم، والذي تمر من خلاله شحنات النفط والغاز المسال المنطلقة من موانئ البحرين، والعراق، والكويت، وعمان، وقطر، والعربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة وإيران.

راقبت الوضع وهو يتكشف عبر أرجاء المنطقة المهمة لستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية أيام عملي كقاتل اقتصادي.

اجتمع بداية سبعينيات القرن الماضي البنتاغون، ووزارة الخارجية الأميركية، وحكومة الشاه بهدف تطوير قاعدة عسكرية ضخمة في المياه العميقة لميناء بندر عباس على مضيق هرمز. في سبيل تحقيق ذلك، قمنا نحن قتلة الاقتصاد ومعنا المكنة الدعائية لواشنطن باستحضار دعامة الخوف من إمكانية شروع الاتحاد السوفييتي بغزو الشرق الأوسط. وُظِّفَت شركة ماين بهدف تطوير خطة من شأنها تحويل قرية صيد صغيرة إلى مجمع مهم ستراتيجيًّا ومتطورٍ للغاية تديره الولايات المتحدة، بهدف مراقبة وإدارة حركة الشحن البحري التي تؤثر في كل الاقتصاد العالمي. أُوفِدت إلى بندر عباس بهدف إعداد تقارير من شأنها إقناع حكومة إيران ومجلس الشيوخ الأميركي بالاستثمار بكثافة في تلك القاعدة العسكرية.

حصلت الخطة على الموافقة المطلوبة. انطلقت أعمال التشييد بأقصى سرعتها، لكن سرعان ما تغيرت الأمور. في غضون خمس سنوات، أطيح بالشاه، وحولت جمهورية إيران الإسلامية تلك المنشآت التي بنيناها ضدنا.

الحرب على الإرهاب

إلى جانب إيران، أخذت ستراتيجية أميركا تفشل في معظم أرجاء الشرق الأوسط. على الرغم من تبرير الأميركيين تدخلهم العسكري كجزء من «الحرب على الإرهاب»، يرى الكثيرون من الشرق الأوسط في هذا تهديدا مباشرا لحياتهم وعملا عدائيا ضد دول ذات سيادة. في هذا السياق، أوردت جريدة نيويورك تايمز تقول:

لطالما مثلت الضربات الجوية ـ التي تنفذها الطائرات المسيرة أو تلك التي يقودها طيار ـ تكتيكا عسكريا مركزيا استخدمته الولايات المتحدة في صراعات العراق، وأفغانستان، وسوريا، وغيرها من الصراعات الحديثة الأخرى. كما يهلل المسؤولون الأميركيون لميزات ومنافع الهجمات من هذا النوع.

لكن من الواضح أن المسؤولين الأميركيين بالغوا في وصف تلك الميزات والمنافع المتأتية عن الضربات الجوية وقللوا من جوانبها السلبية إلى حد كبير، ابتداءً من ترويع وسقوط المدنيين في تلك الضربات.

وقد خلصت جريدة نيويورك تايمز إلى «أن نهج الولايات المتحدة إزاء الضربات الجوية مَعِيب للغاية وربما يقوض الأمن القومي الأميركي ـ على حساب تكلفة مميتة للآخرين ـ عوضا عن حمايته».[200]

أجرى المركز العربي في واشنطن العاصمة استطلاعا للرأي العام بالتعاون مع المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية في قطر. تضمن الاستطلاع عينة عشوائية من الناس في مصر، والأردن، والكويت، ولبنان، والمغرب، والأراضي الفلسطينية، والعربية السعودية، وتونس، وأجري في الفترة الممتدة من منتصف أيلول إلى منتصف كانون الأول من العام 2017. خلص الاستطلاع إلى أنه «بالتوافق مع نتائج استطلاعات الرأي العام الأخرى المشابهة، هناك انطباع

سلبي قوي تجاه السياسة الخارجية الأميركية. إجمالا، أعرب 61% ممن استطلعت آراؤهم عن موقف سلبي أو سلبي إلى حد ما تجاه السياسة الأميركية مع العالم العربي».[201]

في سياق مقابل، حرصت الصين على عدم إقحام نفسها في العمليات العسكرية، وعلى الرغم من دعم قتلتها الاقتصاديين للجيوش المحلية بالعادة. وطور الصينيون علاقات مع المقاتلين الشيعة المناهضين للولايات المتحدة في إيران، والعراق، ولبنان، وسوريا، وكما هو الحال مع حزب الله وعصائب أهل الحق. عدا عن ذلك، وسع قتلة الاقتصاد الصينيون من علاقاتهم مع الأنظمة السنية، وبحسب تقرير نشرته مجلة السياسة الخارجية قالت فيه:

من المثير للاهتمام أن هذا (الدعم للجماعات الشيعية) لم يستنفر ردود فعل مناوئة للصين في دول المنطقة السنية الكبرى. في سياق متصل، شرعت العربية السعودية ببرنامج لتدريس اللغة الصينية كلغة ثالثة في المدارس والجامعات. وتعاقدت كل من العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، والكويت مع شركة هواوي الصينية بغية إنشاء بنية اتصالات الجيل الخامس على أراضيها، في تحدٍّ واضح للضغوط الأميركية الرافضة لخطوة كهذه.

يمكن القول بأن الصين باتت الرابح الأكبر في شرق (ما بعد أميركا) الأوسط. فها هي الصين تمثل أكبر مشترٍ لنفط المنطقة. والآن (2021)، ومن دون ضجة، باتت الصين القوة الأجنبية الوحيدة التي تحظى بروابط سياسية وتجارية قوية مع كل دول المنطقة الكبرى.[202]

العراق: الصين تكسب الحرب

استخدم مصطلح «الصدمة والترويع» لوصف القصف الأميركي الذي استهدف بغداد عام 2003 وافتتح حرب الخليج الثانية. أريد لتلك الكلمات نقل تصميم أميركا على الثأر لهجمات الحادي عشر من أيلول وإقناع كل من يفكر بتهديد الولايات المتحدة بأن البنتاغون سيرد بقوة هائلة. بالعودة إلى الماضي، ربما تصف كلمات مصطلح «الصدمة والترويع» على نحو أفضل فشل تلك الحرب. في واقع الحال، أذنت تلك الحرب بنهاية الهيمنة الأميركية في الشرق الأوسط وغرب إفريقيا. وعلى الرغم من استثمارات أميركا الضخمة بالأموال والارواح التي أزهقت، لكن الصين برزت كرابح من الحرب بعد انسحاب قوات واشنطن عام 2021.

إثر معارضتها العلنية لغزو الولايات المتحدة عام 2003، ومع بدء الحرب، ساعد قتلة الاقتصاد الصينيون البلاد في تمويل دفاعاتها. ابتاع الصينيون النفط العراقي وفاوضوا على صفقات بيع معدات عسكرية مخالفة للعقوبات. وقَّعت عام 2008 شركة النفط الوطنية الصينية اتفاقا لإنتاج النفط مع العراق، والذي كان أول عقد وقعته بغداد مع شركة أجنبية منذ الحرب. بحلول العام 2013، اشترت الصين بحدود نصف إنتاج النفط العراقي إلى جانب بيع بغداد تجهيزات عسكرية.[203] ضمن تراجع عن دعامة الدين، أطفأت بكين 80% من ديونها المستحقة على العراق، والتي تبلغ 8.5 مليار دولار. في هذا السياق، قال متحدث رسمي من وزارة الخارجية الصينية قائلا: «توصلت الصين والعراق إلى اتفاق إلغاء مستدام لديون العراق المستحقة للشركات الصينية».[204] أدرك قتلة الاقتصاد الصينيون أهمية إطفاء الديون مقارنة بالإبقاء عليها، وأن بوسع الصين استخدام رأسمالها بغية توظيف شركاتها لبناء اقتصاد العراق. ولا شك في إدامة هذا الكلام حقوق استغلال موارد العراق.

لم تتوقف التكتيكات عند هذا الحد. ركزت الشركات الصينية على قطاعات التعليم، والرعاية الصحية، وباقي الخدمات الاجتماعية الأخرى،[205] فضلا عن أنظمة الاتصالات والنقل لصالح طريق الحرير الجديد. ساعدت ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية العراق على بناء البلاد ودخول سوق التجارة العالمية.

في الوقت الذي كونت الصين فيه الصداقات، كانت أميركا ماضية في خسارتها. عام 2022، وفي أثناء الذكرى الثانية لاغتيال قاسم سليماني الذي كان جنرالا إيرانيا كبيرا ومعه قائد ميليشيا عراقي آخر على يد الأميركيين، احتج الآلاف من العراقيين ضد الولايات المتحدة. من جانبها، تبجحت واشنطن بأن قتل الاثنين كان نصرا ضد الإرهاب، لكن العراقيين استنكروا الفعل الأميركي بصفته جريمة بحق دولة ذات سيادة. لقد رأى شرق أوسطيون آخرون كثيرون في هذا سببا آخر لعدم الوثوق بأميركا، وبالتالي للتحول نحو الصين.[206]

نمت الموجة الثالثة من قتلة الاقتصاد الصينيين على نحو متزايد عبر تكييف دعائم القتل الاقتصادي الأربع في عالم متغير. بات العراق نموذجا. عبر أرجاء الشرق الأوسط، رسخ قتلة الاقتصاد الصينيون المخاوف من الإمبريالية الأميركية. واستخدم هؤلاء المخاوف من الشح بهدف التفاوض على صفقات النفط التي مولت تنمية البنية التحتية من خلال الديون المضمونة التي عادة ما

أُطفِئَت. ضمن تطبيقاتهم لفلسفة فرق تسد، استخدم قتلة الاقتصاد الصينيون حرب العراق لدق إسفين ما بين الدول العربية والولايات المتحدة، مع تشجيع دول الشرق الأوسط على التوحد على طول طريق الحرير الجديد. في واقع الحال، ربما كان إعطاء البلد المدين ما يطلبه عوضا عما يقول البلد الدائن عن احتياج المدين إليه بمثابة التكتيك الأهم من بين تكتيكات أولئك القتلة الصينيين حسبما وصف البروفسور وين. وبحسب رأي أحد محللي الشرق الأوسط في مجلة السياسة الخارجية أنه قال:

منتصف شهر كانون الثاني (2022)، أطلقت بكين العنان لقوتها الناعمة حينما أعلنت عن إنشاء الآلاف من المدارس، ومراكز الرعاية الصحية، والمنازل المدمرة في العراق الذي سحقته الصراعات المتعاقبة. بحسب مسؤولين عراقيين، يحتاج العراق إلى ما مجموعه 8000 مدرسة «بغية ردم الفجوة في قطاع التعليم». قررت الصين بناء معظم المدارس في العراق ـ 7000 مدرسة ـ بغية المساعدة في تعليم الملايين من الأطفال. وستبني الصين ما يقرب من 90000 منزل في مدينة الصدر، تلك المدينة التي تعد معقل أقوى زعماء العراق، ورجل الدين مقتدى الصدر، فضلا عن تطوير منظومة الصرف الصحي في بغداد، وبناء مطار الناصرية في العراق، إلى جانب بناء 1000 مركز رعاية صحية، والتي ستُدفَع جميعها بالنفط العراقي.[207]

آتت ستراتيجية القتل الاقتصادي ثمارها. انضمَّ عام 2019 العراق إلى مجموعة مكونة من سبعٍ وثلاثين دولة بعثت برسالة مشتركة إلى مفوضية حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة دفاعا عن معاملة الصين للإيغور وباقي الأقليات المسلمة هناك. وفي العام 2020، كان العراق واحدًا من ثلاث وخمسين دولة دعمت قانون الأمن الوطني في هونغ كونغ الذي منح بكين سيطرة غير مسبوقة على وسائل الإعلام فيها إلى جانب مراقبة المواطنين. وإلى جانب العراق، وقعت معظم الدول ذات الغالبية المسلمة في الشرق الأوسط تلك الاتفاقات. على الرغم من أن دعما كهذا قد يرضي بكين، فإنه يكشف عن مدى الزيف والنفاق من وراء المزاعم حول التدخل غير حكومي.

في ضوء ما سبق، يحق لأي مراقب موضوعي الشعور بالصدمة والرَّوع. لقد تسبب الغزو الأميركي بإزهاق عدد لا يصدق من الأرواح، مع معاناة، ودمار بيئي، عدا عن انهيار المؤسسات الحكومية والتعليمية. في هذه الأثناء، راكمت بعض الصناعات العسكرية الأميركية ثروات ضخمة إلى جانب فوز بعض السياسيين بالانتخابات مقابل دعم سياسات الصقور، لكن الكلفة التي تحملها

دافعو الضرائب الأميركيون إلى جانب مكانة أميركا كزعيمة للعالم لا يمكن حسابها أبدًا. لذلك، ربما يتوصل ذلك المراقب الموضوعي إلى حقيقة تمثل الفائز الفعلي بالطرف الذي حافظ على طاقته فيما استنزفها منافسه بالمقابل، ألا وهي الصين.

هدية الولايات المتحدة للصين

كان الفساد والضعف وقلة الفعالية، فضلا عن الانهيار الفعلي لستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وفشل الحركات الديمقراطية كما في الربيع العربي بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين ـ كان لها جميعها تأثير مدمر في السياسة الأميركية في مقابل تحولها إلى هبةٍ للصين. وبحسب تقرير لمعهد الشرق الأوسط صدر في العام 2020 أنه قال:

ما من شك في اتخاذ العلاقة ما بين الدول في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا من جهة والصين من جهة ثانية منعطفا هاما في القرن الحادي والعشرين. تطلب النمو الاقتصادي الصيني السريع اعتماد منهج صارم بغية السعي للحصول على الموارد الطبيعية التي تمس لها حاجة بكين. استبعدت منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى حد كبير من محور الصين تجاه آسيا وإفريقيا، ولم يتغير الحال حتى قيام الربيع العربي عام 2011 حيث تبنت الصين سياسة أكثر انخراطا تجاه البلدان المهمة في المنطقة.

من جانبها، أجمعت الكثير من دول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا على تبني سياسة فك الارتباط مع الولايات المتحدة في المنطقة، ورحبت بالصين ونماذجها «التمويلية» بأذرع مرحبة.[208]

عبر تراجع استثماراتها وتجارتها، خلّفت الولايات المتحدة فراغا يجب ملؤه. استجاب قتلة الاقتصاد الصينيون بإحساس فطن جدا إزاء التوقيت. لذلك، باتت الصين اليوم أكبر مستثمر في دول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مع استثمارات تقدر بأكثر من 177 مليار دولار في العام 2019.[209] (في ذلك الوقت، لم تتجاوز استثمارات الولايات المتحدة في المنطقة أكثر من 90 مليار دولار بالمقابل[210]). يبدو التفاوت صادما، لا سيما بالنظر إلى استثمارات الولايات المتحدة لما يقرب من ثمانية ترليونات دولار في عملياتها العسكرية، ذلك الرقم الهائل الذي كان بالإمكان ذهابه إلى إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، عدا عن برامج في الولايات المتحدة نفسها.

وتحولت الصين إلى الشريك التجاري الأكبر لدول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، تلك المكانة التي هيمنت عليها الولايات المتحدة خلال سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية. عام 2018، تجاوزت تجارة الصين مع دول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا مقارنة مع تجارة الولايات المتحدة مع المنطقة ذاتها بمقدار 133 مليار دولار بالمقابل. بحلول العام 2021، أعلنت سبع عشرة من أصل ثماني عشرة دولة من منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التزامها الدخول في طريق الحرير الجديد.[211]

وتحولت إسرائيل، حليف أميركا القديم، نحو الشرق هي الأخرى. في هذا السياق، ساهمت شركة الإنشاءات الهندسية المدنية الصينية في أعمال بناء إنفاق سكك الحديد الإسرائيلية الخفيفة في تل أبيب. وتدير شركات صينية ثلاثة من الموانئ الإسرائيلية حاليا. وفي العام 2020 حلت الصين محل الولايات المتحدة كأكبر مورد للسلع في إسرائيل.

لكن الأنشطة الصينية لم تكن دون مشكلات. في هذا السياق، حلل تقرير صادر عن مجلس العلاقات الخارجية أنشطة استثمارات الصين في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وخلص إلى:

فيما يخص بعض الدول التي تتلقى ديونا كبيرة بغية تمويل تحديث بنيتها التحتية، يُنظر إلى أموال مبادرة الحزام والطريق (طريق الحرير الجديد) كما لو كانت كأسا مملوءة بالسم. تتضمن بعض استثمارات مبادرة الحزام والطريق عطاءات مبهمة تتطلب توظيف الشركات الصينية. نتيجة لذلك، ضخّم المقاولون من تكاليفهم، الأمر الذي تسبب بإلغاء بعض المشاريع فضلا عن ردود فعل سياسية.[212]

من المهم الإشارة مرة أخرى إلى أن تأليف كتاب بحجم معقول عن المنافسة ما بين قوتين كبريين دفعني إلى اختصار أكثر النقاط أهمية. لقد ركزت على عدد محدود من الدول التي تبدو نموذجية أو مفيدة بوجه خاص. أثناء الحديث إلى أناس مطلعين على ستراتيجيات القتل الاقتصادي الأميركية والصينية، فاجأني ما تعلمته إلى حد كبير. لم يَدُر في خَلَدي يوما تحول ستراتيجيتنا للقتل الاقتصادي إلى هبة للصين. ولا شك أن هذا الكلام يبدو صادما في الشرق الأوسط على نحو خاص، تلك المنطقة التي نالت الكثير من تركيز جهودنا وأموالنا. ولم يكن بوسعي تخيل ستراتيجيات القتل

الاقتصادي وهي تتسبب بالاحتباس الحراري وباقي الأزمات التي تهدد حياتنا، والتي تمثل كلها أعراضا لاقتصاد الموت.

لطالما كان الشعور بالذنب حاضرا أبدا. على الرغم من أنني قضيت عقودا من حياتي منذ تركي العمل في صفوف قتلة الاقتصاد محاولا استعادة وتحرير نفسي جراء الدور الذي لعبته في الشرق الأوسط، فإنني أجد نفسي مطاردا بمعرفة إسهامي في الاضطرابات التي عصفت بتلك المنطقة منذ ذلك الحين. لقد كنت جزءا من موجة القتل الاقتصادي الأولى التي انطلقت عبر أرجاء العالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، تلك الموجة التي هيأت الأرضية لانطلاق الموجتين الثانية والثالثة من بعدها.

45

أوروبا

قال لي توماس سيدلاسيك، وهو اقتصادي وفيلسوف تشيكي، فضلا عن كونه شخصية تلفزيونية معروفة وخدم كمستشار سابق لصالح الرئيس التشيكي فاتسلاف هافيل، قال لي ذات مرة: «لقد عَلِقَت أوروبا بين مخالب النسر الأميركي وأسنان التنين الصيني». تحاورت مع سيدلاسيك أمام جمهور حضر مهرجان ألوان أوسترافا الموسيقي في التشيك عامي 2018 و2019. لخص توصيف سيدلاسيك تلك المخاوف التي عادة ما أسمعها في الدول الأوربية ممثلة في: تعيش المنطقة بأسرها تمزقا إثر الصدام الوجودي ما بين النظامين المتنافسين، نظام حليفها الأقوى منذ الحرب العالمية الثانية من جهة وشريكها التجاري الأكثر أهمية في الوقت الحاضر من جهة أخرى.

توجد اختلافات أساسية وجوهرية بين ستراتيجيات القتل الاقتصادي التي يعتمدها البلدان في أوروبا. فعلى النقيض من جميع المناطق الأخرى التي ورد وصفها في فصول الكتاب السابقة، لم يركز قتلة الاقتصاد الأميركيون كثيرا على الديون أو الخوف من الشح ضمن معظم أرجاء أوروبا. عوضا عن ذلك، كان تركيزهم منصبا على الخوف من الاتحاد السوفييتي بالدرجة الأساس، ثم روسيا والإرهابيين المسلمين الآن. استخدمت دعامة فرق تسد مدفوعة بمساعي موسكو لإعادة تأسيس نفسها في شبه جزيرة القرم وأوكرانيا وباقي دول الاتحاد السوفييتي السابق. أما قتلة الاقتصاد الصينيين من الجانب الآخر، فقد انصب تركيزهم على الرخاء والازدهار والسلام العالميين عبر طريق الحرير الجديد وبروز قيادة الصين الاقتصادية الناشئة.

بدا العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين محوريا. ما بين العامين 2009 و2010، ارتفعت صادرات الاتحاد الأوربي إلى الصين بنسبة 38% في مقابل ارتفاع صادرات الصين إلى دول الاتحاد بنسبة 31%.[213] ولم يكن ذلك سوى البداية وحسب. في واقع الحال، طورت أوروبا إدمانا حرجا على الصين، لا سيما في القضايا المهمة ستراتيجيا من عينة: الكيماويات، والمعادن، والمعادن الطبيعية، والإلكترونيات، والأدوية، عدا عن الأجهزة والمستلزمات الطبية. وأدرك قتلة

الاقتصاد الصينيون تنامي اعتماد القارة العجوز على بلادهم. يمثل أعضاء الاتحاد الأوربي بعضا من أكبر المستثمرين الأجانب ومُوجِدِي فرص العمل، عدا عن كون دولهم سوقا بالغة الأهمية ومصدرا للتكنولوجيا والخبرات التي تحتاج إليها الصين. بحلول العام 2020، احتلت الصين مكانة الشريك التجاري الأكبر مع الاتحاد الأوربي، مُزِيحة بذلك الولايات المتحدة عن ذلك العرش الذي تربعت عليه منذ وقت طويل.[214]

هبت موجة قتلة الاقتصاد الصينيون الثالثة بمقترحات استثمارية عمت أرجاء أوروبا. عام 2020، اتفق الاتحاد الأوربي والصين على اتفاقية الاستثمار الشاملة. وقد لقيت هذه الاتفاقية الترحاب باعتبارها حدثا دوليا يؤسس لسابقة مهمة تفتح مجالا لفرص متكافئة للمستثمرين، وتضمن الشفافية حول التعاملات المالية، عدا عن زيادة الاستثمار الأجنبي المباشر والتجارة.

لكن المشكلات برزت حينما عارض زعماء أوروبا اضطهاد الصين للإيغور، والقمع ضد السكان في هونغ كونغ، والاعتداءات في بحر الصين الجنوبي، فضلا عن التهديدات الصينية ضد تايوان. وافَقَ في شهر آذار من العام 2021 الاتحاد الأوربي على فرض حزمة من العقوبات ضد الصين. من جانبها، ردت الصين بفرض عقوبات استهدفت عددا من أعضاء البرلمان الأوربي، فضلا عن مسؤولين حكوميين أوربيين. استمر مسلسل الردود حيث قرر البرلمان الأوربي تجميد التصديق على اتفاقية الاستثمار الشاملة. شعرت أوروبا بخيبة الأمل كذلك من الولايات المتحدة. لخص وزير المالية الفرنسي برونو لي ماير الموقف عام 2021 بالقول: «تريد الولايات المتحدة مواجهة الصين التي يريد الاتحاد الأوربي إشراكها».[215]

تعد دول البلقان مهمة بوجه خاص لستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية. تكوّن منطقة البلقان المكونة من ألبانيا والبوسنة والهرسك، وبلغاريا، وكرواتيا، واليونان، وكوسوفو، والجبل الأسود، وشمال مقدونيا، ورومانيا، وصربيا، وسلوفينيا الواقعة إلى الشمال من تركيا ــ تكوّن شبه جزيرة توفر صلة وصل ما بين أوروبا من جهة، والشرق الأوسط وآسيا من جهة ثانية، فضلا عن كونها منطقة محورية لتطوير طريق الحرير الجديد. وتتمتع ثلاثٌ من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق بأهمية بالغة لبكين بحكم امتدادها المباشر تجاه شبه الجزيرة البلقانية كحاجز عملاق أو بوابة.

صربيا: استيراد التلوث

بدا الاتحاد الأوربي كما لو أنه تخلى عن صربيا حينما لم يقدم مساعدة تذكر إبان أزمة الركود العالمية عام 2008، ومعها أزمتا المهاجرين عام 2015 والفوضى التي أعقبت خروج بريطانيا من الاتحاد الأوربي. ورفض البنك الأوربي لإعادة البناء والتنمية طلب صربيا للمساعدة في تمويل بناء وتحديث شبكة الطاقة الكهربائية للبلاد. عبّر الرئيس الصربي ألكسندر فوتشيتش عن وجهة نظر يتبناها الكثيرون حينما قال إن «لا وجود للتضامن الأوربي». ورفض فوتشيتش انضمام بلاده إلى حلف شمال الأطلسي على أساس حاجة صربيا إلى البقاء غير منحازة ورغبتها في عدم مفاقمة الأمور مع روسيا.

لكن قتلة الاقتصاد الصينيين، وعلى النقيض من دول حلف شمالي الأطلسي، عرضوا تحديث البنية التحتية وشراء منشآت صناعية غير رابحة. زار الرئيس تشي صربيا عام 2016 ودعا إلى إدماجها بطريق الحرير الجديد. ضمن محاولة ضعيفة للحاق بالركب، وقف الرئيس ترامب لأخذ صورة في البيت الأبيض مع رئيسي صربيا و كوسوفو، وهما بلدان غرقا في صراعات سياسية واقتصادية. نال ترامب الفضل في الخروج باتفاق بين الجانبين، لكن وكالة أنباء رويترز أوردت تقول:

قال الرئيس الصربي ألكساندر فوتشيتش للمراسلين الصحفيين إن هنالك الكثير من الخلافات لا تزال عالقة ما بين صربيا ومقاطعتها السابقة التي أعلنت الاستقلال عام 2008. وقد قال الرئيس الصربي لوسائل إعلام بلاده لاحقا إن اتفاق صربيا كان مع الولايات المتحدة، وليس كوسوفو. في سياق متصل، وصف محللون سياسيون الاتفاق بالمخيب للآمال والغامض.

وبحسب وكالة أنباء رويترز، فإن الدافع الحقيقي لترامب تمثل في «التزام صربيا بتأييد نقل سفارة بلاده إلى القدس، فضلا عن موافقة كوسوفو وإسرائيل على تطبيع الروابط وتبادل العلاقات الدبلوماسية».[216] ولا بد من الإشارة إلى رؤية الكثير من الصربيين رغبة من جانب أميركا في السيطرة على بلادهم سياسيا مع إرضاء إسرائيل، وذلك عوضا عن تسوية نزاع إقليمي أو الإسهام في التنمية الاقتصادية.

مرة أخرى، تحركت الصين بسرعة. رتب قتلة الاقتصاد الصينيون صفقات تعمد حكومتهم وشركاتهم بموجبها إلى استثمار 1.9 مليار دولار في صربيا ما بين الأعوام 2010 و2019،

مشاريع تركز على مصانع الصلب، وعمليات التعدين، ومحطات الطاقة الكهربائية العاملة بالفحم. فضلا عن ذلك، دفعت الصين أكثر من سبعة مليارات دولار على شكل قروض لصربيا بغية توظيف شركات صينية لتطوير مشاريع البنية التحتية. وفيما عدا الاستثمارات، تستورد صربيا من الصين أكثر بكثير مما تستورد من الولايات المتحدة.

في محضر رده على سؤال من جانب إحدى قنوات التلفزة الصربية حول سبب مجيء الصين لنجدة صربيا، اتخذ الرئيس الصربي موقفا براغماتيًّا. قال فوتشيتش: «يعود ذلك إلى أنهم أغلقوا بعضا من معامل الحدادة لديهم وقسما من معامل الصلب. أتصور أن الأمر يتعلق بالهواء النظيف».

كشفت ملاحظة الرئيس الصربي عن جانب حاسم من ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية. بغية تحقيق إنجازاتها الاقتصادية، عانت بكين عواقب مدمرة من التلوث جراء التصنيع. فلعقود طويلة، غطت سحابات كثيفة من الدخان السام سماوات المدن الصينية الكبرى. أما الآن، ومع تحرك البلاد نحو عالم ما بعد الصناعة والتكنولوجيا الفائقة، بات واضحا رغبتها في إنهاء الوضع الحالي. في واقع الحال، تطابقت استجابة الصين مع منهجية تصدير الولايات المتحدة: تلوث شركاتها الناجم عن التنقيب، وقطع الأشجار والحفر في مناطق الأمازون وباقي المناطق الهشة الأخرى بهدف استخراج النفط من دون اعتماد أي وسائل وأساليب سلامة كتلك التي يفرضها القانون داخل الولايات المتحدة. وعلى الرغم من الجاذبية الشكلية لسياسات كهذه في دول مثل صربيا جراء المنافع الاقتصادية التي تحققها على المدى القصير، فإنها تتسبب بخلق مشكلات لا رجعة فيها. يقول فوك فوكسانوفيتش، وهو باحث في كلية لندن للاقتصاد، والذي عمل سابقا مع وزارة الشؤون الخارجية الصربية، يقول ضمن مقال كتبه في مجلة السياسة الخارجية ما مفاده:

يشعر المواطنون الصرب بعواقب هذا الكلام الآن. لا يزال سكان منطقة سميديروفو وقرية راديناتش حيث يوجد معمل الحديد والصلب يحتجون ضد التلوث الذي ضرب الهواء والتربة جراء تشغيل معمل الصلب المملوك للصينيين. وعاد لا يكون المطر الأحمر أمرا غير شائع الحدوث في سميديروفو. فضلا عن ذلك، رفعت مدينة بور، شهر أيلول من العام 2020، شكوى جنائية ضد شركة زيجينغ للتعدين جراء التلوث الذي تسببت الأخيرة به عبر عمليات تعدين النحاس التي تقوم بها.

تعاني صربيا أعلى معدلات الوفيات جراء التلوث في أوروبا، عدا عن تبوُّئِها المرتبة التاسعة عالميا في هذا الوضع المتأزم. وأعرب البرلمان الأوربي عن قلقه إزاء المشاريع الاقتصادية الصينية في صربيا، بما في ذلك القلق لأسباب بيئية، الأمر الذي يضع عقبات أكبر على طريق عضوية الأخيرة في الاتحاد الأوربي.[217]

على الرغم من المشكلات المرتبطة بالعديد من استثماراتها، يبدو وجود قتلة الصين الاقتصاديين كبيرا في صربيا، مع عدم وجود نظرائهم من قتلة الاقتصاد الأميركيين تقريبا.

الجبل الأسود: رمز الفساد

على النقيض من صربيا، فإن الجبل الأسود عضو في حلف الناتو. حينما انضمت إلى الحلف عام 2017، ألزمت الجمهورية اليوغسلافية السابقة نفسها بالولاء للغرب وأثارت غضب سيدتها السابقة روسيا، الأمر الذي وضعها في موقف صعب. كابدت الجبل الأسود ديونا ثقيلة للصين، والصين حليف مقرب لروسيا. أدرك الرئيس فيليب فوغانوفيتش أن هذا الوضع مثل اختبارا لـ«سياسة عدم التدخل الخارجي» الصينية. اجتازت الصين الاختبار على ما يبدو. تماهيا مع وصف البروفسور وين حينما قال «تحتاجون إلى طرق؟ نستطيع مساعدتكم في بناء الطرق»، سأل قتلة الاقتصاد الصينيون الرئيس فوغانوفيتش ومعه رئيس الوزراء (الذي أصبح الرئيس لاحقا) ميلو دوكانوفيتش عام 2013 عما يريده شعب الجبل الأسود. تمثل الجواب في الطرق. شرعت الصين في بناء طريق قدّر له التحول إلى رمز للمشكلات المتأتية من تلبية رغبات زعماء البلاد، ألا وهي مشكلات الفساد.

وافق قتلة الاقتصاد الصينيون على بناء خمسة وعشرين ميلًا من أصل طريق يبلغ مئة ميل طولا يمتد من ميناء بور على البحر الأدرياتيكي عبر الجبل الأسود وصولا إلى صربيا. لقي المشروع الترويج تحت عنوان ربطه كحلقة أساسية ضمن طريق الحرير الجديد الذي سيجعل سكان الدولة البالغ عديدهم 600000 نسمة مالكين لمجمع نقل لمنطقة البلقان، مجمع يجلب الرخاء والازدهار لواحدة من أفقر أمم أوروبا. كانت تلك القصة التي سردها قتلة الاقتصاد الصينيون على أقل تقدير. لكن الأمر لم ينتهِ على ذلك النحو. وبحسب مقال نشرته جريدة نيويورك تايمز عام 2021 وصفت به نتائج المشروع أفادت فيه:

يمر أحد أغلى الطرق في العالم عبر جبال الجبل الأسود، ويحلق فوق الوديان العميقة عبر أبراج شاهقة قبل الوصول إلى وجهته المتمثلة في حقل موحل خارج قرية ماتيسيفو الصغيرة التي لا تضم سوى بضع عشرات من المنازل، وبعضها خال من السكان (يبلغ سكان القرية 15 نسمة فقط).

من جانبه، وصف رئيس وزراء الجبل الأسود الجديد، زدرافكو كريفوكابيتش، الذي تسنم المنصب العام الماضي من الحكومة السابقة التي وقعت عقد إنشاء الطريق مع عقد القرض الخاص به من الصين عام 2014، وصف الطريق السريع بأنه «مشروع يعكس جنون العظمة»، و«يربط الفراغ بالفراغ» عدا عن تكبيله مالية البلاد.[218]

تعد جمهورية الجبل الأسود مثالا كلاسيكيا آخر على الاختلاف الكبير ما بين ستراتيجيتَيِ القتل الاقتصادي الأميركية والصينية، متمثلا في توجيه الدول لإنفاق القروض حسب مشيئة الدائنين في مقابل تلبية الدائنين لرغبات الدول المدينة، والنتائج المحتملة عن ذلك. فحينما يقرر زعماء الأمة كيفية استخدام القروض، تسمح لهم الفرصة لاختيار المشاريع التي تثقل جيوبهم بالأموال فورا. وعلى النقيض من ذلك حينما تُمْلَى عليهم المشاريع التي ستنفذ، تعود المنفعة على معظم العائلات الثرية التي تملك الشركات الكبيرة ذاتها ربما، غير أن هذا الكلام لا يأخذ تسمية فساد لأنه يحصل ببطء أكبر ويبدو نتيجة للنمو الاقتصادي. وعلى النقيض من ستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية، تفتح الصين صندوق الشر على مصراعيه أمام احتمالات الرُّشى والعمولات على المدى القصير. في هذا السياق، يوضح مقال في جريدة لي موند ديبلوماتيك بإيجاز وصف طريق الخمسة والعشرين الميل في الجبل الأسود، حيث يقول:

قدم بنك الصين للاستيراد والتصدير قرضا بقيمة 809 مليون يورو بهدف تغطية تكلفة المقطع الأول البالغ واحدًا وأربعين كيلومترا من الطريق، والذي نفذته شركة الطرق والجسور الصينية. ومن المتوقع وصول تكلفة المشروع إلى 2.5 مليار يورو، وهو ما يعادل نصف الناتج القومي الإجمالي لجمهورية الجبل الأسود. وبحسب ألكساندر بيروفيتش الذي يشغل منصب المدير التنفيذي لمنظمة أوزون البيئية، فإن الإبادة البيئية تسير جنبا إلى جنب مع الفساد.

في سياق متصل، قالت ميلكا تاديتش ميغوفيتش، وهي واحدة من المؤسسين لمجلة إندبندنت ويكلي مونيتور الأسبوعية ورئيسة مركز الصحافة الاستقصائية في الجبل الأسود، قالت: «أخذ

الموجودون على القمة حصة الأسد من الفساد. وتحول دوكانوفيتش وعائلته إلى أكثر الناس ثراءً في الجبل الأسود».[219]

اعتمد دوكانوفيتش حرفيا على سمعته كشخص قاد جمهورية الجبل الأسود إلى الاستقلال عن يوغسلافيا السابقة عام 2006. باستخدام تكتيكات قتلة الاقتصاد المتمرسين، تمكن دوكانوفيتش من تفرقة خصومه وتسيّد عليهم عبر التعاون مع سيئ الصيت سلوبودان ميلوزوفيتش حينما كان رئيسا ليوغسلافيا وصربيا، والذي أدين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. بعد ذلك، تحول الرجل إلى المستثمرين الأوليغارشيين الروس الأثرياء، بمن فيهم مقرب من الكرملين، وذلك قبل انتقاله ناحية الولايات المتحدة التي تسامحت مع خطاياه الماضية بغية إقناع الجبل الأسود بالانضمام إلى حلف شمالي الأطلسي. والآن، تتمحور مشاريع دوكانوفيتش حول الصين التي تعرض تمويل مشاريع أرادها هو، «ولا ترى البنوك الأميركية أو الأوربية أي جدوى فيها» (حسب مقال جريدة نيويورك تايمز). إلى جانب دعامة فرق تسد، اعتمد دوكانوفيتش على الدعائم الثلاث الأخرى. ضمن مراحل متعددة، أثار الرجل مخاوف الولايات المتحدة، وبعض القوى الأوربية، وروسيا. وتمكن من إقناع شعب الجبل الأسود بأن القرض سيحميهم من العجز وعدم الكفاية.

رومانيا: ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية الفاشلة

أسست ألكساندرا بوستلينكو فرع «تحالف باشاماما» في رومانيا. عام 2014، وجهت بوستلينكو الدعوة إليّ وإلى كيمان للسفر معها في أرجاء بلدها. ألقيت محاضرات وعقدت ورش عمل في الجامعات، وجماعات الدفاع عن البيئة، وباقي المحافل الأخرى حول التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة، والتقيت عددا من المسؤولين الحكوميين والأكاديميين.

في أحد الأيام، أخذتنا ألكساندرا إلى جبال روشيا مونتانا، وهي منطقة جميلة عارض سكانها مشروع عمليات تعدين للذهب كانت لتصبح الأكبر في أوروبا. مع مجموعة من نشطاء البيئة الرومانيين، تسلقنا نحو إحدى القمم الأربع للجبل الذي يراد هدمه. نظرت برعب إلى الأسفل حيث فتحة منجم الذهب المحفور سابقا، والتي تسبب حفرها بهدم جبل قريب. سيعاد افتتاح المنجم من جديد كما قيل لي، وإن هذا التشويه الرهيب للمنظر كان صورة مصغرة لما ستؤول إليه أوضاع المنطقة بأسرها في حال مضى المشروع قدما.

قرب فتحة المنجم، برزت بحيرة قاتمة اللون. قيل لي «إنها خزان السيانيد». وفي حال استمرت أعمال التنقيب، سيتضخم محتوى البحيرة عدة مرات. تذكرت ساعتها حَدَثًا وقع في منشأة للتنقيب عن الذهب في رومانيا حينما انهار سد يغلق بحيرة سيانيد، وقد اندفع السيانيد إلى نهر الدانوب مسببا واحدة من أكبر الكوارث البيئية في أوروبا. طاردتني صورة جبل روشيا مونتانا حينما علمت لاحقا عن المناجم الصينية في منطقة الأمازون الإكوادورية، وكان علي الاعتراف أمام نفسي بأني عملت كواحد من الجناة الذين صنعوا نظاما أنتج اقتصاد الموت على المستوى العالمي.

كان من المحزن، على وجه خاص، سماع قضية جبل روشيا مونتانا يشار إليها بوصف «عملية أميركية». في هذا السياق، أفاد تقرير مترجم إلى تلقي شركة بينكوك آلن وهولت، ومقرها كولورادو، مبلغ عشرين مليون دولار عام 2000 لتنفيذ دراسة جدوى أولية «برهنت» على ازدهار عظيم سيجلبه المنجم للشعب الروماني. شعرت بنوبة حادة من الشعور بالذنب حينما أدركت مغزى تلك الدراسة وحقيقة ما عكسته التقارير المخادعة التي صُغْت على غرارها إبان سنوات عملي كقاتل اقتصادي، وأن دراسة الجدوى الأولية لن تفيد إلا عددًا صغيرًا من العائلات الرومانية الثرية، لكن الغالبية من السكان ستعاني.

عاد بي «الوجه الأميركي» للموضوع إلى الديار حينما اكتشفت أن ملكية 80% من شركة تنقيب الذهب في روشيا مونتانا تعود إلى شركة غابرييل ريسورسيس الكندية (في مقابل عائدية 20% للحكومة الرومانية). وسمعت في رومانيا أشياء كتلك التي اعتدت سماعها في أميركا اللاتينية، أشياء من عينة تحالف الشركات الهندسية وشركات التعدين الأميركية في الغالب مع شركات كندية لأنها تتعاون بغية الحصول على الموارد المعدنية كالذهب، والفضة، والنحاس وباقي المعادن الأخرى في الدول منخفضة الدخل.

بعد تلك الزيارة التي أخذتني إلى تلك المنطقة الجبلة، التقيت ميهاي غوتيو، وهو صَحَفي روماني مؤثر (بات عضوا في مجلس الشيوخ لاحقا)، والذي يعد أحد الناشطين البارزين في الحركة الرامية إلى وقف مشروع روشيا مونتانا. حينما جلسنا في مكتب داخل جامعة بابيس بولاي، قال لي ميهاي إن شركات أميركا الشمالية يُنظر إليها هنا على أنها مستعدة لفعل أي شيء بهدف تحقيق الأرباح لمالكيها. وأضاف: «يفتح الاستياء الذي يولده هذا الوضع الباب أمام الصين».

حينما غامرت بالقول عن استعداد الصينيين المحتمل لسلوك النهج ذاته، أجاب ميهاي: «ومن يسعه توقع المستقبل يا ترى؟ كل ما نعرفه الماضي وحسب». كان لشركات أميركا الشمالية تاريخ طويل من التضحيات البيئية في سبيل الأرباح. لم يكن ذلك الكلام إلا تحذيرا من حقيقة خطورة ستراتيجيات كلا البلدين التي تقود إلى اقتصاد الموت ذاته ولا بد من العمل على إنهائها.

على الرغم من دخول رومانيا حلف شمال الأطلسي عام 2004 وإعلان نفسها حليفا قويا للأميركيين، حفزت الخلافات وخيبات الأمر إزاء مشاريع من عينة روشيا مونتانا قتلة الاقتصاد الصينيين على رفع وتيرة أنشطتهم.

أسَّسَ عام 2012 الصينيون منتدى الصين ودول وسط وشرق أوروبا، والمعروف بمنتدى 16+1. أدخل المنتدى إحدى عشر دولة من دول الاتحاد الأوربي مع خمس من دول البلقان (ألبانيا، والبوسنة والهرسك، وبلغاريا، وكرواتيا، وجمهورية التشيك، والمجر، ولاتفيا، وليتوانيا، ومقدونيا، والجبل الأسود، وبولندا، ورومانيا، وصربيا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا) في طريق الحرير الجديد. عكس ذلك المنتدى تكتيك فرق تسد، إلا أنه واجه العديد من المشكلات على الرغم من ذلك.

لخصت الدكتورة أندريا برينزا التي تشغل منصب نائب رئيس المعهد الروماني لدراسات آسيا والباسيفيكي الوضع كالتالي:

ضمن جميع دول منتدى 16+1 قيل الكثير من الوعود، والمفاوضات، والاجتماعات عن عدد محدود جدا من المشاريع النهائية. وأُلغي أو أُجّل العديد من المشاريع الصينية قيد التفاوض.

تقدم رومانيا، وهي ثاني أكبر بلدان مجموعة الست عشرة من حيث السكان، مثالا جيدا.

استشهدت برينزا بمحطات الطاقة في روفيناري وتارينتا لابوستيستي، ومحطة كهرباء سيرنافودا النووية، إلى جانب منشأة تارينتا لابوستيستي الكهرومائية كمشاريع فاشلة، وخلصت تقول:

أثرت الفجوة ما بين الوعود والتنفيذ في مصداقية منتدى 16+1 وصورة الصين كمستثمر موثوق ضمن دوائر رئاسات وزراء بعض دول وسط وشرق أوروبا، كما هو الحال مع بعض كبريات دول منتدى 16+1 مثل رومانيا وبولندا التي بدأت بالفعل تلغي تلك الفعاليات من جداولها.

وفي خاتمة المطاف، ربما تطغى مخاوف أكبر بكثير على فشل مشاريع منتدى 16+1. وفيما يحتدم التنافس المحموم ما بين الولايات المتحدة والصين، يتجه العالم إلى كتل منقسمة من جديد.[220]

روسيا: غزو أوكرانيا

استعمر الأوربيون مع بدء القرن الخامس عشر معظم العالم. وبعد نهاية الحربين العالميتين، انهارت معظم الامبراطوريات الأوربية فيما خلا الاتحاد السوفييتي الذي استمر حتى العام 1991. أما الآن، ووسط المنافسة بين القوتين الكبريين، تجد أوروبا نفسها في وضع لا يختلف عن وضع أمم إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط التي استعمرتها يوما. في الوقت ذاته، عادت القوة الكامنة من وراء الاتحاد السوفييتي السابق إلى الظهور على المسرح العالمي من جديد.

اتخذت روسيا، هذا البلد الذي يضع قدما في أوروبا وأخرى في آسيا، مقعدا خلفيا وراء الولايات المتحدة والصين لسنوات عديدة. لكن غزو أوكرانيا، هذا البلد الأوربي، غير من هذا الوضع.

دفعت الحرب الدائرة هناك الرئيس بوتين إلى صدارة عناوين الأنباء في كل مكان. حولت تلك الحرب صورة الرجل من رئيس عاري الصدر يمتطي صهوة جواد إلى دكتاتور هدد بهولوكوست غير نووي. ربما يكون اقتصاد روسيا أصغر حجما من اقتصاد ولايتي كاليفورنيا وتكساس، ويعادل اقتصاد نيويورك على نحو ما، وإن قتلة اقتصاد موسكو لا يحظون بالأهمية في العالم، لكن رئيس هذا البلد بات المفسد القادر على تعطيل الحوادث العالمية، أو إلهاء العالم ـ على أقل تقدير ـ عن الحدث الاقتصادي العالمي الأكبر المتمثل في التنافس الأميركي ـ الصيني.

لكن الغزو الروسي تسبب بعواقب غير مقصودة حققت عكس ما يرومه بوتين على ما يبدو. تسبب الغزو الروسي لأوكرانيا بتعاون أميركي ـ أوربي أكبر بكثير مما كان في السابق، وعزز وضع الحرب من قوة حلف شمال الأطلسي. ثم قاد هذا الوضع إلى تطوير مصادر الطاقة التي ستستبدل النفط والغاز الروسيين لاحقا. عدا عن ذلك، تسببت الحرب بنقص هائل بإمدادات الغذاء في إفريقيا والشرق الأوسط. وفي خاتمة المطاف، برهنت تلك الحرب على الشجاعة الفائقة والحنكة العسكرية اللافتة للأوكرانيين في مقابل كشفها عن نقائص ونقاط الضعف العسكرية الروسية.

أثرت الحرب في الصين سلبا كذلك. في واقع الحال، قوضت هذه الحرب سياسة الصين المعلنة عن احترام حقوق الدول الأخرى ذات السيادة حينما وقفت فورا ضد أوكرانيا. أدى هذا الصراع إلى عرقلة وقطع الكثير من شبكات الاتصالات والمواصلات الحيوية لتطوير مشروع طريق الحرير الجديد. وتسبب الوضع في قطع سلاسل إمداد حيوية وضرورية جدا للتجارة الصينية التي تضررت بالفعل جراء جائحة كورونا. لكن الأمر لم يخلُ من منافع للصين كذلك. فبالإشارة إلى بوتين وتشي، كتبت مجلة السياسة الخارجية مقالا في نيسان العام 2022 خلصت فيه إلى:

يريد هذان الزعيمان معًا كسر ما يريانه هيمنة الولايات المتحدة على النظام العالمي وتقويض المفهوم القائل بارتباط العالم بمجموعة من القيم المشتركة المنصوص عليها بالقانون الدولي، والمدعومة بمؤسسات مثل الأمم المتحدة.

في واقع الحال، يسعى الزعيمان إلى إرساء قواعد نظام عالمي جديد تهيمن فيه الحضارات المتنافسة ـ الأوتوقراطية منها على نحو متزايد ـ حيث يسيطر ويتحكم كل طرف في فضائه الجيوسياسي.[221]

برهنت العقوبات المفروضة على روسيا جراء الحرب على عودة الولايات المتحدة ـ للوقت الحاضر على أقل تقدير ـ إلى ستراتيجية القتل الاقتصادي التي اعتمدتها ما قبل حوادث الحادي عشر من أيلول. فعوضا عن إرسال الجيوش، رد واضعو الستراتيجيات الأميركيون بالاعتماد على الدعائم الثلاث: إجبار الحكومة الروسية على مواجهة ديون متنامية مع إمكانية الوصول إلى عجز عن سداد القروض الأجنبية، وزيادة المخاوف من الشح وعدم الكفاية في أوساط الروس، فضلا عن تشجيع الانقسامات ما بين روسيا والدول التي تبيع وتشتري معها، إلى جانب التسبب بالانشقاقات بين شرائح مواطنيها. لقد أطلقت واشنطن إشارات تدل على ستراتيجيتها للقتل الاقتصادي لم تعتمد على القوة العسكرية ويمكن تطبيقها في مواقف بالغة الخطورة. لكن مع هذا، ربما تسبب هذا الوضع عن غير قصد بخلق فرصة أخرى للصين. فبحسب مقال صدر في مجلة السياسة الخارجية توقع ما مفاده:

تبدو ظروف العقوبات مهيأة لتسريع الانفصال الاقتصادي ما بين الولايات المتحدة والصين، لا سيما إذا ما قررت بكين اغتنام الفرصة بغية تعزيز جاذبية عملتها وهيكلها المالي عبر أرجاء

العالم.

إذا ما لم ترد الدول التخلي عن ثرواتها المالية والاقتصادية مع الغرب والبقاء مع الدولار، لن يكون أمامها سوى خيار واقعي واحد يتمثل في الصين واليوان، والذي يسمى كذلك الرنمينبي. وها هي الرياض المحبطة من واشنطن تتطلع إلى بيع نفطها إلى بكين باليوان بعد تجارة نفطية سعودية حصرية بالدولار استمرت لما يقرب من خمسين عاما.[222]

على المدى البعيد، ربما يقود الغزو الروسي لأوكرانيا إلى تقوية وضع الصين كزعيمة ضمن حركة تروم قصقصة أجنحة النفوذ الأميركي. بعد لقاء بوتين وتشي شهر أيلول العام 2022، وضمن لفتة إذلال نادرة لبوتين، أقر تشي بـ«شكوك ومخاوف» إزاء الحرب. وتحدث تشي علنا عن حاجة دولة كبرى (روسيا) إلى أن تأخذ موقف الزعيم المسؤول عن «نشر الاستقرار في عالم مضطرب». لقد برز تشي عبر تلك اللقاءات كرجل يبحث عن دور وسيط السلام ويناشد الدول ممن تضررت اقتصاداتها بشدة جراء الحرب الأوكرانية عبر أرجاء العالم. في الوقت ذاته، يبدو قتلة الاقتصاد الصينيون في وضع مثالي لعقد الصفقات من أجل شراء النفط والغاز الروسيين اللذين فقدا أسواقهما الأوربية. وتسببت حرب أوكرانيا في تحويل الولايات المتحدة عن تعزيز علاقاتها مع إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط من جديد. عدا عن ذلك، كلفت هذه الحرب الولايات المتحدة وحلف شمالي الأطلسي قدرا هائلا من الأموال والطاقة السياسية. لذلك، وعلى الرغم من الاضطرابات قصيرة الأمد التي عصفت بالاقتصاد الصيني، قد يتمكن تشي ـ إذا ما لعب الأوراق بين يديه على النحو الصحيح ـ من تحويل الحرب المدمرة التي تهدد العالم بكارثة نووية إلى رصيد لصالح بلاده.

46

الولايات المتحدة

قدم هذا الكتاب لمحات عن المنافسة المحتدمة ما بين الصين والولايات المتحدة وتأثيرات ستراتيجياتهما في كل مناطق العالم. لكن النقاش لن يكتمل من دون تسليط الضوء على بعض التأثيرات الصينية المهمة المباشرة في الولايات المتحدة نفسها.

خلصت دراسة صدرت عن معهد بروكنغز عام 2021 إلى دعم الصين، بحكم كونها شريك أميركا التجاري الأكبر، ما يقدر بـ1.2 مليون وظيفة في الولايات المتحدة، فضلا عن عدد أكبر من الوظائف التي تعتمد على المنتجات الصينية و/أو تمويلها. وتتجاوز مشتريات أميركا من الصين مشترياتها من جمع دول الاتحاد الأوربي مجتمعة، عدا عن رابطة دول جنوب شرق آسيا. ووجدت دراسة بروكنغز قيام معظم الشركات الأميركية بأعمال مع الصين والتزامها الوجود هناك على المدى البعيد. وتضيف الدراسة كذلك:

توسع شركات الاستثمار الأميركية مواقعها في الصين، وذلك تبعا للتوجه العالمي. ففي هذا السياق، زادت شركات بلاكروك، وجي. بي. مورغان تشايس، وغولدمان ساكس، ومورغان ستانلي ظهورها في الصين، الأمر الذي يتطابق وجهود شركات أخرى كما في يو. بي. أس.، ونومورا القابضة، وكريدي سويس، فضلا عن أي أكس أي. وتحصي مجموعة روديوم امتلاك المستثمرين الأميركيين بحدود 1.1 ترليون دولار من الأسهم والسندات الصادرة عن الشركات الصينية، إلى جانب ما يصل إلى 3.3 ترليون دولار من الأسهم والسندات الأميركية ـ الصينية الصادرة في اتجاهين بحلول نهاية العام 2020.[223]

تكمن الحقيقة التي لا مراء فيها بأن الولايات المتحدة والصين مترابطان بقوة. ويتشابك اقتصادا البلدين إلى درجة يصعب معها تخيل أي منهما دون الآخر. ولا يقتصر هذا الكلام على القطاعات «المادية» كما في التجارة والاستثمارات، وإنما يتعداه إلى القطاعات «غير المادية» كما في التعليم، والمعلوماتية، والتكنولوجيا. فعلى سبيل المثال، التحق أكثر من ثلث الطلبة الأجانب في

جامعات وكليات الولايات المتحدة للعام الدراسي 2019 – 2020 قادمين من الصين. أخبرني عميد كلية نيوإنغلاند المرموقة الخاصة مؤخرا أن أجور الدراسة التي يدفعها الطلبة الصينيون من أبناء العائلات الثرية تسمح له بتقديم منح لنصف دزينة من الطلبة الأميركيين. وأضاف التبادل في ميادين المعرفة الشيء الكثير للثورة التكنولوجية خلال السنوات الأخيرة. في هذا السياق، تشير دراسة بروكنغز إلى:

إن شركات التكنولوجيا الرائدة تفتح مختبرات أبحاث كلٌّ في البلد الآخر. فعلى سبيل المثال، افتتحت شركات علي بابا، وبايدو، وتينسينت مراكز أبحاث في الولايات المتحدة، كما حصل مع شركات آبل، وميكروسوفت، وتسلا، وباقي كبريات شركات التكنولوجيا الأميركية الكبرى التي تعتمد على الإمكانات الهندسية المتميزة في الصين. أما فيما يتعلق بالتعاون في مجالات العلم، يضع مؤشر نايتشر الأبحاث المشتركة ما بين البلدين في خانة أكثر الأبحاث الأكاديمية المثمرة على مستوى العالم.[224]

اكتسحت الموجة الثالثة في الصين المستثمرين الأميركيين بمجرد إعادة البلدين تأسيس علاقاتهما الدبلوماسية وتوقيع اتفاقية التجارة الثنائية عام 1979. تسهم استثمارات كهذه في دعم الاقتصاد الأميركي وجعل شركات واشنطن أكثر تنافسية. يعمل مئات الآلاف من الأميركيين في الشركات الصينية، في حين يتدافع رواد الأعمال الأميركيين بغية اللحاق بركب الفورة القادمة التي ستجعل من الصين الاقتصاد الأول في العالم.[225]

يعمل قتلة الاقتصاد الصينيون تحت مظاهر مختلفة، كما هو الحال مع عنواني بصفة كبير اقتصاديين. يأتي هؤلاء القتلة إلى الولايات المتحدة كطلبة للتعلم عن الثقافة الأميركية إلى جانب مواطن نجاح وفشل قتلة الاقتصاد الأميركيين. إنهم يعملون في شركات متعددة الجنسيات، ويدرّسون في الجامعات الأميركية، ويخدمون كمستشارين لصالح العديد من المؤسسات. ويعمل بعضهم في وظائف سرية أكثر تقليدية كـ«جواسيس» متخفين بعناوين ملحقين تجاريين أو عناوين أخرى تبدو غير ضارة في السفارة الصينية بواشنطن العاصمة أو إحدى قنصلياتها الإقليمية الخمس في البلاد. ثم تأتي سلالة قتلة الاقتصاد الأميركيين الجدد الذين وصفتهم في الفصل الأربعين من هذا الكتاب، الذين باعوا خدماتهم لصالح الصين. عادة ما يكون هؤلاء القتلة من صفوف المسؤولين المنتخبين السابقين الذين اعتادوا انتقاد الصين في أثناء خدمتهم الرسمية الماضية قبل تغيير مواقفهم

والدفاع عن الصين وشركاتها مقابل مرتبات عالية جدا. ينتمي كلاهما إلى موجتي قتلة الاقتصاد الثانية والثالثة.

يدرك قتلة الاقتصاد الصينيون المحليون أن الأميركيين، المعروفين بشدتهم مع الصين، هم أعظم الحلفاء حينما يمكن شراؤهم كبنادق مستأجرة. وكما قالت لي كلودين ذات مرة، فإن «أفضل رصيد لديك يتمثل في السياسي الذي يتحدث بقوة ضدك، ومن ثم ينضمّ إليك». في هذا السياق، أشار تقرير جماعة الضغط الأجنبية الصادر عام 2021 إلى:

عرف عن المشرعين السابقين أمثال إد رويس، وديفيد فيتر، وترينت لوت، مواقفهم الصلبة ضد الصين إبان وقت وجودهم في مجلس الشيوخ.

لكن هؤلاء يتشاركون اليوم تقاربا مختلفا، حيث يضغط ثلاثتهم لصالح الشركات الصينية المتهمة بتهديد الأمن القومي الأميركي.

إنهم مجموعة من أصل اثني عشر عضوا سابقا في مجلس الشيوخ ممن سُجّلوا كعملاء أجانب لصالح الشركات الصينية أو جماعات ضغط للشركات التابعة لها في الولايات المتحدة.[226]

حددت جريدة ديلي بيست «بعض أكثر السياسيين والمسؤولين الأميركيين السابقين الذين بروزا ممن ضغطوا لصالح الصين أو أولئك الذين ترتبط مصالح أعمالهم وشركاتهم مع الصين بقوة». تضمّن مقال الجريدة اسم ممثل لويزيانا تشارلز بستاني الذي ترأس مجموعة العمل الأميركية ـ الصينية، جون بوينر الذي شغل منصب المتحدث السابق باسم المجلس، ديفيد فايرشتاين الذي خدم ضمن مكتب التعاون الاقتصادي الآسيوي ـ الباسيفيكي في وزارة الخارجية الأميركية، والذي كان عضوا ضمن هيئة محافظي اتحاد الخدمة الخارجية الأميركي، فضلا عن مايك هولتزمان الذي شغل منصب مستشار خاص لسفير التجارة في أثناء ولاية الرئيس بيل كلينتون ووزارة الخارجية تحت قيادة الوزير كولن باول. وتتضمن مجموعة الأميركيين المتنفذين الذين يعملون لصالح شركات صينية معينة كلًّا من دونالد (آندي) بوردي الذي شغل منصبا ضمن كادر البيت الأبيض أثناء ولاية الرئيس جورج بوش الابن وساعد في صياغة ستراتيجية الأمن القومي الأميركي بهدف حماية الفضاء الرقمي، والذي خدم كمسؤول أمن سبراني كبير في وزارة الأمن الداخلي الأميركية قبل توليه منصب كبير مسؤولي الأمن لعمليات شركة هواوي في الولايات المتحدة، وكلارك تي. راندت

الذي شغل منصب السفير الأميركي الأسبق في الصين، والذي كان مستشارا خاصا لصالح شركة هوبو جينغهوا (بكين) للاستشارات الاستثمارية إلى جانب منصبه في الهيئة الاستشارية بشركة على صلة وثيقة بالصين، وجيمس دي. ولفنسون الذي شغل منصب الرئيس السابق للبنك الدولي وأحد المدافعين البارزين عن ليبرالية إجماع واشنطن الجديدة، والذي بات عضوا في اللجنة الاستشارية الدولية لشركة الاستثمارات الصينية (صندوق الاستثمارات السيادي الصيني).[227]

أوردت مجلة بوليتيكو انضمام مسؤول وزارة الخزانة الأميركية الأسبق بيتر كوسيك والنائب السابق توبي موفيت، فضلا عن عضو مجلس الشيوخ الأسبق ديفيد فيتر ـ انضمامهم جميعا إلى الشركات التي تمثل فروعا تابعة لشركة «هيكفيجين» المتخصصة بتكنولوجيا كاميرات المراقبة والمتهمة بمساعدة الصين في مراقبة الأقليات المسلمة في البلاد، وأن الشركة الاستشارية للنائب السابق لي تيري بقيت على تعاقدها مع شركة هواوي التي دخلت قائمة البنتاغون السوداء بسبب علاقاتها مع الجيش الصيني.[228]

وتجدر الإشارة إلى وجود اختلاف مثير بين زمننا الحاضر وما كان عليه الوضع إبان الحرب الباردة حينما عملت كقاتل اقتصادي. على النقيض من الصين، كان للاتحاد السوفييتي تبادل اقتصادي محدود جدا مع الولايات المتحدة، حيث لم يتجاوز التبادل أكثر من 1% من مجموع النشاط التجاري لكلا البلدين. ولم يقترب البلدان من حالة الاعتماد المتبادل قط.

في سياق متصل، كان هنالك اختلاف آخر أشار إليه فرانك وولف، وهو عضو مجلس شيوخ أميركي لفترة أربعة وثلاثين عاما، حيث أعرب عن أسفه من أن «أحدا لم يمثل الحكومة الروسية في ثمانينيات القرن الماضي، في حين يوجد اليوم الكثير من جماعات الضغط لصالح الحكومة الصينية»، وأضاف: «إني أجد الأمر صادما بحق».[229]

أينما قرأت عبارات كهذه، أجد نفسي مأخوذا بذكريات تعيدني إلى أيامي الأولى للعمل كقاتل اقتصادي. أتذكر كلودين وهي تتحدث إليَّ قائلة إن عملي ينطوي على تشجيع زعماء العالم ليكونوا جزءًا من «شبكة عالمية ضخمة تعزز المصالح التجارية الأميركية. ويجب إقناعهم بالخوف من الشيوعيين». يعتصر قلبي حينما أستذكر الحماسة التي عملت بها، وتلك التوقعات الاقتصادية المفرطة في تفاؤلها، والتقارير المزيفة، والوعود التي قطعتها كي أفسد رؤساء الدول وأتباعهم

بالرُّشى والتهديدات. أتذكر مشاعر العار حينما أحاطني الإندونيسيون وأنا أشاهد الدمية التي تمثل الرئيس نيكسون وهو يلتقط الدول الشرقية من الخارطة ويرمي بها إلى دلو القمامة، ومن ثم شعور الخوف الذي اعتراني حينما هاج الجمع غضبا جراء صراخ نيكسون بعبارات «المسلمون الكلاب» و«وحوش محمد»، عدا عن «شياطين الإسلام». ولا تزال الانقباضات تعتصرني كلما مرت مشاهد حطام الطائرات التي حملت رولديوس وتوريخوس في مخيلتي. تبدو الذكريات بلا انتهاء. تطاردني بعض الذكريات أكثر من غيرها أحيانا. لكن جميع تلك الذكريات تتعلق بالأشياء التي قمت بها بهدف وقف الاتحاد السوڤييتي.

عاد لا يوجد اتحاد سوڤييتي اليوم. وانتهت الحرب الباردة. وعلى الرغم من إعادة روسيا تأكيد نفسها كتهديد عسكري، فإن تهديدات كهذه لطالما عولجت عبر التاريخ بطريقة أو بأخرى، وانتهت في خاتمة المطاف. وبفرض اتباع هذا النموذج النمط التاريخي ذاته، تبقى هناك حقيقة جلوسنا على قنبلة اقتصاد موقوتة تهدد العالم الذي نعرفه بالدمار التام. إنها القنبلة التي ساعدت أنا في صنعها، لكن الجميع تقريبا متواطئون اليوم في أمرها على مستوًى ما. لا زلنا حتى الآن نتشارك التصورات التي تؤدي إلى اقتصاد الموت والصدام المدمر ما بين ستراتيجيات القتل الاقتصادي. يريد الكثيرون في الولايات المتحدة تعريف الصين بوصفها «المشكلة» أو حتى «العدو»، إلا أن الحقيقة تكمن في تشابه أهداف كلا البلدين واقتصاديهما المتشابكين، هذين الاقتصادين المسؤولين عن أزمات خانقة تواجه العالم اليوم.

ولا شك أن هذا الكلام يقود إلى استنتاج واحد وحسب.

الخاتمة

كل منا لديه دور يلعبه لإنهاء ستراتيجية القتل الاقتصادي

حان الوقت لإنهاء ستراتيجية القتل الاقتصادي، مرة واحدة وإلى الأبد.

فضح هذا الكتاب المفاهيم التي تحرك ستراتيجية القتل الاقتصادي للولايات المتحدة والصين، هذه الستراتيجية التي تدفع العالم نحو الفشل. تقول ستراتيجية الولايات المتحدة: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا القروض من إجماع واشنطن، ووظفوا شركاتنا لبناء بنيتكم التحتية، وطبقوا سياسات الليبرالية الجديدة»، في حين تقول ستراتيجية الصين: «إذا ما أردتم ازدهار بلدكم، اقبلوا الصين شريكا في التجارة الدولية، شريكا لن يتدخل في عمل حكوماتكم، واستخدموا القروض الصينية لتوظيف شركاتنا لإنشاء بنيتكم التحتية التي تجعل هذا الكلام ممكنا»، ولا بد من إنهاء كلا الستراتيجيتين. رأينا، عبر صفحات هذا الكتاب، أن هاتين الستراتيجيتين تمثلان النسختين الأحدث من تلك المفاهيم التي تمتد لقرون مضت حول الازدهار التي دعمت تكتيكات أريد لها استعمار الآخرين عبر أنظمة الهيمنة. وتهدف تلك الستراتيجيات إلى استغلال الناس والموارد الطبيعية بهدف زيادة أرباح وقوة نخب قليلة، وكيف يدمر هذا الحياة التي نعرفها على كوكب الأرض.

على الرغم من الاختلافات الثقافية، حان الوقت للشعوب في الولايات المتحدة والصين ــ وفي كل مكان ــ كي تتبنى مفاهيم جديدة تدعم على المدى الطويل: «أذا ما أردت لبلادك الازدهار، فسوف نحدد الازدهار على أنه صور المنفعة لصالح كل أشكال الحياة في جميع أرجاء العالم، وأن نرى أنفسنا جزءا من ــ وليس بعيدا عن ــ الطبيعة، ونتقبل فكرة أننا ملاحو مركبة الأرض الفضائية في هذا الكون، وجئنا معًا لقيادة وتوجيه الكوكب بعيدا عن اقتصاد الموت نحو اقتصاد الحياة».

لكل منا دور يؤديه. يتحتم علينا تغيير تصوراتنا والمساعدة في تغيير أهداف عائلاتنا، ومجتمعاتنا، وأممنا، والعالم. لقد حان الوقت لتحويل دعائم ستراتيجية القتل الاقتصادي الأربع.

حان الوقت لاستبدال دعامة الخوف من «الآخر» بتصميم على العمل جنبا إلى جنب. لقد حددنا أنفسنا ككائنات فضائية غريبة حينما عزلنا أنفسنا عن البيئة التي تديم وجودنا. لقد حان الوقت لتظافر القوى، كما لو هددت كائنات فضائية غريبة من نظام شمسي آخر وجودنا. يتمثل عدونا في فهمنا بأن المادية المفرطة وتعظيم الأرباح قصيرة الأجل يمثلان مؤشرات قياس النجاح. وتتمثل حماقتنا في هوسنا المعادي للأجانب وتصورنا أن الآخر هو العدو. لقد حان الوقت لتغيير كل هذا بالخوف من عدو حقيقي ووشيك يتمثل في: نظام يدفعنا أكثر من أي وقت مضى نحو الوصول إلى دمار الذات.

حان الوقت لإنهاء استخدام الديون وسيلة للسيطرة على الآخرين. حينما نعرف الازدهار على أنه منفعة وفائدة أشكال الحياة ونضمن الكفاية والسلام للجميع، عوضا عن المادية المفرطة لصالح قلة قليلة، سوف نفهم مرور الطريق الوحيد لاستمتاع أطفالنا بحياة مزدهرة عبر ازدهار ورخاء الأطفال في كل مكان. تمثل الديون الاقتصادية نوعا من العبودية. وكما هو الحال مع العبودية، فإن هذه المنهجية ستدمر نفسها في نهاية المطاف. إن الدين الحقيقي في رقابنا يكون للهواء، والماء، والتربة، والأشجار، والحيوانات، فضلا عن الناس الذين يقدمون الأشياء التي تدعمنا ماديا وروحيا. إننا ندين لهم ولأنفسنا بالالتزام باقتصاد الحياة.

تنبع المخاوف من الشح وعدم الكفاية من خلال الأفكار القائلة بمحدودية الموارد، وفلسفة تقول بأن «ربحنا» يستلزم اعتماد ستراتيجية القتل الاقتصادي بغية استغلال الشعوب الأخرى والطبيعة. حان الوقت لتغيير هذه الأفكار واستبدالها بمعرفة أن موارد اليوم وغدًا محدودة فقط بإبداعنا ورغبتنا بتغيير المفاهيم والنظم التي تروج لعدم المساواة والندرة.

ما من مكان لمنهجية فرق تسد في عالم تهدد الأسلحة النووية بتدمير كل أشكال الحياة فيه. يكمن أملنا في التكاتف عبر جميع أرجاء العالم وإنهاء المفهوم الرجعي الذي يصر على صورة «العدو الخارجي». لقد حان الوقت لمواجهة العدو في داخلنا ضمن دوافعنا، هذا العدو الذي يدفعنا نحو حافة الدمار المتبادل أكثر فأكثر.

تسهم الولايات المتحدة والصين معا بما نسبته 43% من اقتصاد العالم (عام 2021، حققت الولايات المتحدة وحدها بحدود 25% من مجموع الناتج القومي الإجمالي في العالم، في حين حققت

الصين 18%، في مقابل اليابان التي حققت 5%).230 يتحمل كلا البلدين معًا مسؤولية كبرى في التغيير المناخي، حيث يسهمان فيما يقرب من 40% من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناتجة عن احتراق الوقود الأحفوري (عام 2011، أنتجت الولايات المتحدة انبعاثات كربونية بنسبة 11% في مقابل 27% أنتجتها الصين، وحلت الهند ثالثا بنسبة 7%).[231] بوسع الولايات المتحدة والصين الاختلاف حول العديد من القضايا، لكن من الضروري بمكان تعاونهما معًا في سبيل خلق مستقبل مزدهر، مستقبل معتمد على اقتصاد الحياة. لقد حان الوقت لإنهاء الحكاية النرجسية التي تبيح لبعض الناس إخضاع بعض آخر، وأن البشر أسمى مكانة وأرفع قدرا من الطبيعة، وأن بعض النخب تتمتع بامتيازات خاصة، وأن القوة العسكرية والاقتصادية تجعلان من ذلك حقًّا. لقد حان الوقت لإدراك أننا ــ أنا وأنت ــ نعيش لحظة حرجة ومنعطفا خطيرا في التاريخ.

إذا ما كنت تميل إلى الشعور باليأس، انظر حولك. توجد الكثير من العلامات التي تبعث على الأمل.

من جملة هذه العلامات يبدو وجود الشباب في كل مكان، كما في كلية إدارة الأعمال الدولية الصينية الأوروبية في الصين، المقهى في كارتاخينا بكولومبيا، عبر أرجاء الولايات المتحدة، فضلا عن التجمعات في أنحاء العالم. التقيت الكثيرين حينما تحدثت في مهرجان ألوان أوسترافا عامي 2018 و2019. تمثل مدينة أوسترافا في جمهورية التشيك نموذجا لما يمكن القيام به. كانت أوسترافا، المعروفة بتسمية «القلب الحديدي» للاتحاد السوفييتي إبان حقبة الحرب الباردة، موقعا لمنجم كبير يضخ الفحم مباشرة إلى مصنع ضخم للحديد والصلب. بعد نضوب مخزون الفحم، أغلق المجمع بالكامل. في مواجهة الانهيار الاقتصادي، حوّل المواطنون الهياكل العملاقة المتداعية إلى مسارح وقاعات رائعة، ووجهوا الدعوات للموسيقيين كي يعزفوا، والفنانين كي يعرضوا أعمالهم الفنية، فضلا عن المتحدثين لمناقشة القضايا الدولية. حضرتُ هناك في كل عام، إذ احتفل أكثر من 50000 من الناس في مكان يمثل التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة.

تتضمن الأمثلة الأخرى مبادرات سياسية كما في الصفقة الجديدة الخضراء، والرأسمالية الواعية، ومنفعة الشركات، والتعاونيات، وباقي المناهج المبتكرة في عالم الأعمال، والتكنولوجيات البديلة لتوليد الطاقة والزراعة العضوية، فضلا عن إنشاء بورصة التداول طويل الأجل. أثناء اجتماعات العمل على الطاولة المستديرة عام 2019، وعد رؤساء مجالس إدارات 192 من أكبر

شركات العالم باستبدال هدف تعظيم الأرباح قصيرة الأجل بنموذج يلبي متطلبات الزبائن، والعاملين، والمجهزين، فضلا عن المجتمعات المحلية، وذلك عبر التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة.

بعد لقاء مبعوث الرئيس الأميركي الخاص لشؤون المناخ جون كيري والمبعوث الصيني الخاص للتغيير المناخي زاي زينهوا في شانغهاي في 15 ـ 16 نيسان، 2021، أصدر الاثنان بيانا خلص إلى:

تلتزم الولايات المتحدة والصين بالتعاون والعمل معًا ومع الدول الأخرى بهدف التصدي لأزمة المناخ، تلك الأزمة التي تتطلب تظافر الجهود لمواجهتها بالجدية والإلحاح الذي تتطلبه. يشتمل هذا الكلام على تعزيز إجراءات كلا البلدين والتعاون في العمليات المتعددة الأطراف، بما في ذلك اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيير المناخ ومعها اتفاق باريس.[232]

وهذه علامة أخرى تبعث على الأمل كذلك.

أمضى الدكتور جون كوب، وهو رجل نابض بالحياة في السابعة والتسعين من العمر، الكثير من حياته مدافعا عن القضايا البيئية في الصين وعقد صداقات مع الكثير من زعماء البلاد الحاليين هناك. يشير كوب إلى أن الانتقال من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة يؤدي إلى بروز حضارة البيئة (انظر الملحق)، وأن الدستور الصيني يشير صراحة إلى هدف تحقيق حضارة بيئية.[233] شهر تشرين الأول من العام 2021، كتب الدكتور كوب رسالة إلى الرئيسين تشي وبايدن يناشدهما تظافر القوى والجهود. قال لي جون: «لقد طلبت من الرئيس تشي تفهُّم أن أي موقف قد يبدو ضعيفا من جانب الرئيس بايدن تجاه الصين قد يكون مكلفا له سياسيا. وقد اقترحت على الرئيس تشي اختيار أي لفتة مواتية، لأجل مصلحة أحفادنا، بغية قبول الدعوة من أجل العمل معًا»، وأضاف كذلك: «وشددت على الاثنين بأن التعاون ما بين القوتين الكبريين في العالم يمثل السبيل الوحيد لخلق أمل بالمستقبل».

وصلت الرسالة باليد إلى أناس مقربين من الرئيسين بايدن وتشي. بحلول الخامس عشر من تشرين الثاني، 2021، التقى الزعيمان افتراضيا. قال جون: «ليس لدي فكرة إذا ما قرأ الرجلان

رسائلي، إلا أني سعيد بحديثهما معًا. وسواء وصلت رسالتي أو لا، فإن لقاء الرئيسين ألهم الكثير من الناس حول أهمية التوحد لمواجهة الموقف».

ويمثل الوعد الذي قطعه رؤساء مجالس إدارات الشركات الـ192 الكبرى على طاولة العمل المستديرة تأكيدا على تغيّر المواقف. قال لي العديد من المديرين التنفيذيين إن لديهم أطفالا وأحفادا، ويريدون شركاتهم لتكون مسؤولة اجتماعيا وبيئيا أكثر. لكن هؤلاء المديرين يواجهون تحديًا.

يدرك المديرون التنفيذيون في الشركات المملوكة للمستثمرين، بمن فيها رؤساء مجالس إدارات الشركات التي حضرت اجتماع الطاولة المستديرة، وجوب تعاملهم مع حملة الأسهم الذين يشترطون التركيز على تعظيم الأرباح. يقول لي هؤلاء المسؤولون إنهم يأملون إرسال الزبائن رسالة مفادها أنهم سيأخذون أعمالهم إلى مكان آخر ما لم تقم الشركة بالشيء الصحيح، وبالتالي ستخسر الشركة حصتها السوقية وأرباحها.

يعود الأمر لكل فرد بهدف استخدام وسائل التواصل الاجتماعي أو أي وسيلة أخرى متوفرة لغرض تشجيع وتقوية المديرين التنفيذيين للتحرك والعمل كزعماء يقودون عملية التحول نحو اقتصاد الحياة. نحن نملك من خلال وظائفنا، وتسوقنا، واستثمارنا، والناس الذين ننتخبهم، الفرصة لإرسال رسائل الدعم لمفهوم جديد وقصة جديدة عما يعنيه ما يكون النجاح. نحن في وضع يسمح لنا بتعزيز وتكريس الأفعال اللازمة لتحقيق ذلك.

شيء يمكنكم القيام به

بوسعكم الانخراط أو بدء حملة تواصل اجتماعي عبر اختيار شركة تريدون رؤيتها تتغير وتكتبون رسالة بسيطة إلى هذه الشركة مفادها:

عزيزي السيد رئيس مجلس إدارة الشركة س

إني أحب المنتجات التي تبيعها شركتكم، ثم إنني أريد لشركتكم تحقيق أقصى النجاحات والتحول إلى مثال يحتذي به الآخرون. إني أريد رؤيتكم نموذجا باهرا لزعماء شركات المستقبل. لذلك، قررت عدم شراء منتجاتكم مرة أخرى حتى تقوم الشركة (س) بوقف تلوث الجو، ودفع أجور عادلة لموظفيها العاملين في الخارج... وبمجرد حصول ذلك، سنتأكد، أنا وآلاف غيري، تحوُّلَ

قصتكم إلى قصة نجاح عمل كبيرة. سيتعين عليك المضي بعيدا في المقدمة. وفي النهاية ستزداد مبيعاتكم، وحصصكم السوقية، وأسعار أسهمكم.

المخلص

(هـ)

أرسل هذه الرسالة الإلكترونية لرئيس مجلس إدارة الشركة وقائمة معارفك وباقي حسابات شبكات التواصل الاجتماعي. حينما يرسل عشرة فقط من هؤلاء المتلقين رسالة إلى رئيس مجلس الإدارة إلى جانب حسابات شبكاتهم الاجتماعية، وحينما يقوم عشرة متلقين للرسالة بالأمر ذاته، سيمتلئ صندوق بريد رئيس مجلس إدارة الشركة بمئة رسالة بهذا الخصوص. وحينما تستثير الرسائل كل منها عشر استجابات أخرى، عندها سيتلقى رئيس مجلس الإدارة ألف رسالة، ومن ثم عشرة آلاف رسالة وهكذا دواليك. ولسوف يستمر الأمر هكذا حتى يصل إلى ارقام كبيرة وحرجة تمكّن رؤساء مجالس الإدارات من تفسير الوضع لكبار المستثمرين ولِمَ يتعين عليهم مراعاة نصيحة زبائنهم.

أشياء أخرى يمكنكم القيام بها

بما أنكم تعيشون في زمن يتمتع بتكنولوجيا تواصل بالغة الكفاية، تتوفر لديكم المقدرة على إلهام الآخرين لتغيير سياساتهم وأفعالهم. لقد أنعم الله عليكم بوسائل النشر التي تروج لمفهوم تعلق النجاح بالعمل بعضنا مع بعض، وتحديد الازدهار على أساس منفعة كل أشكال الحياة، وأن نرى أنفسنا جزءا من ـ لا جزءا منفصلا عن ـ الطبيعة، وأن ندرك أننا ملاحو سفينة فضائية تدعى الأرض، وأن الله أنعم علينا بفرصة الالتقاء معا وقيادة هذه السفينة بأنفسنا بعيدا عن اقتصاد الموت نحو اقتصاد الحياة.

أدناه تجدون مجموعة من الأفكار لكيفية التعامل مع كل دعامة من دعائم ستراتيجية القتل الاقتصادي الأربع. تتحقق هذه الأفكار عبر وسائل متعددة كما في: استخدام وسائل التواصل الاجتماعي إلى التحدث علانية عبر اجتماعات مجالس التخطيط المحلي للمدن واجتماعات الآباء والمعلمين، ومن تنظيم الحركات الاحتجاجية إلى الترشيح لإدارة المؤسسات والمكاتب العامة.

إن كل هذه الأفكار ليست سوى أمثلة بسيطة على إجراءات يسعكم القيام بها. فلتوجهكم الأشياء التي تمكنكم من إيصال أصواتكم بأكفأ الوسائل وأكثرها متعة. استمتعوا بالإبداع.

دعامة الخوف

ـ استخدموا وسائل التواصل الاجتماعي للحديث إلى عائلتكم وجيرانكم، واستخدموا كنائسكم، ومعابدكم، وجوامعكم، وباقي أماكن الاجتماع الأخرى، وتحدثوا إلى السياسيين عن الحاجة إلى التغلب على الخوف من الناس المنحدرين من ثقافات أخرى، وأعراق وجنسيات مختلفة.

ـ تحدثوا عن الأم تيريزا، وروزا باكس، ومارتن لوثر كينغ، وعن أبطالكم الشخصيين ممن تغلبوا على الخوف عبر اتخاذ مواقف إيجابية، وأشيروا إلى أنهم لم يكونوا إلا بشرا عاديين مثل بقيتنا ممن لم يكن لديهم فكرة عن فرصة نجاحهم أو ما كانوا مشاهير حينما بدؤوا مشوارهم.

ـ اتركوا الناس يعرفون أن الشيء الوحيد الذي تتوجب خشيته يتمثل في اقتصاد الموت والأفكار التي تعزز وتكرس العنف.

الديون

ـ شجعوا الطلبة وغيرهم على عدم التعامل مع القروض.

ـ اكتبوا مقالات، ومدونات، ورسائل إلكترونية للسياسيين تطالبونهم فيها بإطفاء قروض الطلبة الكبيرة ومعدلات الفائدة العالية على بطاقات الائتمان، والرهونات، والقروض المماثلة.

ـ طالبوا بوضع حد لسياسات التمويل الحكومية، والمصرفية، وصناديق التمويل الانتهازية التي تستعبد الدول الأخرى بالديون، ودافعوا عن إطفاء الديون في الدول المثقلة بها، وأشيروا إلى أن إطفاء الديون يخدم مصالحنا ويخلق اقتصاد حياة على المدى البعيد.

الخوف من عدم الكفاية

ـ استوعبوا أن تعريف «عدم الكفاية» ربما يستند إلى مفاهيم ترتبط بالحالة أكثر من الاحتياج المادي، وأن إنهاء عدم كفاية الناس الذين يعانون نقص الأشياء الأساسية يتطلب التحول نحو اقتصاد حياة عالمي.

ـ ادعموا التحول نحو اقتصاد الحياة من خلال:

1 ـ إنشاء حديقة بيئية و/أو الشراء من المزارع والأسواق العضوية المحلية.

2 ـ كرسوا التكنولوجيات التي تستبدل الوقود الأحفوري بالطاقة البديلة.

3 ـ شاركوا في برامج إعادة التدوير الشاملة (الصفرية) التي لا تترك شيئا من المخلفات وراءها أو ادعموها.

4 ـ تبنوا نمط حياة يحد من الاستهلاك المادي.

5 ـ اعتمدوا المشي أو ركوب الدراجات، واستخدموا الكهرباء باعتدال، وتحولوا إلى نظم الغذاء النباتية أكثر.

فرق تسد

ـ أهملوا واستنكروا متى ما كان مناسبا الحملات الدعائية ونظريات المؤامرة الرامية إلى تقسيمنا وإبعادنا عن الدول والأعراق والثقافات الأخرى.

ـ أصروا على تدريس مدارسكم المحلية للسمات المهمة والتاريخ الخاص بالأعراق والثقافات والدول الأخرى.

ـ اقرؤوا وشاهدوا واحكوا قصصا تمجد التعاون والتراحم والسلام، عوضا عن الفتوحات.

عام

ـ انشروا باستمرار الأفكار عن التحول إلى اقتصاد حياة سلمي، ومتجدد، ومستدام، وبأسلوب ملؤه الفرح والمتعة.

ـ ادعموا الأعمال والشركات المحلية، والتعاونيات، والمزارع، وباقي المساعي الأخرى المبذولة للحفاظ على الطبيعة.

ـ ضعوا خططا لحملات شخصية تهدف إلى تغيير المفاهيم والتحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة، حملات تدخل البهجة إلى نفوسكم، واحذروا تعدد الأدوار والمهام المرهقة التي من

شأنها التسبب بإرهاقكم أو الآخرين معكم (انظروا الأسئلة الخمس أدناه).

سألت جدتي ذات مرة كيف واجهت مخاوفها أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، وجائحة الأنفلونزا عام 2018، والكساد العظيم. أجابت دون تردد: «بالأمل، والإيمان، والعمل، والشجاعة».

حان وقت التحلي بالأمل، وإدراك أننا نغير الحقيقة بتغيير المفاهيم، والإيمان بمقدرتنا على تجاوز «الصعاب المتصورة» كما فعل الآخرون من قبلنا، وجمع شتات شجاعتنا لمواجهة المخاوف بطريقة تصنع تصورات ينتج عنها أعمال إيجابية.

ربما تكون الإجابة عن الأسئلة الخمس التالية من بين أسهل الوسائل لتحديد دورك الشخصي، كما يلي:

1 ـ ما مهمتي، ورغبتي العظمى، والشيء الذي يحقق لي أقصى قدر من الرضا والمتعة؟

كمثال، يمكنني الإجابة بـ: «أريد الاستمرار بتأليف الكتب».

وقد يجيب صديق يعمل نجارا «أريد العمل بيدي وبالأخشاب».

2 ـ كيف يمكن لتحقيق جواب السؤال الأول تغيير المفاهيم والمساعدة في التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة يا ترى؟

أنا: «سأتصدى لهذه الأفكار عبر كتاباتي وأُلهِم الناس ليتخذوا المواقف ويفعلوا الأشياء».

صديقي النجار: «سأستخدم موادَّ مستدامة وأعمل على نشر مفاهيم جديدة حول حكمة استخدام مثل هذه المواد لزبائني».

3 ـ ما المفاهيم التي منعتني أو ربما تمنعني مستقبلا من فعل ما ورد في السؤال الأول والثاني يا ترى؟

أنا: «ليس لدي ما يكفي من الوقت للكتابة، عدا عن شعوري بالإحباط جراء رفض الناشرين مخطوطتي الأخيرة».

صديقي النجار: «لا يريد زبائني دفع سعر إضافي مقابل مواد مستدامة».

4 ـ حينما أواجه موانعي وأدركها وأقرّ بها، كيف تتغير مفاهيمي يا ترى؟

أنا: «سأقلل مشاهدة التلفاز بواقع ساعة لأربع ليالٍ في الأسبوع، وأكرس الوقت لكتاباتي، ولن آخذ الناشرين على محمل الحق دوما، وأنهم بدلا من ذلك بشر يخطئون ويصيبون، وسأستمر بالمحاولة مع ناشرين آخرين أو النشر بنفسي».

صديقي النجار: «سأوضح لزبائني بأن السعر الإضافي ليس كلفة وإنما استثمار في مستقبل كل أشكال الحياة».

5 ـ بمجرد تغييرك للأفكار، ما الإجراءات التي ستتخذها بهدف تحقيق وإنجاز مهمتك؟

أنا: «سأبدأ الكتابة لساعة إضافية أخرى لما لا يقل عن 4 ليالٍ في الأسبوع، ولن يردعني أي رفض، وسأركز على العمل وأرسل مخطوطتي إلى أكبر عدد من الناشرين ومهما تكلفني ذلك من جهد ومحاولات، أو سأتعلم كيفية نشرها بنفسي».

صديقي النجار: «سأبني منازل وخزائن بمواد مستدامة وأشدد على زبائني أن يستثمروا في المستقبل».

مع مرور الوقت، أدركت تنوع إجابات هذه الأسئلة، لا سيما الثلاث الأخيرة منها، كثيرا. فعلى سبيل المثال، بمجرد التزامي بالكتابة لساعات محددة من كل أسبوع، يتعين عليّ اتخاذ قرارات حول ما يجب كتابته كل يوم. لذلك، سيكون من المفيد مراجعة هذه الأسئلة على الدوام. وبوسع أي شخص القيام بذلك في أقل من عشر دقائق، الأمر الذي سيصبح أسهل كل مرة. ولا شك أن الموضوع في حد ذاته يكتنفه الكثير من الإبداع والمتعة.

من المهم الشعور بالمتعة، سواء في إجابة هذه الأسئلة أو تطبيق الإجابات على شكل أفعال. وتجنبوا إجبار أنفسكم على فعل أشياء مرهقة، فهنالك دوما جوانب أقل جاذبية من غيرها، كما هو الحال مع غسل الصحون بعد تناول الطعام. لكن غسل الصحون لا يجب أن يحرمنا لذة الطعام. شخصيا، هنالك الكثير من جوانب التحرير التي لا أستمتع بها بقدر تشكيل الأجزاء الإبداعية من

القصة. لكن ذلك لم يمنعني من المضي قدما، وأخذت أنظر إلى تحرير النص لا كعبء وإنما كفرصة لتسليط الضوء على تفاصيل مثيرة.

قدسوا أحلامكم، ومهمتكم في الحياة، والأشياء التي تبعث في نفوسكم البهجة، وقوموا بكل ما تستطيعون لجعل العالم مكانا أفضل. واعلموا أن الوقت قد حان لقتل ستراتيجية القتل الاقتصادي في كل مكان. لقد حان الوقت لتبنّي مفاهيم جديدة تدعم على المدى البعيد ما مفاده: «إذا ما أردنا ازدهار بلدنا، فسوف يتعين علينا تعريف الازدهار بأنه المنفعة التي تعم كل أشكال الحياة في العالم أجمع، وأن نرى أنفسنا كجزء من ـ لا كجزء منفصل عن ـ الطبيعة، ونتقبل فكرة أننا ملاحون نقود سفينة الأرض الفضائية، ونحشد القوى لقيادة أنفسنا بعيدا عن اقتصاد الموت ناحية اقتصاد الحياة».

سويا ـ نحن شعوب الأرض ـ سنخلق اقتصاد حضارة البيئة.

ولتفاصيل أكثر عن الحوادث الراهنة ومعرض للصور المتعلقة بهذا الكتاب، يمكن الرجوع إلى الموقع الالكتروني:

economichitmanbook.com

اعترافات قاتل اقتصادي

دليل المناقشة

بهدف مساعدتكم في النقاشات التي تخوضونها حول هذا الكتاب ضمن مجموعات القراءة، ونوادي الكتب، وقاعات الدرس، وبرامج التدريب، وباقي الجلسات والأماكن الأخرى، يمكنكم الاستفادة من بعض الأسئلة التي قد تساهم في تحفيز وإثراء حواراتكم. فلا تترددوا في التركيز على الأسئلة التي ترونها مثيرة للاهتمام أكثر من غيرها أو ذات صلة، والمفيدة لتحقيق أغراضكم، أو تلك التي تضعونها بأنفسكم.

التمهيد والمقدمة

ـ ما الأمثلة التي يسعكم إعطاؤها فيما يخص الوسائل التي تحركت بها الإجراءات والأفعال بتأثير من التصورات التي غيرت من الواقع، في بلدك ومجتمعك وفي شخصيتك على حد سواء؟

ـ يشير بيركنز إلى الطبيعة الذاتية (للغاية) للناتج القومي الإجمالي. كيف تسهم مقاييس كهذه في ستراتيجية القتل الاقتصادي يا ترى؟

ـ افترض أنك زعيم بلد يتوفر على الموارد الطبيعية وليس التكنولوجيا المطلوبة لاستغلال هذه الموارد، وشعبك يريد منك التفاوض بغية الوصول إلى صفقة مع الولايات المتحدة أو الصين. كيف يمكن للمفاهيم المختلفة الواردة في هذا الكتاب عن هذين البلدين التأثير فيك؟

ـ أترى في التغييرات التي طرأت على دعائم القتل الاقتصادي الصينية أهمية خاصة؟ وهل تعتقد أنها قيد التنفيذ حقا؟

القسم الأول: نذر المستقبل

ـ لو كنت مكان الرئيس كوريا، هل كنت لتتحول ناحية الصين كما فعل؟

ـ كيف يمكن لبلد غني بالموارد موازنة احتياجاته إلى العوائد كي يقدم المنافع الاجتماعية لشعبه مع مسؤوليته عن حماية بيئته؟

ـ ما البحث الذي تستطيع إيجاده في المصادر الخارجية بهدف دعم المزاعم عن السلوك المتلاعب الذي تتبعه المنظمات الاقتصادية في الإكوادور و/أو باقي الدول الأخرى؟

ـ ما البحث الذي يسعك إيجاده بهدف دحض تلك المزاعم؟

القسم الثاني: 1963 ـ 1971

ـ يكتب بيركنز عن الطريقة التي أثر بها الحلم الأميركي في حياته وعمله. ما التصورات المسبقة لديك عن الحلم الأميركي؟

ـ كم هي التصورات، وما التي وجدتها منها صحيحة يا ترى؟ وما التي تبين زيفها بالمقابل؟

ـ كيف كانت ردة فعلك حينما قرأت حول ما قاله مدير الشركة النفطية التنفيذي في المطعم الإكوادوري الفاخر لبيركنز عن أنشطة شركة تكساسكو في الأمازون؟

ـ من الواضح تأثير تجربة بيركنز مع الفنون والثقافة المحلية الإندونيسية في تحريك وعيه. أتعتقد ضرورة وجود هذا النوع من العلاقة بغية خلق تغيير إيجابي (أو تجنب التغيير السلبي) في مجتمع ما؟

القسم الثالث: 1971 ـ 1975

ـ كيف تتناسب قناة بنما وتاريخ الهيمنة الاقتصادية والإمبريالية؟

ـ كيف يُقارَن تاريخ تطوير قناة بنما مع مشاريع البنية التحتية التي اقترحها بيركنز عن إندونيسيا وغيرها من الأماكن الأخرى؟

ـ إلى أي حد ـ باعتقادك ـ غذّت العلاقات الاقتصادية والعسكرية الموثقة جيدا بين الولايات المتحدة والعربية السعودية موقف الولايات المتحدة تجاه العربية السعودية ما بعد حوادث الحادي عشر من أيلول؟

ـ إلى أي حد ارتبطت تلك العلاقات ببناء الإمبراطورية على وجه خاص؟

القسم الرابع: 1975 ــ 1981

ـ أشار بيركنز إلى تحدي معايير الشرعية الغربية. بأخذ هذا الكلام في نظر الاعتبار، أتعتقد بسلامة الوسائل العلمية والاقتصادية الغربية بقدر ما تقدم نفسها إلى العالم؟

ـ هل الاقتصاد علم؟ وأتوجد وسائل لفهم الازدهار خارج أعراف الاقتصاد يا ترى؟

ـ يصف بيركنز سيرته الذاتية بأنها مخادعة عن عمد ولا تتضمن إلا نزرا يسيرا من المعلومات التي «يستحيل دحضها لأنها تستند إلى بصيص من الحقيقة، وليست أكاذيب مفتوحة، ولأنها كتبت على يد شركة كسبت ثقة الشركات الأخرى، والبنوك الدولية، والحكومات». هل تستمر هذه الثقافة حتى يومنا الحاضر؟ وإذا ما كانت مستمرة فعلا، فأين ترى هذا الاستمرار متجسدا يا ترى (في أعمال الشركات أو ما هو أبعد)، وما التأثير الذي تحدثه بوجه عام؟

القسم الخامس: 1981 ــ 2004

ـ تطورت مقاومة قوية ضد نماذج القتل الاقتصادي التقليدية جراء غزو الولايات المتحدة لبنما والعراق. ما الدروس المستفادة من هذا الكلام؟

ـ أُثبِتَ الكثير من الأنشطة الشائنة والتداعيات الواردة في هذا الكتاب بالوثائق والأبحاث أو من خلال رفع حجاب السرية عنها. أتعتقد مصداقية ما قيل حول تورط وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في اغتيال توريخوس ورولديوس يا ترى؟

ـ حينما تفكر في ظواهر كهذه، أين ترى الخط الفاصل بين نظريات المؤامرة المنتشرة من جهة وتسليط الضوء على شبكة من الحقائق غير المريحة من جهة أخرى؟

القسم السادس: 2004 ــ 2016

ـ أتعتقد بتعرض بيركنز لمحاولة اغتيال بالسم؟ وإذا ما كان الأمر كذلك، من الذي نفذها في تصورك؟

ـ يوجز بيركنز المبادئ الأساسية لاقتصادي الموت والحياة. أتتفق وهذين التعريفين؟ وهل كنت لتضيف أو تحذف أيًّا من النقاط؟

ـ ما أهداف وتكتيكات اقتصاد الحياة التي كنت لتعطيها الأولوية بحسب رأيك؟

ـ يصف بيركنز السلالة الجديدة من قتلة الاقتصاد وأبناء آوى. أفي وسعك إضافة شيء إلى قائمته؟

القسم السابع: ستراتيجية القتل الاقتصادي الصينية

ـ لو كُلّفتَ أنت بتطوير خطة لتوسيع اقتصاد بلادك، كيف ستقرر المخاطر في مقابل المنافع التي تعرضها استثمارات الصين؟

ـ يثير وصول الصين إلى وضع الشريك التجاري الأكبر للأرجنتين في العام 2020 (حسبما ورد في الفصل 41) سؤالا مفاده: كيف يوضح هذا الكلام وجهة نظر بيركنز عن مساعي الصين لمقاربة ستراتيجية القتل الاقتصادي بمفهوم جديد يا ترى؟

ـ في سياق بناء الامبراطورية، أتعتقد بخطأ نهج تركيز الولايات المتحدة على القوى العسكرية يا ترى؟

ـ ما المنافع الموجودة في طريق الحرير الجديد؟ وهل يمثل هذا الطريق ردة الفعل الصينية الإمبريالية على الولايات المتحدة، أم توجد هنالك إمكانات حقيقية للمنفعة في صالح المستفيدين، أم كلا الأمرين؟

الاستنتاج

ـ أفي وسعك إضافة أي إطلاقات نارية أخرى لقتل دعائم القتل الاقتصادي فيما عدا الواردة في هذا الكتاب؟

ـ حينما تسأل نفسك وتجيب عن الأسئلة الخمس، أتشعر بالقوة والتمكين للمضي قدما بمهمتك، لتشعر بأن هذا يمنحك الشعور الأكبر بالرضا في حياتك؟

ـ أتعتقد وجود أي وسائل تسمح لك بالمساعدة في التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة؟

أسئلة ونظرات عن مجمل الكتاب

ـ يتمحور الكثير من هذا الكتاب حول تحدي السرديات السائدة. ما المفاهيم المسبقة التي اعتنقتها في الماضي وأعدت النظر فيها منذ قراءتك هذا الكتاب؟

ـ كيف يتحدى خطاب بيركنز بعض السرديات السائدة عن حكمة تعليم وممارسات العمل؟

ـ ما السياسات التي يجب علينا اتباعها في شركاتنا وباقي المؤسسات الأخرى بهدف تسهيل التوسع نحو اقتصاد الحياة؟

ـ ما السرديات التي يقدمها بيركنز وتثير الشكوك فيك؟

أسئلة بحسب الموضوعات

قتلة الاقتصاد

ـ أتعتقد، كما يقول بيركنز، أن الكثير من الناس العاملين في مواقع قتلة الاقتصاد اليوم ليسوا على دراية بالجوانب الضارة لهذا العمل أو دورهم فيه؟

ـ كتمرين لك، كيف يسعك تفسير ستراتيجية القتل الاقتصادي بإزاء جمهور متشكك؟ وما الذي يمكنك قوله للحفاظ على المصداقية وإنصاف وجهات النظر الأخرى؟

ستراتيجيات وصيغ القتل الاقتصادي

ـ أتوجد أي تكتيكات لم يرد ذكرها أو مناقشتها في الكتاب وتعتقد أنها تنسجم وستراتيجيات القتل الاقتصادي؟

ـ إلى أي حد وُظّفت ستراتيجيات القتل الاقتصادي في بلدك يا ترى؟

فخ الديون

ـ يؤثر فخ الديون في الأفراد قدر تأثيره في الأمم. ما الأفكار التي تمنع أو تحد من هيمنة الديون يا ترى؟

ـ أتوجد بدائل لمنظومة الائتمان القائمة على الديون المستخدمة عبر أرجاء العالم؟

مفاهيم زائفة عن المنفعة الاقتصادية

ـ تركز ستراتيجية القتل الاقتصادي على المنافع المتأتية من خلال برامج إقراض الدول الأخرى. ما السبب وراء مركزية هذا الادعاء يا ترى؟

ـ بناءً على النص، أين يبدأ هذا الادعاء بالانهيار يا ترى؟

اتساع فجوة الثروة

ـ بحسب منظمة الأمم المتحدة، انحسرت فجوة الثروة ما بين الأمم، في مقابل توسعها داخل الدول.[234] أتتصور تعمد قتلة الاقتصاد الحد من التركيز على الهوية الوطنية كوسيلة لدفع مصالح الشركات الكبرى وأصحابها الكبار؟

ـ كيف أسهم قتلة الاقتصاد بتوسيع فجوة الثراء في العالم الغربي؟

ـ أوجَدْتَ في هذا الكتاب تحديا لأفكارك عن حكم الجدارة والاستحقاق أو ما يلزم للمضي قدما بالعالم؟

استخراج الموارد

ـ لطالما أشيع عن الولايات المتحدة شنها الحروب ـ كما أشار بيركنز في فصله عن إفريقيا ـ وفشلها، في الوقت ذاته، في التدخل بالصراعات التي تقوض استقرار المناطق الغنية بالموارد. أترى مكافئا موازيا في سياسات الصين؟

ـ ينادي الكثير من الناس اليوم بما يُعرف بـ«حركة خفض النمو» التي تركز على إنتاج واستهلاك أقل. برأيك الشخصي، أنحن بحاجة إلى النمو بالمفهوم الاقتصادي التقليدي للحفاظ على مجتمعاتنا؟

ـ أتوجد أي أنواع أخرى للنمو الذي يؤدي إلى اقتصاد الحياة يا ترى؟

اقتصاد الموت ضد اقتصاد الحياة

ـ أترى فائدة في إطار عمل اقتصاد الحياة ضد اقتصاد الموت يا ترى؟

ـ أتعتقد وجود وسائل تسمح لك بتكييف هذا الإطار تبعا لظروفك؟

ـ كم من التركيز ستضع على الحلول المجتمعية صغيرة الحجم في مقابل ما ستضعه على الدفاع عن التغيير المؤسسي واسع النطاق؟

المصادر

هذه بعض المصادر الإضافية إلى جانب تلك التي وردت في الهوامش. تتضمن هذه المصادر توصيفات مقتضبة ما لم يوضح العنوان ذلك.

أفلام

- انقلاب أميركي، وهو عبارة عن وثائقي بطول 89 دقيقة حول تدبير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لانقلاب في ايران.[235]

- «اعترافات قاتل اقتصادي ودعوات إلى العمل»، جون بيركنز، ملتقى تيديكس.[236]

- اعتذار قاتل اقتصادي، وهو وثائقي بطول 80 دقيقة من إنتاج شركة يونانية، ويركز على حديث بيركنز عما فعله في الإكوادور، والذي يعود بذاكرته إلى أيام عمله كقاتل اقتصادي ويتضمن لقطات عن المكنة الدعائية الأميركية ومصرع رئيسي دولتي الإكوادور وبنما. [237]

- «أفلام كرتون القاتل الاقتصادي»، وهو عبارة عن أفلام كرتون بطول دقيقتين ونصف مع جون بيركنر، يشرح فيها كيفية تدمير الشركات الكبرى للأمم من خلال الديون، والحروب، والرأسمالية المفترسة.238

- الحياة والدَّين، وهو فلم روائي طويل من إنتاج العام 2001، أخرجته ستيفاني بلايك، ويسلط الضوء على سياسات وقروض صندوق النقد الدولي والبنك الدولي الفاشلة التي طُبّقت في جامايكا، وما نتج عنها من ديون وتداعيات على الأمة، وانتقاد هذه المؤسسات التي فرضها الرئيس الجامايكي الأسبق ميشيل مانيلي على بلاده.[239]

- فيلم العجز الكبير، وهو فيلم سينمائي صدر في العام 2015 من إخراج آدم مكاي، ويتناول حوادث أزمة الكساد الاقتصادي التي عصفت بالعالم عامي 2007 – 2008، ويشرح الكثير من الأدوات التي يستخدمها المضاربون والأثرياء بغية التلاعب بالأسواق المالية.[240]

- فيلم خديعة بنما، وهو عمل صدر في العام 1992 من إخراج باربرا ترينت ويتناول قضية غزو الولايات المتحدة لكندا، ويقدم سردا معمقا للفظائع التي اقترفتها القوات الأميركية، ويجادل بأن الهدف الحقيقي من وراء الغزو يتعلق باستعادة أميركا السيطرة على قناة بنما وتنصيب حكومة صديقة في هذا البلد.[241]

- ذئب وول ستريت، وهو فيلم سينمائي صادر في العام 2013 من إخراج مارتن سكورسيزي ويحكي قصة حقيقية عن مُضارِب في وول ستريت تورط في أعمال فساد واحتيال.[242]

- فيلم «عمل الصين المربح من خلال استعباد إفريقيا».[243]

تقارير وكتب

- ديفيد كورتون، حضارة البيئة: من الطوارئ إلى الانبعاث روما: نادي روما، [244]2021.

- ديفيد كورتون، التحول العظيم: من الامبراطورية إلى مجتمع الأرض. سان فرانسيسكو: منشورات بيريت ـ كويلير، 2007.

- ديفيد كورتون، حينما تحكم الشركات العالم، الطبعة الثالثة. سان فرانسيسكو: منشورات بيريت ـ كويلير، 2015.

- فيجاي بارشاد، الأمم المظلمة: تاريخ شعوب العالم الثالث. نيويورك: مطبوعات نيو، 2008. (يحلل الكتاب «الرؤية المثالية» للعالم الثالث واستخدامها في سبيل إخضاع ما تسمى دول العالم الثالث ضمن نظام اقتصادي ـ سياسي).

- والتر رودني، كيف تتسبب أوروبا بتخلف وإفقار إفريقيا. لندن: منشورات بوغل ـ لوفرتور، 1972. (يفصل الكتاب الاستعمار الأوربي لإفريقيا واستغلالها لموارد هذه القارة وبناها السياسية، الأمر الذي أسهم في تخلف دائم لهذه القارة التي تعد الأغنى بالموارد على وجه الأرض).

- آيزاك ستون، أميركا ثانيا: كيف تساعد النخب الأميركية في تقوية الصين. نيويورك: نوبف، 2022.

- وانغ زيهي وميغون فان، «ما الذي يستطيع الغرب تعلمه من الصين». جريدة إنترناشونال ديلي، 21 حزيران، 2018.

- ويديل جانين آر، نخبة الظل: كيف يقوض وسطاء القوة العالمية الديمقراطية، والحكومة، والسوق الحرة اليوم. نيويورك: بيسك بوكس، 2009.

- هوارد زين، التاريخ الشعبي للولايات المتحدة. نيويورك: هاربر بيرينيال مودرن كلاسكس، 2005.

مصادر أخرى

- كارديف غارسيا، «التحول العظيم». نيو بازار بودكاست، 2021.[245] (يقدم هذا البودكاست دفاعا متناقضا عن السياسات الليبرالية الاقتصادية ويشدد على الاختلاف ما بين الدين والاستثمار برأس المال ضمن مبادرات التنمية).

- فينسينت ني. وهيلين ديفيدسون. «بسياسة أكثر حذرا، الصين تحول نهجها الإفريقي من الدين إلى دبلوماسية اللقاحات». جريدة الغارديان، 8 كانون الأول، 2021.[246] (يناقش هذا المقال نهج الصين المعاصر فيما يتعلق بالدبلوماسية الاقتصادية).

- روب شميتز، «كيف أوقع الطريق السريع الذي بنته الصين جمهورية الجبل الأسود في أعماق الدين». موقع الإذاعة الوطنية العامة الأميركية، 28 حزيران، 2021.[247] (يستكشف هذا المقال مثالا عن مشاريع البنية التحتية التي تنفذها الصين وتشبه تلك التي دفع من أجلها قتلة الاقتصاد في حقبة بيركنز).

الملحق
اقتصاد الموت في مقابل اقتصاد الحياة

يوجد اختلاف جوهري كبير بين الرأسمالية وما يصفه الكثير من الاقتصاديين بمصطلح «الرأسمالية المفترسة»، وهو مفهوم منحرف لا يرتبط بمشتركات مع المصطلح الأصلي إلى حد كبير.

بحسب قاموس ميريام ـ ويبستر، تعرف الرأسمالية بكونها نظاما اقتصاديا يتميز بملكية القطاع الخاص أو الشركات الخاصة للسلع الرأسمالية، ويتميز كذلك بالاستثمارات التي تحددها قرارات القطاع الخاص، إلى جانب تحديد الأسعار والإنتاج وتوزيع السلع عبر المنافسة في السوق الحرة.[248]

أما قاموس أكسفورد، فيعرف الرأسمالية بكونها نظاما اقتصاديا وسياسيا في بلد يُحكِم فيه القطاع الخاص السيطرة على الصناعة والتجارة الهادفة لتحقيق الربح عوضا عن سيطرة الدولة.[249]

لكن اقتصاد الموت يختلف اليوم كل الاختلاف عن التعريفين أعلاه. في واقع الحال، يتميز اقتصاد الموت بتدمير وامتصاص المنافسين ومعارضي سياسات السوق الحرة. فلا يتوقف الأمر عند عدم ملكية الدولة للشركات وحسب، وإنما تتحكم الشركات والمليارديرات من حملة أسهمها بالدولة. يمثل هذا الاقتصاد حالة «افتراسية» شاذة لا ينبغي اعتبارها رأسمالية.

يتحرك اقتصاد الموت وفق هدف روجت له مجموعة من الاقتصاديين في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، بمن فيهم فريدريك فون هايك الفائز بجائزة نوبل عام 1974، وميلتون فريدمان الفائز بالجائزة ذاتها في عام 1976، والذي يمكن إيجازه بـ«أن الوظيفة الوحيدة للأعمال تتمثل في تعظيم أرباح المالكين على المدى القصير، وبصرف النظر عن التكاليف الاجتماعية والبيئية».

تعطي التوصيفات المرتبطة بهذا المفهوم مديري الشركات التنفيذية الحق ـ وحتى التفويض ـ بفعل كل ما يلزم بهدف تعظيم الأرباح، بما في ذلك شراء المسؤولين الحكوميين عبر حملات

التمويل والوعود بوظائف مربحة بعد خروجهم من العمل الحكومي أو من خلال عمل جماعات الضغط، واستغلال العمال، وشراء المنافسين أو القضاء عليهم، وتدمير البيئة، وتقليص مرتبات العاملين والضرائب المدفوعة، وإضعاف الضوابط التي تحمي المستهلكين والبيئة، ووعود (وتهديدات على حد سواء) بالتأثير في الاقتصاد عبر إعادة نقل مواقع منشآتهم (أو إخراجها من المدن أو الدول)، عدا عن استنزاف كل الموارد التي يعتمد عليها العمل. وتكرس هذه القصص سلاسل القيادة الاستبدادية من الأعلى إلى الأسفل وأنماط الإدارة السلطوية في الحكومات والشركات على حد سواء.

الخصائص الأساسية لاقتصاد الموت

- يهدف إلى تعظيم الأرباح على المدى القصير لصالح نخبة محدودة وصغيرة.

- يستخدم الخوف والدين بهدف كسب حصص الأسواق والسيطرة السياسية.

- يكرس فكرة أن مكسب شخص يستلزم خسارة آخر.

- نظام اقتصادي مفترس يشجع الشركات على افتراس بعضها بعضًا، عدا عن افتراس الناس والبيئة.

- يدمر الموارد المطلوبة لبقائه على المدى الطويل.

- يقيم السلع والخدمات «الاستخراجية» والمادية ويضعها في موضع أعلى من تلك التي تحسّن من نوعية الحياة (كما في تربية الأطفال والفنون وغيرها على سبيل المثال).

- يتأثر بشدة بالصفقات المالية غير المنتجة (التلاعب بسوق الأسهم، والتداولية التمويلية، والمقامرة).

- يهمل العوامل الخارجية كما في تدمير البيئة واستغلال العاملين عند احتساب الأرباح، والناتج القومي الإجمالي، وباقي المقاييس الأخرى.

- يستثمر بكثافة في «العسكرة» كما في القتل أو التهديد بالقتل ضد الناس وباقي الأشكال الأخرى للحياة ويدمر البنية التحتية.

- يتسبب بالتلوث، والانهيار البيئي، وتفاوت الدخل، والفجوة الاجتماعية الشديدة التي يمكنها التسبب بحالة عدم استقرار سياسي.

- يعمل على تشويه سمعة الضرائب عوضا عن تعريفها كاستثمارات (في ميادين الخدمات الاجتماعية والبنية التحتية، والجيش، إلخ).

- إنه نظام غير ديمقراطي ويشجع على نمو الشركات الكبيرة التي تحكمها نخب صغيرة من الأفراد الذين توفر لهم أموالهم نفوذا قويا على السياسيين (الاحتكارات التي تؤدي إلى الأوليغارشية «حكم الأثرياء»).

- يرتكز على سلاسل القيادة من الأعلى إلى الأسفل التي تدعم أساليب الإدارة الاستبدادية في الشركات والحكومات.

- يضع قيمة عليا للوظائف غير المنتجة (أصحاب رؤوس الأموال، ومصرفيو الاستثمار) في مقابل الوظائف المنتجة (العمال، وعمال المصانع)، ومعهم تلك التي تثري الحياة كما في (المعلمين، والموسيقيين، والفنانين).

- يتسبب ببقاء مليارات الناس فقراء.

- يحدد الأشجار، والحيوانات، وكل العالم الطبيعي بمثابة موارد قابلة للنضوب، ويعجز عن احترام وحماية البيئة، ويتسبب بانقراض عدد كبير من الكائنات الحية إلى جانب قدر كبير من المشكلات التي يمكن عكس آثارها.

- بات المدافع المهيمن عما يسمى «الرأسمالية» عبر أرجاء العالم.

يكمن المستقبل في التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة الذي ينظف الأرض من التلوث، ويعيد إحياء الأنظمة البيئية المدمرة، ويعيد التدوير، ويطور التكنولوجيا التي تستعيد الموارد وتنفع البيئة عوضا عن الإضرار بها. ولسوف تصبح الشركات التي تدفع عوائد لمستثمرين يستثمرون في اقتصاد مبني على موارد متجددة قصصا للنجاح بحد ذاتها.

في واقع الحال، يتحرك اقتصاد الحياة بدافع تعظيم المنافع بعيدة الأمد للناس والبيئة.

الخصائص الأساسية لاقتصاد الحياة

- يهدف هذا الاقتصاد إلى خدمة المصلحة العامة (تعظيم المنافع بعيدة الأمد للناس والبيئة).

- تدعم قوانينه تكافؤ الفرص وتشجع المنافسة الصحية غير الاحتكارية، فضلا عن الأفكار المبتكرة والمنتجات المستدامة.

- يكتنفه إحساس بالتعاون، مع الترويج لفكرة إمكانية كسبنا جميعا حينما نضع نصب أعيننا هدف تحقيق المنفعة بعيدة الأمد للجميع.

- يقدّر جودة الحياة والأنشطة المعززة روحانيا فوق تلك التي تقوم على الاستخراج والمادية.

- يقوم على الأنشطة الإنتاجية المفيدة كما في إعادة التدوير، والتعليم، والرعاية الصحية، والفنون، عوضا عن تلك الأنشطة غير المنتجة كما في التلاعب بالأسهم، والتداولية التمويلية، والمقامرة.

- ينظف التلوث.

- يعيد إحياء وتجديد البيئات المدمرة.

- مدفوع بالتعاطف وتجنب الديون.

- يساعد الناس الجوعى على إعالة أنفسهم.

- يضع العوامل الخارجية في حساباته ومقاييسه المالية.

- يبتكر، ويطور، ويحتضن التكنولوجيا الجديدة القابلة للاستدامة والمجددة.

- يعتمد على إعادة التدوير.

- يحدد الضرائب كاستثمارات (أينبغي استثمار أموال الضرائب التي تدفعها في مجال الرعاية الصحية أم العسكرة يا ترى؟).

- إنه نظام ديمقراطي يشجع التجارة المحلية والعاملين أو الأعمال العائدة للمجتمع على منفعة وفائدة الكثيرين (على سبيل المثال: التعاونيات والشركات التي تدعم الربح والأهداف الاجتماعية والبيئية النافعة في الوقت ذاته).

- يعزز عملية اتخاذ القرار الديمقراطي وأنماط الإدارة في الشركات والحكومة.

- يضع قيمة عالية للوظائف التي تثري الحياة (الموسيقيون، والعاملون في القطاعات الطبية والاجتماعية، والآباء).

- يبنى على المعرفة التأسيسية القائلة بأن البشر يعيشون في علاقة تكافلية مع كوكبهم، وأن علينا احترام وتكريم وحماية العالم الطبيعي.

- يكافئ المستثمرين الذين يدعمون كل الخصائص السابقة.

- كان الشكل الاقتصادي السائد للنمو لمعظم فترة مئتي ألف العام الماضية من تاريخ البشرية.

يتحقق التحول عبر تغيير المفاهيم التي توجه القيم والأفعال والقصص التي نرويها حولها. يتحول مفهوم «تعظيم الأرباح على المدى القصير بصرف النظر عن التكاليف الاجتماعية والبيئية» ليصبح «تعظيم الأرباح على المدى البعيد لكل الناس والطبيعة». حينما يتقبل حشد من المستهلكين والعاملين والمستثمرين هذه القيم ويتخذون الإجراءات اللازمة لدعم الشركات والحكومات التي تروج لها، ينتج لدينا ما نسميه «حضارة البيئة». كتب ديفيد كورتون، وهو عضو سابق في الهيئة التدريسية لكلية هارڤرد للأعمال ومستشار لمؤسسات فورد، وروكفلر، ومستشار ضمن مهام الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، وكليات أعمال في آسيا، وأميركا اللاتينية، وإفريقيا ــ كتب في نادي روما عام 2021 بحثا عن حضارة البيئة قال فيه إنها سوف «تحول علاقتنا مع الطبيعة بهدف استعادة وتحسين صحتها المتجددة وجمالها». ويؤكد كورتون قائلا: «تضمن حضارة البيئة التزام كل الشركات بتحقيق الغرض العام النافع لكل المجتمعات التي تعمل بها».[250] وضمن رسائل متبادلة فيما بيننا مؤخرا، قال كورتون:

«تدور كل هذه القصة حول تعريفنا لأنفسنا. أنحن مخلوقات مالية تسكن صخرة ميتة تطوف في الفضاء؟ أم إننا كائنات حية ولدت وترعرعت على أرض حية؟ إذا ما كنا مخلوقات مالية ونعيش على المال، قد يستتبع هذا الكلام مفهوما منطقيا آخر يتمثل في أن مالاً أكثر لا بد أن يكون أفضل دوما، وأن الدور الصحيح والمناسب للعمل يتمحور حول تعظيم الأرباح إلى حدها الأقصى على المدى القصير دون أي اعتبار للتداعيات الاجتماعية والبيئية.

لكننا نعيش ككائنات حية يعتمد رخاؤها على الهواء النظيف والماء النقي، والتربة الخصبة، والمناخ المستقر، إلى جانب رخاء الآخرين على كوكب الأرض. يعتمد مستقبلنا على التحول الإنساني نحو حضارة البيئة التي تعترف بأن هدف العمل يتمثل في ضمان استمرار الرخاء. ربما يكون المال أداةً جيدة ومفيدة في بعض الأحيان. سيكون تحقيق الشركات الخاصة أرباحا معقولة أمرا ضروريًّا. لكن المال لن يكون هدفا محوريًّا أبدًا».

ولا بد من الإشارة إلى تضمين الحزب الشيوعي الصيني هدف حضارة البيئة ضمن دستوره وخطته الخمسية.

تاريخ جون بيركنز الشخصي

1963	تخرج من المدرسة الثانوية ودخل كلية ميدلبيري.
1964	تعرف إلى فرهاد، وهو ابن جنرال إيراني. ترك الدراسة في كلية ميدلبيري.
1965	عمل لصالح جريدة هارتس في بوسطن.
1966	دخل كلية بوسطن الجامعة لإدارة الأعمال.
1967	تزوج التلميذة السابقة في كلية ميدلبيري، والتي كان عمها «فرانك» أحد كبار المسؤولين التنفيذيين في وكالة الأمن القومي الأميركي.
1968	صنفته وكالة الأمن القومي كقاتل اقتصادي مثالي. بمباركة العم فرانك، التحق في صفوف فيالق السلام وكلف بمهمة في منطقة الأمازون الإكوادورية، حيث تعيش شعوب قديمة تتصارع مع شركات النفط الأميركية.
1969	عاش في منطقة الغابات المطيرة وجبال الأنديز. اكتشف بيركنز أول تجارب الخداع والممارسات المدمرة التي تعتمدها شركات النفط والوكالات الحكومية، وتأثيرها السلبي في الثقافة والبيئة المحليتين.
1971	التحق بصفوف شركة ماين، وخضع لدورة تدريبية سرية في بوسطن كي يصبح قاتلا اقتصاديا مؤهلا، وتوجه ضمن فريق مكون من أحد عشر شخصا إلى جزيرة جاوة في إندونيسيا.

	عاش بيركنز صراعا نفسيا جراء الضغوط التي تولدها دراساته الاقتصادية الزائفة.
1972	جراء رغبته الواضحة في التعاون، تلقى بيركنز ترقية لمنصب كبير الاقتصاديين وبات ينظر إليه على أنه الولد العبقري. التقى بيركنز كبار الزعماء، بمن فيهم رئيس البنك الدولي روبرت مكنمارا. أوفد بيركنز ضمن مهمة خاصة إلى بنما. بعد إيجاز من جانب رئيس بنما والشخصية الجذابة، عمر توريخوس، تعرف بيركنز تاريخ الإمبريالية الأميركية وإصرار زعيم كندا على إعادة القناة إلى سيادة وملكية القناة من الولايات المتحدة إلى بنما.
1973	ارتقت وتصاعدت وظيفة بيركنز. بنى الإمبراطورية ضمن شركة ماين، واستمر بالعمل في بنما، سافر بشكل مكثف وأجرى الدراسات عن آسيا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط.
1975	حصل بيركنز على ترقية أخرى ليصبح أصغر الشركاء في شركة ماين التي يمتد عمرها لمئة عام، وأخذ عنوان مدير التخطيط الاقتصادي والإقليمي. نشر بيركنز سلسلة من الأبحاث المؤثرة، وألقى محاضرات في جامعة هارڤرد ومؤسسات أخرى.
1976	ترأس بيركنز إدارة بعض المشاريع الكبرى حول العالم، كما في إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، وشمال أميركا، والشرق الأوسط. وتعلم من شاه إيران منهجا ثوريا لبناء امبراطورية القتل الاقتصادي.
1977	تبعا لعلاقاته الشخصية في كولومبيا، اكتشف بيركنز محنة الفلاحين المتهمين بالتعاطف مع الإرهابيين الشيوعيين ومهربي

	المخدرات، في حين تتمثل الحقيقة بسعي أولئك الفلاحين لحماية عائلاتهم وديارهم.
1979	صارع بيركنز ضميره مع رحيل الشاه خارج بلاده فيما اكتسح الإيرانيون السفارة الأميركية، واحتجزوا اثنين وخمسين رهينة. أدرك بيركنز أن الولايات المتحدة ليست سوى دولة تكافح من أجل إنكار الحقيقة إزاء دورها الإمبريالي في العالم. طلق بيركنز زوجته الأولى بعد سنوات من التوتر والانفصال المتكرر.
1980	عاني بيركنز اكتئابا شديدا وأدرك أن المال والسلطة أوقعاه في فخ ماين، ومن ثم استقال.
1981	اضطرب بيركنز كثيرا حينما قُتِل رئيس الإكوادور جايمي رولديوس (الذي قاد حملة ضد شركات النفط) ورئيس بنما عمر توريخوس (الذي أثار حفيظة مصالح واشنطن بشدة جراء مواقفه من استعادة القناة والقواعد العسكرية الأميركية في بلاده)، حيث لقي الاثنان حتفهما في حادثتي سقوط طائرتين تحملان بصمات اغتيالات وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. تزوج بيركنز للمرة الثانية من امرأة يعمل والدها بمنصب كبير المصممين المعماريين في شركة باكتل وهو المسؤول عن تخطيط وتصميم وبناء مدن في العربية السعودية، ذلك العمل الذي مولته صفقة القتل الاقتصادي التي أتمها عام 1974.
1982	أسس بيركنز شركة مستقلة لأنظمة الطاقة تحمل اسم (آي بي أس)، والتي التزمت بإنتاج طاقة كهربائية صديقة للبيئة. أنجب بيركنز ابنته جيسيكا.

1983 – 1989	نجح بيركنز بشكل لافت كرئيس لمجلس إدارة شركته الخاصة، وذلك بمساعدة مجموعة من «المصادفات»، والأشخاص النافذين في مناصب رفيعة، وإعفاءات ضريبية خاصة، وغيرها. كأب لطفلة صغيرة، شعر بيركنز بوطأة وظيفته السابقة كقاتل اقتصادي. بدأ يكتب كتابا يتحدث فيه عن تجربته للجميع، إلا أنه تلقى عرضا سخيا بمرتب ضخم للعمل بصفة استشاري شريطة امتناعه عن الكتابة.
1990 – 1991	بعد غزو بنما وإيداع نوريغا السجن، باع بيركنز شركته الخاصة وتقاعد بعمر الخامسة والأربعين. فكر في تأليف كتاب عن حياته كقاتل اقتصادي، لكن يوجد مَن أقنعه بتوجيه طاقاته لإنشاء منظمة غير ربحية، وأن كتابه قد يؤثر سلبا في عمل المنظمة.
1992 – 2000	تابع بيركنز فشل ستراتيجية القتل الاقتصادي في العراق التي نتج عنها اندلاع حرب الخليج. حاول بيركنز البدء بتأليف كتابه لثلاث مرات، إلا أنه توقف جراء التهديدات والرُّشى. حاول بيركنز تهدئة مشاعره بتأليف كتب عن حياة الشعوب الأصلية في الأمازون، ودعم المنظمات غير الربحية، والتدريس في منتدى نيو إيج، والسفر إلى مناطق حوض الأمازون والهملايا، ولقاء الدالاي لاما وتفاصيل أخرى كثيرة.
2003 – 2004	عاد بيركنز إلى منطقة الأمازون الإكوادورية لمقابلة شعوب المنطقة الأصليين الذين هددوا بشن حرب ضد شركات النفط، وألف كتاب اعترافات قاتل اقتصادي.
2005 – 2016	أصدر بيركنز كتابه اعترافات قاتل اقتصادي الذي حقق أفضل المبيعات العالمية، وتحدث عن ضرورة استبدال اقتصاد الموت باقتصاد الحياة في المحافل الدولية، ومنتديات الشركات،

ومجموعات كبيرة من رؤساء مجالس إدارات الشركات ورؤساء شركات آخرين، ومؤتمرات المستهلكين، والمهرجانات الموسيقية، إلى جانب أكثر من خمسين جامعة وفعاليات أخرى في الصين ودول آسيوية أخرى. ظهر بيركنز على قنوات تلفزة E&ABC, NBC, CNN, CNBC, NPR, A، وقناة التاريخ، ومجلة تايم، وجريدة نيويورك تايمز، وجريدة الواشنطن بوست، ومجلة كوزموبوليتان، وأيلي، ودير شبيغل، فضلا عن العديد من المطبوعات الأخرى، إلى جانب عدد كبير من الوثائقيات بما فيها «نهاية الفقر»، وفلم «إضافة روح العصر»، و«اعتذار قاتل اقتصادي». كتب بيركنز الطبعة الثانية من كتابه اعترافات قاتل اقتصادي.	
تبعا للتأثير العالمي الذي أحدثه كتاب الاعترافات بطبعته الثانية، دُعي بيركنز إلى حضور عدد من الفعاليات الإعلامية وفعاليات حوارية، ولقاءات مع رؤساء دول حاليين وسابقين وجماعات مدافعة عن العدالة الاجتماعية، وغيرهم آخرين في الكثير من الدول. تأثر بيركنز كثيرا بقوة الصين المتصاعدة ووسائلها للقتل الاقتصادي التي تعلمتها وطورتها من خلال نجاحات إخفاقات ستراتيجية القتل الاقتصادي الأميركية. اقتناعا منه بأن التحول من اقتصاد الموت إلى اقتصاد الحياة يتطلب تعاونا ما بين الولايات المتحدة والصين، ألف بيركنز كتاب اعترافات قاتل اقتصادي بطبعته الثالثة.	**2016 – 2022**

شكر وعرفان

أدين بشكر كبير لصديقي ديفيد كورتون الذي وضع العديد من الكتب ونشر الكثير من المقالات المهمة، بما فيها كتاب حينما تحكم الشركات العالم، والتحول العظيم: من الإمبراطورية إلى مجتمع الأرض، وحضارة البيئة: من الطوارئ إلى البروز. بحكم عضويته سابقا في الهيئة التدريسية لكلية هارڤرد للأعمال وتجربته كمستشار في مؤسستي فورد وروكفلر، وعمله ضمن مهام الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، والتدريس في كليات الأعمال في آسيا، وأميركا اللاتينية، وإفريقيا، قدم لي كورتون رؤية ومعلومات بالغة الأهمية. وأدين له بالامتنان لإسهاماته المذهلة في خلق مفهوم اقتصاد الحياة وحضارة البيئة ولكل الحكمة التي ينقلها إلى الكثير من الناس.

وأدين بعميق العرفان لشريكتي كيمان لوكاس التي شجعتني على المضي قدما أيام كانت التحديات التي تواجه هذا الكتاب هائلة. نظمت لوكاس معي ورافقتني في رحلاتي إلى آسيا، وأوروبا، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط. قرأت لوكاس ونقدت، واقترحت تغييرات على مخطوطة الكتاب، فضلا عن نشرة رسائلي الأسبوعية، ودربتني قبل إلقاء خطاباتي ومقابلاتي، ولطالما أدخلت البهجة إلى حياتي.

وأوجه شكري إلى مؤسس بيريت ـ كويلير ومحرر كتاب اعترافات قاتل اقتصادي بإصداراته الثلاثة، ستيفن بييرسانتي، الذي شجعني على تحديث كتبي السابقة وكرس وقتا لا حد له لمساعدتي على وضع إطار لستراتيجية القتل الاقتصادي في السياقين الأميركي والصيني، والتعامل مع متغيرات الجغرافيا السياسية العالمية المستمرة. ولا أخفي موهبته وروحه المشرقة التي بثت طاقتها عبر صفحات الكتاب.

ولا بد لي من شكر زوجتي السابقة وينفريد غرانت بيركنز التي دعمتني لسنوات طويلة ـ ولا تزال إلى الآن ـ بأساليب عدّة، وإلى ابنتي، جيسيكا بيركنز ميلر، التي تلهمني بنجاحها كمنظِّمة للنشاطات المجتمعية المحلية، والتي لطالما كانت موجودة حينما احتجت إليها، ومعها شريكها ديريك ستابلفيلدت الذي زودني بسيل لا ينقطع من الكتب المهمة والنقاشات المحفزة، إلى جانب حفيدي

غرانت الذي لا يزال يهزمني في كل مرة نلعب فيها الشطرنج ويشد من أزري وعزيمتي لأصنع ما هو أفضل.

وأدين بالشكر الجزيل لشقيقي دانييل كوبرمان الذي علمني الكثير عن الأمازون، وثقافات الشعوب الأصلية، وما يعنيه كون الإنسان ناجحا في كوكبنا الهش، فضلا عن بايج هاربور وكيليان لوكاس اللذين أرشداني عبر مصفوفة التكنولوجيا الحديثة وجسر الهوة ما بين الأجيال، عدا عن كونهما صديقين حميمين بحق.

وأود توجيه الشكر إلى العديد من أصدقائي الذين وقفوا إلى جانبي لسنوات طويلة، وأخص منهم بالذكر: دانا وجوانا آريه، ومونيكا آرينغ، ورايتشيل بيسي، وكايلا وميشيل براون ـ بلاك، وباتي سييرا، وإريك فريتس، وآني وجوي هونان، ولاري هولبرت، وسكوت وسوزان جيمس، وشيلا متشيل، وسارا نيلسون، وبيلين بايز، وستيفين ريختشافن، وجيسيكا شير، وجوي ترينش، وبيل زلين تويست، وماناري أوشيغوا.

وأوجه الشكر الجزيل إلى الناس في بيريت ـ كويلير، وهي دار نشر رائعة وشركة ذات أهداف اجتماعية وبيئية في الوقت ذاته. وأخص هيئة التحرير فيها بالشكر، لا سيما: جيفان سيفاسوبارمانيان، وستيف بيرسانتي، وسارا مودلين، وهيئة التصميم والإنتاج: آشلي إنغرام، كورتني سكونفيلد، وإدوارد وايد، ومصمم الغلاف آدام جونسون، والمبيعات والتسويق: كريستين فرانتز، وكيتي شيهان، ومايك كراولي، وليزلي كراندل، وسارا نيلسون، وشانزة خورام، وشارلوت آشلوك، وبورنيما راجكومار، ومارين فوكس، وكايلي جونسون، وقسم الحقوق الدولية: ماريا خيسوس آغويلو وكاثرين لينغرون، وقسم العمليات والإدارة: دايسون فان دين إينغ، وجوانا فونديلينغ، وديفيد مارشال، فضلا عن اثنين من المستشارين دعماني بالنصائح الخاصة وساهما بالتحرير كذلك، وهما: دانييل غوودمان، وبايلا تينسلي، ومحررتي المتألقة رايتشيل موناغهان. وأخص شركاء بيريت ـ كويلير بالشكر وهم: مصمم الغلاف آدم جونسون ومنتجة الكتاب مورين فوريس من شركة هابينستانس تايب ـ أو ـ راما.

وأوجه شكري إلى كل الذين عملوا في شركة ماين وما كانوا على دراية بحقيقة أدوارهم التي أدّوها في ستراتيجية القتل الاقتصادي، ولكل الناس الذين شاركوني جوانب وتفاصيل حياتهم

في الأدغال، والصحارى، والجبال، والمدن عبر أرجاء العالم، ولكل من أسهم في قصص أو معلومات رفدت هذا الكتاب.

فيالق السلام، الإكوادور، 1968

عن الكاتب

عاش جون بيركنز أربع حيوات: كبير الاقتصاديين في شركة استشارية كبيرة حيث كان عمله الفعلي كقاتل اقتصادي، وكرئيس مجلس إدارة لشركة طاقة بديلة ناجحة حيث كوفئ لعدم كشفه عن تاريخ القتل الاقتصادي، وككاتب استخدم خبراته لتعزيز النظام البيئي والاستدامة مع الاستمرار بحفظ وعوده عن الصمت إزاء حياة القاتل الاقتصادي، والآن ككاتب وناشط يروي قصة حياة حقيقية حول تجاربه غير العادية، حيث كشف عالم الخداع الدولي والفساد الذي تطبقه الولايات المتحدة عبر ستراتيجية القتل الاقتصادي بهدف ضمان تحول جمهوريتها إلى امبراطورية عالمية.

ضمن كتاب اعترافات قاتل الاقتصادي، الطبعة الثالثة، يستمر بيركنز بوصف تعديلات الصين الفعالة والخطيرة التي أدخلتها على ستراتيجية القتل الاقتصادي، ويعرض خطة للتحول من اقتصاد الموت غير المتجدد إلى اقتصاد حياة ناجح ومتجدد.

كما ورد في الطبعة الثالثة من الكتاب، تمحور عمل بيركنز حول إقناع الدول ذات الدخل المنخفض بقبول قروض ضخمة تستخدم لبناء مشاريع بنية تحتية أفادت الشركات الأميركية من خلال إنشائها. وبمجرد وقوع تلك الدول في غياهب القروض، تعمد الشركات الأميركية والصينية إلى استغلال نفطها وباقي مواردها الأخرى.

كان بيركنز إما مشاركا مباشرا أو شاهدا على بعض أكثر الحوادث دراماتيكية في التاريخ المعاصر، ومنها قضية غسيل أموال العربية السعودية، وصعود وسقوط شاه إيران، والوفاة الغامضة لرئيس الإكوادور جايمي رولديوس ورئيس بنما عمر توريخوس، وغزو الولايات المتحدة لبنما، والحوادث التي قادت إلى حرب العراق عام 2003.

بعد رحيله عن صفوف قتلة الاقتصاد، أسس بيركنز شركة إندبندنت باور سستمز (آي بي أس)، وهي شركة متخصصة بإنتاج الطاقة البديلة. تحت قيادة بيركنز، حققت شركة آي بي أس نجاحا باهرا في عمل معروف بمخاطره العالية. ساعدت جملة من المصادفات والمواقف التي أبداها

بعض الأفراد النافذين ممن يشغلون مناصب عالية في دفع شركة بيركنز لتتبوأ مكانة عالية في صناعة الطاقة. وحينما بدأ بيركنز الكتابة عن عالم قتلة الاقتصاد وأبناء آوى من خلفهم ممن يدبرون الانقلابات والاغتيالات، تعرضت حياته وحياة ابنته الرضيعة للخطر. تلقى الرجل رشوة، وقبل عملا استشاريا بأجر مرتفع في مقابل التوقف عن مشروع الكتابة.

إبان تسعينيات القرن الماضي، خفف بيركنز من ذنبه عبر تأسيس منظمات غير ربحية أو المشاركة فيها، ومنها منظمة تغيير الحلم وتحالف باشاماما. ووظَّف أجور أعماله الاستشارية بهدف دعم حقوق السكان الأصليين والحركات البيئية، وعمل من كثب مع دول حوض الأمازون.

أقنعت حوادث الحادي عشر من أيلول بيركنز بتجاهل التهديدات والرشى والانطلاق بمشروع كتاب اعترافات قاتل اقتصادي. بات الكتاب ضمن قائمة أفضل الكتب مبيعا في العالم وصدر في ثمانٍ وثلاثين لغة، وبقي لفترة ثلاثة وسبعين أسبوعا ضمن قائمة نيويورك تايمز لأفضل الكتب مبيعا حيث باع أكثر من مليوني نسخة. دشن بيركنز سلسلة جولات عالمية للتحدث ضمن منتديات الشركات، ومؤتمرات المستهلكين والبيئة، والمهرجانات الموسيقية، فضلا عن أكثر من خمسين جامعة، وفعاليات أخرى في الصين ودول آسيوية أخرى. ظهر بيركنز على قنوات تلفزة ABC, NBC, CNN, CNBC, NPR, A&E، وقناة التاريخ، ومجلة تايم، وجريدة نيويورك تايمز، وجريدة الواشنطن بوست، ومجلة كوزموبوليتان، وأيلي، ودير شبيغل، فضلا عن العديد من المطبوعات والوثائقيات الأخرى. وكما هو معتاد، مُنِح بيركنز جائزة لينون أونو غرانت للسلام وشبكة عمل الغابات المطيرة التي تتحدى الشركات.

منذ صدور الطبعة الأولى لكتاب اعترافات قاتل اقتصادي، ألَّف بيركنز كتاب التاريخ السري للامبراطورية الأميركية (منشورات بينغوين، والذي دخل ضمن قائمة أفضل الكتب مبيعا لجريدة نيويورك تايمز)، والمخادع (منشورات راندوم هاوس)، والاعترافات الجديدة لقاتل اقتصادي (بيريت ـ كويلير)، ولمس الفهد: تحويل الخوف إلى فعل لتغيير حياتك والعالم (بيريت ـ كويلير)، فضلا عن كتابه الأخير، اعترافات قاتل اقتصادي، الطبعة الثالثة (بيريت ـ كويلير). وألَّف بيركنز كتبا عن ثقافات الشعوب الأصلية والتحول، بما فيها تغيير الشكل: العالم كما تحلم أن يكون، وسباحة نفسية في روح شعب شوار، والعادات الخالية من الإجهاد (وكلها صدرت عن دار إنر تراديشينز ودار بير كومباني).

ولكي نعرف أكثر عن جون بيركنز، وما هي المحاضرات التي يلقيها، وكتبه الأخرى، يمكن الاشتراك في نشرته البريدية، أو الاتصال به عبر زيارة موقعه الإلكتروني: JohnPerkins.org.

وللمعرفة أكثر عن منظمتي تغيير الحلم وتحالف باشاماما، يمكن زيارة الموقعين الإلكترونيين: dreamchange.org وpachamama.org.

ولتفاصيل أكثر عن الفعاليات الحالية ومعرض الصور الفوتوغرافية المتعلقة بهذا الكتاب، يمكن الرجوع إلى الموقع الإلكتروني:

Economichitmanbook.com

فهرس المراجع

ملاحظة: تشير JP الى جون بيركنز

A

AAIB. *see* Asian Infrastructure Investment Bank (AIIB)
ACADEMI (formerly Blackwater), 223
acid rain, 167
Acosta, Alberto, 15
Afghanistan
  US pull-out, 282
  Soviet war in, 114, 185
Africa
  China's investment in, 26, 273–275
  colonization and exploitation, 263–264
  potential for MAIN projects, 262–263
  see also Angola; Democratic Republic of the Congo (DRC, formerly Zaire)
African Continental Free Trade Agreement (AfCFTA), 26, 273–274
Agoyan Dam (Ecuador), 240
agriculture industry, 120, 216, 237–238
AIIB. *see* Asian Infrastructure Investment Bank (AIIB)
airstrikes, 281
Allende, Salvador, 13, 94, 97, 243
Amazon Watch, 22
Amazonian rain forest, 19–20, 22–23, 33–35, 165
Ameen, Michael, 169
Americans for Tax Fairness, 217
Amnesty International, on Chinese mining companies, 272
Amoco, 169
Angola, 266–269
Ann (JP's wife), 31–35, 40, 41, 76, 135
anxiety over insufficiency pillar
  China vs. US, 7, 283
  dealing with, 302, 306–307
  in EHM strategy, 3
  in trade agreements, 241
Arab Centre Washington DC, 281
Arab Spring, 284
Arauz, Andrés, 246
Arbenz, Jacobo, 91–92, 94
Arbusto, 168
Argentina, 218, 243, 246–247
Argento Nasser, Ana, 247
Arias, Arnulfo, 84, 181
arms industry, 214
artisanal scale miners (ASMs), 272
ASEAN. *see* Association of Southeast Asian Nations (ASEAN)
Ashcroft, John, 213
Ashland Oil Company, 167, 187
Asian Development Bank, 69, 79

Asian Infrastructure Investment Bank (AIIB), 230, 236
Associated Press, on FBI's small air force, 221
Association of Government Relations Professionals, 213
Association of Southeast Asian Nations (ASEAN), 254–255
Astana (Kazakhstan) Economic Forum High-Level Conference, 229

B

Baer, Robert, 112
Bahasa Indonesia, 69–70
Bahrain, 169
Baker, James A., III, 116
Balkan countries, 288
Bandar Abbas (Iran), 280
Bandung (Indonesia)
  death of popular politician, 76
  office in, 61
  puppet show, 72–74
  sketches of poverty in, 63, 64–65
Bangladesh garment factory collapse, 213
banks
  alliances, 230, 236
  in EHM strategy, 5, 209–210
  scandals and exploitations, 206–208
  see also Washington Consensus
Barranquilla (Colombia), 135, 137
Bechtel Group, Inc.
  JP's family at, 168
  leadership and operations, 49, 92–93, 98, 165, 176
  power plant development, 167
Belt and Road Initiative (BRI). *see* New Silk Road
benefits
  and corporatocracy, 81–82
  perceptions of, 1–2
Biden, Joe, 304
bin Laden, Osama and family, 114, 115–116
Blackwater, 223
Boehner, John, 299
Boeing, 214–215
Boston Globe, "Colonialism in Panama Has No Place in 1975," 121
Boustany, Charles, 299
brick maker cooperative (Ecuador), 33–35
BRICS bank, 230, 236
Brinza, Andreea, 294
British Petroleum, 52
Brookings Institution, 297, 298
Brown & Root, 49
Bush, George H. W., 92, 98, 115–116, 161, 165, 171, 178
Bush, George W., 168–169
Bush (G. H. W.) administration, 178–181, 184–185, 186–187, 232
Business Roundtable CEOs, 304
business schools, 1, 35, 97, 227–228

C

Cabinda Gulf Oil, 268
CAFTA. *see* Central American Free Trade Agreement (CAFTA)
Canal Treaty, 83–84, 120–122, 123
Canal Zone (Panama), 86, 89, 123
capitalism
  with EHM strategy, 15
  pyramid of, 81–82
Carlyle Group, 116
Cartagena (Colombia), 142, 249
Carter, Jimmy, 120, 122, 123, 132, 133, 160–161
Carvajal, José, 151
Casey, William J., 177
Castillo Armas, Carlos, 92
Castro, Fidel, 267
Central American Free Trade Agreement (CAFTA), 190, 241
Central Intelligence Agency (CIA)
  in Asia, 250
  attracts public outcry, 165
  and conspiracies, 196–197
  in EHM strategy, ix, 133

in Iran, 52–53, 90–91, 129, 244–245
in Latin America, 13, 34, 92, 97, 162, 164, 177, 243–244
rendition sites, 220, 221
see also jackals
Chas. T. Main, Inc. *see* MAIN
Chavez, Hugo, 197
Cheney, Richard, 98, 161, 180
Chile, 25, 243
China
economy, 8, 227–228
EHM strategy, 5–8, 236–239
energy industry dominance, 25–26, 27
"five no" approach, 265
policies of aggression and violation, 233, 242, 272–273, 288
predictions about, 234–235
on Russia and Ukraine, 235, 295, 296
vs. Soviet Union model, 24
standards and workmanship, 20, 23, 253–254, 269
and US collaboration, 238, 302, 303–304
and US hegemony, 295, 296
see also China partnerships; third EHM wave; Xi Jinping
China partnerships
in Africa, 26, 264–266, 273–274
in Angola, 269
with Argentina, 246–247
in ASEAN, 254–255
and Central and East European countries (16+1), 293–294
with Democratic Republic of Congo, 271–273
with Ecuador, 15–17, 19–21, 22, 23, 240–241
in Europe, 287–288
with former Soviet countries, 260
with Indonesia, 255–257
with Iraq and Iran, 279–280
with Kazakhstan, 259–260
in LAC countries, 24–25, 241–242, 243
in Middle East and North Africa (MENA), 278, 281–282, 284–285
with Montenegro, 290–291
with Romania, 293–294
with Serbia, 289–290
with United States, 297–300
with Vietnam, 252–253
China-CEEC (Central and Eastern European Countries) summit, 293–294
China Civil Engineering Construction Corporation, 285
China Europe International Business School (CEIBS), 227–228
China International Development Cooperation Agency (CIDCA), 236
China Molybdenum, 271–272
China National Petroleum Company (CNPC), 282
CIA. *see* Central Intelligence Agency (CIA)
civil wars, 278
climate change, China and US contributions, 302
Clinton administration, 190
CNBC (network), on China in Africa, 26
cobalt mines, 271–273
Cobb, John, 303–304
Coca Codo Sinclair dam, 20, 240–241
Cofco (China food company), 246
Cold War
vs. competition with China, 232
and EHM strategy, 3
collateral damage, 219
Colombia, 134–135, 137–138, 139–140
Colombians are Expendable Doctrine (CED), 137
colonialism
in Africa, 263–264

colonialism *(continued)*
depictions of US, 89
in fear experiences, 6
in Panama Canal Treaty, 121–122
Colors of Ostrava Festival, 287, 303
Common Dreams (news site), 214
Communism
collapse of, 173
fear and threat of, 51, 80–81, 138
in Indonesia, 55
"red tide" deception, 23–24, 26
Communist Party of Indonesia (PKI), 250
Comprehensive Agreement on Investment (CAI), 288
Confessions of an Economic Hit Man (Perkins), ix, 195, 219
Confucian ideals, 227–228
Congo. *see* Democratic Republic of the Congo (DRC, formerly Zaire)
conspiracies, 196–197
construction companies, 51, 52, 171, 176
consultants
site locations, 214–215
Texaco seismologist, 32–33
see also EHMs (Economic Hit Men)
corporations
in EHM strategy, 37, 53, 147
lobbyists for, 213–214
site location incentives, 201, 214–215
subsidies, 215–217
writing to, 304–305
corporatocracy
after oil embargo, 101
benefits received by, 37, 81–82
defined, 60
influence of, 187, 208, 223
Correa, Rafael, 13–17, 18, 21, 232–233
corruptibility
in China's strategy, 291–292
and EHM strategy, 122–123, 147, 271
and loan policy, 6
Cortizo, Laurentino "Nito," 248
Council on Foreign Relations, 285
credit rating services, 15
Cuba
perceptions about, 24–25, 243
troops recruited for Angola, 267, 268
currency
global, 256–257
see also exchange rate system

D

Daily Beast, on American lobbyists for China, 299
dalang (Indonesian puppet master), 72–74
Dark Act (Deny Americans the Right to Know), 216
Daschle, Tom, 212–213
Dauber, Jake, 143, 263
death economies, 200, 202–203
debt
cancellations of, 282–283
legitimacy of, 14–15
as slavery, 302
statistics, 209
and vulture funds, 217–218
debt pillar
China vs. US, 6–7
dealing with, 306
in EHM strategy, 2–4, 277–278
debt-trap diplomacy, 3, 257
Democratic Republic of the Congo (DRC, formerly Zaire), 262–263, 269–273
Democrats, 171, 212–213
Dene, David, 22, 23
Deng Xiaoping, 227, 250–251, 279–280
deregulation, 168, 171, 172
Diplomat, The
on Africa and China, 265
on China's LAC investment, 242
on Panama and China, 248

divide and conquer pillar
China vs. US, 7–8, 242, 256, 265, 274, 283
dealing with, 302, 307
in EHM strategy, 3
Iran and Iraq example, 278, 279–280
in Operation Condor, 244
DLA Piper, 213
"Doc" (tortured Iranian), 128–130, 138
Dodd, Chris, 212, 213
Dole, Bob, 213
DRC. *see* Democratic Republic of the Congo (DRC, formerly Zaire)
Dream Change, 188
drone attacks, 219–220
drone sites, 221
drug trade and drug wars, 165, 241
Đukanović, Milo, 290, 292

E

Ecologist, on Mirador mining project, 22
econometrics, 1–2, 79, 119–120
see also gross domestic product (GDP); gross national product (GNP)
economic growth
after oil embargo, 96
in EHM strategy, 36, 49, 64, 65, 66, 204
perceptions about, 2
as pyramid, 60
economic hit men. *see* EHM strategy and systems; EHMs (economic hit men); first EHM wave; second EHM wave; third EHM wave
economics
informal discussions about, 96–97
Keynesian, 97
of Milton Friedman, 171–172, 202, 228
and neoliberal policy, 1, 35
economies
China vs. US, 227–228
death vs. life, 202–203
inequality rates, 209
see also specific countries
Economy of Francesco, 247
Ecuador
dam projects, 20–21, 240–241
EHM strategy in, 14–15
exploitations of, 32–33, 148, 163
Hydrocarbons Policy, 150–151, 162
leadership, 13–14, 245–246
loans from China, 15–17, 18–19, 246
mining projects, 19, 22–23
potato-growing community, 237–238
sketches of poverty in, 31
see also Correa, Rafael; Roldós, Jaime
education industry, 297–298
see also business schools
Ehlers, Freddy, 14
EHM strategy and systems
China vs. US approach, 229, 233–234, 236–237, 265–266, 273–275
and conspiracies, 196–197
four pillars, 3, 6–8, 271
goals, 1
impact of Vietnam War on, 250, 260–261
implementations, 2–3, 49–50, 51–52
socialization and spread, 141–142, 146–147, 197–199, 200–201, 203–205
see also first EHM wave; second EHM wave; third EHM wave
EHMs (economic hit men)
Americans paid by China, 298–299
in China's approach, 230–232
compared to slave trade, 182–183
defined, ix
history, 52–53
JP's staff as, 146–147
in second wave, 200, 212–218
Serbia's president as, 292

Eisenhower administration, 277
Eisner, Peter, *The Memoirs of Manuel Noriega: America's Prisoner*, 180–181
electric load forecasting, 61–62, 63
electricity projects. *see* energy industry; power plants
embassies
American hostages in Iran, 132–133, 279
purpose of, 50
empire building, 81–82, 203–204
see also global empire
energy industry
China's dominance in, 25–26, 246
Ecuador hydroelectric dam projects, 17, 20, 240–241
innovations and restructuring, 167–168
plans for Indonesia, 59
PURPA, 170–171
engineering companies, 51, 52, 171
environmental concerns
acid rain, 167
Coca Codo Sinclair dam project, 20, 240–241
and Flowering Desert project, 125–126
and Mirador mining project, 22–23
pollution exportation, 289–290
Europe
and US vs. China, 287–288
see also Montenegro; Romania; Serbia
exchange rate system
after oil embargo, 96
banking scandal, 206
expansionism, Soviet vs. Chinese models, 24
Export-Import Bank of China (China EXIM Bank), 236, 291

F

Faber, Scott, 216
Fan, Meijun, 237, 238
Farhad (JP's friend), 40, 42, 131–132
FBI (Federal Bureau of Investigation), 221
fear pillar
China vs. US, 6, 236, 242, 283
dealing with, 301–302, 306
and drone attacks, 219–220
in EHM strategy, 3, 197–198, 277–278, 283
Fidel (Panamanian guide), 88–89
FIFA soccer scandal, 207–208
Firestein, David, 299
first EHM wave, 3–5, 170
Flowering Desert project (Iran), 125–126
Flynn, Michael, 220
forecasting
electric loads, 61–62, 63
Markov method, 119–120
objectives, 51
Foreign Lobby, on Americans lobbying for China, 298–299
Foreign Policy
on aims of Putin and Xi, 295
on China in Africa, 274
on China in Iraq, 283
on China in Middle East, 282
on Ecuador election, 246
on move away from US dollar, 296
on Panama, 248–249
on predictions about China, 234
on Serbian steel plant, 290
Forum on China-Africa Cooperation (FOCAC), 265, 274
four pillars of EHM strategy, 3, 6–8, 271
Freeport-McMoRan, 271, 272
Friedman, Milton, 171, 202, 228

G

G4S, 223
Gabriel Resources, 293
garment industry, 213
GDP. *see* gross domestic product (GDP)

General Agreement on Tariffs and Trade (GATT), 97
Gingrich, Newt, 213
Glasyev, Sergey, 231–232
global currency, 256–257
global empire
achievement, 187
depicted in puppet show, 73–76
and EHM strategy, 37, 50, 53
ideals, 141–142
in second EHM wave, 170, 173
supports for, 97–98, 104, 160–161
Global Justice Now, on exploitation of Africa, 264
globalization, 187
GMO labeling, 216
GNP. *see* gross national product (GNP)
Good Jobs First, 216
Gotiu, Mihai, 293
GoTo, 256
governments
state and local, 201, 214–215
see also politicians and officials; *specific countries and agencies*
Gramm, Phil, 213
Grant, Winifred, 166, 211
Greece, 218
Green New Deal, 303
Greve, Einar, 44–45, 46–47, 77
Grocery Manufacturers Association, 216
gross domestic product (GDP)
in investment models, 2, 36
US and China, 302
gross national product (GNP), 2, 49, 50
Guardian, The
on energy industry subsidies, 216
on Kissinger and Pinochet, 243–244
on National Security Agency, 222
Guatemala, 91–92
Guevera, Che, 24, 94
Gulf War (second), 282

H

Hagel, Chuck, 213
Hall, Mac, 143, 152, 153, 168, 262–263
Halliburton, 49
Hanoi Hilton, 260
Harken Energy Corporation, 116, 169
Harris, David, *Shooting the Moon*, 179
Helms, Richard, 161
Hikvision, 299
Holden, David, 102
Holtzman, Mike, 299
Hong Kong national security law, 284
Hostler, Charles, 169
Hotel InterContinental, 31, 58, 61, 131
Hoveyda, Amir-Abbas, 278–279
Hu Jintao, 228
Huang Xilian, 254
Huaorani (Amazonian group), 149–150
Huawei, 282, 299
human exploitations
Caribbean slaves, 154–155
child miners, 272
in EHM strategy, 141–142
procurement for sex, 111–112
Hurtado, Osvaldo, 163
Hussein, Saddam, 184–185, 186, 279
Hydrocarbons Policy (Ecuador), 150–151, 162

I

ideals
Confucian, 227–228
republican, 140–141, 161
Idi Amin, 114
Illingworth, Charlie, 58–59, 61–63, 77, 122
IMF. *see* International Monetary Fund (IMF)
Independent Power Systems (IPS), 167–168, 171, 187
indigenous communities and cultures
Amazonian, 19, 20, 23
Colombia, 135
and Dream Change, 188

indigenous communities and cultures *(continued)*
and Flowering Desert Project, 125–126
Indonesia
and China, 255–257
Communist Purge, 250
history, 54–55
JP prepares for, 51, 57–58
MAIN project, 58–59, 61–64, 70–71, 79–80
see also Bandung; Jakarta
Industrial and Commercial Bank of China (ICBC), 236, 246
inequality
economic rates, 209
and EHM strategy, 1–2, 3
Institute of Southeast Asian Studies, 253
Inter-American Development Bank, 87
International Monetary Fund (IMF), 37, 50, 53, 97, 173, 230
international monetary system, 96, 173, 256–257
Interoceanic Canal Commission study, 121
investment companies, 297
investment model skewing, 36–37
IPS. *see* Independent Power Systems (IPS)
Iran
Flowering Desert project, 125–126
Islamic uprising, 132
relationship with China, 279–280
as target for projects, 124
US intervention in, 52–53, 90–91
see also Pahlavi, Mohammad Reza, Shah
Iran-Contra Affair, 244–245
Iraq, 184–186, 279–280, 282–284
Israel
and China, 285
and US relationship, 129, 131
Yom Kippur war, 100

J

jackals
defined, ix
new breed, 219–223
traditional, 164, 173, 175, 179, 244
Jakarta (Indonesia), 57–58
Japan
and Panama Canal, 92, 165, 176
workmanship and engineering, 253–254
JECOR (United States–Saudi Arabian Joint Economic Commission), 101–102, 106–109, 114
Johns, Richard, 102

K

Kabila, Laurent-Désiré, 270
Kazakhstan
conferences, 229
JP visits, 258–260
and New Silk Road, 230–232
Kerry, John, 303
Keynesian economics, 97
Khomeini, Ruhollah, 132
Kimbrell, Andrew, 216
"King of Kings." *see* Pahlavi, Mohammad Reza, Shah
Kirchner, Néstor, 246
Kissinger, Henry, 109, 243–244
Krivokapic, Zdravko, 291
Kucik, Peter, 299
Kuwait invasion, 186–187

L

LAC. *see* Latin American and Caribbean (LAC) countries
languages
Bahasa Indonesia, 69–70
value of learning, 88
Lasso, Guillermo, 245–246
Latin American and Caribbean (LAC) countries
China vs. US strategy in, 241–243

China's investment in, 24–25, 232–233, 245–246
ties with American people, 249
under dictatorships, 243–245
see also Argentina; Ecuador; Panama
Lawrence, T. E., 276
Le Maire, Bruno, 288
Le Monde Diplomatique, on Montenegro's road built by China, 291
Lesseps, Ferdinand de, 83
life economies
characteristics, 203
taking action for, 306–309
Lippman, Thomas, 108, 114
loans
China's policies, 6
conditions and practices, 36–37, 50
justification, 51
lobbying and lobbyists, 208, 212–214, 298–299
Long-Term Stock Exchange, 303
Lott, Trent, 213, 298
Lourenço, João, 268
Lucas, Kiman, 211, 251, 258
Lumumba, Patrice, 270
Lynch, Loretta, 206

M

Ma Zhaoxu, 282
MAIN (Chas. T. Main, Inc.)
culture and operations, 46–47, 111
demise, 168
JP's recruitment to, 44–45
JP's staff, 36, 146–147
management changes, 77, 143, 153
résumés, 143–144
MAIN projects
Africa seen as risky, 262–263
Colombia, 137–138
Ecuador, 240
Indonesia, 58–59, 61–64, 70–71, 79–80
Iran, 124–125, 130, 133, 280–281
Panama, 87, 120
Saudi Arabia, 102–109, 112–114
Mainlines (MAIN corporate magazine), 143
Manifest Destiny, 85, 161
Mao Zedong, 227, 270
Markov method, 119–120
Martin, Claudine, 47–52, 56, 79, 255, 298, 300
McNamara, Robert, 60, 79–80, 97–98, 161, 170, 267
media
American press, 162
in China's strategy, 7
prohibited from Panama invasion coverage, 180
Memoirs of Manuel Noriega: America's Prisoner, The (Eisner), 180–181
MENA. *see* Middle East and North Africa (MENA) countries
mercenary forces, 222–223
middle class, 8, 229
Middle East and North Africa (MENA) countries, 276–277, 278, 284–285
Middle East Institute, 284
Middlebury (school), 39–40
Mijović, Milka Tadić, 291
military
in EHM strategy, 3
see also US military
mining and minerals
in Africa, 262, 270, 271
and green technology, 273
Mirador mining project (Ecuador), 19–20, 22–23
in Romania, 292–293
Mining Technology report, 272
Ministry of Buen Vivir (Ecuador), 14
Ministry of Commerce (MOFCOM, China), 236

Ministry of Foreign Affairs (MOFA, China), 236
Ministry of State Security (MSS, China), 236
Mirador mining project (Ecuador), 19–20, 22–23
missionaries
Lutheran in Ecuador, 34–35
Summer Institute of Linguistics, 149–150, 162, 163, 164
Mitchell, George, 213
Mobutu Sese Seko, 270
Moffett, Toby, 299
Monroe Doctrine, 18, 85–86
Monsanto, 216
Montenegro, 290–292
Mormino, Paul, 78–79
Mossadegh, Mohammad, 52, 90, 277
Muskie, Ed, 167
Muslims
and anti-Chinese sentiment, 257, 260
and Saudi Arabia modernization, 105
and Shah of Iran, 129–130
as US target, 75, 75–76

N

NAFTA. *see* North American Free Trade Agreement (NAFTA)
National Security Agency (NSA)
operations, 133, 221–222
recruits JP, 41–42, 53
National Union for the Total Independence of Angola (UNITA), 267
NATO (North Atlantic Treaty Organization), 277, 290, 295
Navy SEALs, 220–221
Nazarbayev, Nursultan, 258–259
neoliberalism
enforcement, 4–5
policies, 3, 50
New Hampshire Public Service Commission, 166–167
New Silk Road
defined, 229–230
goals, 238
Kazakhstan as "the buckle," 259
as "potential poisoned chalice," 285
promises and threats, 7–8, 15
road in Montenegro, 290–291
New York Times
on Argentina's economy, 247
on China's plan for Iran, 280
on Ecuador dam project, 18, 20–21
on Manuel Noriega, 177
on Montenegro's road built by China, 291
on sale of DRC mine to China, 271–272
on SEAL Team 6, 220–221
on US approach to airstrikes, 281
Nicaragua, Contras, 245
Nixon, Richard
career, 95–96
as puppet show character, 73–74
support for Israel, 100
in Vietnamese photo album, 251
Nixon administration, 55
Noriega, Manuel, 165, 176–181
North American Free Trade Agreement (NAFTA), 190, 241
North Vietnam, 251, 252
NSA. *see* National Security Agency (NSA)
nuclear power, 160, 166–167

O

Observer Research Foundation
on Angola, 269
on China and former Soviet countries, 257–258
on China and Kazakhstan, 259–260
on Chinese companies in Africa, 266
October War, 100

oil companies, 52, 95, 151, 162, 163, 171, 268, 282
see also Texaco
oil embargo (1973), 95, 100–101, 107
oil resources
Ecuador's Hydrocarbon Policy, 150–151
in Indonesia MAIN project, 55
as loan collateral, 15, 19, 21
sales from Iran to China, 280
US concern with, 58, 101, 129, 170–171, 186
and value-add development, 103
OPEC (Organization of the Petroleum Exporting Countries), 95–96, 97, 100–101, 103
Operation Condor, 244, 267–268
Ostrava (Czech Republic), 303
Ottoman Empire, 277
Oxfam report, 209
Öztülker, Uluç, 277–278

P

Pachamama Alliance, 188, 240, 292
pack jackals, 220
Pahlavi, Mohammad Reza, Shah
exile, 132–133
Flowering Desert project, 125–126
hatred towards, 128–130, 131
in power, 52, 90–91, 124
Palast, Greg, 258
Panama
relationship with China, 247–249
sketches of poverty, 88–89
US control over, 83–84
US invasion of, 178–179
see also Noriega, Manuel; Torrijos, Omar
Panama Canal
development of, 83–84
treaty negotiation, 120–122, 123
see also Canal Zone
Parker, Howard, 61–64, 65–66, 77
Paula (Colombian activist), 135–136, 137–140, 142, 166
Pedró, Lucas, 247
People's Movement for the Liberation of Angola (MPLA), 267
perceptions
changes required, 301–302
in China's strategy, 5–6
and EHM strategy, 1–2
personal role in, 307–309
Soviet vs. Chinese management of, 24
as strategic, 4–5
Perkins, John
accompanies Kiman Lucas, 211–212
apparent poisoning, 195–196
career at MAIN, 77–80, 119, 143–147, 159–160
childhood and rebellion, 38–40
commits to change, 151–152, 154–155
commits to write story, 173, 181–182, 189–191
consults for MAIN, 160–161
consults for SWEC, 173–174, 187–188
father to Jessica, 166
on life coincidences, 136
marriage to Ann, 41, 76, 135
in Peace Corps, 31–35, 42–44
recruited by MAIN, 44–45, 46–47
recruited by NSA, 41–42
self-reflection, 35–37, 59–60, 64–65, 140–142, 197–199
trains with Claudine, 47–52, 56
Perkins, John (writings)
"Colonialism in Panama Has No Place in 1975," 121
Confessions of an Economic Hit Man, ix, 195, 219
The Stress-Free Habit, 174
The World Is As You Dream It, 189
Peron, Isabel, 243
pimping, 111–112
Pincock Allen & Holt, 293
Pinochet, Augusto, 243

Plan Condor, 243–244
politicians and officials, 197, 212–213, 298–299
see also specific politicians and leaders
Politico, on American lobbyists for China, 299
pollution exportation, 289–290
Pompeo, Mike, 255
Postelnicu, Alexandra, 292
poverty
and econometric deception, 2
sketches in Ecuador, 31
sketches in Indonesia, 35–36, 58–59, 63, 64–65
sketches in Panama, 88–89
power plants, 167–168, 294
Prasad, Nadipuram, 120
PRC (People's Republic of China). *see* China
Priddy, Paul, 153, 159, 160, 168
Prieto, Julio, 22
"Prince W." (of Saudi Arabia), 109–110, 111–113
privacy rights, 221–222
privatization, 187
propaganda machine (Zinn), 4
prosperity
measurements of, 1–2
redefining, 301
Public Utility Regulatory Policy Act (PURPA), 170–171
Purdy, Donald (Andy), Jr., 299
PURPA. *see* Public Utility Regulatory Policy Act (PURPA)
Putin, Vladimir, 235, 294–295, 296

R

Rafsanjani, Hashemi, 279
Randt, Clark T., Jr., 299
Rasmon ("Rasy," Indonesian student), 69–70, 72, 74
RCEP. *see* Regional Comprehensive Economic Partnership (RCEP)
Reagan, Ronald, 13, 160–161, 165, 171
Reagan administration, 133, 164, 184–185, 243, 244–245
Regional Comprehensive Economic Partnership (RCEP), 254–255
regulatory conspiracies, 201, 207
religion
China vs. Indonesia, 257
Saudi view, 100
strength of, 75
republican ideals, 140–141, 161
Republican Party, 93, 213
resource consumption, 80
résumés, 143–146
Reuters, on Serbia, 289
Rhodium Group, 297
Rico family, 34–35
road-building, 290–291
Rockefeller, John D., 150
Rodriguez, Felix, 24
Roşia Montană (Romania), 292–293
Roldós, Jaime, 13, 26, 148–149, 150–151, 160, 161–162
Romania, 292–294
Roosevelt, Kermit, 52–53
Roosevelt, Theodore, 83, 86, 134
Royce, Ed, 298
Rubin, Robert, 98
Rudman, Warren, 213
Russia, 235, 287, 294–296, 300
see also Soviet Union

S

Sadat, Anwar, 100
Sagintayev, Bakhytzhan, 230–231
Saint Petersburg International Economic Forum 2017 (SPIEF 17), 229
Saint, Rachel, 150
"Sally," 111–112
SAMA. *see* Saudi Arabian Money-Laundering Affair (SAMA)
Saud, Mohammed ibn, 99
Saudi Arabia
international terrorism financing, 114–115, 184–185

modernization project, 102–105, 112–114, 184–185
society, 99–100, 101
and US protection deal, 107–109
see also JECOR; OPEC
Saudi Arabian Money-Laundering Affair (SAMA), 106, 114, 115, 168
SAVAK, 91, 129
Scheeler, Charlie, 213
School of the Americas, 86, 178, 244
Seabrook nuclear power plant, 160, 166–167
second EHM wave, 4, 170, 171–172, 190, 209–210, 212, 237
security companies, 222–223
Sedláček, Tomáš, 287
September 11, 2001, 4, 190, 251
Serbia, 288–290
sex trade, 111–112
Shah, Mohammad Reza. *see* Pahlavi, Mohammad Reza, Shah
Shooting the Moon (Harris), 179
Shuar (Amazonian group), 19, 23, 188
Shultz, George, 98, 161, 176, 178
SIL. *see* Summer Institute of Linguistics (SIL)
Sinohydro Corporation Ecuador dam project, 17, 18, 20, 240–241
SINOPEC, 246
site location consultants, 214–215, 216
16+1 summit, 293–294
slavery, 154–155, 183
Snowden, Edward, 220
society
in China, 227–228
problems in US, 80, 229
Soleimani, Qassem, 283
South China Morning Post, on Mirador mining project, 22
Soviet Union
interdependency with US, 299–300
as model, 24, 232
presence in Angola, 267–268
and "puppets" deception, 23–24, 33
Toynbee's views on, 75
war in Afghanistan, 114, 185, 276
Spadafora, Hugo, 177
Spectrum 7, 168–169
SPIEF 17 (Saint Petersburg International Economic Forum 2017), 229
Sri Lanka, 257
St. John's Island (Virgin Islands), 154–155, 189
St. Louis Post-Dispatch, on Panama, 248
Standard Oil, 84, 150
state-owned enterprises (SOEs), 237
Stiglitz, Joseph, 217–218
Stone & Webster Engineering Corporation (SWEC), 49, 173–175, 186–187, 188–189
Strait of Hormuz, 280–281
students
at China Europe International Business School (CEIBS), 227–228
Indonesian (Rasy's friends), 74–76
subsidies, 215–217
Suharto, 55, 255
Sukarno, 54–55
Summer Institute of Linguistics (SIL), 149–150, 162, 163, 164
Sunni sect, 282
SupChina, on Indonesia and China, 256
SWEC. *see* Stone & Webster Engineering Corporation (SWEC)

T

tax breaks, 201, 214–217
tax havens, 217
technology companies, 298
terrorism and terrorists
in Amazon regions, 137–139, 150–151, 165
Saudi Arabia's role in, 114–115, 184–185

Terry, Lee, 299
Texaco, 26, 151, 163, 268
third EHM wave
Iraq as model, 283
pillars of strategy, 6–7
strategy and results, 4, 229, 235, 237, 249, 273–275
This Week in Asia, on Chinese vs. Japanese metro projects, 253–254
Thurber, James, 214
Time, on South America and China, 24–25
Torres, Manuel, 137–138
Torrijos, Omar
JP's agreement with, 90–94, 120
leadership, 13, 83, 84–85, 86–87, 163, 164–165
offers exile to Pahlavi, 133
renegotiates Canal Treaty, 121, 123
Toynbee, Arnold, 75
trade agreements
Africa, 26, 264–265
China and Ecuador, 246
China and Vietnam, 252–253
in EHM strategy, 190, 241
see also specific agreements
transportation networks
exploitation of, 7–8
see also New Silk Road
Trump, Donald, 19, 289
Trump administration, 248, 255–256, 280
Tshisekedi, Felix, 271, 273
Turkey, 277

U

Ukraine, 218
Ukraine war, 294, 295–296
Uncle Frank (Ann's uncle), 41, 42, 43
United Fruit Company, 84, 91–92
United States
vs. China's achievements, 8
dollar, 256–257
in EHM strategy, 52–53
foreign interventions and aggressions, 85–86, 178–179, 186–187, 233, 283
and ideals, 234
investments in MENA, 284–285
involvement in Asia, 251
involvement with China, 238, 297–298, 302, 303–304
Iranian embassy hostages, 132–133, 279
missed opportunities in Africa, 273, 274–275
oil dependency, 58, 101, 129, 170–171
and Russia, 295–296
sentiments against, 88–89, 131, 281
trade with LAC countries, 241
United States Agency for International Development (USAID), 69, 87, 238
United States Congress, 123, 167, 170, 216
United States Department of Treasury
in EHM strategy, 5, 50
Saudi Arabia project, 101–102, 105–109, 113
on terrorism financing, 115
United States military
in Africa, 264
Canal Zone training center, 86
in EHM strategy, 4, 6
foreign bases, 232–233, 280–281
special forces, 220–221
United States senators, 212–213
United States–Mexico–Canada Agreement (USMCA), 241
United States–Saudi Arabian Joint Economic Commission (JECOR), 101–102, 106–109, 114
US Army War College report, 25–26
U.S. News & World Report, "The Saudi Connection," 114–115
USAID. *see* United States Agency for International Development (USAID)
Uyghurs, 257, 260, 284

V

Vanity Fair
on Harken Energy, 169
"Saving the Saudis," 115–116
Varela, Juan Carlos, 248
Vietnam, 251–254
Vietnam War
defeat, 55, 243
forces in, 222
Hanoi Hilton, 260
impact on EHM strategy, 250, 260–261
impact on Vietnam, 251–252
Indonesian students' views on, 70, 73, 75
Vitter, David, 298, 299
Vučić, Aleksandar, 288–289
Vujanović, Filip, 290
Vuksanovic, Vuk, 289–290
vulture funds, 217–218

W

wages, 8, 228–229
Wahhabi sect, 99–100
Walmart, 216–217
Wang Yi, 273
Wang, Zhihe, 237, 238
War on Terror, 281–282
wars
civil and tribal, 278
October War, 100
see also Vietnam War
Washington Consensus, 5, 50, 230, 268
Washington Post, on anti-Chinese sentiment, 260
Washington State, 214–215
water resources, 185
wealth distribution, 209
Weinberger, Caspar, 98, 161, 165, 176, 178
Wen Tiejun, 237, 238, 283
Western Hemisphere Institute for Security Cooperation. *see* School of the Americas
Widodo, Joko, 256
WikiLeaks, 220
Wisma (guest house, Indonesia), 61
Wolf, Frank, 300
Wolfensohn, James D., 299
World Bank
and Africa, 263
challenges, 230
development, 53, 97, 173
in EHM strategy, 50, 87, 172, 208–209
loans to Ecuador, 14–15
narrative about, 35
World Is As You Dream It, The (Perkins), 189

X

Xi Jinping
announces New Silk Road, 231
and Joe Biden, 304
and LAC countries, 242
on Russia, 296
visits to world leaders, 5, 18–19, 228, 235, 288–289
Xie Zhenhua, 303

Y

Yamin (Iranian gentleman), 125–127, 128–130, 138
yuan, 256–257, 296
Yun Sun, 265

Z

Zaire. *see* Democratic Republic of the Congo (DRC, formerly Zaire)
Zambotti, Bruno, 77–78, 119, 122, 143, 152, 153–154, 167, 168
Zapata Corporation, 84, 92
Zhang, Mandy, 227–228
Zinn, Howard, ix, xi–xii, 4, 208, 210

Notes

[1←]

سايمون روميرو، «الإكوادور: الرئيس يأمر بوقف سداد الديون»، جريدة نيويورك تايمز، 12 كانون الأول، 2008، ميك رايوردان وآخرون، وحسب الرابط:

PRESIDENTORD_BRF.html_world/americas/13briefs/13/12/ www.nytimes.com/2008

«الإيجاز اليومي: تعليق عن الاقتصاد والأسواق المالية»، غلوبال إيكونوميك مونيتور، 19 كانون الأول، 2008، وحسب الرابط:

https://documents1.worldbank.org/curated/en/994341468322493262/pdf/612410NEWS
e/curated/org.worldbank.1documents//:0DEC0BOX0358349B00PUBLIC0.pdfhttps
.pdf0PUBLIC00B0358349BOX0DEC0NEWS612410/pdf/994341468322493262/n

[2←]

محادثة بين الوزير أكوستا والمؤلف، وقد وردت بتفصيل أكثر في كتاب للمؤلف ذاته بعنوان «المخدوع: قاتل اقتصادي يكشف سبب انهيار الاقتصاد العالمي وكيفية إصلاحه». (نيويورك: كراون بزنس، 2009)، 67.

[3←]

ميرسيدس الفارو، «الصين والإكوادور توقعان قرضا بقيمة ملياري دولار». جريدة وول ستريت جورنال، 28 حزيران، 2011، وبحسب الرابط:

www.wsj.com/articles/SB10001424052702304314404576412373916029508

[4←]

ستانسفيلد سميث، «منجزات الإكوادور في غضون عشر سنوات من ثورة مواطني رافايل كوريا»، مجلس شؤون نصف الكرة الأرضية الغربي، 17 نيسان، 2017، وحسب الرابط:

https://www.coha.org/ecuadors-accomplishments-under-the-10-years-of-rafael-correas-citizens-revolution/

[5←]

هنالك قدر من الاختلاف بخصوص مقدار الدين الإكوادوري إلى جانب طريقة تفسير وفهم التمويل الصيني. يعود هذا الكلام جزئيا إلى تنوع تعريفات الديون في مقابل الاستثمارات. يقدم آدم زوكرمان تفسيرا بهذا الخصوص، حيث يقول «كوفِئ الرئيس الإكوادوري كوريا على نحو ممتاز مقابل زيارته الأسبوع الماضي للصين، إلا أن هذا الكلام قد يقود إلى عواقب وخيمة على الأمازون والناس الذين يعيشون فيه. يوم الأربعاء، وافقت بكين على منح الإكوادور قرضا بقيمة 7.53 مليار دولار بهدف مساعدة اقتصاد البلاد المعتمد بشدة على النفط كي يتكيف مع الانخفاض الكبير الذي طرأ على أسعار النفط في العالم. وبحساب قيمة القرض الأخير، يرتفع التمويل

الصيني لهذا البلد إلى نحو 25 مليار دولار، أو ما يزيد على ربع الناتج المحلي الإجمالي للبلاد. عام 2013، قدمت بكين ما يشكل 61% من مجموع التمويل الخارجي الذي حصلت عليه الإكوادور، فضلا عن شرائها ما نسبته 83% من نفطها. ولا شك أن القرض الأخير سيرفع الأرقام إلى مستويات كبيرة. زوكرمان، «عين على الإكوادور: ارتفاع الدين الصيني وسداده مقدما بالنفط»، أمازون ووتش، 13 كانون الثاني، 2015، حسب الرابط:

Paying-and-debt-china-the-up-racking-0113/http://amazonwatch.org/news/2015 oil-with-forward-it-

أما تحليل جريدة وول ستريت جورنال، فيشير قائلا: «في الوقت الحالي، تزيد قروض الصين للإكوادور على ستة مليارات دولار، بما فيها 1.7 مليار دولار لتمويل 85% من محطة كوكا كودو سنكلير الكهرومائية التي ستبنيها شركة سينوهايدرو الصينية. وبحسب الأرقام التصميمية، ستوفر هذه المحطة بحدود 75% من احتياجات الطاقة في الإكوادور» (الفارو، «الصين والإكوادور يوقعان صفقة لقرض بقيمة ملياري دولار»). من جانبي، أفضّل استخدام الأرقام الرسمية الحكومية عن الدين، والتي وردت في صحيفة البلاد الرسمية El Comercio بتاريخ التاسع والعشرين من تموز، 2015، بعنوان «La prensa de EE.UU. alerta la dependencia de Ecuador a China».

[6←]

كليفورد كراوس وكيث برادشير، «مطامح الصين الدولية، المال غير المقيد»، جريدة نيويورك تايمز، 24 تموز، 2015.

business/international/chinas-global-/26/07/https://www.nytimes.com/2015 attached.html-strings-and-loans-with-ambitions

[7←]

نيكولاس كيسي وكليفورد كراوس، «بصرف النظر عن مقدرة الإكوادور على تحمل كلفة السد، ستحصل الصين على مستحقاتها المالية»، جريدة نيويورك تايمز، 24 كانون الأول، 2018، حسب الرابط:

world/americas/ecuador-china-dam./24/12https://www.nytimes.com/2018 google-html?auth=login

[8←]

حسب ما ورد في صحيفة البلاد الرسمية El Comercio بتاريخ التاسع والعشرين من تموز، 2015، بعنوان «La prensa de EE .UU . alerta la dependencia de Ecuador a China » .

[9←]

راكيل كالفارو، «كيف تمزق المشاريع الصينية المجتمعات المحلية داخل الإكوادور»، جريدة ساوث تشاينا مورنينغ بوست، 25 أيّار، 2019، حسب الرابط:

-latin-conquest-asia/article/3011618/beijing-https://multimedia.scmp.com/week america/chapter02.html

[10←]

كيسي وكراوس: «بصرف النظر عن مقدرة الإكوادور على تحمل كلفة السد، ستحصل الصين على مستحقاتها المالية»، جريدة نيويورك تايمز.

[11←]

راكيل كالفارو، «كيف تمزق المشاريع الصينية المجتمعات المحلية داخل الإكوادور»، جريدة ساوث تشاينا مورنينغ بوست، 25 آيار، 2019، وحسب الرابط:

-latin-conquest-asia/article/3011618/beijing-https://multimedia.scmp.com/week
america/chapter02.html

[12←]

ديفيد دين، خوليو بريتر ومشروع العدالة البيئية، «ميرادور: منجم مِلْئه السراب»، موقع ذي إيكولوجيست، 18 شباط، 2019، حسب الرابط:

mirages-full-mine-https://theecologist.org/2019/feb/18/mirador

[13←]

سيارا نوغينت وشارلي كامبل، «حرب أميركية صينية من أجل النفوذ في أميركا اللاتينية، فيما رفعت الجائحة سقف المخاطر بالمقابل». مجلة تايم، 4 شباط، 2021، حسب الرابط:

influence-america-latin-china-https://time.com/5936037/us/

[14←]

مارك بي سوليفان وتوماس لوم، «الصين تعمق ارتباطاتها مع دول أميركا اللاتينية والكاريبي»، خدمات الأبحاث التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي، تحديث الرابع من أيار، 2022، حسب الرابط:

https://fas.org/sgp/crs/row/IF10982.pdf

[15←]

آيفن إيليس، «مساع صينية للهيمنة على شبكات الطاقة الكهربائية في أميركا اللاتينية»، موجز الصين 21، رقم 10 (2021)، حسب الرابط:

in-connectivity-electrical-dominate-to-bid-https://jamestown/program/chinas/america--latin

[16←]

مبادرة أبحاث الصين ـ إفريقيا، «بيانات: استثمارات الصين في إفريقيا»، 10 كانون الثاني، 2022، حسب الرابط:

Africa-in-investment-cari.org/chinese-http://www.sais

[17←]

إليوت سميث، «يستمر التزاحم الأميركي ـ الصيني المحموم في إفريقيا، لكن واشنطن باتت تلعب لعبة اللحاق بالركب خلف بكين»، سي أن بي سي، 6 تشرين الثاني، 2019، حسب الرابط:

in-underway-is-rivalry-trade-china-us-the/09/10/https://www.cnbc.com/2019-africa.html

[18←]

شيفرون توكسيكو، «تشيرنوبل الغابات المطيرة»، حسب الرابط:

/Chernobyl-http://chevrontoxico/about/rainforest

[19←]

رابطة اللبلاب هي رابطة رياضية تجمع ثماني جامعات تعتبر من أشهر وأقدم وأعرق جامعات الولايات الأميركية المتحدة والعالم. [المترجم]

[20←]

فيلسوفان ومفكران ثوريان أميركيان دفعا باتجاه استقلال أميركا عن مملكة بريطانيا. [المترجم]

[21←]

التي ستختصر إلى «شركة ماين» في باقي الكتاب. [المترجم]

[22←]

ستيفن كينزر، كل رجالات الشاه: الانقلاب الأميركي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط، الطبعة الثانية. (هوبوكين، أن جي، وايلي، 2008).

[23←]

جاين ماير، «رياضة التعاقد: ما الذي قام به نائب الرئيس لصالح شركة هاليبورتن؟»، جريدة نيويوركر، 8 شباط، 2004.

[24←]

جاين غيلمان تايلور، إندونيسيا: الشعوب والتواريخ (نيوهافين، وسي تي، ولندن: مطبوعات جامعة يال، 2003)، وثيودور فريند، مصاير إندونيسية (كمبردج، وأم أي، ولندن: مطبوعات بيلكناب لجامعة هارڤرد، 2003)، وريكس مورتيمر، الشيوعية الإندونيسية تحت حكم سوكارنو: الإيديولوجية والسياسة، 1959 ـ 1965 (شفيلد، المملكة المتحدة، 2006).

[25←]

وهو الجنرال الأميركي جورج باتون الذي نفذ عملية غزو النورماندي التي قادت إلى تغيير الموازين مع ألمانيا ودشنت لهزيمتها في الحرب العالمية الثانية. [المترجم]

[26←]

تيم وينر، «وفاة روبرت مكنمارا مهندس الحرب العبثية عن عمر ناهز الثالثة والتسعين»، جريدة نيويورك تايمز، 7 تموز، 2009، حسب الرابط:

http://www.nytimes.com/2009/07/07/us/07mcnamaraHtml

[27←]

سوزان روزغرانت وديفيد آر لامب، روت 128: دروس من مجتمع التقنيات العالية في بوسطن، مقدمة الطبعة الورقية. (نيويورك: بيسك بوك، 1993).

[28←]

أرنولد توينبي ودي. سي. سومرفيل، الحضارة في الميزان، والعالم والغرب (نيويورك: ميريديان بوكس، 1958).

[29←]

انظر ديفيد مكلوفلين، طريق بين بحرين: خلق قناة بنما 1870 ـ 1914 (نيويورك: سايمون وسكوستر، 1999)، وليام فراير، صورة قناة بنما: من الإنشاء وحتى القرن الحادي والعشرين (نيويورك: شركة غرافيم آرتس للمطبوعات، 1999)، غراهام غرين، حوارات مع الجنرال (نيويورك: بوكيت بوكس، 1984).

[30←]

انظر «شركة زاباتا النفطية». مجلة فورتشن الأميركية، نيسان 1958، 248. وداروين باين، مبادرة في مجال الطاقة: شركة صناعات دريزر، 1880 ـ 1978 (نيويورك: سايمون وسكوستر، 1979)، ستيف بيزو وآخرون، عمل ضمني: نهب مدخرات وقروض أميركا، (نيويورك: مكغرو هيل، 1989). غاري ويب، تحالف في الظلام، وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، المعارضة والانفجار المدوي للكوكايين (نيويورك: مطبوعات سفن ستوريز، 1999). جيرارد كولبي وشارلوت دينيت، هذا ما سيحدث، غزو الأمازون: نيلسون روكفلر والتبشير في عصر النفط (نيويورك: هاربر كولينز، 1995).

[31←]

مانويل نوريغا مع بيتر ايزنر، مذكرات مانويل نوريغا، سجين أميركا (نيويورك: راندوم هاوس، 1997)، عمر توريخوس هيريرا، Ideario (San José, Costa Rica: Editorial Universitaria Centroamericano، 1983)، غراهام غرين، حوارات مع الجنرال.

[32←]

غرين، حوارات مع الجنرال، نوريغا وإيزنر، المذكرات.

[33←]

ديريك جونسون، لغة أقدم من الكلمات (نيويورك: كونتيكست بوكس، 2000)، 86 ـ 88.

[34←]

غرين، حوارات مع الجنرال، نوريغا وإيزنر، المذكرات.

[35←]

سيمون بوليفار، ثائر وزعيم سياسي فنزويلي، 1783 ـ 1830، قاتل ضد الاستعمار الإسباني في أميركا اللاتينية ولُقّب بمحرر أميركا. [المترجم]

[36←]

توماس باين، أميركي بريطاني المولد، ناشط وثائر، فيلسوف ومنظر سياسي، 1737 ـ 1809، ساهمت كتاباته وآراؤه فيما يعرف بعصر التنوير بالدفع باتجاه استقلال المستعمرات الأميركية عن بريطانيا وتعزيز حقوق الإنسان. [المترجم]

[37←]

نهر ريو غراندي ممر مائي يفصل ما بين جنوب الولايات المتحدة وشمال المكسيك. [المترجم]

[38←]

لتفاصيل أكثر عن منطقة القناة، انظر جون مايجور، حيازة الجائزة: حكومة الولايات المتحدة وقناة بنما 1903 ـ 1979 (كمبردج، المملكة المتحدة، نيويورك، مطبوعات جامعة كمبردج، 1993)، ديفيد مكلوفلين، الطريق ما بين البحار: خلق قناة بنما 1870 ـ 1914 (نيويورك: سيمون وسكستر، 1978).

[39←]

وليام شوكروس، رحلة الشاه الأخيرة: مصير حليف (نيويورك: سايمون وسكوستر، 1989)، ستيفن كينزر، كل رجالات الشاه: الانقلاب الأميركي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط (هوبوكين، أن جي: شركة جون وايلي وأبناؤه، 2003)، 45.

[40←]

كُتب الكثير عن آربينز، وشركة يونايتيد فروت، والتاريخ العنيف لغواتيمالا. انظر، على سبيل المثال (أستاذي في كلية العلوم السياسية لجامعة بوسطن) هوارد زين، التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (نيويورك: هاربر ورو، 1980)، دايان كي. ستانلي، للتاريخ: سنوات شركة يونايتيد فروت الستون في غواتيمالا (مدينة غواتيمالا: مركز مطبوعات بييدرا سانتا، 1994). لمراجعة سريعة عن الموضوع، انظر «جمهورية الموز: شركة يونايتيد فروت»، و«تورط وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في انقلاب غواتيمالا، 1954»، حسب الرابط:

http://www .english .upenn .edu/~afilreis/50s/guatemala .html

ولتفاصيل أكثر عن تورط عائلة بوش، انظر «شركة زاباتا النفطية»، مجلة فورتن (نيسان 1958): 248.

[41←]

وهما من القراصنة المرتزقة الذين عملوا لصالح الامبراطورية البريطانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. [المترجم]

[42←]

هي مجموعة من البرامج والتدابير الاقتصادية التي أطلقتها في الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن العشرين، أثناء الولاية الأولى للرئيس فرانكلين روزفلت. جاءت تلك البرامج استجابة للكساد الكبير وتركزت على «الإغاثة والإنعاش والإصلاح»، وتشير إلى إغاثة العاطلين والفقراء، وإنعاش الاقتصاد إلى مستوياته الطبيعية، وإصلاح النظام المالي لمنع حدوث الكساد مرة أخرى. [المترجم]

[43←]

روبرت أس. مكنمارا، ثامن وزراء الدفاع الأميركيين، حسب الرابط:

https://www .nytimes .com/2009/07/07/us/07mcnamara .html

[44←]

وهو مصطلح يصف العلاقة المالية والسياسية القائمة بين المشرعين الأميركيين والقوات المسلحة الوطنية والصناعات العسكرية التي تدعمهما. تتضمن هذه العلاقة المساهمة السياسية، والموافقة السياسية على الإنفاق العسكري، وأعمال الوساطة لدعم البيروقراطيات، والإشراف على الصناعات. وتعد هذه العلاقة نوعًا من المثلث الحديدي، وهو اصطلاح للعلاقة بين المشرعين في لجان مجلس الشيوخ والبيروقراطيات والمجموعات ذات المصلحة. [المترجم]

[45←]

لتفاصيل أكثر عن الحوادث التي قادت إلى الحظر النفطي عام 1973 وتأثيراته، انظر توماس دبيلو. ليبمان، داخل السراب: شراكة أميركا الهشة مع العربية السعودية (بولدر، سي أو: ويستفيو، 2004)، 155 – 159، وكذلك دانيل ييرغين، الجائزة: السعي الملحمي وراء النفط والمال والسلطة (نيويورك: فري برس، 1993)، وستيفن شنايدر، ثورة أسعار النفط (بالتيمور: مطبوعات جامعة جونز هوبكنز، 1983)، وإيان سمور، أوبك: أداة التغيير (لندن: مكميلان، 1980).

[46←]

ليبمان، داخل السراب، صفحة 160.

[47←]

ديفيد هولدن وريتشارد جونز، آل سعود: صعود وحكم العائلة المالكة الأقوى في العالم العربي (نيويورك: هولت، رانيهارت ووينستون، 1981)، 359.

[48←]

ليبمان، داخل السراب، صفحة 167.

[49←]

روبرت باير، النوم مع الشيطان: كيف باعت واشنطن أرواحنا في مقابل النفط السعودي (نيويورك: مطبوعات كراون، 2003)، صفحة 26.

[50←]

توماس دبليو. ليبمان، داخل السراب: شراكة أميركا الهشة مع العربية السعودية (بولدر، ويستفيو، 2004)، صفحة 162.

[51←]
ليبمان، داخل السراب، صفحة رقم 2.

[52←]
هنري وازوا، «وفاة الدكتاتور الأوغندي القاتل عيدي أمين»، وكالة أنباء أسوشييتيد برس، 17 آب، 2003.

[53←]
ديفيد أي. كابلان، ومونيكا أيكمان، وأمير لطيف، «العلاقة السعودية»، يو أس نيوز آند وورد ريبورت، 15 كانون الأول، 2003.

[54←]
كابلان، إيكمان، ولطيف، «العلاقة السعودية».

[55←]
كريغ أونغر، «إنقاذ السعوديين»، مجلة فانيتي فير، تشرين الأول 2003، لمزيد من التفاصيل عن تورط عائلة بوش وشركة باكتل وغيرها، انظر «شركة زاباتا النفطية»، مجلة فورتشن، نيسان 1958، صفحة رقم 248، وكذلك داروين باين، مبادرة في مجال الطاقة: مجموعة دريزر الصناعية، 1880 ـ 1978 (نيويورك: سايمون وسكوستر، 1979)، وكذلك ناثان فاردي، «عاصفة الصحراء: شركة باكتل تدير دفة القيادة»، وكذلك «علاقات وتعاقدات»، وكلاهما منشور في مجلة فوربس، 23 حزيران، 2003 الصفحات 63 ـ 66، وكذلك غرايدون كارتر «رسالة المحرر: الطيران في سماوات صديقة، فانيتي فير، تشرين الأول، 2003، وكذلك ريتشارد أوبل ودايانا هينريكيس، «أمة في حرب: المتعاقد، شركة ذات علاقات في واشنطن والعراق»، نيويورك تايمز، 18 نيسان، 2003، وحسب الرابط:

– contractor – the – war – at – nation –https://www .nytimes .com/2003/04/18/business/a iraq .html– to – and – washington – in – ties – has –company

[56←]
على سبيل المثال، انظر جون إم بيركنز، «لا مكان للاستعمار في بنما عام 1975»، جريدة إيفينينغ غلوب، الصفحة الافتتاحية، 19 أيلول، 1975، وكذلك جون إم بيركنز، «الاتفاقية الأميركية ـ البرازيلية تثير حفيظة الإكوادور»، جريدة بوسطن غلوب، المقال الافتتاحي، 10 أيار، 1976.

[57←]
على سبيل المثال، نشرت بعض تلك الأوراق البحثية في عدد من المجلات التقنية، انظر جون إم. بيركنز وآخرون، «تطبيق عملية ماركوف على التنبؤ الاقتصادي، القسم الأول ـ التنمية الاقتصادية»، وكذلك «تطبيق عملية ماركوف على التنبؤ الاقتصادي، القسم الثاني ـ الطلب على الكهرباء»، معهد مهندسي الكهرباء والإلكترون، أوراق مؤتمر 475 C 73 ـ 1 (تموز 1973) و 146 C 74 ـ 7(كانون الثاني 1974)، وجون إم. بيركنز

ونادبيورام براساد، «نموذج لوصف العلاقة الداخلية المباشرة وغير المباشرة ما بين الاقتصاد والبيئة»، مهندس استشاري (نيسان 1973)، إدوين فينارد، جون إم. بيركنز وروبرت سي أندر، «الطلب الكهربائي للأنظمة المترابطة، مجلة الرابطة التقنية لصناعة عجين الورق والورق، إصدار المؤتمر الثامن والعشرين، 1974، جون إم. بيركنز وآخرون، «صناعة الحديد الإيراني: مضامين الاقتصاد والطلب على الطاقة الكهربائية»، وكذلك «تطبيق طريقة ماركوف على التخطيط» المقدمة في المؤتمر الإيراني الرابع للهندسة، جامعة بهلوي، شيراز، إيران، النظريات الاقتصادية والتطبيقات: مجموعة وثائق تقنية مقدمة من جون إم. بيركنز (بوسطن: شركة ماين، 1975).

[58←]

بيركنز «ليس للاستعمار من مكان».

[59←]

وليام شوكروس، رحلة الشاه الأخيرة: مصير حليف (نيويورك: سايمون وسكوستر، 1988). للمزيد عن صعود الشاه إلى السلطة، انظر إتش. دي. إس. غرينواي، «مؤامرة إيران»، نيويورك ريفيو أو بوكس، 23 أيلول، 2003، وستيفن كينزر، كل رجالات الشاه: الانقلاب الأخير وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط (هوبوكين. إن جي: جون وايلي وأولاده، 2003).

[60←]

لتفاصيل أكثر عن يامن، ومشروع الصحراء المزهرة، وإيران، انظر جون بيركنز، تغيير الشكل (روشستر، في تي: كتب ديستيني، 1997).

[61←]

إيريك كوليغ، الإسلام المحافظ: أنثروبولوجيا ثقافية (لانهام، أم دي: راومان وليتلفيلد، 2012).

[62←]

سعيد كمالي وريتشارد نورتن تايلور، «وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تقر بدورها في انقلاب إيران العام 1953»، جريدة الغارديان البريطانية، 19 آب، 2013، حسب الرابط:

http://www .theguardian .com/world/2013/aug/19/cia – admits – role – 1953 – iranian – coup

[63←]

لتفاصيل أكثر عن صعود سلطة الشاه، انظر أتش. دي. أس. غرينواي، «مؤامرة إيران»، نيويورك ريفيو أوف بوكس، 23 أيلول، 2003، وكذلك ستيفن كينزر، «كل رجالات الشاه: الانقلاب الأميركي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط» (هوبوكين، أن جي: جون وايلي وأولاده، 2003).

[64←]

انظر مواضيع غلاف مجلة تايم عن آية الله روح الله الخميني للأعداد: 12 شباط، 1979، و7 كانون الثاني، 1980، و17 آب، 1987.

[65←]

جيرارد كولبي وتشارلوت دينيت، «فلتتحقق مشيئتك، غزو الأمازون، نيلسون روكفلر والإنجيلية في عصر النفط (نيويورك: هاربر كولينز، 1995)، صفحة رقم 381.

[66←]

أو مذهب المركنتيلية، ويعرف بكونه نزعة المتاجرة من غير اهتمام بأي شيء آخر، وهو مذهب سياسي ـ اقتصادي عرف في أوروبا منذ بداية القرن السادس عشر. [المترجم]

[67←]

لرأي مطلع بهذا الخصوص، يمكن العودة إلى ديلان ماثيوز وكيمبرلي آن إيليوت، «بوسع الدول الفقيرة تأمين عمالها مع الخروج من حفرة الفقر»، جريدة الواشنطن بوست، 25 نيسان، 2013، حسب الرابط:

http://www .washingtonpost .com/blogs/wonkblog/wp/2013/04/25/poor – countries – /can – keep – workers – safe – and – still – escape – poverty

ولتفاصيل أكثر عن المصانع التي تستغل العاملين في الصين على وجه الخصوص، انظر «مصانع تستغل العاملين في الصين»، 12 تشرين الأول، 2009، وحسب الرابط:

http://www .waronwant .org/sweatshops – china

[68←]

وهو مصطلح يستخدم لوصف دولة غير مستقرة سياسيا، وليس لها ثقل سياسي واقتصادي بين دول العالم، حيث يعتمد اقتصادها على عدد قليل من المنتجات كزراعة الموز مثلا، ومحكومة بمجموعة صغيرة ثرية وفاسدة، ويستخدم هذا المصطلح غالبا بطريقة مهينة لوصف بعض من حكومات البلدان في أمريكا الوسطى ومنطقة بحر الكاريبي. [المترجم]

[69←]

ماريا غوادالوبي وموغ رودريغوز، «النشاط البيئي ما وراء البرازيل، الصراع ضد الاستغلال النفطي في الإكوادور»، في النشاط البيئي والسياسة المحلية: شبكة الدفاع العابرة للحدود في البرازيل والإكوادور والهند (الباني: مطبوعات جامعة ولاية نيويورك، 2004).

[70←]

لتفاصيل موسعة عن معهد اللغويات الصيفي، وتاريخه، وأنشطته، وارتباطه بشركات النفط وعائلة روكفلر، انظر جيرارد كولبي وتشارلوت دينيت: هذا ما سيحدث، غزو الأمازون: نيلسون روكفلر والتبشير في عصر النفط (نيويورك: هاربر كولينز، 1995)، وكذلك: جوي كاين، الهمجيون (نيويورك: الفرد أي. نوبف، 1995، الصفحات 85، 156، 227 لتفاصيل ومعلومات أكثر عن رايتشل ساينت).

[71←]

جون دي. مارتز، السياسة والنفط في الإكوادور (نيوبرونزويك، أن جي، وأكسفورد، المملكة المتحدة: ترانزاكشنز بوكس، 1987)، صفحة 272.

[72←]
خوسيه كارنافاهل كاندال، أهداف وسياسات شركة النفط الوطنية الإكوادورية (كويتو، الإكوادور: بريميير: حلقة العمل الأولى، 1979)، صفحة رقم 88.

[73←]
نسبة إلى شرط شايلوك الجزائي في حال لم يسترجع دينه في مسرحية تاجر البندقية لوِلْيَم شكسبير. [المترجم]

[74←]
جون دي. مارتز، السياسة والنفط في الإكوادور (نيوبرونزويك، أن جي، وأكسفورد، المملكة المتحدة، ترانزآكشن بوكس، 1987)، 272.

[75←]
جيرارد كولبي وشارلوت دينيت، هذا ما سيحدث، غزو الأمازون: نيلسون روكفلر والتبشير في عصر النفط (نيويورك: هاربر كولينز، 1995)، صفحة 813.

[76←]
مارتز، السياسة والنفط، 303.

[77←]
مارتز، السياسة والنفط، 381، 400.

[78←]
شغل جورج شولتز منصب وزير الخزانة ورئيس مجلس إدارة مجلس السياسات الاقتصادية في إدارة نيكسون، 1972 ـ 1974، ومنصب المدير التنفيذي أو الرئيس لشركة باكتل، 1974 ـ 1982، ومنصب وزير الخارجية في إدارة ريغان، 1982 ـ 1989. شغل كاسبر واينبيرغر منصب مدير مكتب الإدارة والموازنة ووزير الصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية في إدارتي نيكسون وفورد، 1973 ـ 1975، وكذلك منصب نائب رئيس ومستشار عام في مجموعة باكتل، 1975 ـ 1980، ووزير الدفاع في إدارة ريغان، 1981 ـ 1987. إبان جلسات استماع قضية ووترغايت عام 1973، وضمن شهادته أمام لجنة مجلس الشيوخ، كان جون دين أول من كشف عن مؤامرات الولايات المتحدة لاغتيال توريخوس، وفي العام 1975، وضمن تحقيقات مجلس الشيوخ بإدارة السيناتور فرانك تشرتش حول نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، وردت تفاصيل عن شهادة إضافية وتوثيق لخطط معدة لكل من توريخوس ونوريغا. انظر كذلك، على سبيل المثال، مانويل نوريغا وبيتر إيزنر، مذكرات مانويل نوريغا، سجين أميركا (نيويورك: راندوم هاوس، 1997)، صفحة رقم 107.

[79←]
لمعلومات إضافية عن شركة (آي بي أس)، وفرعها المملوك كليا لشركة آرشبالد للطاقة، ورئيس مجلس الإدارة الأسبق جون بيركنز، انظر جاك أم. دالي وتوماس جي. دوفي، «حرق مخلفات الفحم في آرشبالد»، مجلة الهندسة المدنية، تموز 1988، وفينس كوفيلسكي، «استشهاد بتقنية التوليد المشترك للطاقة الكهربائية»،

ساكرانتون تايمز، 17 تشرين الأول، 1987، وروبرت كوران، «منشأة آرشبالد المتخصصة»، ساكرانتون تريبيون، 17 تشرين الأول، 1987، «محطة آرشيبالد ستحول مخلفات الفحم إلى طاقة»، سيتيزين فويس (ويلكيز ـ بار، بي أي)، 6 حزيران، 1988، «الخصوم والأصول: دقائق الفحم تتحول إلى ضوء وغذاء»، سيتيزين فويس (ويلكيز ـ بار، بي أي)، 7 حزيران، 1988.

[80←]

جوي كوناسون، «قصة نجاح جورج بوش الابن»، مجلة هاربر، شباط 2000، وكذلك كرايغ أونغر، «إنقاذ السعوديين»، مجلة فانيتي فير، تشرين الأول 2003.

[81←]

أونغر «إنقاذ السعوديين».

[82←]

انظر جورج لاردنر ولويس رومانو، «نقطة التحول بعد جفاف كامل»، جريدة واشنطن بوست، 30 تموز، 1999، وكذلك كوناسون «قصة نجاح جورج بوش الابن»، وسام بيري، «أوليغارشية أسرة بوش، القسم الثاني: الجيل الثالث»، 12 حزيران، 2015، حسب الرابط:

/https://consortiumnews.com/2015/06/12/the – bush – family – oiligarchy

[83←]

اكتسبت هذه النظرية زخما جديدا وبدا أنها ستقع تحت دائرة ضوء التدقيق العام حينما اتضح بعد سنوات تآمر شركة آرثر أندرسون، وهي شركة محاسبة محترمة، مع مديرين تنفيذيين في شركة إنرون بغية خداع مستهلكي الطاقة، وموظفي شركة إنرون، والرأي العام الأميركي بمليارات الدولارات. إلا أن حرب العراق الوشيكة عام 2003 حولت الأنظار بعيدا عن هذه القضية. ولعبت البحرين دورا حاسما في ستراتيجية الرئيس جورد بوش الابن أثناء الحرب.

[84←]

مانويل نوريغا وبيتر إزنر، مذكرات مانويل نوريغا، سجين أميركا (نيويورك: راندوم هاوس، 1997)، صفحة رقم 56.

[85←]

ديفيد هاريس، إصابة القمر: القصة الحقيقية لمطاردة أميركية لم يسبق لها مثيل (بوسطن: ليتل، براون، وكومباني، 2001)، الصفحات رقم 31 ـ 34.

[86←]

هاريس، إصابة القمر، صفحة رقم 43.

[87←]

نوريغا وإزنر، مذكرات، صفحة رقم 212، وانظر كذلك كرايغ أوغنر، «إنقاذ السعوديين»، مجلة فانيتي فير، تشرين الأول، 2003.

[88←]
نوريغا وإزنر، مذكرات، صفحة رقم 114.

[89←]
انظر الرابط:

www.famoustexans.com/georgebush.htm

[90←]
نوريغا وإزنر، مذكرات، الصفحات رقم 56 – 57.

[91←]
هاريس، إصابة القمر، صفحة رقم 8.

[92←]
انظر الرابط:

www.famoustexans.com/georgebush.htm

[93←]
هاريس، إصابة القمر، صفحة رقم 4.

[94←]
نوريغا وإزنر، مذكرات، صفحة رقم 248.

[95←]
نوريغا وإزنر، مذكرات، صفحة رقم 248.

[96←]
نوريغا وإزنر، مذكرات، المقدمة.

[97←]
موريس باريت، «الشبكة العالمية المتوحشة»، مجلة تايم، 26 نيسان، 1999، وحسب الرابط:

https://www.content.time.com/time/subscriber/article/0،33009،990845 2،00 –.html

[98←]

وهي مؤسسة دولية تعد من كبريات المؤسسات غير الربحية التي تجمع التبرعات لصالح الأعمال الخيرية في العالم. [المترجم]

[99←]
وهو حالة مرضية تشير إلى ظهور أكياس ونتوءات بارزة في بطانة الأمعاء الغليظة. [المترجم]

[100←]
الأميركيون يخشون الصين أكثر من خشيتهم داعش. انظر «ما الذي يخشاه الأميركيون أكثر؟»، مجلة فانيتي فير، 5 كانون الثاني، 2015، حسب الرابط:

http://www.vanityfair.com/culture/2015/01/fear – 60 – minutes – poll

[101←]
لتفاصيل أكثر عن الرأسمالية والحياة واقتصادات الموت، انظر الملحق

[102←]
رودي شير ودوغ موس، «استخدمه وافقده: الحجم الخارجي للاستهلاك الأميركي وتأثيره في البيئة»، مجلة ساينتيفيك أميركا، مدونة إيرث توك، 14 أيلول، 2012، حسب الرابط:

/http://www.scientificamerican.com/article/american – consumption – habits

[103←]
وهي فضيحة تلاعب بنكي وقعت في بريطانيا عام 2014. [المترجم]

[104←]
ليو كينغ، «عصابات، مافيا وكارتيل. رسائل الإنترنت الصادمة لتجار البنوك»، مجلة فوربس، 21 أيار، 2015، حسب الرابط:

http://www.forbes.com/sites/leoking/2015/05/21/forex – barclays – citi – ubs – jpmorgan /– online – chat – instant – messenger

[105←]
فيرجينيا هاريسون ومارك تومسون، «5 من كبريات المصارف تدفع غرامة مقدارها 5.4 مليار دولار مقابل المضاربات غير المشروعة بالعملات»، موقع CNNMoney، 20 أيار، 2015، وحسب الرابط:

http://money.cnn.com/2015/05/20/investing/ubs – foreign – exchange/index.html

[106←]
ستيفاني كليفورد ومات آبوزو، «بعد إدانة أربعة عشر مسؤولا كرويا، الولايات المتحدة تتعهد بإنهاء الكسب غير المشروع في منظمة الفيفا». نيويورك تايمز، 27 أيار، 2015، حسب الرابط:

www.nytimes.com/2015/05/28/sports/soccer/fifa – officials – arrested – on – corruption –charges – blatter – isnt – among – them.html

[107←]

لورا شين، «أغنى خمسة وثمانين شخصا في العالم يتحصلون على ما يعادل ملكية 3.5 مليار من أفقر الناس»، مجلة فوربس، 23 كانون الثاني، 2014، حسب الرابط:

http://www.forbes.com/sites/laurashin/2014/01/23/the – 85 – richest – people – in – the – /world – have – as – much – wealth – as – the – 5 – 3 – billion – poorest

[108←]

ريكاردو فوينتاس – نيبيا ونيك غالاسو، «عمل في صالح القلة: الاستيلاء السياسي والتفاوت الاقتصادي»، منظمة أوكسفام الدولية، 20 كانون الثاني، 2014، حسب الرابط:

https://policy – practice.oxfam.org/resources/working – for – the – few – political – /capture – and – economic – inequality - 311312

[109←]

البنك الدولي، «لمحة عامة عن الفقر»، 6 نيسان، 2015، حسب الرابط:

http://www.worldbank.org/en/topic/poverty/overview

[110←]

جايمس أس. هنري، «اين ذهبت الأموال»، عبر المجلس 41، رقم 2، عدد شهر (آذار/نيسان 2004): الصفحات 42 – 45. لتفاصيل أكثر، يمكن العودة إلى كتاب هنري «مصرفيو الدم: حكايات من اقتصاد العالم السري» (نيويورك: فور وولز أيت ويندوز، 2003).

[111←]

جايكوب كوشنر، أنتوني لانغات، ساشا شافكين، وميشيل هدسون، «مشاريع البنك الدولي تترك أثرا من البؤس حول العالم»، جريدة هافنغتون بوست، 16 نيسان، 2015، حسب الرابط:

http://projects.huffingtonpost.com/worldbank – evicted – abandoned/worldbank – projects – leave – trail – misery – around – globe – kenya

[112←]

لي فانغ، «أين ذهبت كل جماعات الضغط؟»، مجلة ذي نيشين، 19 شباط، 2014، حسب الرابط:

/https://www.thenation.com/article/archive/shadow – lobbying – complex

[113←]

بروكس بارنز، «معلومات عن صفقة قريبة بين أم.بي.أي وكريستوفر دود»، جريدة نيويورك تايمز، 20 شباط، 2011، حسب الرابط:

http://mediadecoder.blogs.nytimes.com/2011/02/20/m – p – a – a – and – christopher – /dodd – said – to – be – near – deal

[114←]
مركز السياسات المستجيبة، «أعضاء سابقون»، موقع أسرار مكشوفة، حسب الرابط:

https://www.opensecrets.org/revolving/top.php?display=Z

[115←]
فانغ «أين ذهبت كل جماعات الضغط؟».

[116←]
لي دروتمان، «كيف أخضعت جماعات الضغط ديمقراطية أميركا لصالح الشركات»، مجلة ذي أتلانتيك، 20 نيسان، 2015، حسب الرابط:

http://www.theatlantic.com/business/archive/2015/04/how – corporate – lobbyists – /conquered – american – democracy/390822

[117←]
كون هالينان وليون ووفسي، «تسبب القرن الأميركي بأزمة للعالم. ما الذي يحصل الآن؟»، موقع كومون دريمز الإخباري، 22 حزيران، 2015، حسب الرابط:

http://www.commondreams.org/views/2015/06/22/american – century – has – plunged – world – crisis – what – happens – now

[118←]
نيراج تشوكشي، «ولايات الدعم الأميركية: كبريات الشركات الفائزة في كل ولاية»، جريدة واشنطن بوست، 18 آذار، 2015، حسب الرابط:

http://www.washingtonpost.com/blogs/govbeat/wp/2015/03/17/the – united – states – of /– subsidies – the – biggest – corporate – winners – in – each – state

[119←]
جيم برونر، «مجموعة العمل تمتنع عن دعوة جاي إنسلي جراء التوترات مع شركة بوينغ»، جريدة سياتل تايمز، 20 تموز، 2015، حسب الرابط:

http://www.seattletimes.com/seattle – news/politics/labor – group – disinvites – inslee – /over – boeing – tensions

[120←]

مايك بايكر، «بوينغ بصدد الاحتفال شكرا لمشرعي واشنطن عن الخصم الضريبي الضخم بقيمة 8.7 مليار دولار»، جريدة سانت لويس توداي، 1 شباط، 2014، حسب الرابط:

http://www.stltoday.com/business/local/boeing – to – throw – party – to – thank – washington – lawmakers – for – b/article_6d191691 9 –f07 8 – 5063 –e67 – c2808ad4b302.html

[121←]

كريغ ليروي، «الموقع 101: كيف تقرر الشركات التوسع أو الانتقال» و«فانتوس وصعود الحرب الاقتصادية ما بين الولايات»، في خديعة الوظائف الأميركية الكبرى: تهرب الشركات من الضرائب واسطورة خلق الوظائف (سان فرانسيسكو: بيريت كويلير، 2005)، حسب الرابط:

http://www.goodjobsfirst.org/corporate – subsidy – watch/site – location – consultants

[122←]

فيليب ماتيرا وكاسيا تاركسزينسكا مع كريغ ليروي، «حزم دعم التنمية الاقتصادية الممنوحة من جانب الحكومة الفيدرالية والحكومات المحلية في الولايات المتحدة»، مركز سياسات الوظائف الجيدة أولا (حزيران 2013)، حسب الرابط:

http://www.goodjobsfirst.org/sites/default/files/docs/pdf/megadeals_report.pdf

[123←]

داميان كارينغتون وهاري ديفيس، «دافعو الضرائب الأميركيون يدعمون كبريات شركات الوقود الأحفوري»، جريدة الغارديان البريطانية، 12 آيار، 2015، حسب الرابط:

http://www.theguardian.com/environment/2015/may/12/us – taxpayers – subsidising – worlds – biggest – fossil – fuel – companies

[124←]

والتي تعد واحدة من أكبر شركات صناعات التكنولوجيا الحيوية الزراعية والبذور في العالم. [المترجم]

[125←]

أندريا غيرمانوس، «نفوذ الشركات ينتصر: مجلس النواب يمرر قانون لا يلزم بوضع العلامات الدالة على المنتجات الغذائية المعدلة وراثيا»، موقع كومون دريمز الإخباري، 23 تموز، 2015، حسب الرابط:

http://www.commondreams.org/news/2015/07/23/corporate – influence – has – won – house – passes – anti – gmo – labeling – bill

[126←]

ديردري فولتون، «كشف السر: كيف تمكنت شركة وول مارت من نسج شبكة واسعة ومكثفة من الملاذات الضريبية الآمنة في الخارج»، موقع كومون دريمز الإخباري، 17 حزيران، 2015، حسب الرابط:

http://www.commondreams.org/news/2015/06/17/exposed – how – walmart – spun – extensive – and – secretive – web – overseas – tax – havens

[127←]
التي تملك شبكة وول مارت المدرة للأرباح. [المترجم]

[128←]
كلير أوكونيل، «تقرير: عاملو وول مارت يكلفون دافعي الضرائب الأميركيين 6.2 مليار دولار على شكل برامج دعم عام»، مجلة فوربس، 15 نيسان، 2014، حسب الرابط:

http://www.forbes.com/sites/clareoconnor/2014/04/15/report – walmart – workers – cost /– taxpayers – 2 – 6 – billion – in – public – assistance

[129←]
شبكة اليوبيل الأميركية، «صناديق شراء الديون الجشعة تخلق حالة تستحق الدراسة»، حسب الرابط:

https://www.jubileeusa.org/vulture_funds

[130←]
كافيلا مادالينا، وماغي أوكاين، وكريغ بالاست، «صناديق تمويل بانتظار قرار محكمة جرسي حول ديون الدول الفقيرة»، جريدة الغارديان البريطانية، 15 تشرين الثاني، 2011، حسب الرابط:

http://www.theguardian.com/global – development/2011/nov/15/vulture – funds – jersey – decision

[131←]
جوزيف ستيغليتز، «الديون السيادية بحاجة إلى إشراف دولي»، جريدة الغارديان البريطانية، 16 حزيران، 2015، حسب الرابط:

http://www.theguardian.com/business/2015/jun/16/sovereign – debt – needs – international – supervision

[132←]
لورا شين، «خمسة وثمانون شخصا في العالم يحتكمون على ثروة تتجاوز مقدرات 3.5 مليار من فقراء العالم»، مجلة فوربس، 23 كانون الثاني، 2014، حسب الرابط:

http://www.forbes.com/sites/laurashin/2014/01/23/the – 85 – richest – people – in – the – /world – have – as – much – wealth – as – the – 5 – 3 – billion – poorest

[133←]

جوليان غافاغان، «أتوجد طائرة مسيرة في حيّكم؟ كشف دور طائرات التجسس بعد إلزام إدارة وكالة الطيران الفيدرالية الكشف عن ثلاثة وستين موقعًا لإطلاق طائرات مسيرة عبر أرجاء الولايات المتحدة»، جريدة ديلي ميل البريطانية، 24 نيسان، 2012، حسب الرابط:

http://www.dailymail.co.uk/news/article 2134376 –/Is – drone – neighbourhood – Rise – killer – spy – planes – exposed – FAA – forced – reveal – 63 – launch – sites – U – S.html

[134←]

ساره لازاريه، «لديكم الخيار: عسكريون سابقون يدعون مسيطري الطائرات المسيرة إلى رفض إطاعة الأوامر»، موقع كومون دريمز الإخباري، 19 حزيران، 2015، حسب الرابط:

http://www.commondreams.org/news/2015/06/19/you – have – choice – veterans – call – drone – operators – refuse – orders

[135←]

«جنرال أميركي كبير: الطائرات المسيرة ستراتيجية فاشلة تسبب دمارا أكثر»، موقع الديمقراطية الآن، 17 تموز، 2015، حسب الرابط:

http://www.democracynow.org/2015/7/17/headlines/top_us_general_drones_are_failed_strategy_that_cause_more_damage

[136←]

مارك مازيتي، نيكولاس كوليش، كريستوفر در، سيرغي أف. كوفيليسكي، شين دي. نايلور، جون أيزماي، «وحدة سيل رقم 6: تاريخ سري لأعمال قتل هادئة وخطوط ضبابية»، جريدة نيويورك تايمز، 6 حزيران، 2015، حسب الرابط:

http://www.nytimes.com/2015/06/07/world/asia/the – secret – history – of – seal – team – 6.html

[137←]

غافاغان، «أتوجد طائرة مسيرة في حيّكم؟».

[138←]

وكالة أنباء أسوشييتيد برس: «مكتب التحقيقات الفيدرالي يسيّر طلعات مراقبة جوية منخفضة الارتفاع»، شبكة سي بي أس نيوز، 2 حزيران، 2015، حسب الرابط:

/http://www.cbsnews.com/news/ap – fbi – using – low – flying – spy – planes – over – us

[139←]

«وكالة الأمن القومي تتجسس»، أسس الحدود الإلكترونية، حسب الرابط:

https://www.eff.org/nsa – spying

[140←]

ستيف هولاند، ومارك هوزنبول، وجيف ماسون، «أوباما يحظر التجسس على زعماء البلدان الحليفة للولايات المتحدة، ويعيد النظر ببرنامج وكالة الأمن القومي»، وكالة أنباء رويترز، 18 كانون الثاني، 2014، حسب الرابط:

https://www.reuters.com/article/us – usa – security – obama/obama – bans – spying – on – leaders – of – u – s – allies – scales – back – nsa – program – idUSBREA0G0JI20140117

[141←]

جايمس بول، «وكالة الأمن القومي راقبت اتصالات خمسة وثلاثين من زعماء العالم بعدما سلّم مسؤولون أميركيون على صلة بهم أرقام هواتف أولئك الزعماء للوكالة»، جريدة الغارديان البريطانية، 25 تشرين الأول، 2013، حسب الرابط:

http://www.theguardian.com/world/2013/oct/24/nsa – surveillance – world – leaders – calls

[142←]

موقع «مراقب الأمن الخاص»، جامعة دنفر، حسب الرابط:

http://psm.du.edu/articles_reports_statistics/data_and_statistics.html

[143←]

«أقوى ثلاثين شركة أمنية خاصة في العالم»، موقع سيكيوريتي ديغري هوب، 11 كانون الثاني، 2013، حسب الرابط:

http://www.securitydegreehub.com/30 – most – powerful – private – security – /companies – in – the – world

[144←]

«الوثبة العظيمة إلى الأمام، تاريخ الصين»، موسوعة بريتانيكا، حسب الرابط:

https://www.britannica.com/event/Great – Leap – Forward

[145←]

كادر جريدة لوس أنجلوس تايمز، «رئيس الصين الحالي أكثر زعمائها الشيوعيين سفرا منذ قيام الشيوعية، وربما كان الأقوى فيما بينهم»، جريدة لوس أنجلوس تايمز، 25 كانون الأول، 2015، حسب الرابط:

https://www.latimes.com/world/asia/la – fg – china – president – travel – 20151225 – story.html

[146←]

أبراهام دانمارك، «كيف تمكن دينغ شياو بينغ من تغيير الصين والعالم قبل أربعين عاما مضت»، جريدة الواشنطن بوست، 19 كانون الأول، 2018، حسب الرابط:

https://www.washingtonpost.com/news/monkey – cage/wp/2018/12/19/40 – years – ago /– deng – xiaoping – changed – china – and – the – world

[147←]

درو ديسلفر، «لم تتغير الأجور الحقيقية لمعظم العاملين الأميركيين منذ عقود»، مركز بيو للدراسات، 7 آب، 2018، حسب الرابط:

https://www.pewresearch.org/fact – tank/2018/08/07/for – most – us – workers – real – /wages – have – barely – budgedfor – decades

[148←]

لمعلومات أكثر عن غلاسييف، انظر سييرغي غلاسييف: «خطر الحرب والرد الروسي»، موقع مجلة روسيا في الشؤون الدولية، عدد رقم 3 (تموز/أيلول 2014)، حسب الرابط:

https://eng.globalaffairs.ru/articles/the – threat – of – war – and – the – russian – /response

وكذلك سييرغي غلاسييف، ستراتيجية النمو في سياق الأزمات الاقتصادية العالمية (هانوفر، ألمانيا، مطبوعات الأكاديمية الأوربية للعلوم الطبيعية، 2015، لكن يبدو أن هذا الكتاب غير موجود في معظم الدول، الأمر الذي قد يعود إلى العقوبات التي فرضها الرئيس أوباما)، و"شبكة التلفاز الصينية العالمية تتحدث إلى مستشار الرئيس بوتين الخاص، سييرغي غلاسييف، حول روسيا، والصين، والغرب» (مقطع فيديو)، 28 تشرين الثاني، 2017، حسب الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=EHhpZ9XaYSo

[149←]

هول براندز، «مخاطر اضمحلال الصين»، مجلة السياسة الخارجية، 14 نيسان، 2022، حسب الرابط:

/https://foreignpolicy.com/2022/04/14/china – decline – dangers

[150←]

كليفورد كراوس وكيث برادشير، «طموحات الصين الدولية، والنقط، والقيود المشروطة»، جريدة نيويورك تايمز، 24 تموز، 2015، حسب الرابط:

https://www.nytimes.com/2015/07/26/business/international/chinas – global – ambitions – with – loans – and – strings – attached.html

[151←]

آدم آيزاكسون، «أربع مفاهيم خاطئة شائعة حول تدفق المخدرات من المكسيك وأميركا الوسطى إلى الولايات المتحدة»، (رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان في الأميركيتين)، 20 حزيران، 2017، حسب الرابط:

https://www.wola.org/analysis/four – common – misconceptions – u – s – bound – drug – /flows – mexico – central – america

[152←]

دون جيولزيتي، «باب الصين الأمامي في باحة أميركا الخلفية»، مجلة ذي ديبلومات، 28 حزيران، 2019، حسب الرابط:

./https://thediplomat.com/2019/06/chinas – front – door – to – americas – backyard

[153←]

لوسي كوسيمار، «كيسنجر غَطَّى على أعمال التعذيب في تشيلي»، جريدة الغارديان، 28 شباط، 1999، حسب الرابط:

https://www.theguardian.com/world/1999/feb/28/pinochet.chile

وكذلك جوليان بورغر، «كيسنجر دعم الحرب القذرة ضد اليسار الأرجنتيني»، جريدة الغارديان، 28 آب، 2014، حسب الرابط:

https://www.theguardian.com/world/2004/aug/28 argentina.julianborger

[154←]

لاري روتر، «كشف تركة عملية الكوندور»، جريدة نيويورك تايمز، 24 كانون الثاني، 2014، حسب الرابط:

https://lens.blogs.nytimes.com/2014/01/24/exposing – the – legacy – of – operation – /?condor

[155←]

مارك بي. سوليفان وتوماس لوم، «تعامل الصين مع دول أميركا اللاتينية والكاريبي»، خدمة الأبحاث التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي، تحديث 4 أيار، 2022، حسب الرابط:

https://fas.org/sgp/crs/row/IF10982.pdf

[156←]

ويل فريمان، «الإكوادور صوتت للتو ضد الشعبوية، إلا أن ديمقراطيتها بعيدة كل البعد عن الوضع الصحيح»، مجلة السياسة الخارجية، 15 نيسان، 2021، حسب الرابط:

/https://foreignpolicy.com/2021/04/15/ecuador – election – president – lasso – arauz

[157←]

ألكساندرا فالينسيا، «الإكوادور تنجز اتفاقية التجارة مع الصين بحلول نهاية العام، ومفاوضات القروض تبدأ قريبا»، وكالة أنباء رويترز، 5 شباط، 2022، حسب الرابط:

https://www.reuters.com/markets/us/ecuador – sees – trade – deal – with – china – end – /05 – 02 – 2022 – year – debt – talks – begin

[158←]

خوان لويس غونزاليس، «علاقات ودية: صلات الأرجنتين مع الصين تتعمق تحت حكم فيرنانديز»، جريدة بوينيس آيريس تايمز، 8 آب، 2020، حسب الرابط:

https://www.batimes.com.ar/news/argentina/relaciones – carnales – argentinas – ties – with – china – deepen – under – fernandez.phtml

[159←]

جورج سي. كاستانيدا، «الأرجنتين بحاجة إلى المساعدة، والجواب يتمثل في ترامب»، جريدة نيويورك تايمز، 10 كانون الثاني، 2020، حسب الرابط:

https://www.nytimes.com/2020/01/10/opinion/argentina – fernandez – trump.html

[160←]

كاستانيدا، «الأرجنتين بحاجة إلى المساعدة».

[161←]

هيئة التحرير، «أثناء نوم أميركا، كسبت الصين موطئ قدم قويًّا في قناة بنما»، جريدة سانت لويس بوست، 6 كانون الثاني، 2019، حسب الرابط:

https://www.stltoday.com/opinion/editorial/editorial – while – america – slept – china – gained – a – stranglehold – on – the – panama – canal/article_30203f97 55 – 8324 –f0 – b878 351 –e945c2e1c.html

[162←]

غيولزيتي، «باب الصين الأمامي».

[163←]

غيولزيتي، «باب الصين الأمامي».

[164←]

مات يوكي، «قد تتحول قناة بنما إلى مركز الحرب التجارية الأميركية ـ الصينية»، مجلة السياسة الخارجية، 7 أيار، 2019، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2019/05/07/the – panama – canal – could – become – the – /center – of – the – u – s – china – trade – war

[165←]

ربيكا كيسبي، «فيتنام الشمالية، 1972: تفجير عيد الميلاد في هانوي»، خدمة بي بي سي الإخبارية العالمية، 24 كانون الأول، 2012، حسب الرابط:

20719382 – https://www.bbc.com/news/magazine

[166←]

سايمون سبيكمان كوردال، «لا تزال الألغام الأرضية تلقي بظلال كارثية على المدنيين الفيتناميين»، مجلة الغارديان ويكلي، 18 أيلول، 2012، حسب الرابط:

http://www.guardian.co.uk/world/2012/sep/18/vietnam – unexploded – landmines – bombs

[167←]

ميشيل أف. مارتن، «ضحايا العامل البرتقالي الفيتناميين والعلاقات الأميركية الفيتنامية»، خدمة الأبحاث التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي المعدة لأعضاء اللجان في المجلس، وبموجب الأرقام 7 – 5700،RL34761، حسب الرابط:

http://www.fas.org/sgp/crs/row/RL34761.pdf

[168←]

مينغزين شاي ودينغدينغ شين، «الصين والولايات المتحدة: من يملك النفوذ الأكبر في فيتنام؟»، موقع مجلة ذي ديبلومات الإخباري، 21 أيار، 2021، حسب الرابط:

https://thediplomat.com/2021/05/china – and – the – us – who – has – more – influence – /in – vietnam

[169←]

دات نغويان، «تجارة الصين وفيتنام تتجاوز عتبة 100 مليار دولار»، موقع في أن إكسبريس الإخباري، 19 تشرين الثاني، 2020، حسب الرابط:

https://e.vnexpress.net/news/business/economy/china – vietnam – trade – soars – past – – 100 bln 4194048 –.html

[170←]

بيتش تي. تران، «فيتنام ماضية في مساعيها الرامية لتقليص اعتمادها التجاري على الصين»، معهد الدراسات التابع لوزارة التعليم السنغافورية، رقم 114 (2021)، حسب الرابط:

https://www.iseas.edu.sg/articles – commentaries/iseas – perspective/2021 – 114 – vietnam – continues – efforts – to – reduce – trade – dependence – on – china – by – /bich – t – tran

[171←]

ميشيل تاتاريسكي، «قصة قطاري مترو ياباني وصيني في فيتنام»، مجلة «هذا الأسبوع في آسيا»، 30 تموز، 2017، حسب الرابط:

https://www.scmp.com/week – asia/business/article/2104149/vietnams – tale – two – metros – one – built – japanese – and – other – chinese

[172←]

مكتب الصادرات والواردت الدولية الصيني، «ارتفاع معدل التبادل التجاري الثنائي بين الصين ورابطة دول جنوب شرق آسيا ليصل إلى 16.5% خلال الفترة ما بين 1991 إلى 2020: الجمارك»، المركز الخبري، 9 أيلول، 2013، حسب الرابط:

https://www.ciie.org/zbh/en/news/exhibition/news/20210913/29410.html

[173←]

«تشي جين بينغ ورئيس موريشيوس روبونغ يتبادلان رسائل التهاني»، وكالة الانباء الصينية، 15 نيسان، 2022، وحسب الرابط:

https://www.fmprc.gov.cn/mfa_eng/wjb_663304/zwjg_665342/zwbd_665378/t1907333 .shtml

وكذلك «مؤلفون: السفير الصيني هوانغ زيليان»، جريدة مانيلا، وحسب الرابط:

https://www.manilatimes.net/author/chinese – ambassador – huang – xilian

[174←]

«التصنيع في آسيا»، آسيالينك، العمل، حسب الرابط:

https://asialinkbusiness.com.au/indonesia/business – practicalities – in – indonesia/manufacturing – in – indonesia?doNothing=1

[175←]

وليام يووين يي، «تفسير العلاقة الصينية مع إندونيسيا، وبوابتها لدخول جنوب شرق آسيا»، موقع سيبتشاينا، 2 كانون الأول، 2021، حسب الرابط:

https://supchina.com/2021/12/02/explaining – chinas – relationship – with – indonesia – /its – gateway – to – southeast – asia

[176←]

وليام يووين يي، «تفسير العلاقة الصينية مع إندونيسيا، وبوابتها لدخول جنوب شرق آسيا»، موقع سيبتشاينا، 2 كانون الأول، 2021، حسب الرابط:

https://supchina.com/2021/12/02/explaining – chinas – relationship – with – indonesia – its – gateway – to – southeast – asia/

[177←]

محمد ذو الفقار رحمات، «خطورة الاعتماد الإندونيسي المتنامي على الصين، وما الذي يمكن فعله؟»، موقع ذي كونفرسيشن، 26 تشرين الثاني، 2020، حسب الرابط:

https://theconversation.com/growing – dependence – on – china – is – dangerous – for – indonesia – what – can – be – done – 150372

[178←]

محمد ذو الفقار رحمات، «خطورة الاعتماد الإندونيسي المتنامي على الصين، وما الذي يمكن فعله؟»، موقع ذي كونفرسيشن، 26 تشرين الثاني، 2020، حسب الرابط:

https://theconversation.com/growing – dependence – on – china – is – dangerous – for – indonesia – what – can – be – done – 150372

[179←]

آشوك ساجانهار، «علاقات الصين في آسيا الوسطى: تعايش غير مريح»، مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث، 10 آذار، 2021، حسب الرابط:

https://www.orfonline.org/expert – speak/china – central – asia – relations – an – uneasy – co – existence/

[180←]

غريغ بالاست، «رحلة النسور: عبر مطاردة خنازير النفط، وقراصنة السلطة، وآكلي لحوم البشر المتمولين» (نيويورك: دوتون آدلت، 2011)، صفحة 186.

[181←]

ساجانهار، «علاقات الصين في آسيا الوسطى».

[182←]

«الصين ووسط آسيا: العلاقات التجارية الثنائية والآفاق المستقبلية»، موقع تشاينا بريفينغ، 20 آيار، 2021، حسب الرابط:

https://www.china – briefing.com/news/china – and – central – asia – bilateral – trade – relationships – and – future – outlook/

[183←]
برادلي جاردين، «ما هو سبب الاحتجاجات المناهضة للصين وسط آسيا؟»، جريدة واشنطن بوست، 16 تشرين الأول، 2019، حسب الرابط:

https://www.washingtonpost.com/politics/2019/10/16/why – are – there – anti – china – /protests – central – asia

[184←]
كرستين هايغ، «تقطيع أوصال قارة»، تقرير حركة التنمية الدولية، نيسان، 2014، حسب الرابط:

www.globaljustice.org.uk/sites/default/files/files/resources/carving_up_a_continent_report_web.pdf

[185←]
«بيانات: استثمارات الصين في إفريقيا»، مبادرة الأبحاث الصينية الإفريقية، جامعة جونز هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة، حسب الرابط:

http://www.sais – cari.org/chinese – investment – in – africa

[186←]
بيكي فو، «الثورة الصينية الإفريقية الهادئة: الاستثمارات الصينية»، موقع ذي ديبلومات الإخباري، 22 تشرين الثاني، 2021، حسب الرابط:

https://thediplomat.com/2021/11/the – quiet – china – africa – revolution – chinese – /investment

[187←]
يون سون، «القيمة السياسية لالتزامات الصين الأخيرة في إفريقيا»، معهد بروكنغز، 12 أيلول، 2018، حسب الرابط:

https://www.brookings.edu/blog/africa-in-ocus/2018/09/12/the-political-significance – /of – chinas – latest – commitments – to – africa

[188←]
بيتر شتاين وإيميل أودهامر: دور التجارة، الاستثمارات والقروض في خضم تحولات الأهداف الجيوسياسية»، مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث، 25 آب، 2021، حسب الرابط:

/https://www.orfonline.org/research/china – in – africa

[189←]
زينب عصمان، «ما الذي نعرفه عن القروض الصينية لإفريقيا؟»، منحة كارنيجي للسلام الدولي، 2 حزيران، 2021، حسب الرابط:

https://carnegieendowment.org/2021/06/02/what – do – we – know – about – chinese – 84648 – lending – in – africa – pub

[190←]

مالانشا شاكرابارتي، «من ميدان الحرب إلى ملصق الطفل الصيني، وصولا إلى اليأس الاقتصادي: رحلة الأربعين عاما الأنغولية»، مؤسسة أوبزيرفر للأبحاث، 28 كانون الثاني، 2021، حسب الرابط:

https://www.orfonline.org/research/from – war – zone – to – chinasposter – child – to – /economic – despair – angolas – 40 – year – journey

[191←]

إريك ليبتون وديون سيرسي، «كيف خسرت الولايات المتحدة لصالح الصين في ميدان الطاقة النظيفة»، جريدة نيويورك تايمز، 21 تشرين الثاني، 2021، حسب الرابط:

https://www.nytimes.com/2021/11/21/world/us – china – energy.html

وكذلك فو «الثورة الصينية الإفريقية الهادئة».

[192←]

«إسهامات صناعة التعدين الصينية في الإساءات بحق جمهورية الكونغو الديمقراطية»، منظمة العفو الدولية، 19 حزيران، 2013، حسب الرابط:

https://www.amnesty.org/en/latest/news/2013/06/chinese – mining – industry – /contributes – abuses – democratic – republic – congo

[193←]

زاكري سكيدمور، «مستقبل عمال المناجم من الحرفيين صغار السن في جمهورية الكونغو الديمقراطية»، موقع ماينينغ تكنولوجي، 14 أيلول، 2021، حسب الرابط:

/https://www.mining – technology.com/features/artisanal – mining – drc

[194←]

«بيانات: الاستثمارات الصينية في إفريقيا»، مبادرة الأبحاث الصينية الإفريقية، كلية جونز هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة، حسب الرابط:

http://www.sais – cari.org/chinese – investment – in – africa

[195←]

إليوت سميث، «المنافسة التجارية الأميركية الصينية تجري في إفريقيا، والولايات المتحدة تحاول جاهدة لحاق الصين»، موقع سي أن بي سي، 9 تشرين الأول، 2019، حسب الرابط:

https://www.cnbc.com/2019/10/09/the – us – china – trade – rivalry – is – underway – in – africa.html

[196←]
هنري توغيندات، «واشنطن بحاجة إلى رسالة أفضل لإفريقيا من تلك التي تقول فيها لا تثقوا بالصين»، مجلة السياسة الخارجية، 29 تشرين الثاني، 2021، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2021/11/29/us – china – africa – focac/

[197←]
نوزموت غباداموسي، «ما مستقبل الصين في إفريقيا؟»، مجلة السياسة الخارجية، 8 كانون الأول، 2021، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2021/12/08/china – africa – cooperation – investment – belt – road/

[198←]
محررو موقع History.com، «الإمبراطورية العثمانية»، آخر تحديث 9 أيار، 2022، حسب الرابط:

https://www.history.com/topics/middle – east/ottoman – empire

[199←]
فرناز فصيحي وستيفن لي مايرز، «في تحدٍّ منها للولايات المتحدة، تقترب الصين من إنجاز اتفاق شراكة تجاري وعسكري مع إيران»، جريدة نيويورك تايمز، 11 تموز، 2020، حسب الرابط

https://www.nytimes.com/2020/07/11/world/asia/china – iran – trade – military – deal.html

[200←]
ديفيد ليونهاردت، «التكلفة البشرية»، جريدة نيويورك تايمز، 20 كانون الأول، 2021، حسب الرابط:

https://www.nytimes.com/2021/12/20/briefing/us – airstrikes – human – toll.html

[201←]
«مواقف العرب إزاء الرئيس ترامب وسياساته ومواقفه حيال الشرق الأوسط»، المركز العربي في واشنطن العاصمة، 27 تشرين الأول، 2017، حسب الرابط:

https://arabcenterdc.org/resource/arabs – opinion – trump – oct – 2017/

[202←]
آيك فريمان، «النفوذ من دون التورط في الشرق الأوسط: كيف تلتف الصين على الولايات المتحدة وتبقى تحت الرادار»، مجلة السياسة الخارجية، 25 شباط، 2021، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2021/02/25/influence – without – entanglement – in – the – middle – east/

[203←]

جوناثان ماركوس، «الصين تساعد الجيش العراقي على دخول حقبة الطائرات المسيرة»، بي بي سي، 12 تشرين الأول، 2015، حسب الرابط:

https://www.bbc.com/news/world – middle – east – 34510126

[204←]

«الصين تلغي 80% من ديونها المترتبة على العراق»، جريدة سدني مورننغ هيرالد، 3 شباط، 2010، حسب الرابط:

https://www.smh.com.au/business/china – cancels – 80 – of – iraqs – debt – 20100203 – nbc9.html

[205←]

لي تشوانمين وتشي جينغي. «الصين تساعد في بناء 1000 مدرسة في العراق الذي تمزقه الحرب بعد إنهاء المهمة القتالية الأميركية في هذا البلد»، جريدة غلوبال تايمز، 20 كانون الأول، 2021، حسب الرابط:

https://www.globaltimes.cn/page/202112/1242930.shtml

وكذلك موقع غلوبال كونستركشن ريفيو، «الصين ستعمل على بناء مطار، ومنشآت إسكان، ورعاية صحية في العراق النفطي»، 26 تموز، 2021، حسب الرابط:

https://www.globalconstructionreview.com/china – build – airport – housing – and – healthcare – facilit/

[206←]

«عناوين رئيسية»، 4 كانون الثاني، 2022، موقع الديمقراطية الآن، حسب الرابط:

https://www.democracynow.org/2022/1/4/headlines?utm_source=Democracy+Now%21&utm_campaign=dc42566112 – Daily_Digest_COPY_01&utm_medium=email&utm_term=0_fa2346a853 – dc42566112 – 190355325

[207←]

آنكيل فورا، «تشي جين بينغ يعدل سياسة الصين في الشرق الأوسط»، مجلة السياسة الخارجية، 1 شباط، 2022، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2022/02/01/xi – jinping – has – transformed – chinas – middle – east – policy/

[208←]

ياسر النجار، «دور الصين المتنامي في الشرق الأوسط»، معهد الشرق الأوسط، 75، 9 كانون الثاني، 2020، حسب الرابط:

https://www.mei.edu/publications/chinas – growing – role – middle – east

[209←]
سهيل أحمد خان، «تصاعد النفوذ الصيني في الشرق الأوسط»، موقع العلاقات الدولية للنشر الإلكتروني، 20 أيلول، 2021، حسب الرابط:

https://www.e – ir.info/2021/09/20/chinas – increasing – influence – in – the – middle – /east

[210←]
«الموقف الاستثماري المباشر للولايات المتحدة في الشرق الأوسط 2000 – 2020»، قسم الأبحاث الإحصائية، 4 آب، 2021، حسب الرابط:

https://www.statista.com/statistics/188602/united – states – direct – investments – in – /2000 – the – middle – eastsince

[211←]
أمين محسني – شيرأوغلو، «منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا في مركز الغرب: الانفتاح على ستراتيجية الغرب»، معهد الشرق الأوسط، 75، 9 آذار، 2021، حسب الرابط:

https://www.mei.edu/publications/mena – center – west – chinas – opening – west – strategy

[212←]
«الصين تتحدى موقع الولايات المتحدة بوصفها الشريك الأكبر في الشرق الأوسط»، جريدة بزنس ستاندارد، 14 حزيران، 2021، حسب الرابط:

https://www.business – standard.com/article/international/china – challenges – us – position – as – most – important – partner – for – middle – east – 1_121061400348.html

[213←]
موقع موسوعة ويكيبيديا، «العلاقات الصينية الأوربية»، حسب الرابط:

https://en.wikipedia.org/wiki/China%E2%80%93European_Union_relations

[214←]
«الصين تأخذ مكان الولايات المتحدة لتصبح الشريك التجاري الأكبر مع الاتحاد الأوربي»، موقع بي بي سي الإخباري، 17 شباط، 2021، حسب الرابط:

56093378 – https://www.bbc.com/news/business

[215←]

ستيفن أم. والت، «هل ستجابه أوروبا الصين حقا؟»، مجلة السياسة الخارجية، 15 تشرين الأول، 2021، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2021/10/15/will – europe – ever – really – confront – china/

[216←]

جيف ماسون، وأندريا شلال، وجوناثان لانداي، «ترامب يشيد بالخطوات الاقتصادية ما بين صربيا وكوسوفو»، وكالة أنباء رويترز، 15 أيلول، 2020، حسب الرابط:

https://www.reuters.com/article/usa – serbia – kosovo – int – idUSKBN25V2LX

[217←]

فوك فوكسانوفيتش، «كيف تحولت صربيا إلى مكب الصين لمخلفات الطاقة القذرة»، مجلة السياسة الخارجية، 16 تموز، 2021، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2021/07/16/serbia – china – bri – coal – copper – dirty – energy – dumping – ground/

[218←]

أندرو هيجينز، «طريق سريع باهظ الثمن في الجبل الأسود يمتد من الفراغ إلى الفراغ»، جريدة نيويورك تايمز، 14 آب، 2021، حسب الرابط:

https://www.nytimes.com/2021/08/14/world/europe/montenegro – highway – china.html

[219←]

فيليب ديسكامب وآنا أوتاشفيتش، «تحالف الجبل الأسود غير المترابط»، جريدة لي موند ديبلوماتيك، نيسان، 2021، حسب الرابط:

https://mondediplo.com/2021/04/06montenegro

[220←]

أندريا برينزا، «كيف نسفت الصين فرصتها في أوروبا الشرقية»، مجلة السياسة الخارجية، 11 نيسان، 2019، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2019/04/11/how – china – blew – its – chance – in – eastern – europe/

وكذلك جواناثان إي. هيلمان ومايسي مكلابين، «هل تتسبب صيغة 16+1 الصينية بتقسيم أوروبا؟»، مركز الدراسات الستراتيجية والدولية، 11 نيسان، 2019، حسب الرابط:

https://www.csis.org/analysiswill – chinas – 161 – format – divide – europe

[221←]
ميشيل هيرش، «الشهر الذي غير القرن»، مجلة السياسة الخارجية، 10 نيسان، 2022، حسب الرابط:

https://foreignpolicy.com/2022/04/10/russia – ukraine – war – postwar – global – order – /civilization

[222←]
دايان كويليفا، «الصين تعيد تقييم القوة المالية للغرب في أعقاب أوكرانيا»، مجلة السياسة الخارجية، 15 نيسان، 2022، حسب الرابط:

/https://foreignpolicy.com/2022/04/15/china – western – financial – power – ukraine

[223←]
راين هاس، «الأمر الطبيعي الجديد في العلاقات الأميركية ـ الصينية: المنافسة المتصاعدة والاعتماد العميق المتبادل»، معهد بروكنغز، 12 آب، 2021، حسب الرابط:

https://www.brookings.edu/blog/order – from – chaos/2021/08/12/the – new – normal – /in – us – china – relations – hardening – competition – and – deep – interdependence

[224←]
«العلاقات الاقتصادية الأميركية ـ الصينية»، مجلس العمل الأميركي ـ الصيني، كانون الثاني، 2021، حسب الرابط:

.https://www.uschina.org/reports/us – china – economic – relationship

[225←]
جوليان بيكويت، «تعرف على المشرعين الأميركيين السابقين الذين يضغطون لصالح الصين»، تقرير اللوبي الأجنبي، 17 أيار، 2021، حسب الرابط:

https://www.foreignlobby.com/2021/05/17/meet – the – former – us – lawmakers – /lobbying – for – china – inc

[226←]
بيثاني آلن ـ إبراهيميان، «تعرف إلى المسؤولين الأميركيين الذين يدورون الآن في فلك النفوذ الصيني»، جريدة ديلي بيست، 21 تشرين الثاني، 2018، حسب الرابط:

https://www.thedailybeast.com/meet – the – us – officials – who – now – lobby – for – china

[227←]
كايتلين أوبريسكو ودانيال ليبمان، «الشركات الصينية المتعثرة تبحث عن جماعات الضغط رغبة في المساعدة»، مجلة بوليتيكو، 7 تموز، 2021، حسب الرابط:

https://www.politico.com/newsletters/politico – influence/2021/07/07/embattled – 796354 – chinese – firms – add – lobbying – help

[228←]
آلن ـ إبراهيميان، «تعرفوا إلى المسؤولين الأميركيين».

[229←]
آلن ـ إبراهيميان، «تعرفوا إلى المسؤولين الأميركيين».

[230←]
دوروثي نيوفيلد، «رسم اقتصاد العالم المتحرك عبر 94 ترليون دولار في مخطط واحد»، موقع فيجوال كابيتاليست، 22 كانون الأول، 2021، حسب الرابط:

https://www.visualcapitalist.com/visualizing – the – 94 – trillion – world – economy – in /– one – chart

[231←]
كايت لارسون، وهانا بيت، وميكايل غرانت، وتريفور هاوسر، «انبعاثات غازات الاحتباس الحراري في الصين تتجاوز مثيلاتها في العالم المتقدم للمرة الأولى عام 2019»، مجموعة روديوم، 6 أيار، 2021، حسب الرابط:

/https://rhg.com/research/chinas – emissions – surpass – developed – countries

[232←]
مكتب المتحدث الرسمي، «البيان الأميركي ـ الصيني المشترك حول أزمة المناخ»، وزارة الخارجية الأميركية، 17 نيسان، 2021، حسب الرابط:

https://www.state.gov/u – s – china – joint – statement – addressing – the – climate – crisis

[233←]
ديفيد كورتون، حضارة البيئة: من الطوارئ إلى الانبعاث (روما: نادي روما، 2021)، حسب الرابط:

https://www.clubofrome.org/wp – content/uploads/2021/11/Korten_EcoCiv_11032021_Updated – cover 1 –.pdf

وكذلك آرثر هانسون «حضارة البيئة في جمهورية الصين الشعبية: القيم، والأفعال، واحتياجات المستقبل»، سلسلة أوراق عمل لبنك التنمية الآسيوي، رقم 21، بنك التنمية الآسيوي، كانون الأول، 2019، حسب الرابط:

https://www.adb.org/sites/default/files/publication/545291/eawp – 021 – ecological – civilization – prc.pdf

[234←]

un.org/en/un75/inequality – bridging – divide

[235←]
/https://www.imdb.com/title/tt1800242.

[236←]
https://www.youtube.com/watch?v=btF6nKHo2i0.

[237←]
https://www.youtube.com/watch?v=DPoLsZpRK38.

[238←]
https://www.youtube.com/watch?v=RozOiZAK9lQ.

[239←]
/https://www.imdb.com/title/tt0284262

[240←]
https://www.imdb.com/title/tt1596363

[241←]
/https://www.imdb.com/title/tt0105089

[242←]
/https://www.imdb.com/title/tt0993846

[243←]
https://www.youtube.com/watch?v=6lz1RQw_MgU

[244←]
https://www.clubofrome.org/wp – content/uploads/2021/11/Korten_EcoCiv_11032021_Updated – cover 1 –.pdf

[245←]
https://open.spotify.com/episode/42ot6CHUCEwkXDsjr1 -CE2o?si=kSuDEaL3QpW55YDfsOTBWg

[246←]

https://www.theguardian.com/world/2021/dec/08/more – cautious – china – shifts – africa – approach – from – debt – to – vaccine – diplomacy

[247←]

https://www.npr.org/2021/06/28/1010832606/road – deal – with – china – is – blamed – for – catapulting – montenegro – into – historic – debt

[248←]

موقع قاموس مريم – ويبستر، «الرأسمالية»، حسب الرابط:

https://www.merriam – webster.com/dictionary/capitalism

[249←]

موقع قاموس ليكسيكو، «الرأسمالية»، حسب الرابط:

https://www.lexico.com/en/definition/capitalism

[250←]

ديفيد كورتون، حضارة البيئة: من الطوارئ إلى الانبعاث (روما: نادي روما، 2021)، حسب الرابط:

https://www.clubofrome.org/wp-content/uploads/2021/11/Korten_EcoCiv_11032021_Updated – cover 1 –.pdf